سلسلة آفاق عالمية

المائة كتاب
100/25

جوڤاني بوكاتشو



الديكاميرون (١)

ترجمة (عن الإيطالية): د. عبدالله عبدالعاطي النجار
عصام السيد

تقديم: د. حسين محمود

سلسلة
آفاق عالمية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• الديكاميرون ج1
• ترجمة عن الإيطالية:
د. عبدالله عبد العاطى النجار
عصام السيد
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2016م
• تصميم الغلاف:
أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ٣٢١٧/ ٢٠١٦
• الترقيم الدولى: 978-977-92-0554-0
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 شارع أمين
سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

142

سلسلة تعنى بنشر الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية فى الأدب والنقد والفكر من مختلف اللغات

چوڤانى بوكاتشو

الــديكَـاميـرُون

(الجزء الأول)

ترجمة عن الإيطالية:

د. عبدالله عبد العاطى النجار

عصام السيد

تقديم: د. حسين محمود




https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكوميديا الإنسانية

د. حسين محمود

ثمة اعتذاران لابد منهما قبل أن أقدم لهذه النسخة العربية من "الديكاميرون"، في سلسلة "المائة كتاب" من عيون الأدب العالمي، التي يشرف عليها الشاعر رفعت سلام؛ ويقف برؤيته الثقافية الواضحة الشفافة وراء إنتاجها. أما الاعتذار الأول، فهو لأنني لم أكمل الترجمة التي بدأتها للديكاميرون منذ ثلاثين عامًا، ووقفت عند عُشر الكتاب؛ ولما طلب مني رفعت سلام إكمال الترجمة لنشرها، نجحت في ترجمة عُشر آخر. وهذان العُشران استغرقا في الترجمة سنتين كاملتين؛ وهذه هي الحجة التي أتذرع بها أمام نفسي اللوامة. فالكتاب، حتى يوفى حقه في الترجمة، لابد أن يستغرق في أقل القليل عشر سنوات. وهذه السنوات العشر حالت بيني وبينها ضرورات الحياة، التي لا تلقي بالًا إلى مثل هذا النوع من الإنجازات، وتقدم عليها واجبات والتزامات و"لقمة العيش"، وعدم اهتمام أحد بضرورة إتمام ترجمة مثل هذه الأعمال، اللَّهُمَّ إلا شخصيات قليلة ونادرة، من أمثال رفعت سلام وأنور مغيث؛ ولهما الشكر على النية الطيبة، كما أشكر المترجمين

اللذين تصديا للترجمة الحالية، وأود أن أؤكد- في هذا الصدد- أن المترجمين يقدمون تضحياتهم باستهلاك حيواتهم من أجل إمتاع القارئ، وسد حاجة الثقافة العربية من الموارد الأجنبية، مثلما فعل حسن عثمان عندما قضى نحو خمسة عشر عامًا يترجم "الكوميديا الإلهية" (مات بعدها)، وتلميذه النجيب أحمد عتمان، الذي ترجم "الأوديسا"، أو أشرف على فريق ترجمها، وكاد يفقد بصره في هذا العمل (مات أيضًا بعدها).

أما الاعتذار الثاني، فهو عما سوف تقرءونه في هذه المقدمة، لأنه قد يبدو لكم غير منتظم، مبعثر الأفكار، مشتتًا. وما ذلك لعيب في منهجي، وإنما العيب في علاقتي بالكتاب الذي أقدم له. فالملاحظة العامة هي أنك- عندما تقع في حالة حب- يضطرب فكرك. فالعشق يولد الارتباك، وتقف أمام المحبوب مرات فينعقد لسانك، أو تفقد القدرة على السيطرة على أفكارك. والحقيقة أنني ارتبطت بهذا الكتاب وبمؤلفه، على طريقة ارتباط مشجعي الكرة بفرقهم، وربما جاز لي أن أسمي نفسي زعيم "التراس" الديكاميرون.

في المرة الأولى التي سمعت فيها عن الكتاب، في كلية الألسن حيث درست، على يد المرحوم الدكتور محب سعد، الذي كان يدرس لنا بموهبة فذة الأدب الإيطالي، حيث قدم لنا- في السنة الثالثة- دروسًا في "تيجان" الأدب الإيطالي، دانتي وبتراركا وبوكاتشو، ووقع في قلبي حب بوكاتشو وكتابه، في مقابل تقدير "بارد" لدانتي وبترراركا. ومنذ ذلك العهد، وأنا أبحث في شأنه، وأقرأ عن أخباره، وأكتب عن سر براعاته. وفي كل مرة أكتب عن الديكاميرون، أحس بالإضطراب نفسه. اضطراب المحب.

ولهذا، أبدأ التقديم بشخصية جوفاني بوكاتشو نفسه. وخير ما يمكن أن توصف به شخصية الكاتب الإيطالي الكبير هو موقفه من المرأة؛ فهو شديد الحب

والولع بها، ورفقته كلها من النساء، وفي نفس الوقت كان من أوائل الكتاب في تاريخ الأدب الإيطالي الذي اشتهر بأنه عدو المرأة، لا لسبب إلا لبعض الحكايات التي روى فيها عن "مكر النساء" وأن "كيدهن عظيم"؛ تمامًا مثل حكايات الأمير سندباد الشهيرة في "ألف ليلة وليلة"، التي يحتمل أن يكون بوكاتشو قد قرأها وتأثر بها.

في مقدمة اليوم الرابع من مجموعة **الديكاميرون**- التي تتكون من مائة "نوفيللا"، سوف تطالعون فقرة طويلة يعلن فيها بوكاتشو صراحةً أنه من أشد المحبين للمرأة: "يقول بعض اللائمين أنني أسأت يا سيداتي العزيزات، عندما احتلتُ بكل حيلة حتى أثير إعجابكن، وأسأت لأنكن تعجبنني كثيرًا. وأنا أعترف بهذا اعترافًا صريحًا، أعترف بأنكن تعجبنني، وبأنني أفعل كل ما بوسعي حتى أعجبكن".

ولد **جوفاني بوكاتشو** في عام 1313، في بلدة تشرتالدو، في إقليم توسكانا. وبعد الدراسات الأولى في فلورنسا، انتقل عام 1327 إلى نابولي. في تشرتالدو كانت الولادة "الطبيعية" للطفل جوفاني من علاقة غير شرعية، وفي فلورنسا كانت الدراسة في الحقوق، وفي نابولي كانت الدراسة في الآداب. والولادة "الطبيعية" كان لفظًا يُطلق على البنوة غير الشرعية، ويُسمى الابن في هذه الحالة "ابن طبيعي". والحقيقة أننا- في القرن الرابع عشر الميلادي- في خريف العصور الوسطى، وفي هذه العصور كانت العلاقة الشرعية في عرف المفكرين هي العلاقة غير الطبيعية، أما علاقة الحب فهي العلاقة الحقيقية والطبيعية. فالحب يدنسه الزواج، ولابد أن يظل حبًّا في المطلق، حتى أننا صرنا نعرف دانتي أليجييري بحبيبته بياتريتشي، وبتراركا بحبيبته لاورا، وبوكاتشو بحبيبته فياميتا، لكننا لا نستطيع أن نتذكر زوجات هؤلاء الكتاب والشعراء الكبار. ولعل هذا هو ما حدد علاقة بوكاتشو منذ نعومة أظفاره بالمرأة

"المقدسة تقديس الحب، والمدنسة تدنيس الزواج".

وفي فلورنسا، درس بوكاتشو الحقوق، ولهذا أيضًا مدلوله. فنحن- في القرن الرابع عشر- نتهيأ للخروج من حالة حضارية إلى أخرى، في فترة انتقالية ما بين العصور الوسطى والحديثة. وكان من دواعي هذا الانتقال وشروطه تغير نظام المجتمع، أن تختفي سيادة المجتمع الإقطاعي وقوامه الملكية الواسعة للأرض وما عليها، حيث كل شيء على الأرض في خدمة الاقطاعي، وهو السيد والنبيل وذو الدم الأزرق. حتى الشعراء، في نموذج المدرسة الصقلية مثلًا، كانوا لا يتغنون بحب محبوباتهم، بل يتغنون بحب زوجة السيد، التي لا ينبغي أن يُحَب أحدٌ غيرها. وحتى تختفي سيادة المجتمع الإقطاعي، كان لابد من ظهور مجتمع المدينة، أو كما يُسمى- في الأدبيات الإيطالية- المجتمع البلدي؛ أن يظهر الشارع ورجل الشارع، وأن تنزل المرأة من برج الإقطاع العالي إلى شوارع المدينة وأسواقها. وهكذا ظهرت المدينة، بكل ما تحمل من سمات، أبرزها الطبقة البورجوازية ومستلزماتها من حركة تجارة نشطة وبنوك وعملات. واستلزم تنظيم المدينة أن تكون الدراسة المرتبطة باحتياجات السوق هي الدراسة القانونية، التي كانت تضم أيضًا علوم المحاسبة. وهكذا كان طبيعيًّا أن ينخرط بوكاتشو في دراسة القانون، وأن يعمل في البنوك، وأن ينتقل مع إدارة البنك إلى نابولي، أحد أكبر الموانئ التجارية في إيطاليا في ذلك الوقت. وفي ميناء نابولي، حيث كان يقف بوكاتشو على طاولة يبيع العملات ويشتريها، عرف الناس عن حق، عرف التجار وعرف الزبائن، وعرف أهل البلد وعرف الأجانب. وكان يتردد أيضًا على قصر الحكم الملكي في نابولي، وعلى مكتبة القصر العامرة بكل العلوم المتقدمة في ذلك العصر، وفي مقدمتها العلوم العربية. بل يُقال إن بلاط ملك نابولي في ذلك الوقت كان يضم من بين العاملين فيه مترجمًا عربيًّا، وكانت مكتبة القصر مرتبطة بما يرسله إليها البلاط الأراجوني من مخطوطات

وترجمات كثيرة عن اللغة العربية. وهناك تعرف على مجموعات قصصية مهمة منقولة عن العربية، منها "ألف ليلة وليلة"، و"كليلة ودمنة"، على سبيل المثال.

كانت المخطوطات وتجارتها رائجة في القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر، قرون النزعة الإنسانية التي استعادت التراث اليوناني اللاتيني القديم، الذي اعتبر- على نطاق واسع- تراثًا وثنيًا، رفضته الكنيسة في العصور الوسطى، وعادت الكلاسيكية لتأخذ مكانها الذي تستحقه على الساحة الثقافية. وجد بوكاتشو نفسه في هذا الجو المفعم بالحماس للأدب، وقرأ دانتي اليجييري، وعرف بتراركا والتقى به، وكان من الطبيعي أن يتحول من دراسة الحقوق إلى دراسة الآداب واللغات اليونانية واللاتينية والفرنسية. وفي هذه الفترة، كتب أعماله الأولى، التي عُرفت بأنها الأعمال الصغرى، ولكنها أعمال هامة أتمنى أن تجد طريقها إلى الترجمة العربية.

هكذا اكتمل تكوين بوكاتشو، وعاد إلى فلورنسا ليقيم فيها، ثم يلتحق ببلاط الإقليم الإيطالي رومانيا، وهو غير البلد المعروفة بالاسم نفسه في شرق أوروبا، وأكمل كتابة أعماله الصغرى، وأتم عمله الأكبر **الديكاميرون** عام 1351 على الأغلب. كما كانت هذه هي السنوات التي توطدت فيها علاقته بمعلمه وأستاذه "المجيد" بتراركا، وكرس جل وقته لدراسة دانتي، ولعقد محاضرات عامة عن **الكوميديا الإلهية**. ورحل بوكاتشو عن الدنيا عام 1375، بعد فترة قضاها معذب الضمير، بعد أن انهالت عليه تهم ازدراء الدين المسيحي، بسبب كتاباته، وخاصة **الديكاميرون**، الذي قام هو بنفسه، في لحظة يأس، بحرقه.

أوصى بوكاتشو بأن تكتب على شاهد قبره العبارة التالية: "تحت هذا الشاهد يرقد رماد وعظام جوفاني. عقله بين يدي الله مزدانًا بجدارات متاعبه في الحياة

الفانية. كان بوكاتشو له أبًا، وتشرتالدو وطنًا، والشعر روحًا وحبًّا".

تلخص هذه العبارة شخصية بوكاتشو، ليس فقط في مضمونها، الصحيح بالقطع، وإنما أيضًا في أسلوبها. ففي إجماع نقاد الأدب، كان بوكاتشو أعظم كتاب النثر في إيطاليا وفي أوروبا كلها في القرن الرابع عشر؛ وزميلاه في زيادة الأدب الإيطالي، دانتي وبتراركا، كانا يكتبان الشعر وفقًا للمعايير الشعرية المعتبرة في عصرهما، مع التسليم بما أدخلاه من تجديد في التقنيات واللغة في أعمالهما الكبرى، **الكوميديا الإلهية** لدانتي و**الديوان** لبتراركا.

فكيف أصبح بوكاتشو من أعظم الناثرين في تاريخ الأدب؟ هناك بالتأكيد سر وراء هذا الامتياز. وكلمة السر التي تفتح لنا بابًا لإدراك عظم شأنه النثري هي التجريب. فقد كان بوكاتشو سيد المجربين في تاريخ الأدب. والتجريب عنده هو القدرة على التعبير بأكبر قدر من التنوع في الأصوات والأساليب، بما يعيدنا- مرةً أخرى- إلى هذا الثراء الكبير في الأصوات والأساليب العربية في **ألف ليلة وليلة**، التي صادفت هوى في نفس المؤلف، لأنها كانت أقدر في إعانته على مراقبة الواقع مراقبة محايدة، ذلك الواقع سريع التحول والتغير، في كافة جوانبه، المتعددة طبعًا، والمتناقضة أحيانًا، على النحو الذي نراه في أغلب الفترات الانتقالية في مسيرة الحضارة.

لم يعد البطل في العمل الأدبي هو ذلك الفارس المغوار، الذي يغزو الحصون المنيعة؛ وإنما أصبح، وربما للمرة الأولى في الآداب الغربية، هو الإنسان العادي، بكل فضائله ومثالبه، بكل قوته وضعفه، في مواجهة الحظ والحب والذكاء، والجدل في العلاقة بين الإنسان العادي وهذه العوامل العامة يخلق ما لا نهاية له من ألوان الطيف في الحكايات.

والعنصر الثالث الذي تغير في "تجريبية" بوكاتشو بعد اللغة والشخصيات، هو عنصر الوصف؛ فقد تميز بالدقة في وصف التفاصيل، وذكر المراجع التاريخية، وتثبيت الحوادث في أماكنها الحقيقية بأسماء أبطالها الحقيقيين.

وآخر ميزة في نثر بوكاتشو، والتي اعتبرتها "ثورة" في حد ذاتها، هي غياب القضايا الدينية والأخلاقية والسياسية، التي كانت عمادا للكوميديا الإلهية لدانتي، رغم أنه تناول- في كثير من الحكايات- سلوك رجال الدين بالتهكم الحاد، ولكن هذا التناول ظل محكومًا بالواقع، ولم ينطلق أبدًا من رؤية فقهية معينة للدين. إنه المذهب الطبيعي، قبل أن يظهر مع زولا (الفرنسي) في القرن التاسع عشر، مفهومًا على أنه التمثيل الواقعي للعالم، بكل تفاصيله التي تساعدنا على فهمه وتحليله وإدراكه، وربما أيضًا إصلاحه.

والحقيقة أن "الوعظ" كان سمة من سمات أدب ذلك العصر، وكان من أشهر الكتب المتداولة والمتوارثة هو كتاب بيدرو (أو بييترو) الفونسي، وكان بعنوان "تهذيب العلماء"؛ وهو كتاب يشبه كثيرًا كتب الخطب الدينية التي كان يستخدمها الأئمة العرب في خطب الجمعة. وقد جمع فيه بيترو ألفونسي، اليهودي الذي اعتنق المسيحية، كثيرًا من الحكم والمواعظ، وبعضها في شكل قصصي، واعتُبر على نطاق واسع كتابًا من أصول شرقية، استفاد فيه المؤلف من معرفته بالقرآن وبالسنة النبوية، وهو أيضًا من المصادر التي اعتمد عليها بوكاتشو في بعض حكاياته. ولهذا، فإن كتاب **الديكاميرون**، إن تم فهمه في سياقه التاريخي، هو كتاب مواعظ، ولكنها بالتأكيد ليست مواعظ دينية، وإنما مواعظ عاطفية، تنصح المرأة والرجل- على نحو خاص- كيف يمكن أن يكون سلوكهم عند مواجهتهم لمشاكلهم العاطفية، دون الدخول في منظومة القيم الأخلاقية والدينية.

أما العمل الذي بين أيدينا اليوم، فهو أكبر وأهم عمل لبوكاتشو، وهو باكورة الإنتاج القصصي الأوروبي، الذي لن يعرف "الرومانس" إلا بعد عصر التنوير في آواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. والعنوان- **الديكاميرون**- تسمية محرفة لعبارة "عشرة أيام" باليونانية، ومدلول التسمية نتلمسه في تفسيرين أساسيين، الأول، هو ارتباط بوكاتشو، وعصر بوكاتشو، باللغة اليونانية، حتى تصبح الصيغ، حتى الملحونة منها، صيغًا شعبية، موافقةً للذائقة العامة، وهو ما يعكس مدى شيوع النزعة الإنسانية وقوتها؛ والنزعة الإنسانية، كما هو معروف، هي ذلك الاتجاه إلى إعادة تبني ملامح الثقافة الكلاسيكية، والبحث المحموم عن المخطوطات القديمة، وترجمتها من أية لغة إلى اللاتينية؛ وفكريًّا، هي التي أنزلت الفكر من السماء إلى الأرض، ووضعت الإنسان في مركز الكون.

ومن الطبيعي أن يكون بوكاتشو، بالمواصفات التي ذكرناها سالفًا، عن شخصيته وعن أدبه، من كبار الإنسانيين، كما يجعله أكثر معاصرة من دانتي اليجييري وأقرب إلى بتراركا، الذي يعتبره النقاد- على نطاق واسع- الإنساني الأول في تاريخ الأدب والحضارة.

أما التفسير الآخر، فهو مرتبط بمدلول "الرقم" الرمزي في عناوين الأعمال الأدبية. ويحيلنا هذا تلقائيا إلى الرقم "ألف"، في **ألف ليلة وليلة**؛ فإذا كانت الأيام العشر لبوكاتشو تقابل الليالي الألف + ليلة في الليالي العربية، فإن كلاهما له وظيفة واحدة تقريبًا. فالأيام العشرة التي احتاجها بوكاتشو، لكي تحكي فيها زمرة من سبعة فتيات وثلاثة شبان حكاياتهم عن الموضوعات التي أشرنا إليها سالفًا، هي المدة الكافية لكي تنجو هذه الزمرة من وباء الطاعون القاتل، الذي اجتاح أوروبا قبيل تأليف بوكاتشو لمجموعته القصصية مباشرةً؛ لأن النجاح في الانعزال عشرة أيام (أو ربما أسبوعين، هي المدة الفعلية التي قضتها زمرة **الديكاميرون** منعزلة عن

المدينة)، على الأقل عن مجتمع الوباء، ينقذك مباشرة من الإصابة بالمرض الفتاك. وبالمثل، فإن الليالي الألف- التي احتاجتها شهرزاد لكي تحكي فيها حكاياتها لشهريار- كانت المدة الكافية لكي تنجو شهرزاد، وجميع بنات جنسها، من الموت على يد الملك، الذي تحول إلى سفاح نساء، يقتل كل يوم جارية بعد أن يضاجعها.

إنه إذًا الزمن في الحالتين، الذي يؤدي انقضاؤه إلى النجاة من الهلاك. ورغم هذا التشابه الكبير في الوظيفة بين عنوان **الديكاميرون** و**الليالي**، إلا أن بوكاتشو قد أدرك هذه الحيلة من مجموعة أخرى تأكد أنها ترجمت إلى اللاتينية في عصره، وهي "**الوزراء السبعة**"، وهي نفسها التي تحكي قصة الأمير سندباد، الذي حكم عليه أبوه الملك بالإعدام، لأنه راود زوجة أبيه عن نفسها؛ فطلب الوزراء مهلة سبعة أيام قبل تنفيذ الحكم، لكي يثبتوا له براءته من تهمة زوجة أبيه الزائفة. وظل الوزراء يحكون للملك حكايات عن مكائد النساء، تردعه عن قراره لمدة سبعة أيام، وزوجته تحكي له هي الأخرى عن مكائد الرجال، لكي تثبت التهمة على ابنه، حتى يتم في النهاية إقناع الوالد ببراءة ابنه. والبنية- كما نرى- هي نفسها في حكاية شهرزاد، وفي **الديكاميرون**، الرقم والزمن والنجاة. ومرةً أخرى، فلسنا بعيدين عن **ألف ليلة وليلة** حتى في حكاية، أو حكايات الوزراء السبعة؛ فالحقيقة أن هذه الحكاية/ الحكايات قد انضمت إلى مجموعة **ألف ليلة وليلة**، في وقت متأخر، ولكن قبل اكتمال المجموعة، وجاءت فصلًا في المجموعة الحالية التي اشتهرت بأنها "المجموعة المصرية"، تحت عنوان "في مكر النساء وأن كيدهن عظيم" وهو عنوان- كما أسلفنا- كفيل بأن يشد انتباه بوكاتشو، الذي هو مَن هو في علاقته بالمرأة.

وكما هو الحال في المدلول الرقمي الزمني للحل الروائي في **الديكاميرون**، انتقلت إليه أيضًا تقنية الحكاية الإطارية، التي تصلح ذريعة لرواية العديد من الحكايات مختلفة الموضوعات والأبطال. هو نفسه منطق الحكواتي، أو جلسات

الإنشاد الشعبي، التي كانت تحكي الملاحم المختلفة. وهذا- مرةً أخرى- ما يعيد أصول **الديكاميرون** إلى الأدب الشعبي الشفاهي. والحقيقة أن القارئ سوف يلمس خطابًا مباشرًا من الرواة إلى جمهور من الحضور، وكثيرًا ما سوف نصادف صيغًا مثل "سأروي لكم" أو"ساحكي لكم"، أو "سيداتي العزيزات". وتشترك المجموعات التي أشرنا إليها كلها في دوافع الحكي، التي تتمثل في "قضاء الوقت" أو "القضاء على الوقت"، وهو نفس منطق السَّمر، الذي يحكي أن الأمراء والملوك في غابر الأزمان كان يدركهم الملل والسأم ليلًا، فيستدعون المسامرين لكي يرووا لهم الحكايات التي تساعدهم على النوم. إنه الحكي من أجل المتعة، والإمتاع، والمؤانسة.

ويذهب الحكي في **الديكاميرون** إلى ما هو أبعد، ويلتقي مع شهرزاد والوزراء السبعة، في اعتبار الحكي نفسه وسيلة من وسائل الخلاص والنجاة. وكلما زاد الاتقان في الحكاية أصبح أمل النجاة أقرب إلى التحقيق. فلو أن شهرزاد قلت براعة الحكي عندها لما انتهت قصتها مع شهرزاد تلك النهاية السعيدة، بعد انقضاء ثلاث سنوات، أنجبت خلالها لشهرزاد أطفالًا، فاستعقلها واستبقاها. ولولا براعة الوزراء السبعة في الحكاية لتمكنت زوجة السلطان من الفتك بابن زوجها في **الوزراء السبعة**. ولو انفض سامر زمرة العشرة في **الديكاميرون**- قبل مرور العشرة أيام المنجيات- لعادوا إلى المدينة، وفتك بهم الطاعون.

على أن البنية القصصية في **الديكاميرون** أكثر انتظامًا وسيمترية من البنية في المجموعات الشرقية الأخرى. فقد نظم بوكاتشو الحكايات في ديباجة، ومقدمة روى من خلالها قصة وباء الطاعون الذي اجتاح مدينته فلورنسا، وبرع في وصفه لمجتمع المدينة، وهي- كما أسلفنا- مدينة بورجوازية تجارية، كما لمس أيضًا معلمًا هامًّا من معالم تكوين المدن منذ نشأتها الحديثة الأولى، وخاصة فيما يتعلق بالقيم؛ فالمدينة بلا قيم، والبورجوازية لا تتحمل الأزمات، وتفقد ترابطها كطبقة

عندما تتعرض للضغوط. وبعد المقدمة التي قدم أيضًا مِن خلالها للحكاية الإطارية، عندما تقرر الزمرة من الشبان والفتيات التي التقت مصادفة في إحدى الكنائس، أن تنعزل عن الحياة، وتذهب إلى ضيعة أحدهم أو إحداهن، لكي تفلت من عقاب "القدر"، وهو الطاعون، قسم بوكاتشو **الدكاميرون** إلى عشر جلسات لرواية الحكايات، في كل جلسة تتمَ حكاية عشر حكايات خلال يوم روائي، يبدأ في النص **الديكاميروني** بمقدمة وينتهي بخاتمة، لتنتهي المجموعة عند اكتمال المائة حكاية، على عكس الليالي المفتوحة لإضافة المزيد من الحكايات؛ ذلك أن الليلة الواحدة تصلح لأن تحكي فيها حكاية واحدة، أو لأن الحكاية الواحدة قد تُحكى في أكثر من ليلة. ومن هذه الجهة، تعتبر مجموعة **الوزراء السبعة** أقرب إلى بنية **الديكاميرون**؛ فالحكايات محددة المدة تحديدًا أسبق على بدء السرد، ويتطابق فيهما الزمن الواقعي مع الزمن الروائي.

وإذا كانت الحكايات عند شهرزاد تنتظم في عقد التشويق، وليس لها فيما عدا التشويق هدف؛ فإن **الديكاميرون** قلد **الوزراء السبعة** أيضًا في تنظيم موضوعات الحكايات، في بنية موضوعية فنية برع فيها بوكاتشو على نحو خاص. فقد نظم "العِشرة" بين "العَشرة"، بحيث ينتخبون كل يوم ملكًا/ملكةً جديدًا عليهم، ويختص هذا الملك/الملكة باختيار موضوع حكايات اليوم، وفي نهاية اليوم ينظم المجتمعون "باليه"، ينتخبون بعده ملك اليوم التالي. وجعل بوكاتشو ملوك الحكايات يقررون مرتين (في اليومين الأول، والتاسع) أن يكون الموضوع الذين يختارون فيه حكاياتهم حرًّا، كما أعطى لأحد أعضاء الزمرة العشرة (ديونيو) ميزة ألا يلتزم بالموضوع الذي يحدده الملك. وقد أعطى هذا البناء مزيدًا من الحرية في اختيار الحكايات وتنوعها داخل هذا القالب شديد الانتظام.

ولا يهمنا في هذا المقام كثيرًا إثبات تأثر بوكاتشو بالأدب الشرقي عمومًا، وكذلك

لا يهمنا نفي هذا التأثر. فإن كان قد تأثر، فهذا فضل منه ولا شك، لأنه في هذا الحالة يعد شخصًا منفتحًا على ثقافات العالم، قابلًا لها، مستمتعًا بها، ولا يدحض تأثره عبقريته الخاصة. وإن لم يكن قد تأثر، فهذا ولا شك ليس عيبًا فيه، وإنما ربما لم يصله من آداب العوالم الأخرى شيء. وإن كنت أرى- في نهاية الأمر- أن "هجرة" الآداب، وخاصة الشعبية، هي هجرة طبيعية على ألسنة الناس. ولأن الميناء الذي عمل به بوكاتشو- وهو شاب- رأى فيه كل صنوف البشر وحاورهم وحاوروه، فيكون من الجائز جدًّا تلقيه شفهيًّا آداب الشعوب الأخرى الشفاهية.

على أن هناك مراجع كثيرة غير شرقية يمكن أن يكون قد اعتمد عليها بوكاتشو في تأليف **الديكاميرون**. فالعنوان مثلًا يمكن أن نعزوه إلى نص لسانت امبروجو، وكان بعنوان "هيكساميرون"، وهو عن الأيام الستة لخلق الكون. كما أن هناك مجموعة قصصية سبقته مباشرةً، وكان عنوانها "النوفيللينو"، أي الكتاب الجامع للحكايات أو النوفيللا؛ بالإضافة إلى كتاب "المائة نوفيللا القديمة". ولدينا نسخة منه في مكتبة قسم اللغة الإيطالية بجامعة حلوان. غير أن الفارق الأساسي بين تلك المراجع و**الديكاميرون** يكمن في استخدام الحكاية الإطارية. فكل ما سبق من نصوص لم تأخذ بهذه الحيلة الروائية، لكنها تتشابه كثيرًا في نوعية الحكايات المروية.

ومن الحيل الروائية التي انفرد بها بوكاتشو أيضًا هو ما يعرف باسم "ميزة ديونيو". وديونيو هو أكثر أعضاء هذه الزمرة انفلاتًا، لا يخضع للقانون العام للزمرة، وقد مُنح هذه الميزة منذ اليوم الأول. ووفقًا لهذه الميزة، فإنه يستطيع أن يروي ما يشاء دون التقيد بالموضوع الذي يفرضه الملك/ الملكة اليومية، ولكن ديونيو- الذي يأتي دوره الأخير دائمًا في رواية حكايته- كان يختار دائما الحكايات ذات الطابع الجنسي، الذي وصف أحيانًا بالطابع المتفسخ. وربما كان ديونيو بميزته هذه

هو "الأنا العليا" لبوكاتشو نفسه. والحكايات التي رواها هي الأكثر تفضيلًا من الكاتب نفسه، وكأن الكاتب ميز نفسه بالخروج على القواعد واحتلال موقع خاص في الدور، حتى أن الملك/الملكة كان عليها التقيد بالموضوع الذي اقترحه/ اقترحته، كما كان عليها أن يحتل الدور قبل الأخير في الحكي، أي أنه وضع نفسه في مكانة أعلى من ملوك الأيام القصصية للديكاميرون.

يحيلنا هذا مباشرةً إلى حيلة روائية لجأ إليها بوكاتشو في هذا النص، وهي التماهي مع إحدى الشخصيات لكي يمارس "الدفاع الذاتي" عن نفسه، فضلا عن قيامه بهذا الدفاع الذاتي في الديباجة والخاتمة ومقدمة اليوم الرابع، متماهيًا هذه المرة مع الرواي، الذي تخبرنا الديباجة أنه هو نفسه المؤلف/الخطيب/الواعظ.

كان بوكاتشو في حقيقة الأمر مضطرًّا إلى الدفاع عن نفسه، نظرًا للمحتوى غير المألوف وغير العادي للحكايات التي سردها في هذه المجموعة، وقد استشعر- وهو يؤلف العمل- أنها سوف تثير ردود أفعال غاضبة ضده؛ وهو- في حد ذاته- ما يؤكد أنه كان قادرًا على تمثل القارئ الافتراضي له، وفهم واستيعاب طرق التلقي والتأويل لما يكتبه من حكايات، في السياقين التاريخي والاجتماعي للعصر الذي يعيش فيه. ومعنى أنه يثبت ذلك في المتن السردي أنه كان سابقًا عصره في تقنيات الرواية.

استشعر بوكاتشو أن الكتاب سوف يثير لغطًا في ناحيتين: **الأولى**، هي الميل الدائم لمعالجة موضوعات حسية ظلت عصية على المعالجة حتى ذلك الوقت، وخاصةً فيما يتعلق بالعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة. وقد لمسنا مدى حبه للمرأة، ومدى تعلقه بها، وفي الوقت نفسه مدى انتقاده العنيف لسلوك المرأة ومكائدها؛ وهو من الكُتاب الذين عبروا بشفافية عن هذه المشاعر المزدوجة التي تبدو متناقضة، لكنه قدم لها حلولًا رائقة، وفقت بين وجهي العملة الحب/الكراهية. نجد ذلك على نحوٍ

جلي في الحكاية التي تعد الحكاية رقم مائة وواحد (مائة +1 = ألف +1، في منطق التشابه مع ألف ليلة وليلة)، وهي حكاية "الأوز"، التي حكاها كمؤلف وراوٍ في مقدمة اليوم الرابع. تحكي الحكاية- التي سوف تطالعونها في هذه الترجمة- باختصار شديد، عن رجل فقد زوجته، فقرر أن يقضي بقية عمره زاهدًا منعزلًا، فذهب إلى صومعة في الجبل يقضي فيها بقية عمره، واصطحب معه ابنه الصغير، وظل يحجبه عن التعرض للحياة العامة، فلم يعرف الابن أن العالم مختلف عما يعيشه في صومعة أبيه الزاهد، الذي حرص على ألا يعرف ابنه شيئًا عن المرأة، أو عن وجود هذا الجنس على الأرض. وكان يذهب إلى المدينة وحده لشراء احتياجاته، وعندما كبر الطفل وأصبح شابًا، عرض على أبيه- الذي صار طاعنًا في السن- أن يذهب معه إلى المدينة لكي يساعده؛ فيذهب معه، ويكتشف المدينة، ويكتشف وجود المرأة. وعندما رأى مجموعة من النساء في أبهى حللهن، وهن عائدات من حفل زواج، سأل أبيه "ما هذه الأشياء؟" حار الأب في الرد عليه، فقال: "هذه أوز"، فيصر الولد أن يشتري أوزة منهن، ويحرص على أن يقدم لها يوميًا ما "تلتقطه" بفمها. يقول بوكاتشو في هذه الحكاية: اكره المرأة كما تشاء، وارفض العلاقة الحسية كما تهوى، ولكنك لن تستطيع أبدًا أن تستغني عن المرأة في حياتك.

أما الناحية الأخرى، التي توقع أن يأتيه منها الهجوم، فعن طريق رجال الدين. كنا قد ألمحنا إلى أن بوكاتشو لم يلجأ إلى المعالجات الدينية والأخلاقية في حكاياته، وكان الواقع هو ملهمه الأول والأخير، ومن هذا الواقع "زيف" رجال الدين، وخاصة فيما يتعلق برجال ونساء (الراهبات) الدين، الذين اتهمهم بوكاتشو صراحةً بالنفاق والرياء، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، ويزعمون أنهم بلا علاقات حسية، بينما هم الواقع سادرون في هذه العلاقات، وعلى نحو فاسد ومفسد. وطبيعي أن يكون هذا التهكم اللاذع مصدرًا من مصادر الهجوم على الديكاميرون، وخاصةً في السياق

التاريخي الذي صدرت فيه.

تتبقى الإشارة إلى أسماء الرواة في نص **الديكاميرون** ومدلولاتها؛ ذلك أن أسماء الأعلام لا تترجم في الغالب، ولكنها في الأعمال الفنية لها مدلول سيمانطيقي، ومن ثم فلها وظيفة روائية، لا تكتمل قراءة العمل إلا بفهم هذا المدلول. وهو ما يفسر استمتاع عارفي اللغات الأجنبية بقراءة النصوص في لغتها الأصلية أكثر من استمتاع القارئ العادي بالترجمة إلى اللغات المحلية. وجانب من هذا يعود إلى التآلف مع ثقافة اللغة الأجنبية، وجانب من هذا التآلف المعرفة والإحساس بمعاني الأسماء.

نعرف الآن أن شخصيات الزمرة تتألف من عشرة أشخاص، تتراوح أعمارهم بين 18 و28 سنة، وهم جميعًا من عائلات نبيلة، والأسماء التي أعطاها لهم بوكاتشو هي أسماء مستعارة تدل على صفاتهم الإنسانية ومواصفاتهم النفسية، وفقًا للمعاني الرمزية للأسماء اليونانية، أو أسماء شخصيات أدبية وكلاسيكية. أسماء الفتيات هي **بامبنيا**، ومعناها الفتاة المزدهرة، ولذلك فهي الحكاية الإطارية الأكبر سنًّا ورجاحةً في العقل؛ **وفيلومينا**، ومعناها "رفيقة القوة"، ولهذا فهي التي دعت الفتيات إلى البحث عن شبان أقوياء في مقدمة اليوم الأول، لأن النساء في رأيها لا يستطعن البقاء وحدهن دون رعاية من الرجال الأقوياء؛ أما **نيفليه** فمعناها "الجديدة على الحب"، وهي غير الخبيرة في شئون الحب، ولذلك نجدها هي التي تطلب إيقاف رواية الحكايات للانتقال إلى مكان آخر، أو يومي الجمعة والسبت للاحتفال بمناسبات دينية. **وفياميتا** هي المرأة التي يحبها بوكاتشو، ومعنى الكلمة "الجذوة المشتعلة"، التي ألهبت قلب كاتبنا حبًّا وغرامًا، وهذا هو آخر ظهور لها في كتبه، بعد أن ظهرت كثيرًا في كتبه الأولى. **وإليسا** هو الاسم الفينيقي لديدون، رمز العاشقة التعيسة؛ **وإيميليا** تحمل معنى الخصومة والخلاف. أما أسماء الشبان، فهي

فيلوستراتو، والمعنى اللاتيني هو "المحب للكثرة"، ونعرف أنه أحب إحدى فتيات المجموعة، مثل رفيقيه، لكننا لا نعرف من هي، ليظل الاحتمال مفتوحًا أمام حب أكثر من فتاة في الوقت نفسه. لكن المعنى المجازي لهذا المحب أنه محب تعيس. **وديونيو** من ديونيس، الأم الأسطورية لفينوس، وهو الساخر والمتهكم وصاحب القفشات اللاذعة في الحكايات. ورغم أننا، كما أسلفنا، نرى فيه تماهيًا مع شخصية المؤلف، بوكاتشو، إلا أن كثيرًا من النقاد رأوا في **بانفيلو**، ثالث الشبان، الإيجو الأخرى لبوكاتشو، لأن اسمه يدل على صداقته للجميع، ولأنه اقترح في اليوم الأخير الحكايات التي تدل على الشهامة والعزة، وأبطالها من علية القوم. وهذا الافتراض هو عكس ما نراه في بوكاتشو، لأنه يفترض فيه صورة من صور الكمال، وبطلًا مثاليًا من أبطال الملاحم، وهو في الواقع على العكس من ذلك؛ لأنه كان إنسانًا بكل ما فيه من قوة وضعف، وفضائل ومثالب، كما أوضحنا من قبل.

هذا عن أبطال الحكاية الإطارية، ويكاد الكلام نفسه ينطبق على أسماء أبطال الحكايات المختلفة، ولكننا سوف نقتصر هنا على الإشارة إلى بعض الأسماء العربية التي ذكرها المؤلف. وأول هذه الأسماء **صلاح الدين**، وهو بطل لأكثر من حكاية، الحكاية الثالثة من اليوم الأول، والحكاية التاسعة من اليوم العاشر؛ ويقدمه بوكاتشو بشكل إيجابي للغاية، فيه أخلاق الفروسية الحقيقية، وفيه الذكاء والدهاء والحيلة. وفي الحكاية الأولى، يظهر معه اسم عربي آخر، لشخص يهودي، هو ملكي صادق، وهو اسم مذكور في التوراة لكاهن يشك في وجوده، نظرا لاختفائه من سفر التكوين بلا مبرر، ويقدمه بوكاتشو لا على أنه الشخصية التوراتية، ولكن على أنه شخصية يهودية تحمل كل السمات، وخاصة المادية والمالية، لهذه الشخصية.

ومن الأسماء العربية الأخرى- التي وردت في المجموعة- نجد اسمين على درجة كبيرة من الأهمية، أحدهما لملك أو سلطان مصر، والآخر لابنته الأميرة.

يقول بوكاتشو إن سلطان مصر كان اسمه بيميينداب، وأن ابنته بالغة الجمال اسمها الاتييل، وفي بعض النسخ ظهر اسمها على شكل الياتيل. والبحث في ملوك وسلاطين مصر في الفترة التي سبقت بوكاتشو لم يسفر عن العثور على اسم مشابه، ومن ثم عمدت إلى تحليل هذه الأسماء وفقًا لما استقر عليه استخدام الأسماء الشرقية من الكتاب الغربيين. وأول ما يلاحظ في اسم السلطان المصري هو انتهاؤه بحرفي "اب"، وهو ما يمكن تفسيره على أنه اختزال لكلمة "أبو"، التي تستخدم كثيرًا في التسميات العربية، مثل أبو زيد، وقد لا تعني في الحقيقة كنيةً باستخدام اسم الابن لتعريف الشخص، وإنما قد يُكنى الابن بأبيه مثلما يحدث في صعيد مصر، ومن ثم يكون الأقرب هو أن بيميينداب هو بيميند أبو أو حتى بيميند ابن. وقد وجدنا حاكما بيزنطيًّا على طرابلس اللبنانية اسمه بيمينيد بن بيمنيد، وله قصة طويلة، انتهت بإخراج جثته من قبرها وإلقائها للكلاب. لكنه كان مشهورًا بالجمال، ومن المؤكد أن اسمه اشتهر في أوروبا إبان الحروب الصليبية باعتباره حاكمًا مسيحيًّا في الشرق.

وإذا استخدمنا القياس نفسه مع اسم الأميرة، ولكن مع حرفي "ايل" في نهاية الاسم، يمكن أن نرجعها إلى أداة التعريف "ال"، وهو قياس مرجح، إذا عرفنا أن الأجانب يختصرون معظم الأسماء المركبة مثل عبد الله وعبد الحميد إلخ، إلى الصيغة "عبدول"، عرفنا أن هذه الأميرة ربما يكون اسمها "الية ال"، فإذا أضفنا حرف العين، غير المنطوق في اللغة الإيطالية يصبح الاسم "علية ال"، ويصبح من المرجح أن يكون الاسم الثاني الناقص هو اسم العائلة، وقد وجدنا أميرة عربية تحمل اسم علية العقيلية، واسمها بالكامل علية بن الشيخ جابر العبيدي، وكانت بالغة الجمال كما وصفها بوكاتشو، كما كانت منخرطة في قصص حب متعددة، مثل بطلة الحكاية الإيطالية، وورد اسمها في السيرة الهلالية، التي هي من السير الشعبية

التي ربما وصلت هي الأخرى شفاهة إلى الضفة الشمالية من البحر المتوسط.

لم يعد ضروريًّا- بعد هذه المقدمة- أن ننسب المجموعة الحالية من بواكير الفن القصصي في تاريخ الأدب العالمي إلى ثقافة مشتركة، جمعتنا معًا على ضفتي بحر واحد، وتحدثنا ذات يوم بلغات متشابهة، وشاعت بيننا المبادلات، ليس فقط المبادلات التجارية، على كثرتها، وإنما أيضًا المبادلات الفكرية والثقافية، حتى أصبح لنا إرثا مشتركا، يضاف إلى الثروة الفكرية للإنسانية في مجملها.

القاهـرة

د. حسـين محمـود

2015

مقدمـة المترجـم

تعمل الترجمة بشكلٍ كبيرٍ على تقليص الفجوة القائمة بين الشعوب، من الناحية المعرفية والثقافية والعلمية؛ ذلك أن الإنسان دائمًا ما يتطلع في سعيه الحثيث والدؤوب لاكتساب المعرفة إلى مَن هو أفضل منه في هذا المجال، ويبدأ من حيث انتهي الآخرون، ويحاول تثقيف نفسه والاطلاع على المعارف المختلفة للأمم الأخرى، كي يتعلم من تجاربها وخبراتها. ومن هذا المنطلق تأتي فكرة القيام بأعمال الترجمة. ولا شكَّ أنَّ ترجمة الآداب والفنون تَفتح نافذة على ثقافات الشعوب الأخرى. ونحن الآن بصدد التعرف على "**جوفاني بوكّاتشو**"، الكاتب الإيطالي الأوسع شهرة، الذي أثرى الحضارة الإنسانية بكتاباته العبقرية، وبأسلوبه الأخاذ، وبأفكاره الغير تقليدية. وحقًا لا أبالغ إن قلت إن "بوكّاتشو" مثّل حضارة إيطاليا وثقافتها في القرن الرابع عشر، وامتد تأثير أعماله خارج بلاده لعدة قرون تالية، بل وصل تأثيره إلى وقتنا الحاضر.

"**بوكّاتشو**" كاتب وشاعر إيطالي متميز من عصر النهضة فى القرن الرابع عشر، وهو مؤلف عدد من الكتب المهمة، أشهرها على الإطلاق الكتاب الذي نحمله بين أيدينا الآن: "**الديكاميرون**". يقول بعض المؤرخين إنه ولد فى مدينة "فلورنسا" الإيطالية، في حين ذكر البعض الآخر أنه ولد في "باريس" في حوالي عام 1313م.

عاش فترة صباه متنقلًا فى إيطاليا، واستقر فترة فى "فلورنسا"[1]. والتقى فى "نابولي" بـ"فيامِّيتَّا" ابنة حاكم "نابولي"، تلك الفتاة التي أحبها طيلة حياته، حتى بعد وفاتها بالطاعون عام 1348. (كان الوباء قد اجتاح أوروبا، وقتل معظم سكان "فلورنسا" و"نابولى"، وأوروبا بأسرها). وبلغ من حبه للفتاة "فيامِّيتَّا" أن ذكرها فى كل أعماله تقريبًا، وكانت الشخصية المحورية فى "**الديكاميرون**" أيضًا، التي قمنا بترجمتها بعد اختيارها من قبل الأستاذ/ رفعت سلام، الشاعر والمترجم الكبير، ورئيس تحرير سلسلة "آفاق عالمية".

عرف "بوكّاتشو" فى أوساط النبلاء حين قدمه والده إليهم. وعاش لمدة من الزمن حياة الترف وسط مجتمع أرستقراطي راق، حيث قرّبته علاقته الطيبة مع عائلة "باردي"- أشهر وأثري العائلات الإيطالية في تلك الفترة- من البلاط ورجال الحكم والسلطة. ولكن حين أعلنت شركة "باردي" إفلاسها، تأثر وضع والده المالي، فعاش ضائقة مادية صعبة. استقر في "فلورنسا" بعد وفاة والده، وكان يتنقل في أرجاء إيطاليا، من مدينة إلى أخرى.

ارتحل من نابولي إلى "فلورنسا"، لكنه غادرها هربًا من الطاعون. وحين عاد إليها بعد عام كان مفلسًا، وماتت أمه بعدها بقليل. لكنه بالرغم من تعاسة ظروفه، استمر فى كتابة "أميتو"، وهي نوع من الكوميديا التي امتزج فيها الشعر بالنثر. كما

---

[1] مدينة في الجزء الشمالي من وسط إيطاليا، كانت عاصمة لإيطاليا لفترة وجيزة بعد توحيد إيطاليا (1865-1871). كانت "فلورنسا" في أوروبا- خلال هذا الوقت من العصور الوسطى- مركزًا هامًّا من الناحية الثقافية، والتجارية والمالية، حيث تعتبر مهد عصر النهضة، وخروج أوروبا من عهود الفقر والظلام. واشتهرت في العالم بأسره كمهدٍ للفن والعمارة، بمبانيها التاريخية العديدة ومعالمها ومتاحفها الغنية، فاشتهرت باعتبارها واحدة من أجمل وأهم مدن العالم. وقد سميت هذه المدينة "أثينا العصور الوسطى".

أتم كتابة "كانتو" و"فيامّيتّا" عام 1343.

أولى "بوكّاتشو" أهمية خاصة للحب في كتاباته، وجعله رمز التحرر الاجتماعي ومحركه. وكانت مشاعره تجاه ابنة ملك "نابولي"، أو غيرها من النساء اللواتي عرفهن، هي التي أوحت له بقصص الحب في كثير من كتاباته الشهيرة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

- قصيدته "مطاردة ديانا La Caccia di Diana"
- قصيدته "الرؤيا العاشقة L'Amorosa Visione"
- قصيدته "حوريّ فييسولِه Il Ninfale Fiesolano"
- قصيدته "ثيسيوس Teseida"
- روايته "المتيَّم Il Filocolo"
- "ملهاة حوريات فلورنسا Commedia delle ninfe Fiorentine"
- روايته "مرثاة السيدة فياميتا L'Elegia di Madonna Fiammeta"

وقد اتجه في العقد الأخير من عمره إلى الاشتغال بالدراسات التاريخية والموسوعية، فكان من أشهر أعماله في هذا المجال الذي أتقنه وبرع فيه هو الآخر:

- "سقوط المشاهير من الرجال De Casibus Virorum Illustrium"
- "نساء مشهورات De Claris Mulieribus"
- "أنساب الآلهة الوثنية De Genealogiis Deorum Gentilium"

أما في المرحلة الأخيرة من حياته، فقد غيّر "بوكّاتشو" نهجه وأسلوبه وكتاباته بشكل تام تقريبًا، فنجده يخرج من اندفاع الشباب وكتابة القصائد الشعرية والروايات المليئة بالإيحاءات العاطفية- التي وصلت في كثير من الأحيان إلى الإباحية الصريحة- إلى وقار الشيوخ وحكمة كبار العقلاء، وحنكة قامة المفكرين؛ فاستفادت منه البندقية "فينيسيا"، بين الفينة والأخرى- وقد أصبح من أشهر

شخصيات عصر النهضة الإيطالية فى "فلورنسا"- في بعض شؤونها الدبلوماسية؛ حيث أرسلته في مهمات سياسية إلى العديد من البلدان الأخرى، وإلى مدن إيطالية مثل "ميلانو". كما كان على رأس الوفد الذي استقبل الشاعر "بتراركا"[2] فكان للقائه به ضجة أدبية. وعاش في مدينة "تشرتلدو" التابعة لمقاطعة "توسكانا"[3] الإيطالية عيشةً ضنكًا، وكان يشكو من آلامه الفائقة، وأمراضه المزمنة، وعلاته المتعددة. ولعل رغبة بعض أصدقاء "بوكّاتشو" في أن يقدموا له بعض المعونة المالية هي التي حدت بهم إلى أن يقنعوا أمير "فلورنسا" بأن ينظم سلسلة من المحاضرات لدراسة "دانتي أليجيري"[4]، وأن يوظف "بوكّاتشو" ليلقيها في "باديا Badia" الإيطالية، بيد

---

[2] "فرانشيسكو بتراركا" (1304-1374): باحث وشاعر إيطالي، وأحد أوائل الإنسانيين في عصر النهضة. يسمى "بتراركا" أحيانًا كثيرة "أبو مذهب الإنسانية". كما عرف "بتراركا" أيضًا بكونه من أوائل مَن استخدموا تسمية العصور المظلمة. وقد جاء "بتراركا" سابقًا للحركة الإنسانية؛ لذالك فهو ليس إنسانيًا، لكنه يتميز بالعديد من صفات الإنسانيين؛ لذلك يلقب من البعض بأبي الإنسانية. وكتب "بتراركا" جميع كتبه النثرية باللغة اللاتينية، بينما كتب قصائده الشعرية بالعامية الإيطالية.

[3] إقليم في إيطاليا عاصمته الإقليمية "فلورنسا". تعرف "توسكانا" بمناظرها الخلابة وتراثها الفني الغني وتأثيره الواسع على الثقافة العالية. ينظر إلى "توسكانا" على نطاق واسع بأنها مهد النهضة الإيطالية الحقيقي، وكانت موطنًا لعدد من أكثر الناس تأثيرًا في تاريخ الفنون والعلوم.

[4] ولد "دانتي" في مدينة "فلورنسا" الإيطالية عام 1265م، من عائلة تنحدر من النبلاء الرومان. وعلى الرغم من أن عائلة "دانتي" كانت تملك بعض الأراضي في ريف "فلورنسا"، فإنه عاش حياة بالغة التواضع. فقد ماتت أمه وهو في السادسة من عمره، وتزوج والده "أليجيري" ثانية، لكن دانتي لم يكن سعيدًا معهما، ولا حتى مع أشقائه. ثم مات والده وهو في الثانية عشرة من عمره، تاركًا له ديونًا ضخمة يصعب سدادها. أحب "دانتي" فتاة اسمها "بياتريتشي". وهي ابنة أحد أثرياء "فلورنسا"، لكنها تزوجت من أحد أبناء طبقتها.

أن صحته وهنت قبل أن يتم المنهج المقرر، فعاد إلى "تشرتلدو" وقد وطّن نفسه هناك على ملاقاة الموت الذي لا مناص منه.

أما عن كتابنا هذا، فأود أن أبرز بعض النقاط الهامة حوْل ملابسات وظروف كتابة هذا النص العبقري، وكيفية كتابته، فضلًا عن شرح مبسط ومختصر لمجريات الأحداث التي ستدور بين ثنايا هذه القطعة الفنية منقطعة النظير، في رأيي المتواضع. "الديكاميرون"، كلمة يونانية تعني "عشرة أيام"، ويتوجه "بوكّاتشو" في هذا الكتاب إلى النساء على وجه الخصوص، حيث يرغب في تسليتهن والترويح عنهن، لأنهن محرومات من وسائل اللهو والتسلية المتاحة للرجال، كما هو الحال في كثير من البلدان الشرقية والغربية على حد سواء، خاصةً في تلك الفترة المظلمة من تاريخ

وماتت بعد عام واحد من زواجها، فحزن عليها "دانتي" حزنًا عميقًا. أحاط "دانتي" بثقافة عصره، فقد درس في بعض أديرة "فلورنسا"، ثم في جامعة "بادوا" و"بولونيا" الإيطاليتين، وأتقن اللاتينية والفرنسية وتمكن منهما، واستوعب التراث الكلاسيكي عامة، واللاتيني خاصة. مات "دانتي" في "رافنا" عام 1321م، ودفن فيها بعد أن تم طرده من موطنه الأصلي "فلورنسا". وقد نُقش على تابوته: «ليست فلورنسا، وإنما أهواء السياسة هي التي حكمت عليه بالنفي الدائم». أدركت "فلورنسا"- لكن بعد مضي عقود طويلة- أنها ارتكبت ظلمًا بالغًا في حق ابنها العبقري، فشيدت له قبرًا رمزيًّا في كنيسة "كروتشي" عام 1829م، ضم تمثالًا لـ"دانتي" وهو جالس ومتوَّج بإكليل من الغار، وقد نُقش في أسفله عبارة: "مجدوا الشاعر العظيم". أما عن مؤلفاته، فقد كتب "دانتي" عددًا من المؤلفات منها: كتابه «الحياة الجديدة»، الذي يحكي فيه قصة حبه لـ"بياتريتشي"، وكتاب «عن البلاغة العامية»، الذي يحث فيه على تكوين لغة عامية إيطالية، وكتاب «الوليمة» الذي يعد موسوعة علمية وثقافية، وكتاب «الملكية المطلقة» الذي يدعو فيه إلى قيام دولة عالمية على نموذج الإمبراطورية الرومانية، لكي تنتشر السلام والعدالة وتخضع البابوية للدولة المدنية. ولكن أهم مؤلفاته وأكثرها شهرة على الإطلاق هو كتابه "الكوميديا الإلهية" الذي تمت ترجمته إلى كل اللغات الحية على كوكبنا تقريبًا.

أوروبا. ويضم "الديكاميرون" مائة رواية، أو قصة، أو حكاية، أو أقصوصة، أو حدوتة، أو أية تسمية أخرى يمكن أن نطلقها عليها، تروى خلال عشرة أيام، على ألسنة عشرة شباب: سبع نساء وثلاثة رجال، يلتقون في كنيسة "سانتا ماريا" الجديدة، ويتفقون على الهرب من هلع وباء الطاعون الذي اجتاح "فلورنسا" عام 1348، ويذهبون للعيش في قصر فخم في الريف على مشارف المدينة.

في "الديكاميرون"، يتبادل واحد من الأشخاص العشرة كل ليلة قيادة دفة الروايات، التي يحكيها جميعهم عن مغامرات عاطفية أو ملحمية أو حتى جنسية قد تكون من الواقع أو من الخيال، لكنها كانت تهدف لتسليتهم وهم قابعون فى خدائق قصر فى قرية بعيدة، خوفًا من الطاعون الذي أثار الرعب فى المدينة، وكأنه كتبها ليستحضر ذكرى حبيبته التي قضت نحبها بسبب هذا الطاعون المفترس، الذي استشرى في جميع الأرجاء الأوروبية.

يبدأ "بوكّاتشو" روايته بوصف المأساة بكل تفاصيلها البائسة في فصل كمدخل للرواية، والنتائج المؤسفة التي خلفتها في مشاهد مروعة شهدها الكاتب نفسه، وفقد فيها حبيبته "فيامِّيتَّا"، التي أحبها حبًّا جمًّا، والتي كانت ملهمة له في الكتابة، لا فيما يتعلق بـ"الديكاميرون" فحسب، بل بمعظم كتاباته الأخرى، سواء الشعرية، أو العاطفية، أو الروائية، أو حتى القصصية والملحمية منها. توجهت المجموعة- التي تتكون من سبع نساء وثلاثة شبان- فرارًا بأنفسهم إلى قصر ريفي خارج المدينة، واقترحت إحداهن أن يتم انتخاب ملك من بينهم لتنظيم أمورهم، ليتولى أمرهم طيلة اليوم، وينتهي حُكمه بنهايته. وهكذا أُصبح من حق كل من ينتسب للمجموعة أن يتناوب على سُدة الحكم. ولإبعاد شبح الخوف ولقتل الوقت، وحتى ينسوا الفظائع التي خلفها الوباء في المدينة، أُمرت ملكة اليوم الأول أن يشكلوا حلقة، وأن يروي كل منهم قصة، فأصبح عدد القصص في اليوم الواحد عشر

قصص، وتناوب أعضاء المجموعة العشرة على القص ليصل مجموع القصص التي كتبها "بوكّاتشو" مائة قصة، هي "الديكاميرون". باختصار، كانوا يحكون عشر قصص يوميًّا على مدار عشرة أيام، بإجمالي مائة قصة تضمنتها الرواية من بدايتها حتى نهايتها.

لم تكن الحكايات التي جاءت على لسان الرواة بدون غاية أو هدف، بل كانت تحمل بين طياتها بعضًا من الحِكم، وتمجيدًا لبعض القيم الغائبة في ذلك الزمان، وذمًّا لبعض الممارسات اللاأخلاقية التي كان يرتكبها الرهبان المتمسحين برداء الرهبنة. كما لم يسلم من كلماته ومفرداته اللاذعة الملوك والتجار الجشعون، وكذا الكثير من الشخصيات التي تعرضت لحوادث متنوعة قاسية، وكيف مكنتهم الظروف من الوصول إلى نهاية سعيدة: عشاق، لصوص، فنانون، سياسيون، وغيرهم كثيرون، جعل منهم "بوكّاتشو" أبطالًا في بعض القصص، وقساة وطغاة يستحقون العقاب في قصصٍ أخرى.

ويعتقد النقاد أن "بوكّاتشو" استوحى الفكرة من "ألف ليلة وليلة" التى كانت حديثة العهد بالأدب الأوروبي آنذاك، وأنه روى الحكايات بنفس الطريقة، مازجًا الخيال بالواقع بالشعر، تمامًا مثلها. وتعتبر "الديكاميرون" تصويرًا حيًّا لمجتمع القرن الرابع عشر في إيطاليا. ونجد فيها كثيرًا من الشخصيات التاريخية، مثل صلاح الدين و"ويليام الثاني" ملك صقلية[5]، كما استمد من "ألف ليلة وليلة" بعض الشخصيات الأسطورية، فضلًا عن طريقة السرد نفسها في بعض الحكايات.

كما أن بعض الكتاب والنقاد العرب يقولون عن "الديكاميرون" أنها "ألف

[5] وليم الثاني (1155-1189) ملك صقلية، الذي عرف باسم "ويليام الطيب"؛ حكم صقلية بعد وفاة والده "وليم الأول"، ولم يكن قد تجاوز عمره حينئذٍ الحادية عشرة؛ لذا وضع تحت وصاية والدته "مارجريت النفارية".

ليلة وليلة الإيطالية". وأرى- في حقيقة الأمر- أنهم قد حالفهم الصواب بقدر كبير في هذه الرؤية، مع وجود بعض الاختلافات التي لمستها لاطلاعي على كلتيهما، وأرى أن الإختلاف الجوهري الملحوظ بينهما هو غياب الخيال؛ أي أن "الديكاميرون" قصص واقعية أو شبه واقعية، لا يوجد بها جن ولا عفاريت، ولا أي نوع من أنواع الخيالات المستحيلة التي نعرفها في ألف ليلة وليلة، باستثناء قصة وحيدة فقط هي التي ظهرت فيها الأشباح.

والقصص، كما ذكرت من قبل، هي قصص علاقات غرامية في أغلبها، وسنلاحظ أن الأبطال يحاولون الاحتشام علي قدر الإمكان، وعدم إيراد تفاصيل فاضحة، وهو أمر لا ينجح دائمًا، حيث نجد ألفاظًا تقترب من الإباحية بشكل كبير في بعض مواطن القصص. علاوةً على ذلك، سنلاحظ الصورة البشعة لرجل الدين المسيحي في القصص، حيث يبدو كأنه لا يتورع عن أي شيء، وقد كان هذا قبل "مارتن لوثر" وثورته على الكنيسة بمائة وخمسين عاما،تقريبًا، حيث يبدو أن الأحوال كانت قد ساءت تمامًا. لقد كان رجال الكنيسة في أوروبا، من نساء ورجال، يقبلون سرًّا على كافة المعاصي التي ينهون عنها علنًا. كانوا يفعلون ما يغضب الله، ولا يكادون يقومون بأفعال خيرية إلا إذا كانت لهم مصلحة من ورائها. هكذا كان رجال الدين في أوروبا في تلك الحقبة، فهوت أوربا بأسرها إلى أسفل سافلين، ولم تقم لها قائمة إلا بعد التخلص من هذه المنظومة الفاسدة، التي تتظاهر بما ليس فيها، ولا يهمها سوى مصلحتها الخاصة. وهذا الكتاب يعمل على فضح المجتمع الكنسي، وكشف المنظومة الدينية السلوكية في أوروبا عامة، وإيطاليا خاصة، في حقبة العصور الوسطى.

ومما يدل على أهمية "الديكاميرون" وامتداد تأثيرها إلى يومنا هذا، أنه يتم عرضها في العصر الحديث على خشبة المسرح والسينما وشاشات التلفاز، فضلًا عن

شغف المترجمين من كافة أنحاء العالم بترجمة هذه القصص إلى كافة اللغات؛ فنرى- على سبيل المثال- في الخبر الذي أوردته وكالة "أي جي آي" الإيطالية بتاريخ السادس من يونيو 2014 أن الأديب الشهير "ماريو فارجاس يوسا"[6]، الحاصل على جائزة نوبل في الأدب، قد أنهي كتابًا جديدًا يحمل عنوان "حكايات الطاعون"، وهو عبارة عن مجموعة قصصية مستوحاة في المقام الأول من قصص "الديكاميرون"، وقد تم عرضها كمسرحية في العاصمة الأسبانية مدريد، بإخراج المخرج القدير "خوان أوليه".

وقبل ذلك، وتحديدًا في سبعينيات القرن المنصرم، قام عملاق الإخراج السينمائي الإيطالي "بيير باولو بازوليني"[7] بإخراج "الديكاميرون" في فيلم سينمائي حقق نجاحًا هائلًا عام 1971، من خلال ثلاثية سينمائية شهيرة أطلق عليها اسم "ثلاثية الحياة". ولم يتصوّر أحد أنه سيختار للثلاثية بعض نصوص الآداب التي تعود إلى القرون الوسطى.

وعلى الرغم من أن "الديكاميرون" قد كُتبت في العصور الوسطي، وتحديدًا في

---

[6] روائي وصحفي وسياسي بارز من بيرو، حصل على جائزة نوبل في الأدب عام 2010. برز في عالم الأدب بعد نشر روايته الأولى "المدينة والكلاب" التي نال عليها جوائز عديدة منها جائزة "ببليوتيكا بريفي" عام 1963، وجائزة "النقد" عام 1998. وقد ترجمت إلى أكثر من عشرين لغة أجنبية. وتتالت أعماله الروائية، وتعددت الجوائز التي حصل عليها، وقد كان من أشهرها حصوله على جائزة "ثيرفانتس" للآداب عام 1994، التي تعد أهم جائزة للآداب الناطقة بالإسبانية.

[7] شاعر ومفكر ومخرج أفلام وكاتب إيطالي (1922-1975). يعد ظاهرة ثقافية استثنائية، لأنه تميز في عدة مجالات متعددة كالصحافة والفلسفة والكتابة الروائية والمسرحية والإنتاج السينمائي والتمثيل، وأيضًا السياسة. حصدت أفلامه جوائز مختلفة بعدة مهرجانات سينمائية، منها مهرجان كان، وفينيسيا السينمائي، وبرلين السينمائي.

القرن الرابع عشر الميلادي، إلا أنها كانت ولا تزال تحتفظ حتى يومنا هذا برونقها وبريقها الأدبي، وأثرها الأخلاقي. والدليل على ذلك أنه رغم مرور مئات السنين عليها، إلا أنها يتم تجديدها بين الفينة والفينة في شكل فيلم أو مسرحية – كما ذكرت فيما سبق –أو يقوم أحد المترجمين بترجمتها إلى لغته الأصلية، كما فعلنا ذلك الآن. وجدير بالذكر أن "الديكاميرون" تعد من أكثر الروايات التي تمت ترجمتها إلى لغات أجنبية متعددة على مدار التاريخ. حقًّا، فهي واحدة من أروع الكتابات وأكثرها قراءة ومطالعة من قبل الجمهور، سواء في إيطاليا أو خارجها.

أما عن لغة هذا الكتاب، فهي عذبة رقيقة، تتميز بالتناغم والتناسق الأشبه بالسجع في اللغة العربية، تلك اللغة التي لم يعد أحد من الكتاب الحاليين يستطيع صياغة مثلها من الناحية الجمالية والتعبيرية. كما أود أن أوضح في هذا المقام أن لغة هذا الكتاب بها صعوبات جمة، تتمثل في التعبيرات والكلمات القديمة غير المستخدمة حاليًّا، لكنها ليست مستحيلة الترجمة، وقد تمكنا – بفضل الله تعالى – من التغلب عليها بالمثابرة، والتفكير العميق، واستخدام القواميس، والاستفادة من ترجمة أ. صالح علماني لها، على الرغم من أنها كانت عن الأسبانية، لا الإيطالية، كما يعتقد البعض. وجدير بالذكر أن ترجمات الديكاميرون إلى العربية قد أخذت في الظهور بدءًا من النصف الأول من القرن المنصرم، لكن لم تكن ترجمة كاملة، وإنما في صورة عدد من القصص ضمن مجموعتين قصصيتين، بترجمة كامل كيلاني. وفي خمسينيات القرن الماضي، وضمن سلسلة "كتابي"، صدر الكتاب الثالث عشر من السلسلة بعنوان "الديكاميرون/ألف ليلة وليلة الإيطالية" بترجمة إسماعيل كامل، التي هي أميل إلى التعريب منها إلى الترجمة[*].كما أود التنويه إلى أنه قبل

---

[*] حيث يعمد المترجم إلى إعادة صياغة النص بأسلوب إنشائي مزخرف، وبلغة عربية محشوة بالتنميق، تكثر فيها المحسنات اللفظية التي تثقل أحياناً على القصة، ولا يتورع في

شروعنا في ترجمة هذا الكتاب، أخبروني أنه صعب الترجمة؛ لأن لغته قديمة وغير واضحة، إلا أنني أرى- بكل صدق وأمانة- أنه رغم صعوبة لغته في بعض الأحيان، إلا أنها جميلة وجذابة في أحيان كثيرة، فضلًا عن روعة الحكايات الواردة به.

أما عن ترجمة هذا الكتاب ذاتها، فقد استمتعت كثيرًا بمعايشة هذه الحكايات أثناء ترجمتها، فكنت أبتسم كلما خطرت لي كلمات تدنو من رسم البهجة على شفاه القارئ، وكنت أطرب وقتما أجد معني جميلًا خلابًا يشد السمع والبصر، وأشعر بالأسى والحزن كلما طرأت أفكار أو ذكريات تدعو إلى ذلك، تمامًا كما لو كنت أنا مَن كتبها. فالمترجم- عند الترجمة- يضع نفسه محل الكاتب؛ فهو لا ينقل كلمات فحسب، بل ينقل ويعبر عن الأحاسيس والمشاعر، وكذا الأفكار والفلسفات، وعلامات الضحك والإطراء الواردة في النص الأصلي. وهذا ليس بالأمر الهين على الإطلاق، فالمترجم- في معظم الأحيان- يفهم ويعي النص جيدًا، لكن نقل النص كما وعاه في نفسه وعقله أمر جد عسير، خاصة إذا كان المترجم مبدعًا يعرف كيف ينتقي الكلمات والتعبيرات، ويسعي إلى الكمال صعب المنال، فلا يضن بمرتخِص ولا غالٍ في سبيل الإتقان، حتى وإن ظل ليلةً بكاملها يبحث عن كلمة واحدة حتى يعرف معناها، وهذا ما يحدث أحيانًا بالفعل. ومع ذلك، ولكي أكون صادقا، فمهما بلغت دقة الترجمة- ومعها المترجم- فإنها لا تصل إلى درجة الكمال قط. يقول الجاحظ (المتوفى سنة 868م) في كتابه "الحيوان": "إنّ التّرجُمان لا يؤدِّي أبدا ما قال الحكيمُ، على خصائِص معانيه، وحقائق مذاهِبه ودقائق اختصاراته، وخفيّاتِ حدوده، ولا يقدِر أَنْ يوفيها حقوقها، ويؤدِّيَ الأمانة فيها، ويقومَ بما يلزمُ الوكيلَ

أحيان أخرى عن إضافة فقرات مطولة، أو الخروج باستنتاجات أخلاقية. كان التعريب متبعًا بشكل أكبر في مطلع القرن العشرين، لكنه يختلف كثيرًا عن الترجمة.

ويجبُ على الجَرِيّ، وكيف يقدِر على أدائها وتسليمِ معانيها، والإخبار عنها على حقِّها وصدقها."

وعن خاتمة المقدمة، فيسعدني إثراؤها بكلمات أ. د. محمد حمدي إبراهيم المذكورة في نهاية مقدمته لكتاب "حياة ألكسيس زوربا ومغامراته"، المترجم عن اليونانية القديمة، والصادر عن هذه السلسلة نفسها في عام 2014؛ وقد قال: "كان هذا هو نبراسي، ومعقد رجائي، ومناط أملي، فإن كنت قد وفقت إلى تحقيق هذا المبتغي، فبفضل من الله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإن كنت قد قصرت دون بلوغ هدفي، فعزائي أنني كنت أنشد الكمال وأسعى للإتقان، والله الموفق والمستعان".

القاهرة، 10 أغسطس 2015

المترجم

د. عبدالله عبدالعاطي النجار

چوڤـاني بوكاتشُــو

الديكَاميـرُون

[1]

هذا العمل هو الترجمة الكاملة، الدقيقة، عن الإيطالية، لـ

Giovanni Boccaccio,

IL Decameron,

1348-1353


https://telegram.me/maktabatbaghdad

هنا يبدأ كتاب "الديكاميرون"، المُلقّب بكتاب "الأمير جاليوتّو"، ويحتوي على مائة قصة تحكيها سبع فتيات وثلاثة فتيان على مدار عشرة أيـام.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

كلمـة افتتاحيَّـة

شعور إنساني أن يتعاطف المرء مع المنكوبين. وإن كان هذا الشعور مُستحبًّا في العموم، إلا أنه واجبٌ على أولئك الذين ذاقوا من قبل مرارة الأسى، فوجدوا من يواسيهم ويعطف عليهم؛ وأنا واحدٌ من هؤلاء. فقد اكتويت بنار الحب منذ صباي، ولا أزال أعاني من لهيبه إلى الآن. حبٌ راقٍ ونبيل، أرقى وأنبل مما يستحقه شخصي الضعيف. وقد واساني من أثق في رأيه ورجاحة عقله بكلمات الثناء والإطراء، غير أن تلك الكلمات لم تستطع أن تخفف من ألم المعاناة التي تعتلج بداخلي، والتي مصدرها ليس قسوة المحبوب، بل سعير الشهوة المتواصل الذي يجتاح العقل بخواطره السيئة، فأظل في ألم وغم لا يخففه عني سوى كلمات المواساة التي يقدمها لي صديق مخلص، والتي لولاها لما بقيت على قيد الحياة. ولأن الحيَّ الذي لا يموت قد حكم على الأمور الدنيوية بالفناء، فقد أخذ حبي يتضاءل مع مرور الزمن، بعد أن رفض أن ينكسر أو يلين أمام نداءات التعقُل، ومحاولات النصح والإرشاد، أو الخوف من نظرات الناس، أو الخطر الذي قد يترتب على ذلك.

تضاءل حتى لم يتبق منه الآن سوى شعور بالسعادة، يمنحه الحب لمن لم يتعمق في الإبحار في ظلماته؛ فصرت أشعر بالسعادة بعد أن كنت أعاني من الحزن والألم. وبعد أن ولَّت لحظات الألم بمرارتها، لا يمكنني أن أنسى من وقفوا بجانبي وأعانوني، أولئك الذين لولا نصائحهم ومواساتهم لتفاقمت آلامي، فسأظل أذكر لهم جميلَهم معي حتى الممات. وبما أن الاعتراف بالجميل، من وجهة نظري، من أسمى الصفات الحميدة، ونكرانه من أسوأ الصفات الذميمة، فقد قررت، كنوع من رد الجميل، أن أُقدِّم هذا الجهد البسيط، وإن لم يكن إلى أولئك الذين ساعدوني ممن استطاعوا بحكمتهم أو لحسن حظهم ألا يحتاجوا لمساعدتي، فإني أقدمه على الأقل لمن هم في حاجة إليه. ورغم أن مساعدتى هذه، أو بالأحرى ينبغي أن أقول تعزيتي، قد لا تكون كافية لمواساة المنكوبين، إلا أن ذلك لا يمنعني من تقديمها لهم، لأنهم في حاجة ماسَّة إليها، فسيستفيدون منها وستنال إعجابهم. فمن ينكر أن النساء يحتجن إلى مثل هذه التعزية، مهما كان حجمها، أكثر من الرجال؟ ففي صدورهن الرقيقة تكمن نيران الحب المتأججة، التي لا يظهرنها لدواعي الخوف والخجل. ويعرف ذلك جيدًا من له خبرة بالنساء.. فهن أسيرات دائمًا لرغبات وتوجيهات الآباء والأمهات، والأخوة والأزواج، ويقضين معظم الوقت بين جدران غرفهن الضيقة يجلسن في خمول، وتجول في عقولهن أفكار كثيرة فتروق لهن فكرة معينة، ثم يرفضنها في نفس الوقت. وإذا ما كان باعث هذه الأفكار هي شهواتهن العارمة، فإنهن يظللن في حزن دائم ما لم يبتعدن بتفكيرهن في أشياء أخرى. وهن- علاوةً على ذلك- أضعف بكثير من الرجال على التحمل. فالعشاق من الرجال لا يحدث معهم

مثل هذه الأشياء، كما يمكننا أن نرى بشكل واضح؛ فلو جالت بعقولهم أفكار مبعثها الشهوة الجامحة، فإن لديهم العديد من الوسائل التي قد تخفف عنهم وتنسيهم هذه الأفكار، كالتنزه ورحلات الصيد في البرّ والبحر وركوب الخيل واللعب، والقيام بمشاريع تجارية؛ وبكل وسيلة من هذه الوسائل يستطيع الرجل أن يجدد روحه ولو جزئيًّا، وأن يصرف عنه مشاعر الضيق ولو لبعض الوقت. وبعد ذلك، بطريقة أو بأخرى، سينسى أحزانه كليةً أو ستتضاءل. ولهذا السبب، ولأن القدر يقسو، كما رأينا، على النساء، فإنني أقدم يد العون والمساعدة لأولئك اللواتي يعانين من آلام الحب؛ أما الأخريات ممن وجدن سلواهن في أعمال الحياكة والتطريز، فسأحكي لهن مئة قصة أو أسطورة أو حكمة أو رواية، أو ما تريدون من التسميات، رواها في عشرة أيام متصلة سبع فتيات وثلاثة شبان، في أثناء الوباء المميت، وكذلك بعض الأغنيات التي غنتها تلك الفتيات أثناء مرحهن. ستجد السيدات فيها قصص حب سعيدة وأخرى مأساوية، وقصصًا يبتسم الحظ فيها لأبطالها، وسيجدن فيها المتعة والتسلية، وكذلك النصائح المفيدة التي ترشدهن عما يجب عليهن فعله أو تركه. فإذا تحقق ذلك، وأرجو من الرب أن يتحقق، فليشكرن الحب الذي منحني القدرة على إمتاعهن بعد أن حررني من قيوده.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

اليـوم الأوَّل

يبدأ اليوم الأول من "الديكاميرون"، والذي يروي فيه كل واحد من الرواة- بعد قيام المؤلف بعرض الطريقة والأسباب التي دفعت هؤلاء الأشخاص الوارد ذكرهم فيما بعد للاجتماع- قصة عن الموضوع الذي يحلو له، وذلك تحت حكم الملكة "بامبينيا".

أيتها السيدات الرقيقات، فكرت كثيرًا في أن نقطة البداية لهذا الكتاب ستكون حتمًا محزنة، ومن الصعب تحملها بالنسبة لكن، لأنكن- بطبعكن- رقيقات القلوب. فكم هو قاسٍ ومروع تذكر ذلك الوباء الفتاك! إنه لمؤلم، سواء بالنسبة لمن كان معاصرًا له، أو بالنسبة حتى لمن سمع عنه. أما أنا، فلا أزال أتذكره جيدًا، ولا يكاد يراوح ذاكرتي ولو قيد أنملة، جرَّاء ما سببه لي من ألم مؤسف. ولست أريد بكلماتي هذه أن أخيفكن، قبل أن تطالعن صفحات هذا الكتاب، وإنما أن تتأملن وتفكرن بعمق أثناء

القراءة التي ربما قد تتخللها الزفرات، وتدمع لها العيون. أرى أن هذه البداية المخيفة ليست إلا كمثل جبل شديد الوعورة لا بد أن يعبره السائرون كي يصلوا إلى ما وراءه من سهل فسيح خلاب الجمال؛ ويزداد هذا السهل جمالًا وبهاءً، كلما كانت مشقة صعود الجبل وهبوطه أصعب، تمامًا مثلما تحل السعادة الغامرة بعد المشقة والمعاناة. فالتعاسة والحزن لا يبقيان طويلًا، وإنما دومًا تتبعهما السعادة والفرحة. أقول لكُن، سيداتي، إنه بعد هذه المقدمة الحزينة القصيرة (وأقول إنها قصيرة، لأنها حقا تقتصر على أسطر قليلة)، فإنكن سوف تنتقلن إلى عالم من المتعة والحلاوة أعدكنّ بهما سلفًا. والحقيقة أنه ما من طريق آخر أسلكه أقل بشاعة من هذا، كي أصحبكن إلى ما أصبو إليه، وإلا لكنتُ فعلت بكل سرور؛ بيد أن الطريق هذا هو السبب الرئيس في وقوع الأحداث التي سوف تطالعونها بين طيات هذا الكتاب. ولذلك، وجب عليَّ هذا التوضيح المضطر إلى كتابته، كي تستقيم الأمور.

فقد حدث- في عام 1348، في مدينة "فلورنسا" العظيمة، أروع المدن الإيطالية قاطبةً- أن تفشي وباءٌ فتاك، ربما يكون قد حدث بسبب كائنات سماوية، أو ظلم البشرية الذي بسببه أنزل الرب العادل على هؤلاء البشر الفانين ذلك الطاعون القاتل، الذي كان قد ظهر قبل عدة سنوات خلت في بلاد المشرق، حيث حصد أرواحًا بلا حصر، وتقدم، إلى أن انتشر بشكل مخيف ناحية الغرب. ولم تُجدِ نفعًا أية إجراءات أو احتياطات للحيلولة دون تفشي هذا الطاعون: كتنظيف المدينة من قبل العمال المعينين خصيصًا لهذا الغرض، أو حتى منع المرضى من دخول المدينة، أو تقديم النصائح الصحية

والوقائية، أو حتى القيام بالأعمال الخيرية، أو الدعاء بالصلوت إلى الرب، أو تضرعات وتوسلات الأتقياء. بدأ الوباء يطل بجناحيه في ربيع العام المنقضي، لينتشر ويتفشى كانتشار النار في الهشيم. وقد ظهر هذا الطاعون لدينا بشكل مغاير عما كان عليه في المشرق، حيث كان نزيف الدم من الأنف دليلًا مؤكدًا على أن المرض قد تمكن من الجسد، وأضحى الموت على بُعد خطوات؛ أما هنا، فمع بداية ظهور المرض، فقد كانت تصاحبه الدمامل أو البثور في الفخذين وتحت الإبطين. كانت هذه الدمامل كبيرة للغاية بما يقترب حجم الواحد منها من حجم التفاحة العادية، أو البيضة، تكبر أو تصغر عن بعضها بعضًا. وسرعان ما تنتشر هذه الدمامل- التي تظهر في المكانين السالف ذكرهما كبداية- لتغطي كافة أنحاء الجسم، ثم تتحول إلى بقع سوداء أو بنفسجية اللون تظهر جليًّا على الأيدي والأرجل، ثم بقية أجزاء الجسم، إما كبيرة ومتباعدة، وإما صغيرة ومتقاربة. كانت الدمامل الأولى تشير إلى الموت القريب، وأيضًا تدل البقع على نفس النهاية المحتومة. ولم يكن يُجدي نفعًا أي علاج، لا نصائح الأطباء، ولا الأدوية؛ ربما لعدم تأثر الداء بالدواء، أو ربما لجهل الأطباء (الذين كانت أعدادهم قد ازدادت كثيرًا، لكن كان منهم مَن كان على علم حقًّا، ومنهم من لم يكن على دراية حتى بأدنى المعارف الطبية- وكان منهم الرجال والنساء على السواء). لم يتمكن أي منهم من معرفة مصدر الوباء، ولا أسلوب الدواء. وكان نتيجةً لهذا أن أصبح الجميع تقريبًا في اليوم الثالث لظهور الأعراض- إن لم يكن قبل ذلك، أو بعده بقليل- يلقون حتفهم دون أن يصابوا بأي نوع من الحمى أو

المظاهر التالية الأخرى. وقد تمتع هذا الطاعون بقوة جبارة، فكان يستشري بسرعة هائلة؛ فالمرضى ينقلونه إلى الأصحاء تمامًا كانتشار النار في الهشيم، كما ذكرت سلفًا. وظل الوباء ينتشر بشكل مضطرد، وتزداد خطورته يومًا بعد يوم؛ فبعد أن كانت العدوى تحدث من التعامل والتلامس مع المرضى، صارت تنتقل من مجرد ملامسة ملابس المصابين، أو أي شيء من متعلقاتهم. وربما يبدو أمرًا غريبًا التيقن مما أجزم به، غير أن كثيرين غيري قد شاهدوا بأم أعينهم هذه الفاجعة المؤلمة، ولم أكن لأجرؤ على كتابته، لو لم يره ويعايشه أناس آخرون غيري جديرون بالثقة. كان الوباء فظيعًا ومريعًا، فلم تكن العدوى تقتصر على الانتقال بين بني البشر فحسب، وإنما تطور الأمر- في مرحلة تالية- ليشمل الحيوانات؛ فإذا ما لمست أيًّا من أشياء الميت أو المريض، فإنها تصاب بالعدوى هي الأخرى، وتموت خلال وقت قصير. ولقد كنت شاهدًا على حالة تدلل على صحة كلامي هذا: كانت ثياب بالية قديمة تخص أحد البؤساء الذين قضى عليهم الطاعون ملقاة في الطريق، وقد اقترب منها خنزيران يشتَمانها، ثم قاما بتمزيقها كما اعتادت الخنازير أن تفعل، وما هي إلا دقائق قليلة حتي تشنج الخنزيران، كما لو كانا قد تناولا سُمًّا، وسقط كلاهما ميتًا على الأرض فوق تلك الثياب البالية المتهالكة. وهناك أمثلة أخرى كثيرة- أسوأ مما حكيت- أحدثت فزعًا مميتًا وتخيلات كثيرة تقريبًا لكل من بقي على قيد الحياة، ونجا من هذا الوباء الفتاك، فكانوا جميعا يشغلهم أمر واحد، ألا وهو الابتعاد عن المرضى ومتعلقاتهم، معتقدين أن هذا هو السبيل الوحيد للبقاء على قيد الحياة. كان البعض على قناعة بأن العيش باعتدال، والبعد عن الإفراط، قد يعينهم على مواجهة تلك المحنة

المفزعة؛ فعاشوا في جماعات بعيدًا عن الآخرين، في بيوت لا يوجد بها أي مريض، يستمتعون فيها بالموسيقي والأمور الأخرى البسيطة. وعلى النقيض، كان هناك آخرون ممن يرون أن الغرق في المتع واللذات، وتناول الخمور حتى الثمالة، والمزاح والمرح والضحك، ربما تكون العلاج الحقيقي لهذا الداء المدمر؛ ومن ثم يسعون لتطبيق ما يرونه معتقدًا صحيحًا، كلٌّ حسب إمكانياته، وطبقًا لما هو متاح من وسائل في تلك الفترة العصيبة؛ فيقضون الليل والنهار في الحانات يحتسون الخمر بلا كلل أو تعب، ويبالغون في فعل كل ما يمتعهم، متخلين عن تجارتهم (كما لو كانت هذه آخر أيامهم في الدنيا). وكانت معظم البيوت مفتوحة يستخدمها الغرباء كأنهم أصحابها. وعلى الرغم من غرابة هذا الأسلوب المتبع من قبل هؤلاء، إلا أنهم كانوا يتحاشون المرضى، ويبتعدون عنهم باستمرار. وقد هيمن الحزن والبؤس الرهيبان على كافة أرجاء مدينتنا، وانهارت سلطة القانون، وتلاشت تمامًا: سواء الإلهي أو البشري؛ ذلك لأن القائمين عليه قد فارقوا الحياة أو أصيبوا بالمرض، شأنهم شأن الآخرين، أو أنهم هربوا بأسرهم من الأماكن الموبوءة، وبالتالي لم يعد بمقدورهم الاضطلاع بمهامهم. وبما أنه لا سلطة لأحد على أحد، فقد صار كل شيء في حكم المباح، أي أن كل شخص يمكنه أن يتصرف طبقًا لما يراه، وما يحلو له. وكان هناك نوع من الناس لم يعتكفوا في منازلهم، مثلما فعل البعض، وأيضًا لم يغرقوا في المتع والملذات واحتساء الخمور بإفراط، شأن البعض الآخر، وإنما راحوا يستمتعون طبقًا لما تراه أهواؤهم، لكن بشكل معتدل؛ فكانوا لا يحبسون أنفسهم بين جدران المنازل، وإنما يخرجون للتمشية حاملين في أيديهم بعض الأزهار أو الأعشاب المعطرة، أو التوابل

المنعشة التي يشمونها بين الفينة والفينة، ظنًّا منهم أنها مهمة لإنعاش الرأس في مجابهة الروائح النتنة للجثث والمرضى والأدوية المتناثرة في كافة الأرجاء. وكان هناك صنف آخر من الناس قساة القلوب، يقولون (كما لو أن هذا هو السبيل الآمن بالنسبة لهم) أن خير وسيلة للدواء من هذا الداء هي الفرار منه. وبهذا المبرر، لم يفكروا في أي شيء آخر، سوى في أنفسهم، فغادر الكثير من الرجال والنساء مدينتهم، وتركوا بيوتهم مهجورة وكذا أملاكهم، وتخلوا عن أقربائهم، متجهين إلى الريف بحثًا عن مكان آمن ربما يجدون فيه نجاة من هذا الطاعون، كما لو أن غضب الرب الذي أصاب البشر بهذا الوباء لظلمهم لن يصل إليهم إذا خرجوا من أسوار المدينة. وظنوا أن كل مَن بقي في المدينة سيلقى حتفه لا محالة، والخارجين منها فقط مَن سوف يبقون على قيد الحياة. وللعلم، فإن كل مَن كان يفكر في طرق مختلفة للنجاة لم يموتوا جميعًا، إلا أنهم أيضًا لم ينجوا جميعًا، وإنما أصيب بالمرض كثيرون من أتباع كل فريق ممن تحدثنا عنهم في طيات الأسطر السابقة، وكان كل منهم في مكان مختلف. كانوا وهم أصحاء مثلًا يُحتذى به لأنهم لم يصبهم المرض، إلا أنهم- لما تمكن منهم المرض- ماتوا وحيدين مهجورين من الجميع.

كانت فترة عصيبة، فكان كل شخص يتجنب الآخر، ولم يعد الجار يهتم بشأن جاره، ولا القريب يعود قريبه إلا في أشد الحالات ندرة. كان الجميع، من رجال ونساء، يشعر بالرعب، فهجر الأخ أخاه، والعم ابن أخيه، والأخت أخاها، بل وصل الأمر إلى أن تهجر الزوجة زوجها، والأفظع من ذلك- وربما لا يصدقه أحد- أن الآباء والأمهات هجروا أبناءهم فلذات أكبادهم، كما لو

لم يكونوا أبناءهم، وأضحوا يبتعدون عن زيارتهم أو رعايتهم. كان مَن يمرض من أهل المدينة من الرجال والنساء- وهم كثيرون- لا يجدون من يلجأون إليه، غير إحسان بعض الأصدقاء من ذوي القلوب الرحيمة (وهم عملة نادرة)، أو يقعون تحت طائلة جشع الخدم الذين يغالون في أجرهم، مستغلين الوضع البائس لهؤلاء، بل كانوا يضعون شروطًا مجحفة. ومع كل هذا، فإن هؤلاء الخدم من الرجال والنساء لم يكونوا كثيرين، ولم يكونوا معتادين على القيام بمهام الخدم المتعارف عليها، وإنما يقتصر دورهم على تقديم بعض الأشياء التي يطلبها المرضى، وطبعًا رؤيتهم وهم يموتون. كما أنه كان يحدث أحيانًا أن يخسر هؤلاء الخدم أثناء خدمتهم بدلًا من أن يربحوا. كان المرضى يبقون وحيدين، لا يعودهم الجيران ولا الأقارب، ولا حتى الأصدقاء.

وبسبب أن الخدم كانوا قلة قليلة في تلك الفترة، فقد كانت تحدث أشياء فريدة من نوعها لم تحدث من قبل؛ فالمرأة مهما كانت مهابتها وجمالها ونبل أصلها- إن أصابها المرض- لم تعد تجد حرجا في أن تستعين بخادم رجل، شاب أو كبير في السن، وكانت تكشف له دون خجل أو حياء أجزاء من جسدها، كأنها تُريها لامرأة أخرى، إذا اقتضت ضرورات المرض ذلك، مما سبب الخزى لمن شفيت منهن فيما بعد. علاوةً على ذلك، فقد استمر الوباء يفتك بالكثيرين ممن كان يمكن إنقاذهم، لو وجدوا الرعاية والعون من الآخرين؛ فلم تكن هناك حتى الخدمات الضرورية، فضلًا عن ضراوة الوباء، ومن ثم كانت أعداد الموتى تتضاعف كل يوم بشكل رهيب، بمجرد السمع، فما بالك بمَن رأى وعاصر ذلك. والغريب أن نشأت- بسبب هذا

الوباء- بين من تبقى من المواطنين على قيد الحياة، عاداتٌ مغايرة لما كان عليه الوضع من قبل.

كان من عادة نساء الجيران والأقارب- على سبيل المثال، لا الحصر- أن يجتمعن في بيت مَن يتوفى لمواساة ذويه (كما يحدث الآن)، أما الرجال وأهل المدينة فكانوا يجتمعون أمام بيت المتوفى مع ذويه وأقربائه. ثم طبقًا لحالة الميت الإجتماعية، يأتي رجال الدين، ويحمل الميت من بيته على الأكتاف في موكب جنائزي عظيم، يصحبه منشدو التراتيل الدينية وحاملو الشموع، ثم يتم نقل الجثمان إلى الكنيسة التي أوصى بها الميت قبل وفاته. تغيرت كل أو بعض هذه الأمور منذ أن أخذ الوباء يشتد ويطغى، وحلت محلها عادات جديدة، مغايرة تمامًا لما سبق: أضحت الناس تموت دون أن تحيط بهم النساء من كل جانب، وبلا شهود، وقلة قليلة جدًا مَن تصطحبهم إلى المقابر، ويتحسرون على فراقهم. فالأحياء ممن تبقى- بدلًا من ذلك- اعتادوا على الضحك والمزاح والصخب الغريب، وهى عادات تعلمتها النساء، بعد أن انصرفن عن احترامهن الأنثوي على حساب الحفاظ على صحتهن وسلامتهن. وفي الواقع، فنادرًا ما كانت الجثامين تُحمل إلى الكنيسة وبصحبتها أكثر من عشرة أو اثني عشر شخصًا، وهؤلاء ليسوا من المحبين أو من علية القوم، وإنما من ذوي المكانة المتدنية الأشد خسة ونذالة، ممن يقال لهم "الحمالين"، الذين يحصلون على مقابل مادي نظير حملهم النعش. كان هؤلاء يحملون الميت على الأكتاف ويسيرون به بسرعة شديدة، لا إلى الكنيسة التي اختارها، وإنما إلى أقرب كنيسة من محل سكنه في معظم الحالات؛ وفي إثرهم أربعة أو ستة من الرهبان الحاملين للشموع، الذين

يقومون بمساعدة الحمالين بوضع تابوت الميت في أول قبر فارغ في طريقهم، دون أن يتعبوا أنفسهم في الدعاء والصلوات الطويلة على روح الميت. كان هذا بالنسبة للأناس من علية القوم، أما إذا تحدثنا عن دفن الفقراء ومتوسطي الحال، فكان الوضع أكثر بؤسًا وأسفًا؛ فكان هؤلاء يبقون في بيوتهم، فينقلون المرض إلى المئات من الجيران والأقارب، فيموت هؤلاء جميعًا، لأنه لا يوجد من يقوم على رعايتهم وخدمتهم، ومنهم مَن يموت في الطرقات، ومنهم مَن يموت في بيوتهم، ولا يعلم أحدٌ عن موتهم شيئًا إلا بعد تحلل أجسادهم، وانبعاث الروائح النتنة. وكانت هناك أعداد غفيرة من هؤلاء وأولئك. ومن بين العادات التي طرأت بسبب هذا الوباء، ولم يكن الدافع عليها محبة الموتى والإحسان إليهم، وإنما الخوف الذي سيسببه تحلل الجثث وتعفنها، عادة جديدة تتلخص في قيام الجيران بأنفسهم- بالإشتراك مع من يسمونهم الحمالين- بإخراج جثث الموتى من بيوتهم، ووضعها أمام تلك البيوت- فكانت أعداد كبيرة من الجثث المتعفنة على مرأى من الجميع ممن يمرون في الشوارع صباحًا. ثم يأتون بعد ذلك بالتوابيت، أو بعض الألواح الخشبية التي يحملون عليها الجثث؛ وكثيرًا ما كانوا يضعون جثتين أو ثلاثًا في تابوت واحد، وأحيانًا ما يُستخدم نفس التابوت للمرأة وزوجها، أو لابنين أو ثلاثة من الأبناء، أو ربما للأب وابنه. وكان يحدث في أحيان كثيرة أن يكون أسقفان يقودان جنازة أحد الموتى، ثم تنضم إليهما ثلاثة أو أربعة توابيت أخرى يحملها المسمون بالحمالين، فيظنون أن في كل تابوت ميتًا، لكنهم يجدون- عندما يقومون بفتح هذه التوابيت- ستة أو ثمانية جثث،

وربما أكثر. وأثناء انتشار الوباء، لم يكن الموتى يُكرَمون بالنحيب عليهم، أو حتى بالشموع، أو بموكب يرافقهم من الأهل والأقارب والجيران؛ فالاهتمام بالموتى آنذاك لم يكن يفوق في أهميته الاهتمام بموت عنزة في يومنا هذا. وفي حقيقة الأمر، فإن سير الحياة بشكل طبيعي بلا مخاطر أو آلام لم يكن ليبين للحكماء ضرورة التحمل بجلد ومثابرة، لكن ضخامة الحدث ومهابته حققت ذلك الهدف، حتى لدى البسطاء، وحولتهم إلى أشخاص لا مبالين بما يجري حولهم. كانت أعداد الجثث تتزايد كل يوم، بل كل ساعة، وتنقل إلى الكنائس، ولم تعد المقابر تكفي لدفنهم، فتم وضع هؤلاء الموتى في مقابر المعابد، وحفرت مقابر جماعية لدفن المئات من الموتى الذين ينقلون بشكل متواصل، فيتم وضعهم بجانب بعضهم بعضًا كالبضائع المتراصة، ويُدفنون ويغطون بالقليل من التراب، بعد أن يحفر لهم في الأرض لمسافة قليلة جدًّا.

وحتى لا نخوض أكثر في الحالة البشعة التي كانت تعاني منها مدينتنا، ويمكنني القول إن هذا الحال العصيب- في تلك الفترة- لم تسلم منها المناطق المجاورة، في القرى الصغيرة، فيما عدا القلاع، كانت تجري الأمور على نفس النحو الذي كان بالمدينة. وكان الفلاحون والمزارعون البسطاء لا يجدون مَن يقدم لهم الدواء ويد العون، وكان يموت منهم الكثيرون طوال الوقت بلا تفرقة أو تمييز، بكل مكان، في الطرقات، أو في الحقول، أو داخل البيوت؛ بشكل مأساوي؛ ومن ظل منهم على قيد الحياة كان ينتظر الموت كل ليلة. فتغيرت سلوكياتهم، كحال سكان المدينة، فلم يعودوا مهتمين بأي شيء مثل السابق، ولا يقومون بأعمالهم. وأهملوا أرضهم ومواشيهم، ولم يعودوا

مهتمين لا بزرع ولا ثمار ولا ما تنتجه المواشي من ألبان وغيرها. وأصبح كل ما يهمهم هو اليوم الذي يعيشونه فقط، غير معنيين بسواه. وتركوا كل ما لديهم من ماشية؛ من أبقار، وأغنام، وماعز، وخنازير، ودجاج، حتى الكلاب التي كانت تحرسهم، والتي تتميز بوفائها لأصحابها، تركوها بلا طعام؛ فراحت تبحث عن ما تأكله وسط الحقول، وكانت هناك الكثير من المحاصيل التي لم يحصدها أصحابها. والعجيب أن تلك الحيوانات كانت تتنقل من مكان لآخر ثم تعود إلى البيوت التي كانت بها، كما لو أنها تعي وتفكر، من غير أن يقودها أحد. ولا يمكننا قول الكثير (إن انتقلنا من الريف، وعدنا إلى مدينتنا)، غير أن هذه المحنة الكبيرة، جعلت الناس بلا مشاعر؛ وبسبب قوة الوباء ترك الناس المرضى الذين يحتاجون إلى مَن يرعاهم، لخوفهم من المرض، فمات ما يبلغ مئة ألف شخص، من أول شهر مارس وحتى شهر يوليو، في مدينة "فلورنسا" وحدها؛ ولم يكن أحد يظن، قبل هذا الوباء، أن بها كل هذا العدد من البشر. آه! يا لَسخرية القدر! فكم من قصور وبيوت رائعة المنظر والجمال، كانت تمتلئ بالسادة والسيدات، أصبحت بلا سكان، لم يبق بها أحد على قيد الحياة، حتى الخدم! وحتى الأسر النبيلة العريقة، والثروات والممتلكات بقيت من غير ورثة شرعيين! وكم من رجال بارزين، ونساء جميلات، وكذا شبان أقوياء كانت الصحة تملؤهم، أصبحوا مع عائلاتهم، وأمسوا بنفس الليلة في العالم الآخر!

حتى أنني أشعر بالغم من هذا الدرب الممتلئ بهذه المحن والآلام العديدة، وما تبقى من وصف شيء لا يذكر. وفي ظل تلك الحالة المؤلمة، كانت مدينتنا شبه خالية من السكان. وفي صباح يوم ثلاثاء، كما حدثني

صديق أثق به، اجتمع بكنيسة "سانتا ماريا" الجديدة، وهي شبه خالية، وبعد سماع القداس، سبع فتيات، يلبسن ملابس الحداد، نظرًا للظروف التي سبق سردها. وكُنَّ على صلة ببعضهن لصداقه أو جوار أو قرابة. جميعهن في مقتبل العمر لا يتعدي عمر أكبرهن الخمسة والعشرين عامًا، وأصغرهن تبلغ ثمانية عشر عامًا. وكلهن يتمتعن بالفطنة، من أسر نبيلة، يتميزن بالجمال والخلق. لن أقول أسماءهن الحقيقية، نظرًا لما سوف أورده لاحقًا في القصص، وحتى لا أسبب لهن أي أذًى نفسي أو معنوي؛ فقد يستغل بعض الحاقدين هذا لينالوا منهن، ونظرا لأن القوانين في يومنا هذا تضيق في الأمور الخاصة بالترويح والمسرات أكثر من ذلك الوقت؛ فوقتها كان يمكننا فعل ما نريد، بسبب الحالة التي كانت سائدة في ذلك الوقت. وليست الشابات هن المعنيات بهذا القول، ولكن مَن هن أكبر منهن في العمر. فلا أرغب في الإساءة لهن، أو حتى التقليل من طهارتهن بكلمات ساذجة. وحتى يتسنى لنا توضيح ما كانت تقوله كل واحدة على حدة، فقد اخترت لكل واحدة منهن اسمًا يشبه صفتها. فنُسمى الأولى وأكبرهن سنًّا "بامبينيا"؛ والثانية "فياميتا"، والثالثة "فيلومينا"، والرابعة "إيميليا"، والخامسة "لوريتا"، والسادسة "نيفيله"؛ ولنُسم آخر واحدة منهن "إليزا". وقد اجتمعن معًا، وبعد وقت من التلاوات وترتيلات صلاة "أبانا الذي في السموات"، تحدثن معًا عن الدنيا، وما يدور فيها، وعن أمور عديدة؛ وبعدها بقليل، صمتت السيدات فقالت "بامبينيا":

– السيدات العزيزات، من المؤكد أنكن قد سمعتن مثلي أن من حق كل منا أن تستخدم عقلها بنزاهة وعفة، وليس من حق أحد أن يستاء إذا

فعلنا ذلك. فحق كل إنسان في هذه الحياة أن يبحث عن ما ينقذ نفسه به من كل أذى قد يحيط به. والواقع أن هذا يصل إلى حد قد يتسبب في هلاك غيرهم، من دون أن يعتبرهم القانون مذنبين. ولذا يجدر بنا، أن نقوم بكل السبل، بحماية أرواحنا. وبعد تفكير في ما قمنا به هذا الصباح أجد أننا جميعًا نخشى على أنفسنا. وهذا هو الشيء الأهم في الحياة؛ فهذه فطرة البشر جميعًا، لكننا لا نبحث عن مخرج مما نخشاه. فكل يوم نشاهد أعدادًا من الأجساد التي فارقت الحياة تذهب إلى مثواها الأخير، أو نسمع الرهبان وقد قل عددهم كثيرًا؛ وحتى لو خرجنا، فسنجد جثثًا ومرضى يحملون في الشوارع، أو أولئك المجرمين الذين يتجولون بالشوارع دون أن يمنعهم أحد، أو نرى الحمالين يتوغلون في كل مكان، ولا يسمع منهم غير "لقد مات هذا"، أو نسمع الصراخ والبكاء؛ فحين أرجع إلى منزلي- لا أعلم إن كنتن تجدن نفس الشيء أو لا- لا أجد فيه غير الخادمة؛ فأشعر بالخوف الشديد. وأحس أن هناك أشباحًا معي بالمنزل؛ فأشعر بخوف أكبر. وهكذا أصبح كل مكان يخيفني، وبشكل أكبر في هذه اللحظة، حيث أرى أنه لم يبق أحد غيرنا ممن أعرفهم، وعندهم مكان يذهبون إليه. وقد رأيت أن من يبقون من الناس لم يعودوا قادرين على التمييز بين الصواب والخطأ، سواء كانوا بمفردهم أو ضمن مجموعة. ولذلك، فلمَ لا نحاول النجاة بحياتنا والهروب من هذا الجو، والبحث عن كل ما كنا نرغب به، أو يحلو لنا، لنستمتع بوقتنا، بدلًا من انتظار الموت. فالكل أصبح يبحث عن نفسه فقط حتى في تلك الأديرة. وإن كان الكل يقوم بهذا، كما هو واضح، فماذا ننتظر هنا؟ وما الذي نحلم به؟ ولمَ نظل في

أماكننا متجمدين؟ أم أننا نظن أن الحياة مقيدة داخل أجسادنا بقيود أقوى مما لدى غيرنا من الناس؟ فمَن نخدع؟. وحتى لا نصل بسبب ترددنا إلى تلك النهايات التي نراها كل يوم، أقترح عليكن أن نذهب من هنا لننجو بحياتنا، ونخرج من هنا كما فعل كثيرون قبلنا، وذهبوا ليقوموا بأمور غير شريفة، معتقدين أن هذا قد ينجيهم. ولنذهب نحن لنقيم بشكل مهذب في إحدى المزارع الريفية التي نمتلكها. ونحتفل ونلهو هناك، دون أن نتجاوز الحدود. فهناك يمكننا سماع تغريد الطيور، ونشاهد الطبيعة الخلابة، والسماء الفسيحة، التي تمتعنا بالنظر لبهائها السرمدي. وبلا أدنى شك، فهذا أجمل من رؤية أطلال هذه المدينة، بعد أن أصبحت خاويةً من السكان. كما أن الهواء هناك عليل، ويوجد كل ما قد نحتاجه. ومع أن الفلاحين يموتون أيضًا هناك، لكن الغم والضيق يقل حين يقل المحيطون بك. وإضافةً لكل ذلك، فلا أعتقد، وأظن أني محقة، أننا سنترك أحدًا هنا، وأعتقد أن أهلنا هم مَن تركونا، فإن أقاربنا إما ماتوا أو تركوا المدينة، وفروا من الموت، لنبقى فى كل هذا الكم من الغم. ولذا، فلا يمكن لأحد أن يلومنا، فى حين أن الحزن وربما الموت قد يقضي علينا إن لم نقم بهذا. وإن كنتن توافقن على قولي هذا، فلنجهز خادمتنا وأغراضنا، ولنذهب لنقضي يومًا في مكانٍ، واليوم التالي بمكان غيره، وهكذا، لنستمتع بوقتنا قدر ما نستطيع، ونظل هكذا لنرى- "إذا لم يخطفنا الموت قبلها"- ماذا يخبئ لنا القدر. وبعد أن أنهت "بامبينيا" كلامها، شرعت النساء الأخريات بالإطراء على كلامها كله، وتوغلن لما هو أبعد من هذا، وتناقشن في طريقة تنفيذ هذا، ومتى سينفذن هذا. غير أن "فيلومينا" التي تتسم بالحيطة والحذر، قالت:

– سيداتي، مهما كان ما قالته "بامبينيا" منطقيًّا ومحبذًا لنا، فليس معنى ذلك أن نقوم بتنفيذه على الفور. ولا تنسين أننا جميعنا من النساء، ونعلم جميعنا، أن النساء- من غير حماية رجل- لن يتمكن من حماية أنفسهن، وتدبر شؤونهن، واتخاذ قراراتهن. فنحن متقلبات، متشككات، ومتخوفات. ولهذا، فأعتقد أننا لو لم نأخذ معنا دليلًا من الرجال فى رحلتنا هذه، فقد نتفكك بسرعة وبشكل غير لائق. ولذلك يجب علينا التفكير جيدًا.

فعقبت "إليزا" على كلامها:

– أنتِ محقة، فالرجال هم رأس النساء، وقليلًا ما نصل للنهاية المرجوة من أي عمل من غير قيادة الرجال. ولكن، كيف نستطيع أن نجد الرجال ليكونوا معنا؟ نحن نعلم أن أغلب الرجال قد ماتوا، ومن بقي منهم تفرقوا في كل مكان، ولا نعلم أين هم، وليس من اللائق أن نطلب من رجال لا نعرفهم القدوم معنا. ولذلك، فعلينا تدبير أمورنا بشكل لا ينتج عنه ما يسيء لسمعتنا، لما نقوم به من أجل الراحة والترفية.

في تلك الأثناء، دخل الكنيسة ثلاثة من الشبان، أعمارهم مختلفة، وأصغرهم كان عمره خمسة وعشرين عامًا. ولحسن حظهم، فلم يكن هؤلاء الشبان قد تأثروا بما يجري بمدينتهم، من فقد الأصدقاء والأهل، أو الخوف من الموت، أو انطفأ نور الحب من قلوبهم. كان أحدهم يدعي "بانفيلو"، والثاني "فيلوستراتو"، والثالث "ديزنيو"، وكانوا على قدر كبير من التهذيب. وقد أتوا في هذا الوقت ليبحثوا عن صديقاتهم اللاتي كن من ضمن السبع نساء، وكانت بعضهن تجمعهن صلة قرابة بهؤلاء الشبان. ولكنهم قبل أن يجدوا مَن كانوا يبحثون عنهن، كانت النساء قد رأينهم، فابتسمت "بامبينيا"

وقالت:

– أري أن القدر قد بعث لنا بما نبحث عنه. فأرسل لنا هؤلاء الشبان الشجعان الذين يقبلون أن يكونوا حماة لنا إن طلبنا منهم هذا.

فردت "نيفيله"، وقد احمرّ وجهها من الخجل، لأنها محبوبة أحد هؤلاء الشبان:

– تمهلي يا "بامبينيا"، فكري فيما تقولين! معك الحق أنه لا يمكننا إلا أن نمتدح هؤلاء الشبان. وأعلم أنهم يمكنهم القيام بأمور أكثر مما نبغي، كما أني أعلم أن رفقتهم ستكون مسلية وبريئة؛ غير أنه من المعلوم أنهم يحبون بعضًا ممن هُنّ معنا هنا، وأخشى لو أتوا معنا أن تلاحقنا الأقاويل والكلام الخبيث، من دون أن نقدم على أي ذنب.

فأجابت عليها "فيلومينا":

– لا يهمنا ولا يعنينا ذلك. فمادمنا على ثقة في أنفسنا أننا لا نفعل ما يجعلنا نشعر بالخزي، ولا بلوم ضميرنا، فلا أهتم بما قد يقوله الناس. فالله شاهدٌ علينا وقادر على إظهار الحق. وإن كانوا على استعداد لمرافقتنا في هذه الرحلة، فسنقول ما تقوله "بامبينيا" من أن القدر أرسل لنا ما كنا نريده.

حين سمعت النساء هذا الرد المناسب، أعلنَّ موافقتهن جميعًا على قدوم الشبان معهن، وأطلعنهم على ما يفكرن فيه، وطلبن منهم أن يكونوا مرافقين لهم في تلك الرحلة. فقامت "بامبينيا"، وكانت قريبة أحد هؤلاء الشبان، فسلمت عليهم، وتحدثت معهم باسمها وباسم باقي السيدات أن يرافقوهن كأخوة لهن. اعتقد الشبان– في بدء الأمر– أنها تمزح معهم، ولكنهم حين رأوا جديتها في ما تقول، وافقوا بكل سرور. وحتى لا يضيعوا

الوقت، حددوا الوقت المناسب للذهاب، ورتبوا كل ما يلـزمهم، وأرسـلوه إلى المكان الذي سيتجهون إليه. وفي صباح الأربعـاء، خرجـت النـساء ومعهـن خادماتهن، والشبان الثلاثة ومعهم خـدمهم، وتركـوا المدينـة، وانطلقـوا في طريقهم. وعلى بُعد ميلين، وصلوا إلى المكان الذي اتفقوا عليه من قبـل. كان هذا المكان يقبع أعلى رابية صغيرة، نائية بنفسها عـن كل الطـرق، وتكـتظ بالكثير من الأشجار والنباتات، وتكسوها الخضرة، فتمنح البهجة لناظريها. وأعلى هذه الرابية ثمة قصر في وسطه فناء جميل وواسع الأرجـاء، بـه أروقـة وقاعات وحجرات كثيرة على درجة عالية من الروعـة، عليهـا نقـش ورسـم يبعث الفرحة في نفس كل من يطالعهـا. وتحـيط بـالمكان المـروج والحـدائق الوارفة، وآبار مياه عذبة، وبراميل من النبيذ الفاخر، التي لا يعرف قيمتهـا إلا الذوَّاقة، وقد لا تكون مناسبة للسيدات القنوعات الطاهرات. لما وصـل القادمون، وجدوا القصر نظيفًـا ومريحًـا، والأسرَّة مرتبـة في غـرف مملـوءة بالزهور الموسمية، فضلًا عن أكاليل سعف النخيـل. ولمـا وصـلوا إلى هنـاك واجتمعوا معًا، قال "ديونيو"، وكان أكثرهم مرحًا وفطنة:

–أيتها السيدات، أود أن أقول إن حسكن السليم، وليست توقعاتنا، هي مَا قادنا إلى هذا المكان، ولست أدري ما هي الأفكار التي لا تـزال تـساوركن؛ أما بالنسبة لي، فقد تركت كل أفكاري وراء ظهري عند المدينة التي غادرتها منذ قليل. إما أن تكُنّ على استعداد للتسلية والمرح والغنـاء مـعي، بمـا لا يتعارض مع كـرامتكـن بـالطبع، بخـلاف ذلـك فاسـمحن لي أن أعـود إلى أفكاري، وأظل هناك بين أسوار تلك المدينة البائسة.

أجابته "بامبينيا" فرحة، كما لـو أن نفـس الأفـكار تـراود كليهمـا في آن

واحد:

– أحسنت حقًّا يا "ديونيو". فعلينا أن نعيش في مرح وسعادة، ولا شيء سواهما، لأن الأحزان هي ما دفعتنا للهرب. علينا أن ندشن نظامًا محددًا، لأن اللانظام لا يجعل الأمور تستمر طويلًا، كما تعرفون. وبما أنني من شرعت في الحديث الذي بسببه صرنا في هذه الصحبة الطيبة، فقد راودتني أفكار لإطالة فترة سعادتنا؛ وأولها أنه لا بد أن نقوم باختيار مَن يكون مسؤولًا عنا، نقدره ونطيعه باعتباره قائدنا، على أن تكون كل أفكاره منصبةً على إسعادنا في المقام الأول. ومن منطلق أن يجرب كل فرد منا تجربة الاضطلاع بالمسؤولية، ومتعة الحكم، ولا يحسد منا أحدٌ الآخر، فإنني أقترح عليكم أن نتبادل دفة القيادة، بمعني أن كل واحد منا يتولى عبء وشرف الحكم لمدة يوم واحد، ونتولى جميعا اختيار المسؤول الأول، وعند غروب كل ليلة، يقوم هذا المسؤول/ المسؤولة باختيار خليفته لليوم التالي، الذي يتولى مسؤولية الحكم لمدة يوم كامل، يحكم فيه ونطيعه، ويقرر كيف وأين سنقضي هذا اليوم.

رحب الجميع بهذه الكلمات، واختاروا بالإجماع صاحبة هذه الفكرة على أن تتولى مسؤولية الحكم في اليوم الأول. ثم ركضت "فيلومينا" بسرعة شديدة إلى شجرة غار بالجوار، فانتقت بعض الأغصان، وصنعت منها إكليلًا– فقد سمعت "فيلومينا" عن أن أوراق الغار تُضفي هيبة وسموًّا وشجاعة على مَن يُتوج بها. وطوال فترة اجتماعهم ظل هذا الإكليل يتوج رأس الملك أو الملكة، كدليل دامغ على ممارسته سلطة الحكم.

لما أن أُختيرت "بامبينيا" لتصبح ملكة اليوم الأول، أصدرت أوامرها

للجميع بضرورة الصمت، ثم قامت باستدعاء خدم الشبان الثلاثة، وخادمات السيدات، وكُن أربع خادمات، وقالت لهن:

- يجب عليَّ أن أقدم لكن القدوة، كي يتحسن كل يوم عن سابقه، وتستمر رفقتنا بنظام وسعادة، دون خلل. ومن هذا المنطلق أختار "بارمينو" خادم "ديونيو" ليتولى مسؤولية وصيفي، ومن ثم أفوضه في أمر العناية ببيتنا، والمهام الأخرى المتعلقة بمائدة الطعام وإعداده. أما "سيريسكو"، خادم "بانفيلو"، فسيتولى المهام المتعلقة بالمؤن والمخازن، ويخضع- في الوقت ذاته- لأوامر "بارمينو". علاوةً على ذلك، فإني آمر "تيندارو" أن يظل في خدمة سيده "فيلوستراتو"، ويزيد عليه أن يقوم على خدمة رفيقي سيده الآخرين، وأيضًا عليه القيام بالاعتناء بغرفهم، في حالة انشغال الخادمين الآخرين بمهامهما. أما عن وصيفتي "ميزيا"، ووصيفة "فيلومينا" "ليتشيسكا"، فعليهما أن يمكثا في المطبخ ليعدا الأطعمة التي يأمرهما وصيفي "بارمينو" بطبخها. أما "كيميرا" وصيفة "لوريتا"، و"ستراتيليا" وصيفة "فياميتا"، فعليهما ترتيب غرف نومنا، فضلًا عن تنظيف الأماكن التي سنجتمع فيها. كما أننا نأمرهم جميعا- مجتمعين أو منفردين- بألا يأتوا إلينا بأي خبر من الخارج إلا إذا كان مبهجًا، وإلا فلن يستمر بقاؤهم معنا طويلًا.

وبعد أن أصدرت هذه المجموعة من الأوامر، وموافقة الجميع عليها، نهضت باسمة الثغر من مكانها، وقالت:

- يعج هذا المكان بالكثير من الحدائق والمروج الغناء، وأماكن أخرى بديعة، يمكن لكل منا أن يجد فيها متعته، فانطلقوا كما تشاؤون؛ لكن مع

دقات الساعة الثالثة، على الجميع أن يعودوا إلى هنا ثانيةً لتناول الغداء وسط نسمات الهواء العليل.

بعد أن حصل الجميع على إذن الملكة التي تم اختيارها منذ لحظات، انطلق الشبان وبصحبتهم الفتيات، متجهين صوب إحدى الحدائق الغنّاء يتجاذبون أطراف الأحاديث في موضوعات تبعث في النفس السعادة. ولما أن انتهى الوقت المحدد من قبل الملكة، عادوا جميعًا إلى البيت، حيث وجدوا الوصيف المعين "بارمينو" قد تولى مهام عمله بحرفية كبيرة. فلما أن دخلوا إلى قاعة بالطابق الأرضي، وجدوا الموائد وقد كسيت بمفارش بيضاء متلألئة، عليها كؤوس فضية، والكثير من الورود. غسلوا أيديهم أولًا بالماء الذي أحضروه لهم خصيصًا لهذا الغرض بناءً على أوامر الملكة، ثم جلسوا جميعًا حول المائدة، وتحديدًا في الأماكن التي حددها "بارمينو" لكل منهم. أُحضر الطعام اللذيذ بأنواعه الشهية، والأنبذة الفاخرة التي قُدمت إليهم بواسطة الخدم الثلاثة المكلفين بذلك. ابتهج الجميع عند رؤيتهم مدى براعة النظام الموضوع، ووسط كلمات دالة على الفرحة والسعادة الجمة، أخذوا يتناولون الطعام. وما إن فرغوا من تناول الطعام، حتي رُفعت الموائد، تلا ذلك أمر ملكي بإحضار الآلات الموسيقية، لأن النساء جميعًا كن يحسن الرقص والغناء، بل والعزف أيضًا. ثم أمرت الملكة "ديونيو" بأن يلتقط العود، وتمسك "فياميتا" بالفيولا، وأخذا يعزفان لحنًا راقصًا جميلًا. ولما أن تم إرسال الخدم لتناول الطعام بدورهم، بدأت الملكة والسيدات والشابان الآخران بالرقص بخطوات يغلب عليها البطء. ولما أن انتهت هذه الرقصة، بدأوا يغنون أغنيات أخرى مبهجة. ظلوا على هذا الحال إلى أن رأت الملكة

أن وقت النوم والراحة قد حان، فأذنت للجميع بالذهاب لينالوا قسطًا من الراحة، فذهب الشبان الثلاثة إلى غرفهم، المنفصلة عن غرف النساء، حيث وجدوا الأسرة مرتبة، والحجرات مليئة بالزهور، وعلى نفس النحو وجدت النساء غرفهن، فخلعن ملابسهن، ورحن في سبات عميق.

بعد أن انقضت ساعات الضحى، استيقظت الملكة، وأيقظت الآخرين، جازمةً أن النوم مدة طويلة في النهار أمر ضار. بعد ذلك خرجوا إلى أحد المروج ذات الأعشاب الناضرة كثيفة الخضرة، البعيدة عن أشعة الشمس، وكانت نسمات الهواء العليلة تهب، فأحاطوا بالملكة جالسين على العشب، كما طلبت منهم، وشرعت تقول:

– كما ترون، فقرص الشمس صار ساطعًا في عنان السماء، واشتدت حرارة الجو، ولم نعد نسمع شيئًا سوى صرير الزيزان[8] المنتشر على أشجار الزيتون. وليس من الحكمة التحرك بعيدًا عن هذا المكان، فالمكان هنا مناسب ومعتدل الحرارة، وهنا أيضًا لعبة الشطرنج، وأشياء أخرى يمكن لكل منا أن يتسلى مثلما يرى ويهوى.

أما عن وجهة نظري، فإنني أرى ألا نقضي ساعات الحر هذه في اللعب، كي لا يتعكر صفو أحدكم، فتتعكر سعادة من يلاعبه، وربما من يتابعون اللعب هم الآخرين؛ والأفضل أن نقضيه في قص الحكايات. وبالتالي، فسيتحدث واحدٌ منا، ويستمع إليه الآخرون، وبعد أن تنكسر حرارة الشمس، وتميل نحو الغروب، نكون قد انتهينا من قص الحكايات. بعدها،

---

[8] حَشَرَةٌ تَحُطُّ طَويلًا عَلَى الشَّجَرِ، لَها صَوْتٌ صَرْصارٌ على وَتيرَةٍ واحِدَةٍ، ومفردها زيز.

يمكننا أن نلعب ونمرح كيفما نشاء. هذه وجهة نظري، فإن كنتم تستحسنونها، فلننفذها؛ وإن كنتم ترون غير ذلك، فليفعل كل منكم ما يريد حتى الغروب.

أعجبت فكرة قص الحكايات الموجودين جميعًا من رجال ونساء، فقالت الملكة معقبة على ذلك:

– إذا استحسنتم الفكرة، فإنني أرى أن يتكلم كل واحد منا في الموضوع الذي يريد التحدّث فيه.

بعد ذلك التفتت الملكة ناحية "بانفيلو"، الجالس إلى يمينها، وطلبت منه، وقد ارتسمت الابتسامة على وجنتيها، أن يبدأ بقص حكايته، ليفتتح ما تم الاتفاق عليه؛ فسارع ملبيًا نداء الملكة بعد سماعه مباشرة، وقال والكل ينصت إليه بآذان صاغية:

القصـة الأولـى

السيد "تشابّليتُّو" يخدع الراهب باعتراف زائف، ثم يموت؛ وبعد أن كان رجلًا سيئًا جدًّا، اعتبروه قديسًا بعد موته، وأصبح يلقب بالقديس "تشابّليتُّو".

من الطبيعي أيتها النساء العزيزات، أن يبدأ الإنسان- عند الشروع في أي عمل- بذكر اسم الرب خالق كل شيء. ولذلك، وبصفتي أول الرواة، سأبدأ بقصة من معجزات الرب الخالد، من أجل أن يزداد أملنا فيه بعد سماعها، ونزداد له تبجيلًا إلى الأبد.

فمن المعلوم أن الحياة، وكل الأشياء من حولنا، فانية، ولا تخلو كذلك من الهموم والآلام والمخاطر، ولذلك لا يستطيع أحد منا أن يعيش فيها بلا خطيئة، دون فضل من الرب الذي يمنحنا المدد والقوة، ولا يظن أحد أن الرب يمنحنا هذه النعمة لميزة نتميز بها عن باقي المخلوقات، وإنما برحمته ولطفه بنا، وبصلوات القديسين الذين كانوا يعيشون على الأرض مثلنا ثم انتقلوا إلى الحياة الأبدية. ومع أنهم كانوا ينساقون وراء شهواتهم مثلنا إلا أنهم ينعمون الآن بجوار الرب بالخلود والسعادة، ونحن نذكرهم ونتوسل إليهم

لأنهم عاشوا الحياة مثلنا، ويعلمون ضعفنا، أو ربما لأننا لا نجرؤ على أن نطلب ذلك من الرب بسبب ما نقترفه من آثام. ولأننا لا نملك القدرة مثل الرب على النفاذ إلى داخل النفس ومعرفة أسرارها، يحدث لنا أحيانًا أننا ننخدع في بعض الأشخاص، فنطلب منهم الصلاة من أجلنا، وهم منفيون نفيًا أبديًّا من رحمة الرب؛ أما الرب الذي لا يخفى عليه شيء، فينظر إلى قلب المتوسل ونقائه، دون أن ينظر إلى جهله، أو إلى ذلك المطرود من رحمته، فيستجيب له كأنه توسل إليه بقديس. وهو ما سيتضح جليًّا في القصة التي سأحكيها لكم، أعني أن الذي سيتضح لكم هو أعمال الإنسان الخاطئة، وليس حكم الرب.

كان "موشاتو فرانزاسي" تاجرًا كبيرًا من أثرى أثرياء فرنسا. وجعله ثراؤه هذا واحدًا من السادة في حاشية الملك. وقد طُلب منه أن يسافر برفقة السيد "كارلو سينساتيرّا"، شقيق ملك فرنسا، إلى مدينة "توسكانا" الإيطالية، عندما استدعاه البابا "بونيفيسو" للقدوم إليه. ولأن تجارة "فرانزاسي" منتشرة ومتشعبة في أماكن كثيرة في فرنسا، مثلما هو الحال مع كل التجار، ولأنه لا يستطيع أن يقوم بتصفيتها بالسرعة المطلوبة، فقد قرر أن يكلف عدة أشخاص بمتابعتها. وبالفعل، وجد كل الأشخاص المناسبين لهذه الأمور، ولم يبق له سوى أن يجد شخصًا ليقوم بجمع الديون المستحقة له لدى بعض العملاء من بلدة "بورجونيا"[9]؛ وهو أمر كان يقلقه لعلمه بأن البورجونيين

---

[9] إقطاعية كانت قائمة داخل أراضي مملكة فرنسا، يحكمها دوقات بالوراثة. وانتهت هذه الدوقية- بوفاة الملك "كارلو" سنة 1477 -إلى أن تم استيعابها تحت مظلة التاج الفرنسي،

قوم مماطلون وخبثاء. ولم يكن يعتقد أن بإمكانه أن يجد شخصًا ماكرًا يستطيع أن يتغلب عليهم بدهائه. وبعد تفكير عميق، تذكر شخصًا يُدعى "شابيريلو" كان يتردد دومًا عليه في منزله في باريس، ولا يعرف الفرنسيون معنى اسمه، وكانوا يظنون أنها تعني "شابلو"، أي طوق الورود الذي يزين العنق بلغتهم الدارجة. ولأنه كان ضئيل الجسم، فقد أطلقوا عليه اسم "تشابّليتُّو"، التي تعني "شابلو الصغير"؛ واشتهر بذلك الاسم. كان "تشابّليتُّو" هذا يعمل موثقًا للعقود، وكان يزيف كل الوثائق التي يقوم بها تقريبًا، ويحزن إذا كتب وثيقة غير مزيفة. وكان يزيف أية وثيقة تُطلب منه بلا مقابل، بل يجد سعادة في ذلك أكثر من تلك الوثائق غير المزيفة التي يأخذ عليها مقابلًا؛ وكذلك كان يشعر بمتعة وسعادة حين يشهد زورًا في قضية، سواء طلب أحد منه ذلك أم فعله متطوعًا؛ وكان يقسم أمام القاضي بقول الحقيقة، ثم يكذب ويجد سعادته في ذلك. وكذلك، كان يجد سعادته في الوقيعة بين الناس ونشر الشائعات الكاذبة؛ وكلما أدى ذلك إلى كوارث كبيرة ازدادت سعادته كثيرًا بما فعل. وكان يساعد القتلة والمجرمين إذا طلبوا منه المساعدة، وقد قتل وجرح الكثيرين، وكان يفعل ذلك وهو في غاية السعادة؛ وكذلك كان يتفوه بألفاظ لا تليق في حق الرب والقديسين، ويسخر من المقدسات، ولا يذهب إلى الكنيسة مطلقًا، بل- على العكس- كان يذهب إلى الحانات وبيوت الدعارة؛ فقد كان مولعًا بالنساء، ولا يجد حرجًا في أن يسرق ويخدع الناس. وكان يأكل ويشرب حتى يصل إلى الغثيان من كثرة

من قبل "لويس الحادي عشر"، ملك فرنسا.

الأكل، وكان مقامرًا ويغش في اللعب وهو يقامر. وحتى لا أطيل عليكم في وصفه، فقد كان أسوأ مخلوق على وجه الأرض، وكان السيد "موشاتو" يحميه بنفوذه وجاهه من أن تناله يد العدالة. وحين خطر ببال السيد "موشاتو" ذلك الرجل، رأى أنه سيكون الرجل المناسب للتعامل مع أولئك البورجونيين الخبثاء، فاستدعاه، ثم قال له:

– تعلم يا "تشابّليتُّو" أنني سأسافر قريبًا، وأود أن أقوم بتصفية حساباتي التجارية مع أناس كثيرين، ومن بين هؤلاء الناس مجموعة من البورجونيين، وهم قوم دهاة وخبثاء، ولا يوجد أفضل منك ليقوم بجمع ديوني المستحقة لديهم، بما أنك ليس لديك عمل في هذا الوقت. وإذا وافقت، فسأمنحك توصية من الملك، وسأمنحك كذلك مبلغًا كبيرًا مما ستقوم بجمعه من مال.

ولأن "تشابّليتُّو" بلا عمل، ويمر بفترة ضيق وكآبة من العالم الذي يعيش فيه، ولأن سيده الذي يوفر له الحماية والأمان سيسافر ويتركه، فقد وافق على الفور. عندئذ منحه السيد "موشاتو" توكيلًا قانونيًّا ورسالة توصية من الملك، ثم توجه بعدها "تشابّليتُّو" إلى "بورجونيا"، ولم يكن يعرفه أحد في هذه البلدة. فتظاهر أمامهم بالطيبة، وحاول أن يجمع منهم المال بكل الطرق الحميدة. وأثناء عمله هذا، كان يقيم في منزل أخوين من بلدة "فلورنسا"، يعملان بالربا، وقد استضافاه في منزلهما وأكرماه لحبهما للسيد "موشاتو". وفيما كان يواصل عمله مرض مرضًا شديدًا فاستدعى له الأخوان الطبيب تلو الطبيب، وعينوا له خدمًا ليقوموا على خدمته، ولكن دون جدوى؛ فقد كانت حالته تسوء يومًا بعد يوم، حتى أيقن الأخوان أنه ميت لا محالة، فتألما لذلك كثيرًا.

وذات يوم، وفيما كانا على مقربة من الغرفة التي يرقد فيها "تشابّليتُّو"، قال أحدهما للآخر: ماذا سنفعل بهذا الرجل؟ لو طردناه من المنزل في حالته هذه، فسيكون تصرفا أرعن، وسنُنتقد انتقادًا شديدًا، وسيقول الناس إننا بعد أن استضفناه وأكرمناه ثم اعتنينا به في مرضه وأحضرنا له الأطباء، نطرده الآن وهو في النزع الأخير. وحيث أنه كان رجلًا خبيثًا في حياته، من ناحية أخرى، فسيرفض الاعتراف بخطيئته أمام الراهب. فإذا ما مات دون اعتراف، فلن تقبل جثمانه أية كنيسة، وسيُلقى في أية حفرة كالكلاب الميتة. وحتى إذا اعترف بخطاياه، فإن خطاياه عظيمة ورهيبة، ولن يقبل أي كاهن أن يمنحه الغفران، وسيُلقى جثمانه في أية حفرة كالكلاب الميتة أيضًا. وإذا حدث هذا، فإن الناس في هذه البلدة، الذين يكرهوننا بسبب تعاملنا بالربا، ودائمًا ما يتحدثون عنا بالسوء، سيجعلهم ذلك يهجمون علينا في بيتنا ويقولون عنا: هذان الإيطاليان الخبيثان اللذان رفضت الكنيسة استقبالهما، وسيستولون على كل أموالنا، وربما يقتلوننا؛ ففي كل الأحوال سنلقى سوء المصير إذا ما مات هذا الرجل.

سمع "تشابّليتُّو" كلامهما؛ فقد كانا يقفان بالقرب من غرفته كما قلنا، واستدعاهما إليه، وقال لهما:

- لقد سمعت حديثكما، وأنا لا أريد أن يلحق بكما ضرر بسببي، وأنا متأكد أن كل ما قلتماه سيحدث بالفعل كما توقعتم. لكني على يقين من أن هذا الأمر سينتهي بسلام؛ لقد كذبت في حياتي كثيرًا، ولن يضيرني أن أكذب هذه المرة قبل أن أموت، فاذهبا وأُحضرا لي راهبًا طيبًا لأعترف له بخطيئتي حتى يمنحني الغفران، واتركانا معًا ولا تقلقا، فلن تجدا بعد ذلك إلا

ما يسركما.

وبالفعل، ذهب الأخوان إلى أحد الأديرة، وهما فاقدا الأمل، وطلبا راهبًا طيبًا حتى يتلقى اعتراف رجل إيطالي طريح الفراش في منزلهما. فحضر معهما راهبٌ عجوز، نقي السيرة والسريرة، وضليع في شرح الكتاب المقدس، ويحظى بتقدير كل أهل البلدة لشدة تقواه وورعه. وبعد أن وصل الراهب وجلس بجوار "تشابّليتُّو"، وأخذ يهدئ من روعه بكل طيبة وحنان، سأله عن آخر مرة اعترف فيها بخطاياه، فأجابه "تشابّليتُّو"، الذي لم يعترف لراهب في حياته قط:

-أنا معتاد، يا أبونا، أن أعترف في كل أسبوع مرةً على الأقل، هذا بخلاف الاعترافات الكثيرة جدًّا التي كنت أقوم بها في أوقات مختلفة. لكني منذ أن مرضت، منذ حوالي ثمانية أيام، وأنا لم أعترف؛ وهذا أكثر ما آلمني في هذا المرض.

فقال له الراهب:

- أحسنت، يا بني، هذا ما يجب أن يكون، وبما أنك كثير الاعتراف، فلن أتكبد جهدًا كبيرًا في سؤالك وسماعك.

فقال له "تشابّليتُّو":

- سيدي الراهب، لا تقل هذا، ففي كل مرة أعترف فيها يطيب لي أن أعترف بكل خطاياي التي أتذكرها منذ لحظة مولدي إلى لحظة الاعتراف. ولهذا أرجوك، يا أبونا، أن تسألني عن كل شيء، كل شيء، وكأنني لم أعترف من قبل، ولا تأخذك بي الشفقة لأنني مريض؛ فأفضل لي أن أنهك هذا الجسد على أن أريحه، فتذهب روحي إلى الجحيم، بعد أن خلصها يسوع

المخلص بدمائه الطاهرة.

لاقت هذه الكلمات إعجابًا كبيرًا من الراهب، وأثنى كثيرًا على ما اعتاد عليه "تشابّليتُّو"، ثم سأله إن كان قد اقترف خطيئة الزنا بامرأة من قبل، فأجابه "تشابّليتُّو" وهو يشعر بالمرارة:

-أستحي، يا أبونا، أن أقول الحقيقة في هذا الأمر، خشية أن أقع في خطيئة العجب والغرور.

فقال له الراهب:

-بل قل واطمئن. فقول الحقيقة، سواء في الاعتراف أو في غيره، لا يعد خطيئة.

عند ذلك قال له "تشابّليتُّو":

- بما أنك أكدت لي أن هذا ليس بخطيئة، فاعلم أنني ما أزال بكرًا منذ أن ولدت من بطن أمي.

فقال له الراهب:

-باركك الرب! ما أحسن ما فعلت! فهذا يجعلك في منزلة عالية. فقد كانت لديك الحرية لفعل هذه الخطيئة، بخلافنا نحن الرهبان المحكومين بقواعد محددة.

ثم سأله الراهب، بعد ذلك، إن كان قد اقترف قبل ذلك خطيئة الشراهة. فتنهد "تشابّليتُّو" تنهدًا عميقًا، ثم أخبره بأنه فعلها أكثر من مرة. فبعد أن يصوم الصيام الأربعيني الذي يصومه كل الناس الأتقياء في كل عام، كان يصوم هو علاوةً على ذلك ثلاثة أيام على الأقل من كل أسبوع، لا يأكل سوى الخبز، ولا يشرب سوى الماء؛ لكنه كان يشرب الماء بنهم شديد، خاصةً عندما

يكون مجهدًا، أو أثناء سفره في رحلة الحج إلى بيت المقدس. وكان يشتهي كذلك- في أحيان كثيرة- سلطة الخضار التي تعدها النساء في الريف، وأحيانًا أخرى كان يأكل أكثر مما يأكله الصائمون الأتقياء. فقال له الراهب:

- هذه خطايا بسيطة وعادية، يا ابني، فلا تجعل ضميرك يؤنبك، ولا تعطها أكبر من حجمها. فأي إنسان، حتى لو كان قديسًا، يشعر بالرغبة في تناول الطعام بعد الصوم الطويل، وكذلك يشعر بالعطش بعد المجهود الشاق.

فقال له "تشابّليتُّو":

- لا تحاول مواساتي، يا أبونا، فأنت تعرف جيدًا أنني أعرف أن خدمة الرب يجب أن تكون بإخلاص، وألا تشوبها شائبة، وإلا تحولت إلى خطيئة.

فقال له الراهب مبتسمًا:

-أنا سعيد أنك تريد أن تحصن روحك، وسعيد أكثر بنقاء ضميرك وطيبتك. ولكن أخبرني، هل اقترفت خطيئة البخل، فرغبت في اقتناء أكثر مما تحتاج؟

فأجابه "تشابّليتُّو":

- لا تُسئ الظن بي، يا أبونا، لأنك تراني الآن في منزل هذين الرجلين المرابيين، فأنا ما جئت إليهما لشيء يخصني، لكني جئت لأحذرهما وأعنفهما ليكُفّا عن هذا الفعل الشنيع. وأعتقد أنني كنت على وشك أن أنجح في ذلك، لو لم يبلوني الرب بهذا المرض. ويجب أن تعلم أن أبي قد ترك لي ميراثًا كبيرًا من المال، وقد تصدقت بمعظمه بعد موته. ولكي أنفق على نفسي وعلى فقراء يسوع المسيح، فقد قمت ببعض الأعمال التجارية الصغيرة بغرض الربح، وكنت أتقاسم ذلك الربح معهم، فأعطيهم النصف وأنفق

النصف الآخر على احتياجاتي الحياتية. ولذلك، فقد ساعدني الرب كثيرًا في عملي، فازدادت تجارتي يومًا بعد يوم.

فقال له الراهب:

-أحسنت، ولكن قل لي هل كنت كثير الغضب؟

فأجابه "تشابّليتُّو":

- نعم، كنت أغضب كثيرًا. فكيف يكظم المرء غضبه وهو يرى الناس يرتكبون المعاصي دون أية مراعاة لأوامر الرب، أو أي خوف من عقابه؟ وقد تمنيت كثيرًا أن أموت، ولا أرى الشبان يرتكبون المعاصي، وكي لا أسمعهم وهم يحلفون بالرب كذبًا وبهتانًا، ولا أراهم وهم يذهبون إلى الحانات ولا يذهبون إلى الكنائس، ويسلكون كل الطرق المؤدية إلى العالم الفاني، ولا يسلكون طريق الرب.

فقال له الراهب:

- هذا غضبٌ محمود، يا ابني، ولا أعلم له كفّارة. ولكن هل دفعك الغضب هذا لارتكاب خطيئةٍ ما، كأن تسب أحدًا أو تتلفظ بألفاظ غير لائقة؟

فأجابه "تشابّليتُّو":

- آه يا سيدي، أنت كما أرى رجل من رجال الرب؛ فكيف تقول هذا الكلام؟ إنني لو فكرت مجرد تفكير في فعل شيء من هذه الأشياء، فهل تظن أن الرب كان سيعينني في حياتي كل هذه السنين؟ سيدي، هذه الأفعال لا يقوم بها سوى الأشرار الوضيعين، الذين كنت كلما رأيت واحدًا منهم أقول له: فليهدِك الرب.

فقال له الراهب:

-إذن قل لي يا ابني، وليباركك الرب، هل شهدت شهادة زور من قبل، أو تحدثت بسوء عن أحد، أو أخذت شيئًا من أحد دون رضاه؟

فأجاب "تشابّليتُّو":

- نعم يا سيدي. لقد تحدثت بسوء عن شخص ذات يوم؛ فقد كان لي جار، وكان يضرب زوجته كل يوم. وقد تكلمت عنه بسوء في أحد الأيام عند أهل هذه الزوجة البائسة التي كنت أتأثر كثيرًا لحالها؛ فقد كان يضربها ضربًا مبرحًا كلما أفرط في الشراب.

فقال له الراهب:

- حسنًا، لقد أخبرتني أنك كنت تعمل بالتجارة، فهل غششت أحدًا كما يفعل التجار؟

فأجابه "تشابّليتُّو":

- بالفعل، حدث ذلك يا سيدي. لكني لا أعلم من يكون؛ ففي أحد الأيام بعتُ قماشًا لأحد الأشخاص، ثم وضعت النقود التي بعت بها في الخزانة، دون أن أعدها. وبعد مرور شهر، اكتشفت أنه أعطاني أربعة جنيهات زيادةً عن الثمن المحدد، فاحتفظت بها حتى أردها إليه. وبعد أن مرت سنة كاملة ولم يرجع الرجل، تصدقت بها لوجه الرب.

فقال له الراهب:

- هذا شيء يسير، وقد أحسنت بالتصدق بها.

وأخذ الراهب بعد ذلك يسأله عن أشياء كثيرة. وفي كل مرة، كان "تشابّليتُّو" يجيب بنفس الطريقة السابقة. وعندما أراد الراهب أن يمنحه

الغفران، قال له "تشابّليتُّو":

- سيدي، لا تزال هناك خطيئة فعلتها، ولم أخبرك بها.

فقال له الراهب: وما هي؟

فأجابه "تشابّليتُّو":

- لقد طلبت من خادمي ذات يوم أن ينظف المنزل، وكان ذلك يوم سبت، فلم أحترم بذلك قدسية يوم الأحد.

فقال له الراهب:

- هذا أمر يسير، يا ابني.

فقال له "تشابّليتُّو":

- لا تقل إنه أمر يسير، فيوم الأحد يوم مقدس؛ ففيه بُعث يسوع المسيح من قبره.

ثم سأله الكاهن إن كان هناك شيء آخر قام بفعله، فقال له "تشابّليتُّو":

- نعم يا سيدي. ففي أحد الأيام، ودون أن أنتبه، بصقت في كنيسة الرب.

فابتسم الراهب، وقال له:

- هذا أمر هيّن، يا ابني، فنحن "رجال الدين" نبصق فيها كل يوم.

فقال له "تشابّليتُّو":

- هذه خطيئة عظيمة تقترفونها، فلا يوجد مكان يستوجب الحفاظ على نظافته مثل هذا المكان المقدس، الذي تقدم فيه القرابين للرب.

وظل يتحدث كثيرًا في أشياء من هذا القبيل. وبعد ذلك أخذ يتأوّه بحرقة وانهمر في البكاء؛ فهو يجيد ذلك جيدًا. فقال له الراهب: ماذا بك، يا ابني؟ فأجابه:

-آه يا سيدي، لا تزال هناك خطيئة لم أعترف لك بها، فخجلي من نفسي يمنعني من ذكرها، وكلما تذكرتها أبكي بكاءً شديدًا كما ترى، ولا أظن أن الرب سيغفرها لي ويسامحني عليها.

فسأله الراهب:

-وما هي هذه الخطيئة؟ قل لي يا ابني. فلو كانت كل خطايا البشر منذ بدء الخليقة وإلى يوم القيامة في رجل واحد، ثم اعترف بها وتاب عنها، "كما أراك الآن في توبتك"، لغفرها الرب. فتكلم إذن وأنت مطمئن.

فقال "تشابّليتُّو" وهو منهمر في البكاء:

-آه يا أبونا، خطيئتي كبيرة جدًّا، ولا أظن أن الرب سيغفرها لي، ما لم تُصلِّ من أجلي.

فقال له الراهب:

-أخبرني بها، وأنا أعدك بأن أصلي من أجلك.

استمر "تشابّليتُّو" في بكائه دون أن يتكلم، وأخذ الكاهن يشجعهُ على الكلام. وظلا على ذلك فترة من الوقت، ثم تنهد "تشابّليتُّو" بقوة ثم قال:

-بما أنك وعدتني بالصلاة من أجلي، يا أبونا، فسأُخبرك بخطيئتي. لقد سببتُ أمي وأنا طفل صغير.

ثم انهمر بعدها في البكاء، فقال له الراهب:

-أتظن أن هذه خطيئة عظيمة، يا بني؟ فالناس يسبون الرب كل يوم، ومع ذلك يسامحهم. وتظن أنت أنه لن يسامحك على هذه الخطيئة الصغيرة؟ هدئ من روعك، ولا تبك! فلو كنت واحدًا ممن صلبوا المسيح، ثم تبت إلى الرب مثل توبتك هذه، لغفر لك.

فقال له "تشابّليتُّو":

-آه يا أبونا، ماذا تقول؟ أمي ،أمي الحنون التي حملتني في بطنها تسعة أشهر، وحملتني بين يديها مئات المرات، ثم أسبها بعد ذلك؟ هذا ذنب عظيم. وإن لم تُصلِّ من أجلي فلن يغفره الرب لي.

وعندما انتهى الراهب من أسئلته، منحه الغفران والبركة. وكان يشعر أنه أمام رجل من القديسين؛ فقد كان يصدق كل ما قاله له "تشابّليتُّو". ومن باستطاعته أن يظن غير ذلك، وهو يرى رجلًا يعترف وهو في النزع الأخير؟ وبعد أن منحه الغفران، قال له:

- ستُشفى قريبًا بمشيئة الرب، يا سيد "تشابّليتُّو". أما إذا استدعى الرب روحك الطاهرة والمباركة، فهل تقبل أن يُدفن جثمانك في ديرنا؟

فأجابه "تشابّليتُّو":

- نعم يا سيدي، بل لا أرغب في أن أُدفن في مكان آخر، فأنت وعدتني أن تصلّي من أجلي. وقد عشت طوال حياتي وأنا أُكنّ احترامًا عظيمًا لكم. وأرجو منك، إذا سمحت لي، أن ترسل لي بعضًا من خبز القربان الذي تباركونه على المذبح كل صباح، لأنني أريد أن آكله لحظة خروج الروح، وإن كنت لست جديرًا بذلك، كي أموت مسيحيًّا صالحًا بعد أن عشت حياتي مرتكبًا للخطيئة.

فقال له الراهب أنه سيرسله إليه بكل سرور، وأنه أحسن حينما أراد ذلك.

كان الأخوان يقفان وراء حائط الغرفة، ليتمكنا من سماع اعترافات "تشابّليتُّو" للراهب؛ فقد كانا يخشيان أن يخدعهما. وبالفعل تمكنا من سماع

كل شيء. وأثناء ذلك، كانا لا يستطيعان كتمان ضحكاتهما، وأخذا يتهامسان قائلين:

- أي نوع من البشر هذا الرجل؟ فلا كبر السن ولا المرض، ولا الخوف من الموت الذي سيأتيه بعد لحظات، ولا الخشية من الرب الذي سيلقاه بعد قليل، ولا شيء من هذا كله استطاع أن يجعله يكف عن كذبه وخبثه؟

لكنهما بعد أن علما أنه سيُدفن في الدير، لم يعد يهمهما شيء من ذلك.

بعد مرور بعض الوقت، ساءت حالة "تشابّليتُّو"، ثم فاضت روحه عند غروب الشمس. قام الأخوان بتهيئته للدفن بصورة لائقة، وأرسلا إلى الرهبان، كي يأتوا للصلاة على الجثمان أثناء الليل، ثم يحملوه في الصباح إلى الدير. وحين سمع الراهب بموته أمر بأن تُدق الأجراس، ثم جمع الرهبان وقال لهم إن السيد "تشابّليتُّو" كان رجلًا قديسًا بالنظر إلى اعترافاته التي أدلى بها. وطلب من رئيس الدير أن يكرم جثمانه، فوافق رئيس الدير، وذهبوا جميعًا أثناء الليل إلى المنزل الذي يضم جثمانه، وظلوا يصلون عليه طوال الليل. وعند الصباح ارتدوا الملابس البيضاء، ووضعوا على رؤوسهم القلنسوات، وحملوا الكتاب المقدس في أيديهم ورفعوا الصليب، ثم ساروا به في جنازة مهيبة إلى الدير. صعد الراهب الذي تلقى اعترافاته فوق المنبر، ليخطب في الناس، فأخذ يتحدث عن ورع "تشابّليتُّو"، وعن صيامه وعذريته وطهارته. وقال لهم إن السيد "تشابّليتُّو" قد اعترف له وهو منهمر في البكاء بأعظم خطيئة اقترفها، بعد أن تعب في إقناعه بأن يعترف بها، وهي أنه سب أمه ذات يوم وهو طفل صغير. ثم وجه لهم الحديث: أما أنتم، أيها الأشقياء، فإنكم تسبّون المسيح وأمه، كلما تعثرت قدمكم بجزمة من

القش. ثم ذكر أشياء كثيرة عن طيبة "تشابّليتُّو" وطهارته، فتأثر الناس كثيرًا بهذ الكلام. وبعد أن انتهى الراهب من حديثه، ذهبوا إلى الجثمان بكل وقار ليقبلوا يديه وقدميه، ثم أخذوا يوزعون ثيابه بينهم ليتباركوا بها. وظل جثمانه طوال النهار حتى يتمكن الجميع من رؤيته قبل الدفن، ثم دُفن في الليل وسط هالة كبيرة من التكريم، في قبر من الرخام. وفي اليوم التالي، بدأ الناس يتوافدون وهم يشعلون الشموع. ثم بعد ذلك قدّسوه، ثم بدأوا يقدمون له النذور ليحقق لهم رغباتهم. ثم تنامت شهرته كقديس مبارك، فكان الناس يلجأون إليه في مشاكلهم قبل أن يلجأوا إلى أي قديس آخر. وكانوا يسمونه القديس "تشابّليتُّو". ولا يزال الناس يلقبونه بهذا الاسم إلى الآن. ويؤكد الجميع أن الرب حقق على يديه معجزات كثيرة. ولا تزال المعجزات تتحقق، ولكن لمن يطلبها بصدق وإخلاص.

وهكذا عاش ومات السيد "تشابّليتُّو دي براتو"، الذي تحول بعد موته إلى قديس، كما سمعتم. وأنا لا أريد أن أنفي هذا الشيء، فربما ينعم بالفعل بالسعادة في جوار الرب. ولعله بالفعل- رغم حياته الخبيثة- يكون قد شعر بالندم قبل موته، وقد يكون الرب قد غفر له وأسكنه في النعيم. ولكن ظاهريًا، فإنني أرى أن هذا الرجل يستحق الجحيم، لا النعيم. لكن الرب رحيم بنا، ويعلم أسرارنا، وهو لا ينظر إلى أخطائنا الظاهرية، بل إلى قلوبنا وإيماننا. فها نحن نتوسط إليه بعدوه، ونحن نعتقد أنه صديقه. فلنحمده ونمجد اسمه، لأننا مجتمعون معًا الآن سالمين معافين في ظل الوباء الذي ينتشر في البلاد. فلنتوجه إليه بالصلاة والدعاء ليلبي لنا حاجاتنا، ونحن واثقون من أنه يسمعنا ويستجيب لنا. ثم صمت "بانفيلو" عن الكلام.

القصة الثّانية

يذهب "أبراهام" اليهودي إلى روما، بعد أن حاول "جانُّوتُّو دي تشيفيني" إقناعه بالتحول إلى المسيحية، وهناك يرى أخلاق الكهنة السيئة، فيرجع إلى باريس، ويعتنق المسيحية.

بعد انتهاء قصة "بانفيلو"، التي ضحك الجميع في بعض أجزائها، لكنهم- في النهاية- أثنوا عليها جميعًا، طلبت الملكة من "نيفيله"، التي كانت تجلس بجوار "بانفيلو"، أن تبدأ في رواية قصتها بحسب ترتيبها في الجلوس. فأبدت "نيفيله" موافقتها بسعادة، وكانت غاية في الجمال والذوق، قائلةً: لقد أظهر لنا "بانفيلو" في قصته مدى رحمة الرب في غفران خطايانا، التي نظن أنها لن تُغفر. وأنا أود أن أظهر لكم أن تلك الرحمة الإلهية نفسها تتحمل أخطاء رجال الدين، الذين عليهم أن يظهروا هذه الرحمة بأفعالهم وأقوالهم. لكنهم يفعلون العكس؛ فلا يزيدنا ذلك إلا تمسكًا بحقيقة ديننا، وثباتًا ورسوخًا للإيمان في قلوبنا.

يُحكى، يا صديقاتي، أنه كان يعيش في "باريس" رجل طيب، يعمل بالتجارة، يُدعى "جانُّوتُّو دي تشيفيني". وكان رجلًا صالحًا ومستقيمًا، وله

تجارة واسعة في مجال الأقمشة. وكان صديقا لرجل يهودي يُدعى "أبراهام"؛ وهو رجل طيب وصالح، يعمل تاجرًا في نفس مجال الأقمشة. وكان "جانُوتُّو" يتألم بشدة من أجله، لأنه يراه طيبًا وصالحًا، ومع ذلك فسيذهب إلى الجحيم بسبب عقيدته الفاسدة. لذلك، بدأ يتوسل إليه بصورة ودية أن يترك ديانته اليهودية بأخطائها، ويتحول إلى الديانة المسيحية؛ فهي الديانة الحقة، حيث أنها ديانة المحبة والطيبة؛ وهي في انتشار مستمر، بخلاف ديانته اليهودية، التي يقل عدد معتنقيها مع مرور الوقت. وكان اليهودي يجيبه بأنه لا يرى ديانةً أصح وأقدس من اليهودية. وبما أنه وُلد يهوديًّا، فهو مصمم على أن يعيش ويموت على دين اليهودية، ولن يثنيه شيءٌ عن ذلك. وبعد مرور عدة أيام عاد "جانُوتُّو" لإقناعه مرةً أخرى، بكل الأساليب، بأن المسيحية هي الديانة الحقة، وليست اليهودية. ومع أن اليهودي كان عالمًا بتعاليم اليهودية، إلا أنه بدأ يتأثر بكلام "جانُوتُّو"، إما لصداقتهما، وإما لتأثير الكلمات التي كان يضعها روح القُدس على لسان ذلك الرجل الطيب. لكنه- مع ذلك- كان متمسكًا بديانته، ولا يرغب في التحول عنها. وظل "جانُوتُّو" يُلح عليه باستمرار، حتى قال له اليهودي في نهاية الأمر:

–أنت تريدني أن أتحول إلى المسيحية، يا "جانُوتُّو"؟ حسنًا، سأفعل؛ لكني قبل ذلك أريد أن أذهب إلى روما لأرى البابا، الذي تقول عنه إنه نائب الرب على الأرض، لأرى تصرفاته وعاداته، وكذلك بقية رجال الكنيسة هناك. فإذا اقتنعتُ ورأيتُ أن ديانتك أفضل من ديانتي، فسأتحول إليها كما وعدتك؛ أما إذا حدث العكس فسأظل على ديانتي.

وعندما سمع "جانُوتُّو" هذا الكلام، أحس بخيبة الأمل، وقال لنفسه:

-لقد ضاع تعبي سدًى. وكنت أعتقد أنني استطعت تحويله إلى النصرانية. لأنه لو ذهب إلى "روما" ورأى رجال الكنيسة، وهم يعيشون حياة الفسق والفجور، فلن يتحول من اليهودية إلى النصرانية أبدًا. بل لو كان نصرانيًّا لتحول إلى اليهودية. ثم توجه إلى "أبراهام" بالحديث:

- ولماذا، يا صديقي، تتكبد عناء السفر إلى روما، وما يتطلبه ذلك من نفقات كبيرة؟ علاوةً على أن رجلًا ثريًّا مثلك، سواء سافرت برًّا أو بحرًا، قد تتعرض للمخاطر أثناء السفر. فهل تظن أنك لن تجد هنا من يقوم بتعميدك؟ وإذا كانت لديك بعض الشكوك في الديانة التي أعرضها عليك، فهل تظن أنه لا يوجد هنا من العلماء مَن يوضح لك كل ما تريد الاستفسار عنه؟ لذا أرى أنه لا لزوم لسفرك؛ فرجال الكنيسة هناك مثل رجال الكنيسة هنا. غير أن أولئك يعيشون بالقرب من البابا. لذا أنصحك ألا تشقّ على نفسك لتسافر إلى هناك، واجعل سفرك هذا في مرة قادمة لكي تحصل على غفران لذنوبك. وحينها ربما أرافقك في سفرك.

فرد عليه اليهودي:

- كلامك صحيح، يا "جانُوتُو"، لكني سأختصر لك الكلام في جملة واحدة؛ إذا كنت تريد مني أن أتحول إلى النصرانية، فلن أفعل ذلك إلا إذا سافرتُ إلى "روما"؛ أما بغير ذلك فلا.

وعندما رأى "جانُوتُو" رغبته الشديدة للسفر، قال له:

- فلتصحبك السلامة، إذن!

ثم أيقن في نفسه أن "أبراهام" لن يتنصّر أبدًا، بعد أن يرى رجال الكنيسة.

امتطى اليهودي صهوة جواده، ثم سافر مسرعًا نحو "روما". وهناك استقبله اليهود بكل الحفاوة والتكريم. ودون أن يخبر أحدًا بسبب مجيئه، بدأ يراقب تصرفات البابا والكرادلة ورجال الكنيسة. فلاحظ على الفور- فقد كان ذكيًّا، وسمع أشياءً من قبل عن تصرفات رجال الكنيسة- أنهم كلهم يرتكبون الفواحش العظيمة؛ لا الزنا فحسب، وإنما اللواط أيضًا، دون أن يمنعهم الحياء أو تأنيب الضمير؛ حتى أنه أصبح للبغايا والغلمان سلطة كبيرة. وعلم كذلك أن الجميع يُقبلون بشراهة على الطعام والخمور وإشباع رغباتهم الجنسية. وبمرور الوقت، علم كذلك أنهم جشعون يحبون المال، ومن أجله يضحون بأي شيء، حتى الأشياء المقدسة، ويبيعون ويشترون، ويعقدون الصفقات التجارية، ويربحون أكثر مما يربح التجار في فرنسا من تجارة الأقمشة، أو أية تجارة أخرى.

كل هذه الأشياء، وأشياء أخرى كثيرة، أغضبت اليهودي، لأنه رجل صالح؛ فاكتفى بذلك وقرر العودة إلى "باريس". وحين علم "جانُوتُّو" بوصوله، أسرع لزيارته وهو فاقد الأمل في تحوله إلى المسيحية. وبعد مرور بضعة أيام، سأله "جانُوتُّو" عن رأيه في البابا والكرادلة وباقي رجال الكنيسة هناك، فأجابه اليهودي في الحال:

-هم لا يستحقون أن ينالوا شرف خدمة الرب. فلم أجد هناك أي نوع من القداسة أو الصلاح أو القدوة الحسنة، لم أجد سوى الفواحش كالزنا والجشع والشراهة وكل ما هو سيء أو أسوأ، إن كان لا يزال هناك ما هو أسوأ من ذلك. كأنني كنت في مكان خبيث شيطاني، وليس مكانًا مقدسًا. وكأن البابا وكل رجال الكنيسة هناك يعملون جاهدين- بكل الطرق الممكنة-

للقضاء على الديانة المسيحية، بينما وظيفتهم أن ينشروها ويدعموها. وحين أرى أن ديانتكم- مع كل هذا- تنتشر وتزداد نقاءً وبهاءً، يزداد يقيني أن الذي يدعمها هو روح القُدس، وأنها أكثر قداسة من أية ديانة أخرى، وأنها هي الديانة الحقة. لذلك، فأنا الذي كنت متشددًا معك أثناء دعوتك لي، ولم أرغب في التحول مطلقًا إلى الديانة المسيحية، ها أنا أقول لك الآن هيا بنا لنذهب إلى الكنيسة، حتى أتحول إلى المسيحية، ويتم تعميدي، كما تفعلون في دينكم.

وبعد أن سمع "جانُوتُّو" هذا الكلام، وكان قد توقع عكس ذلك، شعر بفرحة عظيمة لم يشعر بها أحد من قبل. وذهبا معًا إلى كنيسة "نوتردام" في "باريس"، وقاموا هناك بتعميده، واختار له "جانُوتُّو" اسمًا مسيحيًّا فأسماه "جوفاني". وقام بتعلم أمور الدين المسيحي، وأصبح عالمًا فيها، وقضى حياته رجلًا صالحًا وتقيًّا.

القصــة الثَّالثــة

ينجو اليهودي "ميلكيزديك"، بحكايته قصة ثلاثة خواتم، من خطر عظيم فيكافئه صلاح الدين.

أثنى الجميع على قصة "نيفيله"، بعد أن انتهت من روايتها. ثم بدأت "فيلومينا" تحكي قصتها بعد أن أذنت لها الملكة بذلك، فقالت: ذكرتني قصة "نيفيله" هذه بمشكلة تعرض لها يهودي منذ زمن بعيد. فقد سمعنا كثيرًا عن الرب وعن الدين، وليس عيبًا أن نتحدث عن أفعال البشر وأحوالهم، كما في القصة التي سأرويها لكم، والتي ربما- بعد أن تسمعوها- ستكونون أكثر حيطة، عندما تحاولون الإجابة على الأسئلة التي تُطرح عليكم. إن الحماقة- يا صديقاتي- لا توصل أبدًا إلى السعادة، بل قد تُعرِّض الكثيرين لبؤس شديد. وهذا الأمر أكدته التجارب مرارًا وتكرارًا، ولا يتسع لنا المقام لذكر الكثير من هذه التجارب، لأنها تتكرر مئات المرات في كل يوم. ولكن الذي يوصل إلى السعادة هو الحذر والحيطة؛ وهو ما سيتضح في هذه الحكاية القصيرة.

كان صلاح الدين رجلًا شجاعًا. لذلك تحول من رجل عاديّ إلى سلطان

"بابل"، وحقق انتصارات كثيرة على ملوك المسلمين والمسيحيين؛ لكنه أنفق كل الأموال على حروبه الكثيرة، فاحتاج- في أحد الأيام- إلى مبلغ كبير من المال، فلم يستطع الحصول عليه. فخطر بباله أن يقترض المال من يهودي يُدعى "ميلكيزديك"، يُقرض المال بالربا في "الإسكندرية". لكن "ميلكيزديك" هذا كان شديد البخل، فلم يرض أن يقرض صلاح الدين. ولم يشأ صلاح الدين إكراهه على ذلك. ففكر في طريقة تجعل اليهودي يقرضه المال برضاه، فاستدعاه إلى قصره ورحّب به، ثم قال له:

-أيها الرجل الطيب، لقد بلغني أنك حكيم واسع المعرفة، ومتعمِّق في دراسة الدين. ولذا أريد أن أعرف منك ما هو الدين الصحيح، في رأيك؛ هل هو اليهودية أم المسيحية أم الإسلام؟

أدرك اليهودي أن صلاح الدين يريد أن يوقعه في هذا السؤال المحرج ليأخذ منه ماله، وفي نفس الوقت لابد له أن يجيب على السؤال؛ ففكر مليًّا ثم قال:

-إنه سؤال مهم حقًّا يا مولاي. ولكي أجيب عليه، لابد لي أن أروي لكم هذه القصة القصيرة: يُحكى أن رجلًا واسع النفوذ والثراء كان من بين ما يمتلك من جواهر خاتم لا يُقدر بثمن. فقرر أن مَن سيرث نفوذه وثراءه من أبنائه هو مَن سيكون الخاتم في حوزته، تكريمًا لهذا الخاتم؛ وعلى باقي الأبناء أن يسمعوا له ويطيعوا. وقد فعل الإبن هذا الأمر نفسه، بعد ذلك، مع أبنائه. وهكذا، ظل الخاتم ينتقل من يد إلى يد، حتى وقع أخيرًا في يد رجل له ثلاثة أبناء صالحين ومطيعين لأبيهم. وكان الأب يحبهم جميعًا دون تفرقة. وكان كل واحد من هؤلاء الأخوة يرغب في الحصول على الخاتم، ولم

يستطع أبوهم أن يعطي الخاتم لواحد دون الآخر؛ فوعد كل واحد منهم أنه سيعطيه الخاتم. ولكي يرضيهم جميعًا، طلب من صائغ ماهر أن يصنع له خاتمين آخرين مطابقين للخاتم الأصلي. وبالفعل أصبح الخاتمان الجديدان يشبهان الخاتم الأصلي تمامًا، ولا يمكن التفرقة بينهم. وعندما أحس الأب بدنو أجله، أعطى خاتمًا لكل واحد من أبنائه. وبعد موته أراد كل واحد منهم الاستحواذ على الميراث، بحجة أنه يملك الخاتم. فأظهر كل واحد منهم خاتمه. وكانت الخواتم الثلاثة متشابهة تمامًا، فلم يعرف أحد، إلى الآن، أيًّا من هذه الخواتم هو الخاتم الحقيقي. ولذلك أقول لكم، يا مولاي، بخصوص سؤالك عن الأديان الثلاثة التي أنزلها الرب، بأن كل شعب أخذ ميراثه وشريعته الحقيقية، وعليه الالتزام بتعاليمها. والأديان الثلاثة في غاية التشابه تمامًا، مثل الخواتم الثلاثة.

أدرك صلاح الدين أن اليهودي يريد أن يتهرب منْ الجواب على سؤاله، فقرر أن يطلب منه المال مباشرةً، واعترف له بما كان ينوي فعله معه، لو لم يجبه على سؤاله. فوافق اليهودي على أن يعطي المال لصلاح الدين. وبعد فترة، رد إليه صلاح الدين أمواله، وزاد عليها هدايا عظيمة، واتخذه صديقًا دائما له، واضعا إياه في مرتبة عالية ومشرفة

القصة الرَّابعة

ارتكب كاهن خطيئةً تستوجب من رئيس الدير أن يُنزل به أشد العقاب، فيلوم هو الآخر رئيس الدير، لأنه ارتكب نفس الخطيئة، وينجو من العقاب.

بعد أن انتهت "فيلومينا" من قصتها، التزمت الصمت، وجاء الدور على "ديونيو"؛ فلم ينتظر صدور أمر الملكة له، على الرغم من أنه كان جالسًا إلى جوارها، وبدأ في الكلام مباشرةً: أعرف، يا عزيزاتي، أننا هنا نروي القصص لكي نستمتع ونبتهج؛ ولأنني أعلم أن على كل منا أن يحكي حكاية ممتعة، كما قالت الملكة منذ قليل، وبعد أن سمعنا قصة "أبراهام"، وكيف نجا بفضل نصائح "جانُّوتُّو دي تشيفيني"، وكيف حافظ "ميلكيزديك" على ثروته بحكمته وحيطته من تحايل صلاح الدين؛ لذلك، فأنا أريد أن أقص عليكم- دون إطالة- قصة راهب شاب أنقذ نفسه من عقوبة أليمة.

كان في قرية قريبة من هذا المكان تدعى "لونجيانا" دير مليء بالرهبان. وكان من بين هؤلاء الرهبان راهبٌ في عنفوان الشاب، مفعم بالحيوية، على الرغم من الصوم والتقشف. وفي ظهيرة أحد الأيام، حيث ينام الرهبان في

فترة القيلولة، خرج يتجول حول الدير المنعزل بعيدًا، فوجد فتاة جميلة، هي ابنة أحد المزارعين في تلك المنطقة، كانت تجمع الأعشاب. وعند رؤيتها، اشتعلت الشهوة في جسد الراهب الشاب، فاقترب منها، وأخذ يبادلها الحديث. وفي النهاية، اتفقا على أن تذهب معه الفتاة إلى صومعته. وبالفعل ذهبا سويًّا دون أن يراهما أحد. وبينما هما في نشوة الشهوة، لم يكترث الشاب وأخذ يداعبها ويلاطفها بصوت مرتفع. وأثناء ذلك، استيقظ رئيس الدير. وعند مروره بجوار صومعة الراهب، سمع أصوات الشابين، فاقترب من الباب لكي يتحقق من الأمر جيدًا، فأدرك أن بداخل الصومعة فتاة. فكر في أن يطلب منهما فتح الباب، لكنه تردد في ذلك، ثم ذهب إلى غرفته منتظرًا حتى يخرجا. ومع أن الراهب الشاب كان في غاية المتعة، إلا أنه كان قلقًا؛ فقد أحس بوقع أقدام تسير بجوار الصومعة، فنظر من ثقب الباب، فوجد رئيس الدير يتنصت عليهما؛ فأدرك أن أمره قد افتضح. فقلق أشد القلق، لأنه يعلم ما ينتظره نتيجة ذلك. ففكر مليًّا، لعله يجد حلًّا لذلك. وتوصل في النهاية إلى حيلة ظن أنها مناسبة، فتوجه للفتاة قائلًا:

- انتظري هنا إلى أن أعود إليك، فسأخرجك دون أن يراك أحد.

ثم خرج، وأغلق الباب بالمفتاح، وتوجه نحو غرفة رئيس الدير، وسلمه المفتاح كما هي العادة، ثم قال له مبتسما:

- سيدي، لم أستطع أن أحضر كل الحطب الذي جمعته في الصباح. وأريد أن أذهب إلى الغابة لإحضاره، إذا أذنت لي.

فسمح له الراهب بالذهاب، واعتبرها فرصة سانحة حتى يتأكد من ارتكابه الخطيئة بنفسه، دون أن يخبره بعلمه بما حدث. ثم أخذ المفتاح

بعد أن انصرف وذهب إلى الصومعة. لكنه تردد في فتح الصومعة أمام الرهبان، حتى لا يفتضح أمره أمامهم. وفكر في أن الفتاة ربما تكون ابنة أحد معارفه، فلا يريد أن يلحق بها العار أمام الرهبان. لذلك، قرر أن يعرف مَن هي الفتاة أولًا، ثم يقرر ما سيفعله بعد ذلك. ذهب إلى الصومعة، وفتح الباب ثم دخل وأغلق الباب خلفه. وحين رأت الفتاة رئيس الدير، انهمرت في البكاء من الخوف والخجل. وأخذ رئيس الدير ينظر إليها، فوجدها فتاة شابة جميلة. وبالرغم من كبر سنه، إلا أنه شعر برغبة جسدية لا تقل عن شهوة الراهب الشاب، فقال لنفسه:

- ولمَ لا أستمتع أنا أيضًا؟ هذه فتاة جميلة، ولا أحد يعرف بوجودها هنا؟ ولن يعلم بالأمر أحد. وكما يقولون "الذنب المستور نصف مغفور". ومن الحكمة أن أتنعم بالخير الذي ساقه لي الرب.

ثم اقترب من الفتاة وأخذ يهدئ من روعها، ويطلب منها أن تكف عن البكاء. وبعد كلمة تلو الأخرى، صرح لها برغبته، فاستجابت له على الفور؛ فهي من لحم ودم أيضًا. فراح يحضنها ويقبلها، ثم رقدا على فراش الراهب. وبدلًا من أن يكون هو فوقها جعلها هي التي تعلوه. ربما لأنه أشفق عليها من ثقل منصبه ووقاره وطراوة عمرها ونضارته. وقد مكث معها وقتًا طويلًا. وفي خلال ذلك، كان الراهب الشاب مختبئًا في الدير، ورأى رئيس الدير وهو يدخل الصومعة، ويغلق الباب؛ فتأكد من نجاح خطته. فخرج من مخبئه، واقترب من باب الصومعة، ونظر من ثقب الباب، فرأى وسمع كل ما فعله وقاله رئيس الدير. وبعد أن خرج رئيس الدير من

الصومعة، اتجه نحو غرفته، وظل هناك ينتظر الراهب الشاب. وبعد أن جاء الراهب، قرر رئيس الدير أن يعنفه ويعاقبه بالسجن، حتى يستحوذ هو بمفرده على الفريسة الموجودة بالصومعة. فاستدعاه وقابله بوجه غاضب، وأمر بحبسه في السجن، فقال له الراهب الشاب:

– سيدي، أنا في هذا الدير منذ وقت قريب، ولم أتعلم بعد كل قواعد النظام في رهبنة القديس "بينيتو". ولم أتعلم بعد أن علينا نحن الرهبان أن نعامل النساء بوقار وجلال، كما نتعامل مع الصوم والصلاة. لكني أعدك- بعد أن رأيتك وتعلمت منك ذلك- ألا أعود لهذا الخطأ مرةً أخرى، وسأعامل النساء تمامًا كما رأيتك تعاملهن.

هنا، أدرك رئيس الدير على الفور- وكان رجلا ذكيًّا- أن الراهب الشاب قد سمع ورأى كل ما فعله مع الفتاة في الصومعة. فخجل من صنيعه، ولم يعاقب الراهب. وطلب منه ألا يخبر أحدًا بذلك، ثم أخرجا الفتاة سويًّا في الخفاء. وأغلب الظن أنهما اختليا بها مرات عديدة فيما بعد.

القصـة الخامسَـة

استطاعت زوجة حاكم "مونفيرّاتو" أن تقضي على رغبة ملك فرنسا في مضاجعتها، من خلال مأدبة من لحم الدجاج، وببعض الكلمات الحصيفة.

ظهر الخجل على وجوه الفتيات بعد سماعهن لقصة "ديونيو"، وأُخذن ينظرن إلى بعضهن البعض وهن يكتمن ضحكاتهن. وبعد انتهاء القصة، وتأنيب الملكة لراوي القصة، حتى لا يقص مثل هذه القصص في وجود الفتيات، طلبت الملكة من "فياميتا"، وكانت تجلس على العشب بجوار "ديونيو"، أن تحكي قصة هي الأُخرى؛ فقالت وهي باسمة: يسعدني أننا بقصصنا أوضحنا مدى قوة الإجابات الذكية والسريعة. ولأن الرجال العظماء يقعون دائمًا في غرام النساء الأعلى منهم منزلةً، وكذلك النساء يعشقن الرجال الأعلى منهن شأنًا، فإنى أرغب في أن أحكي لكن، يا صديقاتي الجميلات، قصة امرأة ذات مقام وجمال رفضت من هو أعلى منها منزلةً بتصرفها الحكيم.

كان حاكم "مونفيرّاتو" رجلًا شجاعًا. وكان يحمل لواء الكنيسة في

الجيش الصليبي الذي كان يحارب في بلاد ما وراء البحر. وكان الكل يتحدث عن شجاعته في بلاط الملك "فيليب" ملك فرنسا، الذي كان يستعد للالتحاق بجيشه في تلك الحملة نفسها. فقال أحد الفرسان إنه لا يوجد شبيه ولا نظير لزوجين عظيمين، مثل حاكم "مونفيرّاتو" وزوجته؛ فلا يوجد مثله بين الفرسان، ولا يوجد مثل زوجته بين النساء. أثّرت هذه الكلمات في ملك فرنسا، فوقع في غرام تلك المرأة دون أن يراها، وقرر أن يتجه إلى مدينة "جنوة"[10] حتى يبحر منها، وذلك حتى يتسنى له رؤيتها أثناء الطريق. ومن ثم يحقق رغبته منها في ظل عدم وجود زوجها في المنزل. وبدأ بالفعل في المسير، ثم طلب من جنوده أن يتقدموه في المسير، واتجه هو مع مجموعة من القادة إلى بيت الحاكم. وقبل أن يصل إلى المنزل بيوم واحد، أرسل إلى زوجة الحاكم يخبرها بقدومه ضيفًا عليها، ليتناول عندها الغداء. فأجابت السيدة الحكيمة بسعادة أنها ستنتظره وستحتفي به. ثم أخذت تفكر في سبب مجيء هذا الملك لزيارتها في منزلها، وزوجها غير موجود بالمنزل؛ فتيقنت أنه قد سمع بالضرورة عن شدة جمالها. لكنها أصرت أن تستقبله وتكرمه. وطلبت من الخدم أن يساعدوها في عملية الاستقبال، وأخذت بنصائحهم في كل شيء ما عدا المأكولات والأطعمة. فقد أرادت أن تقترحها هي بنفسها. فأمرت بجمع كل الدجاجات الموجودة دون الديوك، وطلبت من الطهاة أن يصنعوا منها أنواعًا مختلفة من الأطعمة.

---

[10] مدينة وميناء بحري شمال إيطاليا. حاضرة بحرية، ومدينة ذات تاريخ مجيد، وتقاليد عريقة وقوية متعلقة بالثقافة البحرية.

حضر الملك في الموعد المحدد، واستقبلته السيدة بحفاوة، فوجدها أجمل مما وُصفت له، فزاد شغفه بها وتقديره لها. وبعد أن استراح الملك قليلًا، هو ورفاقه في غرف مزينة بكل أنواع الزينة بما يليق بالموكب الملكي، جاء وقت الغداء؛ فجلس الملك وزوجة الماركيز إلى مائدة، وجلس الباقون حسب مراتبهم إلى موائد أخرى. وقُدمت إلى الملك أصناف مختلفة من الخمور الفاخرة. وكان الملك ينظر إلى زوجة الماركيز الجميلة وهو في غاية السعادة. لكن مع وضع الأطباق واحدًا تلو الآخر أمام الملك، بدأت الدهشة تستولي عليه، وهو يلاحظ الأطباق المختلفة المليئة باللحوم، لكنها كلها من لحوم الدجاج. ولعلمه بوجود حيوانات برية في هذا المكان، مع إبلاغها بمجيئه قبل يوم، وهو ما يتيح لهم اصطياد العديد من الحيوانات؛ لذلك سألها مبتسما:

-هل تعيش هنا الدجاجات بمفردها، بلا ديوك؟ فهمت المرأة ما يقصده بسؤاله، ورأت أن اللحظة قد حانت لتكشف له عن ما يدور بداخلها، فقالت له:

- لا ياسيدي، لكن النساء كلهن يشبهن بعضهن بعضًا، وإن اختلفن في بعض الأشياء، كالملبس أو المكانة.

أدرك الملك حينها سبب صنع كل هذه الأطعمة المختلفة من الدجاج، وما تقصده المرأة بكلامها. ولأن استخدام العنف لا يجدي معها، وخوفًا من ردودها المفحمة، تناول الغداء ثم أسرع بالمغادرة، بعد أن شكرها على حسن الضيافة، وانطلق ذاهبا نحو مدينة "جنوة".

القصــة السَّــادسة

رجل ذكي وصريح من العامة يسخر بأسلوب جميل من نفاق رجال الدين، وسوء أخلاقهم.

كانت "إيميليا" تجلس بجوار "فياميتا"، وقد أذنت لها الملكة المغمورة بالسعادة بالكلام، بعد أن أثنوا على كلمات الماركيزة الفطنة، التي قالتها لملك فرنسا في القصة السابقة. فتحدثت "إيميليا" بجرأة على النحو الآتي: سأحدثكم أنا أيضًا عن درس لقنه رجل علماني لرجل دين جشع، ببعض الكلمات الذكية التي تستثير من الضحك بقدر ما تستثير من الإشادة والثناء. فمنذ فترة، كان يعيش في بلدتنا، يا صديقاتي، كاهن يعمل بالتحقيق مع مَن يسيئون إلى الدين. وعلى الرغم من ادعائه الزهد والورع، كما يفعل كل رجال الدين، إلا أنه كان يهتم بالأغنياء أكثر من اهتمامه بمَن يردد هذه الإساءات الدينية. وذات يوم، قال أحد الرجال الأغنياء لرفاقه بعد أن شربوا الخمر، إن لديه نبيذًا جديرًا بأن يشربه المسيح نفسه. لم يقل الرجل ذلك لضعف إيمانه، ولكن لإفراطه في الشراب، أو رغبة في المزاح. علم الكاهن بذلك، ولأنه يعلم أن قائل هذا الكلام رجل غني جدًّا، أصرَّ على أن يوجه إليه الاتهام

ويحاكمه، لا لكي يعود الرجل إلى صوابه، بل لكي يدفع الغرامة بالعملة الذهبية. فاستدعاه وسأله عن صحة ما ينسب إليه من اتهام، فأجابه الرجل العلماني الثري أنه قال ذلك بالفعل، وأوضح له الظروف التي قال فيها هذا الكلام. فقال له الراهب، وكان من أتباع القديس "يوحنا بوكادورو":

- ولماذا حكمت بأن المسيح يشرب النبيذ، وكأنه مثلكم أيها السكارى، روّاد الحانات؟ وتعتبر ذلك- وأنت تتحدث الآن بتذلل- أنه أمر بسيط وغير ذي بال؟ لا، الأمر ليس كما تظن. فأنت تستحق النار على ما قلت، وسنوقع العقوبة عليك، إذا أردنا، على الوجه الذي يحتمه علينا الواجب.

وأخذ يتوعده بهذه الكلمات وبكلمات أخرى، وهو عابس الوجه، وكأن هذا الرجل هو "أبيقور" الذي ينكر خلود النفس البشرية. فخاف الرجل خوفًا شديدًا، وطلب منه الرحمة؛ واستعان ببعض الوسطاء، وأعطاه مالًا وفيرًا وكمية كبيرة من مراهم القديس "يوحنا بوكادورو" ليدهن بها يديه؛ وهو مرهم يعالج داء الجشع، مع أن "جالينوس" لم يذكره في كتبه. وبالفعل، أحدث هذا المرهم تأثيرًا على الكاهن؛ فقد تحول من التهديد والوعيد إلى أن أهداه صليبًا كبيرًا علّقه على صدره. كان الصليب أصفر اللون مرسومًا على خلفية سوداء، كأنه سينطلق الآن إلى بلاد ما وراء البحار، ليشارك في الحروب الصليبية المقدسة. وبعد أن أخذ الكاهن المال من الرجل، استبقاه معه لبضعة أيام، لكي يستمع كل صباح إلى القداس في كنيسة "سانتا كروشي"، ولكي يقوم على خدمته كذلك، ويقدم له الطعام. كل ذلك حتى يكفر عن ذنبه الذي ارتكبه.

وذات صباح، وفيما كان يسمع القُداس أثناء التكفير عن ذنبه، سمع

المرتل يقول: "إن أعطيتم واحدةً فستُثابون بمائة، وستحظون بالحياة الأبدية". فحفظ هذه الكلمات عن ظهر قلب. وعندما قدم الغداء للكاهن في الظهيرة، سأله الكاهن إن كان قد استمع إلى القداس في الصباح، أم لا. فأجابه على الفور:

- نعم سمعته، يا سيدي.

فسأله الكاهن:

- وهل تشك في شيء مما سمعته، أو تريد الاستفسار عنه؟

فأجابه الرجل:

- لا أشك في أي شيء مما سمعته، بل- على العكس- فأنا مؤمن بكل ما سمعته. لكنني سمعت شيئًا جعلني أشفق عليك، وعلى الكهنة الآخرين، وجعلني أفكر في الحالة الصعبة التي ستكونون فيها في الحياة الأخرى.

فسأله الكاهن:

- وما الذي سمعته وجعلك تشفق علينا؟

فأجابه الرجل:

- كلمات الانجيل هذه "إن أعطيتم واحدةً، فستثابون بمئة، وستحظون بالحياة الأبدية".

فقال له الكاهن:

- هذا صحيح. ولكن لماذا أشفقت علينا من هذه الكلمات؟

فأجابه الرجل:

- سأخبرك يا سيدي؛ فمنذ وجودي معكم أراكم توزعون على الفقراء ملء إناء كبير من الحساء الذي لا يسمن ولا يغني من جوع. وأحيانًا إناءين

كبيرين من ذلك الحساء. فإذا أخذتم في الآخرة مقابل كل إناء مئة، فستغرقون حينها في الحساء من كثرته.

فضحك الجلوس الذين كانوا يتناولون الغداء مع الكاهن. وأدرك الكاهن غاضبًا ما يقصده هذا الرجل، حيث أن حساءه المخفف بالماء- الذي يوزعه على الفقراء- دليل على نفاقه وعدم صحة إيمانه. ولولا علمه أنه سيُلام إذا ما عاقبه، لكان قد وجه للرجل تهمة أخرى على كلامه الساخر. لكنه تركه يرحل عنه، ولا يعود إليه أبدًا.

القصة السَّابعة

يتمكّن "برجامينو"، بسرده لقصة "بريماصُّو" ورئيس دير "كلوني"[11]، أن يُشفي السيد "كاني ديلاّ سكالا" من داء البخل الذي أصابه حديثًا.

أثارت "إيميليا" وقصتها الظريفة ضحك الملكة والجميع، وبعد أن هدأت ضحكاتهم، بدأ "فيلوستراتو"، الذي كان عليه الدور، يحكي قصته قائلا:

إن استنكار الفعل القبيح لأمرٌ واجبٌ، يا سيداتي العزيزات. ولكن العجيب أن يحدث ذلك الفعل القبيح من شخص لا يُتوقع منه ذلك، مما يستوجب اللوم والعتب على مرتكبه في الحال. وكثيرًا ما نلاحظ حياة الإثم والرذيلة لرجال الدين، فنُدينها ونستنكرها. ولذلك، فقد أحسن ذلك الرجل العلماني عندما أنّب الراهب على نفاقه، وتصدقه للفقراء بالأشياء غير الصالحة حتى لإطعام الحيوانات. وقد ذكرتني القصة السابقة بقصة أخرى، لكنها أكثر منها مثالية، وهي قصة السيد "كاني ديلا سكالا"؛ وهو رجل من

[11] دير بنديكتي أطلق حركة إصلاحية هدفت إلى دعوة أوروبا إلى المسيحية، وشكل في نهاية القرن العاشر وفي القرن الحادي عشر- مع الأديرة البنديكتية الأخرى- أقوى مؤسسة دينية وأوسعها نفوذًا في أوروبا.

علية القوم، أصيب فجأة بداء البخل، لكنه سرعان ما شُفي منه عند سماعه لقصة شخص بخيل. والقصة كالتالي:

كان السيد "كاني ديلاً سكالا" رجلًا من علية القوم، ومعروفًا بثرائه الفاحش عند الجميع؛ فلم يبلغ أحد منزلته في الثراء منذ عهد الامبراطور "فريدريك الثاني"، إلى وقتنا هذا. وقد عزم- في أحد الأيام- على إقامة حفل كبير في مدينة "فيرونا"[12]، دعا إليه حشودًا غفيرة من البشر؛ فجاءوا من كل مكان، ومعظمهم من القصاصين والأدباء والشعراء الذين يترددون على بلاط الملوك. وفجأةً- بعد أن حضر الجميع- قام بإلغاء الحفل؛ فانصرف كل الضيوف ماعدا واحد منهم، يُدعى "برجامينو". وهو رجل فصيح اللسان، ولكن مَن لم يستمع إليه فلن يعلم بذلك. فانتظر لعله يحصل على هدية أو منحة من السيد "كاني". لكن السيد "كاني" كان يرى أنه لا يستأهل أن يمنحه شيئًا، وأنه إذا منحه شيئًا فسيكون ذلك تبديدًا لأمواله، لكنه لم يصرح له بذلك.

وبعد مرور بضعة أيام، قضاها "برجامينو" في أحد الفنادق، رأى أن السيد "كاني" لم يستدعه إليه، أو يطلب منه أن يعرض ما يجيده من الفنون التي يعرفها. ورغم أنه أنفق كل ما معه من نقود، وبدأ يشعر بالضيق، إلا أنه قرر الانتظار وعدم الرحيل. كان معه ثلاثة من الأثواب الفخمة والثمينة منحه إياها بعض السادة، كي يظهر في الحفل بمظهر لائق. ولأنه لا يملك

---

[12] تقع في الجزء الشمالي من إيطاليا، بين البندقية وميلانو، ومشتهرة بمنزل جولييت الشهير وقبرها وكذا منزل روميو، وبساحة "ديلي أربي".

مالًا، فقددفع الحساب لصاحب الفندق بإعطائه ثوبًا من أثوابه. ولأنه أراد أن يمكث في الفندق لمدة أطول، فقد أعطاه الثوب الثاني. وكان يأكل في الفندق مقابل الثوب الثالث. فانتظر حتى تنتهي مدة إقامته وطعامه في الفندق مقابل هذه الأثواب، ثم يرحل بعد ذلك.

وفي هذه الأثناء، طلب السيد "كاني" مقابلته. فذهب إليه وهو عابس الوجه، فقال له السيد "كاني" مداعبًا:

-لِمَ أنت عابس الوجه هكذا، يا "برجامينو"؟ ماذا بك؟ أخبرني؟

فتحدث "برجامينو" على الفور ودون تفكير، ربما لأنه فكر كثيرًا قبل أن يأتي، وروى له هذه القصة: كان "بريماصُّو"، يا سيدي، رجلًا ضليعًا في علوم اللغة، وكان شاعرًا عظيمًا طبقت شهرته الآفاق. ورغم أن وجهه لم يكن معروفًا لكل الناس، إلا أنه لا يوجد أحدٌ لم يسمع عن "بريماصُّو" الشهير. وذات مرة، كان في باريس. وكان يمر بحالة فقر شديدة، فسمع عن كرم وسخاء رئيس دير "كلوني"، الذي يُعد من أثرى الأثرياء، ولا يمنع أحدًا من الطعام والشراب إذا طلب ذلك؛ ولكن أحدًا لا يأكل إلا إذا بدأ هو أولًا بالأكل. فقرر "بريماصُّو" أن يذهب إليه. فسأل عن مكان الدير، فعلم أنه يبعد عنه بمسافة ستة أميال. فعزم على أن يبدأ رحلته في الفجر، حتى يصل إلى هناك في موعد الغداء. وبعد أن استعلم عن الطريق، لم يجد أحدًا يرافقه في رحلته. فخشي أن يضل الطريق، فيصل إلى مكان ليس به طعام. لذلك قرر أن يأخذ معه ثلاثة أرغفة من الخبز. أما الماء فسيجده في أي مكان. ثم وضع الأرغفة في جيبه، وانطلق في مسيره حتى وصل بالفعل في موعد الغداء. فدخل الدير، ورأى الكثير من الموائد المعدة للغداء، فقال في نفسه:

- حقًّا، إنه رجل عظيم، كما يقولون!

وبعد فترة، أمر رئيس الطهاة بتقديم الماء لغسل الأيدي. ثم أجلس كل واحد في مكانه المخصص له. وشاءت الأقدار أن يجلس "بريماصُّو" قبالة الباب الذي سيدخل منه رئيس الدير إلى قاعة الطعام. وكان من عادة هذا الدير ألا يوضع الطعام ولا الشراب على الموائد إلا بعد حضور رئيس الدير، وجلوسه إلى المائدة. وبعد أن رتَّب رئيس الطهاة الموائد، وأجلس كل واحد في مكانه، أخبر رئيس الدير بأن الطعام جاهز، وباستطاعته القدوم متى يشاء، حتى يتم وضع الطعام على الموائد. وبعد أن فتح رئيس الدير الباب ليدخل إلى قاعة الطعام، نظر أمامه فوجد "بريماصُّو" جالسًا، ولم يكن يعرفه، وكانت حالته مزرية، فتأفف منه ولم يجلس، وقال في نفسه:

- كيف أقدم الطعام لمثل هؤلاء الناس!

وبعد أن رجع ثانيةً إلى غرفته، سأل مَن حوله عن ذلك الصعلوك الذي كان يجلس إلى المائدة قبالة الباب، فأجابوه كلهم بأنهم لا يعرفونه. وظل "بريماصُّو" منتظرًا؛ فقد كان يشعر بجوع شديد، نظرًا لطول المسافة التي قطعها. وحين رأى أن رئيس الدير لم يأت، أخرج رغيفًا من جيبه وبدأ يأكل منه. ثم طلب رئيس الدير ممن حوله- بعد مرور بعض الوقت- أن ينظروا إلى قاعة الطعام، ليروا ما إذا كان "بريماصُّو" قد غادر أم لا. فأخبروه أنه لا يزال موجودًا، ويأكل خبزًا أحضره معه. فقال لهم رئيس الدير: فليأكل خبزه إذن، أما خبزنا فلن يذوقه هذا اليوم. كان رئيس الدير يرغب في أن ينصرف "بريماصُّو" من تلقاء نفسه، لأن طرده لن يكون عملًا جيدًا في حقه. لكن "بريماصُّو" لم يغادر. ولما طال انتظاره لقدوم رئيس الدير، أخرج الرغيف

الثاني وشرع في أكله. وكان رئيس الدير قد أرسل أحدًا للمرة الثانية لينظر هل انصرف أم لا. وقد أخبره نفس ما أخبره به في المرة السابقة. وبعد فترة أخرى، وحيث أن رئيس الدير لم يأت بعد، أخرج "بريماصُّو" الرغيف الثالث، وبدأ يتناوله. وعلم رئيس الدير بذلك، فبدأ يفكر ويقول لنفسه:

– ماهذا التغيير الذي طرأ على نفسي هذا اليوم؟ ما هذا البخل؟ ما هذا الاحتقار للناس؟ ولماذا؟ فمنذ سنين بعيدة، وأنا أقدم الطعام لكل راغب، دون النظر إن كان سيدًا أم فلاحًا، غنيًّا أم فقيرًا، تاجرًا أم بائعًا متجولًا. حتى الصعاليك الذين كنت أتأذى من منظرهم، لم أفعل معهم ما أفعله اليوم مع هذا الرجل. يجب ألا أكون بخيلًا مع هذا الرجل وضيع الشأن. يبدو أن هذا الرجل قد ارتكب أمرًا عظيمًا جعل روحي لا تود الترحيب به وإكرامه. وعندئذٍ، أراد أن يتحقق من شخصية ذلك الرجل، فعلم أنه "بريماصُّو" الشهير، وأنه جاء إليه لأنه سمع عن كرمه وسخائه؛ فقرر أن يرى ذلك بنفسه. حينها شعر بخجل شديد، فأراد أن يصلح ما فعله بكل الطرق؛ فاحتفى به وقدم له الطعام الوفير، ومنحه أفخر الثياب، وأعطاه كثيرًا من النقود وحصانًا قويًّا، وترك له حرية الاختيار بين المقام معه أو الرحيل. فشكره "بريماصُّو" وهو في غاية السعادة، وعاد إلى "باريس" ممتطيًا صهوة جواده، بعد أن كان قد غادرها سيرًا على قدميه.

فهم السيد "كاني" ما كان يرمي إليه "برجامينو" بقصته هذه. فقد كان رجلًا ذكيًّا، فقال له وهو يبتسم:

– لقد أظهرت لي بدهائك، يا "برجامينو"، فضيلتك وبخلي، وما الذي ترغب فيه مني. والحقيقة أنني لم أرتكب البخل من قبل قط سوى معك

أنت الآن. ولن يعود إليَّ ثانيةً بفضل طريقتك في العلاج هذه. فأمر بأن يتم دفع حساب الفندق الذي كان يقيم به، وأعطاه ثوبًا من ثيابه، وأعطاه مالًا وجوادًا، وترك له حرية الاختيار بين البقاء معه أو الرحيل.

القصـة الثَّـامنة

ينتقد "جوليلمو" بخل السيد "إرمينو دي جريمالدي"، بكلمات حصيفة.

بعد الإشادة بذكاء "برجامينو"، شعرت "لوريتا"، التي كانت تجلس بجوار "فيلوستراتو" أنها تريد أن تحكي قصةً هي الأخرى، فقالت بسرور على الفور، وحتى دون أن تنتظر الأمر من الملكة: أيتها الرفيقات، سترون في القصة التي سأحكيها لكم كيف أن أحد ندماء الملك الأذكياء أنَّب تاجرا ثريًّا على بخله. وقد فعل ذلك بطريقة مماثلة لما فعله "برجامينو" في القصة السابقة. لكنكم لن تملوا من هذه القصة؛ فهي ليست أقل قبولًا من سالفتها، فضلًا عن نهايتها السعيدة.

كان فيما مضى في مدينة "جنوة" رجلٌ واسع الثراء، يُدعى السيد "إرمينو دي جريمالدي". وكان مع كثرة ثرائه شديد البخل، لا على الناس فحسب، ولكن على نفسه أيضًا. فقد كانت ثيابه بالية، وكذلك مأكله ومشربه كانا مُزريين. ولذلك استحق لقب "إرمينو البخيل"، الذي كان يطلقه عليه الناس. وذات يوم، جاء إلى "جنوة" رجل عظيم الشأن من البلاط الملكي،

يُدعى "جوليلمو بورسيري"، وكان نديما من ندماء الملك، لكنه يختلف عن ندماء هذا الزمان الذين يريدون أن يكونوا نبلاء وسادة، بالرغم من سوء أخلاقهم وتصرفاتهم المشينة. أما الندماء في الماضي، فكانوا يسعون إلى وضع حد للحروب، وفض النزاعات بين الملوك، ويهتمون كذلك بعقد الزيجات وتوطيد الصداقات، ويبثون الأمل في نفوس البائسين بكلماتهم الطيبة، ويزجرون المخطئين بكلمات قاسية، وكأنهم بمثابة الآباء، حتى يصلحوا أخطاءهم، وينشروا السعادة والبهجة في البلاط الملكي. وكل ذلك مقابل القليل من المال. أما ندماء هذه الأيام، فينشرون الشائعات، ويعمقون الخلافات، ويتملقون السادة بالنفاق والكذب. فأفضل واحد فيهم هو ذلك الذي يتفوه بأقبح الكلام، ويقترف أبشع الأفعال. ولذلك، فإن العالم الذي نعيش فيه الآن يستحق منا الازدراء والاستنكار. فقد أصبح حقًّا خاليًا من أية فضيلة، وأصبح الناس يعيشون في وحل الرذيلة. ولكن، فلنعد لقصتنا، فقد أبعدني عنها الغضب كثيرًا. وكما قلت لكم، فقد كان "جوليلمو" هذا رجلًا طيبًا، ومكث في المدينة بضعة أيام، فسمع خلالها عن بخل السيد "إرمينو"؛ فقرر أن يزوره في بيته. وكان السيد "إرمينو" قد علم هو الآخر بأن السيد "جوليلمو" رجلًا عظيم الشأن ورفيع المقام، فقرر استقباله بحفاوة على الرغم من بخله؛ فأخذه إلى دار جديدة في غاية الفخامة؛ وبعد أن تجولا في الدار، قال له:

– بما أنك، يا سيد "جوليلمو"، قد طُفت كثيرًا من البلدان، ورأيت الكثير والكثير، فهل يمكن لك أن تخبرني بشيء لم يره أحدٌ من قبل، من أهل هذه المدينة، حتى أرسمه على الجدران في غرفة الاستقبال؟

فقال له "جوليلمو" متهكمًا:

– الشيء الوحيد الذي لم يره أحدٌ من قبل هو العَطس، على سبيل المثال، أو ما شابهه. ولكن إذا أردت نصيحتي، فإنني أقترح عليك شيئًا أعتقد أنك لم تره من قبل.

فقال له السيد "إرمينو":

- أرجوك أن تخبرني به.

ولم يكن يتوقع الجواب الذي سيسمعه؛ فقد أجابه "جوليلمو" بحزم:

- ارسم السخاء والكرم.

أحس السيد "إرمينو" بخجل شديد، حين سمع هذه الكلمات؛ فتغير حاله على الفور، وقال:

– نعم سأرسمه، يا سيد "جوليلمو"، حتى لا يقول لي أحد إنني لم أره، ولم أعرفه من قبل.

كان لكلمات السيد "جوليلمو" تأثير قوي عليه؛ فمن حينها تحول ذلك البخيل إلى أكرم رجل في المدينة، وأصبح أكثر السادة سخاءً على الغرباء والمقيمين.

القصة التَّاسعة

يتحول ملك "قبرص" من رجل ضعيف إلى رجل شجاع ذي قيمة، بعد أن تنتقده سيدة من "جاسكونيا"[13] بكلمات قاسية.

بخلاف ملكة اليوم الأول، لم يتبق سوى "إليزا" لكي تتكلم، فبادرت فرحة من تلقاء نفسها، قبل أن تأمرها الملكة، وقالت: في كثير من الأحيان، يا صديقاتي الشابات، يكون لبعض الكلمات العابرة- التي تُقال مصادفةً- تأثير أقوى من النصائح المتكررة والتأنيب المستمر. وقد اتضح ذلك جليًا في قصة "لوريتا". وأريد – أنا بدوري – تأكيد هذا المعنى بقصة أخرى قصيرة جدًّا، لكنها مفيدة. وأنا أقول هذا من باب أنه لا بد من سماع كل ما هو جيد ومفيد، أيا كان مصدر قوله.

في عهد أول ملوك "قبرص"، وبعد غزو "جوتِّفري دي بريوني" للأراضي المقدسة، توجهت سيدةٌ من مدينة "جاسكونيا" للحج إلى كنيسة المهد، في الأراضي المقدسة. وفي أثناء عودتها، ومرورها في "قبرص"، تعرضت لإهانة

[13] مقاطعة فرنسية أُخذت اسمها من الگاسكونيين أو شعب الباسك، الذين قدموا من أسبانيا في القرن السادس الميلادي. وأهم المدن فيها هي "أوك" و"بيرتس".

شديدة من بعض الرجال المجرمين. ففكرت تلك المرأة المتألمة أن تذهب إلى الملك لتشكو له ما حدث معها. ولكن البعض نصحوها بعدم جدوى شكواها، لأن الملك لا يهتم بهذه الأمور، وهو في غاية الضعف والهوان، حتى إنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الإهانة من الآخرين؛ فأصبح الناس إذا ما غضبوا من شيء ما يسبُّون الملك ذاته.

وحين علمت المرأة بكل ذلك، وأدركت أن الملك لن يستطيع أن يفعل لها شيئًا قررت أن تتأكد بنفسها من ذلك الأمر؛ فذهبت إلى الملك، ووقفت أمامه باكية، وهي تقول له:

-لم آتِ إليك، يا سيدي، لتنتقم لي ممن أهانوني؛ لكني جئت إليك لكي تعلمني كيف تتحمل جلالتك الإهانات التي توجه إليك، حتى أتحملها مثلك، وتكون قدوةً لي في ذلك.

فغضب الملك، وكأنه استيقظ بعد سبات عميق. وأصبح يعاقب كل من يهينه، بادئًا بمعاقبة مَن أهان تلك المرأة.

القصــة العاشــرة

بكلمات تنم عن الكياسة، السيد "ألبرتو" من "بولونيا" يضع امرأةً في موقف مُحرج، بعد أن أرادت هي أن تُحرجه، لأنه وقع في حبها.

بعد أن انتهت "إليزا" من حكايتها، لم يتبق سوى الملكة لتحكي قصتها. فشرعت تحكي لهم قائلة: سيداتي العزيزات، إن العبارات الوجيزة والحكيمة تُزيِّن الكلام، تمامًا مثلما تُزيّن النجوم بجمالها وصفائها صفحة السماء، وكما تكسو الزهور المروج الخضراء، في فصل الربيع؛ كذلك تُزيِّن العبارات الحكيمة أحاديثنا. والنساء أحوج لهذه العبارات الوجيزة من الرجال، رغم أن قلة من النساء في عصرنا الراهن هُن مَن يُجدن فن الكلام، ويوفَّقن في الرد على ما يوجَّه إليهن من حديث. وهو ما يعتبر شيئًا مشينًا في حق النساء عمومًا. فبعد أن كانت النساء قديمًا يُجدن هذا الفن، ويعتبرنه مصدرًا لجاذبيتهن، أصبحن الآن يعتمدن فقط على زينة الجسد، فيعتقدن أنهن كلما ارتدين أثوابا زاهية، أصبحن أكثر شرفًا وعزةً من مثيلاتها؛ وهذا غير صحيح. فهل لو وضعنا أنواع الزينة على الحمار يُصبح بذلك أعلى مقامًا من

بقية الحمير؟ يؤسفني أن أقول ذلك، فأنا أيضًا من النساء. لكن النساء تفرط في وضع الزينة حتى يصبحن كالتماثيل الجميلة، لكن لا حس فيها. وكذلك، فهن لا يُجدن الرد على ما يوجَّه إليهن من حديث ويصيبهن التلعثم، وهُن يعتقدن أن ذلك التلعثم دليل على طهارة أرواحهن؛ كما لو أن المرأة الطاهرة هي مَن لا تجيد التحدث سوى مع الخادمة أو الأدوات المنزلية. وهذا غير صحيح؛ لأنه لو كان ذلك حقًّا لما منحهن الله القدرة على التحدث بطلاقة. كذلك يجب على من يريد التحدث، أن يعرف جيدًا متى يتحدث، ومع مَن يتحدث. ففي بعض الأحيان، يظن البعض أنه قهر مَن أمامه، بعباراته البليغة، فيحدث أن ينقلب الأمر، ويصبح هو في وضع لا يُحسد عليه.

كان منذ وقت قريب- في مدينة "بولونيا"- طبيب عظيم، وربما لا يزال حيًّا إلى الآن، وقد طبقت شهرته الآفاق، يُدعى السيد "ألبرتو". وبالرغم من أنه كان على مشارف السبعين من العمر، إلا أن روحه كانت رفيعةً وسامية. وحتى عندما انطفأت من جسده مشاعر الشهوة، لم يتردد في تلبية نداء الغرام ولهيب الشوق؛ حيث رأى في إحدى الحفلات أرملة حسناء تُدعى "مالجريدا دي جيزوليري"، فهام بها، وتسلل حبها إلى قلبه كأنه شاب في مقتبل العمر، حتى أنه لم يشعر بطعم الراحة في ليلته تلك حتى رأى في اليوم التالي وجه محبوبته الوسيمة. ولهذا كان يمر باستمرار من أمام بيتها، إما ماشيًا أو ممتطيًا صهوة جواده، لعله يراها؛ ففطنت المرأة، كما فطنت نساء أخريات كثيرات لسبب مروره هذا. وكُنّ يتعجبن من وقوع رجل مُسنّ في الحب، وقد بلغ من العمر ورجاحة العقل مبلغًا كبيرًا. وكُنّ يعتقدن أن هذه العاطفة

مقصورةٌ فقط على الشباب، لعدم نضوج عقولهم؛ ولذلك أخذن يتابعن السيد "ألبرتو" أثناء مروره أمام المنزل. وذات يوم- وكان يوم عيد- كانت مجموعة من النساء، ومعهن تلك المرأة، يجلسن أمام المنزل. ولما رأين السيد "ألبرتو" قادمًا من بعيد، اتفقن على استقباله والترحيب به، والتهكم على وقوعه في الحب. وبالفعل، استقبلنه ودعونه للدخول إلى فناء المنزل، ثم أحضرن له الخمور والحلوى الفاخرة. وبعد أن انتهين من ذلك كله، سألنه بأسلوب مهذب، كيف وقع في غرام هذه المرأة الحسناء، وهو يعلم أن شبانًا كثيرين- في غاية الوسامة والوجاهة- يهيمون في حبها. فطن السيد "ألبرتو" إلى سخريتهن المستترة في كلامهن، فأجابهن، وهو يبتسم، موجهًا كلامه إلى حبيبته:

-ليس من الغريب أن أقع في الحب، يا سيدتي، إذا كنت أنت من أحبها. وإذا كان كبار السن لا يملكون القوة الجسدية التي تتطلبها ممارسة الحب، فمن حقهم أن يشعروا بحبهم للمرأة وبحبها لهم. وما دفعني لذلك، وأنا رجل كبير السن، هو علمي بأن المرأة لا تحسن الاختيار؛ فقد رأيت كثيرًا من النساء يأكلن الفجل على الرغم من رائحته الكريهة، ويأكلن من الفجلة أوراقها، ويتركن رأسها، مع أن رأسها أطعم وألذ. ألا يمكن أن تفعلن نفس الشيء، عند اختياركن للحبيب، فتتركن الشاب الجميل وتحببن كبير السن؟ فربما تختارينني أنا، وترفضين الآخرين.

فقالت له المرأة، وقد شعرن بالخجل:

-لقد غلبتنا يا سيدي، وأنا أقدِّر حبك لي، وسأكون دومًا رهن إشارتك في كل شيء، سوى ما يتعلق بممارسة الحب.

شكر الرجل المرأة وهو يشعر بالسعادة، ثم ودعهن وانصرف.

ولأن المرأة أرادت السخرية منه، دون أن تعلم أنه رجل عاقل حكيم، لذلك انتصر هو عليها. ولذا، يجب عليكن- إن كنتن عاقلات حقًّا، أن تعرفن جيدًا مع من تتحدثن.



مالت الشمس نحو الغروب، وانخفضت حرارة الجو. عند ذلك، كانوا جميعًا قد انتهوا من سرد قصصهم، فقالت لهم الملكة:

- رفاقي الأعزاء، لقد أوشك حكمي على الانتهاء، ولم يبق لي منه سوى أن أُنصِّب الملكة الجديدة التي ستتولى تصريف أمورنا. وحتى تتمكن الملكة الجديدة من ترتيب أمورها لليوم القادم، فإنني أرى أنها يجب أن تبدأ مسؤوليتها من الآن. فباسم الرب الخالق، أُنصِّب "فيلومينا" ملكة علينا.

ثم نهضت وتوجهت نحو "فيلومينا"، ووضعت على رأسها التاج الذي كانت ترتديه، ثم قدمت لها التحية. وتوالت التحية من الجميع، بعد ذلك، وعبَّروا عن سعادتهم بملكتهم الجديدة.

كست حمرة الخجل وجه "فيلومينا"، ثم استجمعت قواها حتى لا تبدو في وضع لا يليق بها كملكة، وبدأت في القيام بأعباء مهامها الجديدة؛ فأوضحت لهن ما سيقمن به في الغد، وما سيتناولنه من عشاء بعد قليل، وقالت لهن:

- رفيقاتي العزيزات، لقد اختارتني "بامينيا" ملكةً عليكم؛ وهذا

تفضل منها، لا لأني أستحق ذلك. ومع هذا، فلن أفرض عليكم رأيًا معينًا، بل سنتشاور سويًّا فيما يجب علينا فعله. لقد أعجبتني الطريقة التي اتبعتها "بومبينيا"، وأرى أن نستمر عليها ولا نغيرها، طالما أننا مستمتعون بها. وما يجب علينا القيام بفعله الآن، هو أن نتجول لبعض الوقت، إلى أن تغرب الشمس، فنعود بعد ذلك ونتناول وجبة العشاء، ثم نتسامر سويًّا إلى أن يأتي وقت النوم، ثم نستيقظ في الصباح. وساعتها، سيكون الجو لطيفًا، فنتجوّل بين البساتين إلى أن تشتد حرارة الجو، فنرجع لتناول وجبة الغداء. وبعد ذلك، يحكي كل منا قصته.

وأود أن أضيف شيئًا لم يسعف الوقت "بامبينيا" لفعله، وهو أن نختار موضوعًا معينًا، ويحكي كل منا قصة تتناول هذا الموضوع. وأقترح لموضوع الغد، حتى يأخذ كل منكم وقته في التفكير، أن يكون عن النهاية السعيدة بعد المحن والآلام.

أبدى الجميع إعجابهم بهذا الموضوع، واتفقوا على ألا تخرج قصصهم عن هذا الإطار، غير أن "ديونيو" قال، بعد أن انتهى الجميع من كلامهم:

- وأنا أيضًا أرى، يا سيدتي، أن هذه الفكرة جميلة؛ لكنني أرجو منك أن تستثنيني من هذا الاقتراح، وأن تسمحي لي باختيار القصة التي أريدها في الموضوع الذي أريده. ولكي لا يظن أحد أنني أطلب هذا لأنني ليست لديَّ قصص لأحكيها، فاجعليني آخر من يحكي.

أدركت الملكة أنه أراد ذلك ليحكي لهم قصة مضحكة بأسلوبه المرح، حتى لا يصيبهم الملل من تكرار القصص؛ فوافقت على طلبه، بعد أن استشارت الجميع. ثم قاموا من مكانهم وتوجهوا ببطء نحو غدير ماء يسري

بين الصخور والنباتات، فنزعوا أحذيتهم، وخاضوا فيه بأقدامهم، وظلوا يمرحون ويلعبون في الماء حتى اقترب موعد العشاء، فعادوا إلى القصر. وبعد أن تناولوا عشاءهم، بدأوا في السَّمر؛ فأمرت الملكة بعزف الموسيقى، وطلبت من ديونيو أن يعزف على العود، ومن لوريتا أن ترقص، ومن إيميليا أن تغني، فبدأت "إيميليا" تغني:

إني عاشقةٌ لحسني وجمالي،

وحتمًا حلاوتي وبهاء طلعتي،

ولا يمكن لحب غير حبي لوسامتي،

أن يوقظ لهفتي.

في المرآة أتأمل ملاحتي وطول قامتي،

فتسعد عيني وعقلي.

ولا حدث ولا أمر آخر يمكنه حرماني

من سعادتي هذه وانشراحي.

فلا شيء أحلى أمتع به نواظري،

ويبعث في القلب لهفة واشتياقًا نحو حب جديد مفعم بالآمال.

لا أريد لهذا الحسن أن ينتهي،

أو ينقضي،

ففي رؤيته متعتي،

أريده كلما طلبته يلبي دعوتي،

عذبًا رقيقًا تعجز الكلمات والبلاغة

عن التعبير عنه، فهل يمكن لأي إنسان فان،
ألا يحترق من الهوى والأشواق،
إذا ما رأي هذا البهاء والحسن الناضر؟

أزداد اشتعالًا وتأججًا في كل لحظة من لحظات حياتي،
كلما أمعنت النظر في جمالي،
فأستسلم وأسلم له خيالي،
وفي وعده الرقيق متعتي وعزائي.
ففي كلمة "لا جمال يضاهيه أبدًا" لذتي وبهجتي.

اشترك الجميع في غناء هذه الأغنية، مفعمين بالسعادة؛ ثم تلتها أغنيات أخرى كثيرة حتي أقبل الليل، وانقضت ساعاته الأولى، فأصدرت الملكة أوامرها بانتهاء اليوم الأول. كما أمرت بإشعال المشاعل، وذهاب كل واحد إلي غرفته ليستريح استعدادًا لليوم التالي. وبالفعل، هذا ما كان من الجميع. وهكذا أُسدل الستار علي اليوم الأول.

اليـوم الثَّـاني

انتهى اليوم الأول، ويبدأ اليوم الثاني تحت حكم الملكة "فيلومينا"، ويدور حول حكايات لأشخاص تنتهي بنهاية سعيدة، بعد التعرض للمحن والآلام وبعد فقد كل الآمال.

انتشر نور الصبح في ربوع المكان، وبدأت العصافير تغرِّد بسعادة فوق الأغصان الخضراء، معلنةً بداية يوم جديد، فنهضت الفتيات والفتيان، وبدأوا يتجولون على مهل وبطء فوق العشب الأخضر الذي بللته قطرات الندى؛ ويصنعون في نفس الوقت أكاليل الزهور، وهم يتنقلون من مكان لآخر لمدة طويلة. استمر هذا حتى ابتعدوا كثيرًا؛ ثم كرروا ما فعلوه في اليوم السابق، فتناولوا الغداء في البستان، ثم شرعوا في الرقص واللهو، ثم خلدوا إلى الراحة. وبعد ذلك، جلست الملكة وجلسوا حولها، والكل ينظر نحوها منتظرًا إصدار أوامرها. فتوجهت الملكة إلى "فيلومينا"، وطلبت منها أن تحكي قصتها، فأبدت موافقتها، وشرعت في سرد حكايتها بكل سعادة على النحو التالي:


https://telegram.me/maktabatbaghdad

القصـة الأولـى

يتظاهر "مارتيلّينو" أنه قد شُفي من الشلل الذي أصابه، ببركة القديس "أرّيجو"، فيكتشف الناس خدعته، وينهالوا عليه بالضرب. وبعد أن يحكم عليه القاضي بالإعدام، يتمكن في النهاية من النجاة.

مَن يحاول أن يخدع الناس، يا سيداتي العزيزات، خاصةً في الأمور الدينية الجديرة بالإحترام والتقدير، فغالبًا ما سيُفتضح أمره. وحتى لو تمكن من الهرب بفعلته، فسيكون قد لحق به بعض الأذى جراء فعلته. وتنفيذا لأوامر الملكة، فسأبدأ في سرد قصتي التي تحكي عن أحد أبناء مدينتنا، حيث حدثت له أحداث سيئة، ثم تحولت بعد ذلك إلى شيء سار له، ولم يكن يتوقع ذلك.

كان يعيش في مدينة "تريفيجي"، في زمن ليس بالبعيد، رجلٌ ألماني فقير الحال، يُدعى "أرّيجو"، يعمل حمَّالًا. وكان رجلًا تقيًا وصالحًا، ويؤكد أهالي "تريفيجي" أنه– في لحظة احتضاره– دقَّت أجراس الكنائس دون أن يقرعها أحد؛ وكانت هذه معجزة، فظنوه قديسًا. وحملوا جثمانه وذهبوا به إلى الكنيسة الكبرى، فبدأ الناس من ذوي العاهات والأمراض يأتون إليه

ليلمسوا جسده، أملًا في الشفاء. وفي أثناء ذلك، وصل إلى مدينة "تريفيجي" ثلاثة من أهل مدينتنا، يُدعى أحدهم "ستيكي"، والآخر "مارتيلّينو"، والثالث يُدعى "ماركيز"، وكانوا يعملون كمهرِّجين، وكانوا بارعين في التقليد والسخرية ويقومون بذلك في قصور الوجهاء بغرض تسليتهم. ولأنهم لأول مرة يأتون إلى هذه البلدة، فقد اندهشوا من رؤية الناس وهي تهرع نحو الكنيسة. وحين علموا السر في ذلك، قرروا الذهاب إليها ليروا جثمان ذلك القديس. فوضعوا متعلقاتهم في أحد الفنادق، ثم قال لهم "ماركيز":

- نريد أن نذهب لرؤية جثمان ذلك القديس، ولكن كيف ذلك، والمكان مزدحم جدًّا بالناس والشرطة؟

فقال "مارتيلّينو":

- سوف أجد وسيلة للوصول إلى الجثمان المقدس.

فقال له "ماركيز":

- وكيف ذلك؟

فأجابه "مارتيلّينو":

- سأتظاهر بأنني مصاب بالشلل، وسأضع إحدى يديَّ على كتفك، واليد الأخرى على كتف "ستيكي"، وتقودانني إلى الجثمان المقدس لأنال الشفاء. وبذلك سيفسح الجميع لنا الطريق، ولن يعيقنا أحد.

راقت الفكرة لكل من "ستيكي" و"ماركيز". وبالفعل، خرجوا على الفور من الفندق. وفي الطريق، تظاهر "مارتيلّينو" بأنه مصاب بالشلل في كل جسده، فأصبح منظره مرعبًا، ولم يشك أحدٌ في أنه مشلول. وهكذا اتجهوا جميعًا نحو الكنيسة، وهم يتوسلون إلى الناس أن يفسحوا لهم الطريق. وكان

الناس يفسحون لهم على الفور، حتى وصلوا إلى جثمان القديس. ثم قام بعض الناس بحمل "مارتيلّينو"، ووضعه فوق جسد القديس حتى يشفى من مرضه. أدرك "مارتيلّينو" أن الناس ينظرون إليه ليروا هل سيشفى أم لا، فبدأ يتظاهر، ببراعة، بأنه تمكن من تحريك أصابعه، ثم يده، ثم ذراعه، ثم باقي جسده؛ فهلل الناس، وهتفوا للقديس بأصوات مدوية. وكان متواجدًا هناك، بالمصادفة، رجل من مدينة "فلورنسا"، يعرف "مارتيلّينو" جيدًا. ومع أنه لم يعرفه في البداية، حين كان يتظاهر بالشلل، إلا أنه عرفه بعد ذلك، حينما قام منتصبًا، فأخذ يضحك ويقول:

- ما أخبثك! لقد أقنعتنا جميعًا، ونحن نراك قادمًا، أنك مشلول مع أنك لست كذلك.

فسمعه بعض الناس، فقالوا له:

- ماذا تقول؟ ألم يكن هذا الرجل مشلولًا؟

فأجابهم:

- كيف ذلك؟ إنه سليم مثلنا تمامًا، لكنه بارع في فن التمثيل.

عند ذلك، اندفعوا نحوه مسرعين، وهم يصرخون:

- اقبضوا على هذا الخائن الذي يسخر من الرب ومن القديسين، إنه ليس مشلولًا، لكنه يتظاهر بذلك، ليسخر منا ومن القديس.

فأمسكوا به وأخرجوه من الكنيسة، وهم يجذبونه من شعر رأسه، ويركلونه بأقدامهم. وكان "مارتيلّينو" يصرخ طالبًا منهم الصفح والمغفرة، لكن دون جدوى. وحين رأى "ستيكي" و"ماركيز" ذلك، خافا على نفسيهما، فلم يستطيعا مساعدة صديقهما، بل- على العكس- كانا يصرخان في الناس

بأن يقتلوه. وفي الوقت نفسه، كانا يفكران في طريقة لإنقاذه.

وكاد الناس أن يقتلوه، لولا أن خطرت لـ"ماركيز" فكرة؛ فقد انطلق إلى الحاكم، وقال له:

-رحماك يا سيدي! هناك رجل شرير سرق كيس نقودي، وفيه مائة فلورين ذهبي[14]. فأرجوك يا سيدي، اقبض عليه، كي أسترد مالي.

وبالفعل، أسرع عشرة حراس إلى "مارتيلّينو"، وتمكنوا من القبض عليه، بعد أن أبعدوا الناس عنه بمشقة، ثم اقتادوه إلى الحاكم وهو في حالة يُرثى لها. وحين علم الناس أنه متهم بالسرقة، ادَّعوا جميعًا أنه قد سرق منهم حافظات نقودهم؛ فبدأ القاضي- وكان رجلًا قاسيًا وصارمًا- في استجوابه. لكن "مارتيلّينو" لم يكن يعبأ بالأمر، وكان يمزح مع القاضي، فغضب القاضي وأمر بجلده لكي يعترف، حتى يحكم عليه بعد ذلك بالإعدام. وحين سأله القاضي مرةً أخرى عن صحة الاتهامات المنسوبة إليه، قال "مارتيلّينو":

-سأعترف يا سيادة القاضي، ولكن اسألهم أولًا أين ومتى سرقت نقودهم.

فقال له القاضي:

-لا بأس بذلك.

وحينما سألهم القاضي، أجابوا أجوبة مختلفة، فقال أحدهم إنه سرق ماله منذ ثمانية أيام، وقال آخر منذ ستة أيام، وآخر منذ ثلاثة أيام، والبعض قالوا

---

[14] الفلورين الإيطالي عملة تم سكها بين 1252-1533. وتبلغ (3.5 جرام). والفلورين الذهبي في "فلورنسا" أول عملة ذهبية سُكت في أوروبا.

إنهم سُرقوا في نفس هذا اليوم. عند ذلك قال "مارتيلّينو" للقاضي:

-سيدي القاضي، إنهم لا يقولون الحقيقة؛ فأنا لم أزر هذه البلدة من قبل، ولم آت إليها إلا منذ قليل. وفور وصولي، ذهبت- لسوء حظي- لرؤية ذلك الجثمان المقدس. ويمكنك التأكد من صحة كلامي من الضابط الذي سجل بياناتي أثناء دخولي، ومن صاحب الفندق الذي نزلت فيه. فإذا تأكد لك صحة كلامي، فلا تتركني لهؤلاء الناس الأشرار الذين كادوا يقتلونني. وفي أثناء ذلك، علم "ماركيز" و"ستيكي" أن القاضي أمر بجلد صديقهما، فشعرا بخوف شديد، وقال أحدهما للآخر:

-لقد أخرجناه من ورطة، فسقط في ورطة أخرى.

وأسرعا إلى الفندق، وشرحا لصاحب الفندق قصة صاحبهما، فضحك، وأخذهما لمقابلة شخص يُدعى "ساندرو أجولانتي"، من مدينة "تريفيجي"، وتربطه علاقة صداقة بحاكم المدينة. وبعد أن حكوا له كل شيء، أخذ يضحك هو الآخر، ثم ذهب إلى الحاكم، وطلب منه إطلاق سراح "مارتيلّينو". وقد أجاب طلبه بالفعل. وعندما ذهبوا إليه وجدوه ماثلًا أمام القاضي، بثوبه الممزق، وهو يرتعد من الخوف، حيث رفض القاضي دفاعه عن نفسه، وكان سيقضي بإعدامه. فقد كان ذلك القاضي يكره الفلورنسيين، وكان لا يريد إرساله إلى حاكم المدينة، لكنه اضطر لذلك اضطرارًا. وحين وصل "مارتيلّينو" إلى حاكم المدينة، طلب منه أن يسمح له بالسفر إلى "فلورنسا"، لأنه لن يشعر بالأمان إلا هناك؛ فضحك الحاكم ومنح الثلاثة ثيابًا جديدة، ثم عادوا سالمين إلى مدينتهم، بعد أن نجوا من خطر عظيم.

القصة الثانية

يتجه "رينالدو داستي"، بعد أن يسرقه اللصوص إلى قلعة "جوليلمو"، فيبيت عند أرملة تحسن ضيافته، ثم يسترد أمواله التي نُهبت، ويعود إلى بيته سالمًا غانمًا.

ضحك الجميع مقهقهين من سوء حظ "مارتيلّينو" في القصة التي روتها "نيفيله". ولأن "فيلوستراتو" كان يجلس بجوار "نيفيله"، فقد أمرته الملكة بأن يروي القصة الثانية؛ فبدأ يحكي من فوره ويقول:

سيداتي الجميلات، سأحكي لكنَّ قصة عن أمور دينية ورعة، مليئة بمشاعر الحب، وتتخللها المواقف الصعبة. وسيكون سماعها مفيدًا، لاسيما لمن يتخبطون في متاهات الغرام، حيث لن ينعموا بالنوم إن لم يقدموا الكثير من الصلوات للقديس "جوليانو"، حتى وإن وجدوا فراشًا وثيرًا.

ذهب تاجر يدعى "رينالدو داستي"، وكان ذلك في عصر الماركيز "أتسو" حاكم مدينة "فِيرَّارا"[15]، إلى مدينة "بولونيا"، لشأن من شؤون تجارته. وبينما هو عائد إلى بيته، بعد أن انتهى من عمله، وبعد أن اجتاز مدينة

[15] مدينة بشمال إيطاليا، في إقليم "إميليا رومانيا".

"فِيرَّارا"، قابله بعض الأشخاص الذين بدا على هيئتهم أنهم تجار، لكنهم في الحقيقة لصوص. فصادقهم دون أن يتحرَّى عن حقيقتهم. وبعد أن علموا منه أنه تاجر، توقعوا أن يكون بحوزته مال وفير، فقرروا أن يسرقوا ماله حالما سنحت لهم الفرصة. وحتى يطمئن إليهم، أخذوا يحدثونه عن الأمانة والوفاء، ويظهرون لهم مدى طيبتهم وصلاحهم. ولأن "رونالدو" كان لا يرافقه في سفره هذا سوى خادمه وحصانه، فقد أنس بصحبتهم، وأخذوا يتبادلون أطراف الحديث، فتحدثوا ضمن حديثهم عن الصلوات التي يتوجه بها الناس إلى الرب، فقال أحد اللصوص:

- وأنت يا سيدي، ماذا تقول في صلاتك، وأنت مسافر؟

فأجابه "رينالدو":

- في الواقع، أنا لست رجلًا متدينًا، وإنما جاهلًا فظًّا، ولا أحفظ سوى القليل من الصلوات. أنا رجل دنيوي، أُهتم بالأمور المادية، فأضع القرش على القرش حتى يكثر المال. ومع ذلك فأنا معتاد عند كل سفر، وكذا عند خروجي من النزل كل صباح أن أصلي للرب وللقديسة "مريم"، لكي يعيناني، متضرعًا إليهما بروح القديس "جوليانو"، وأتلو صلوات "أبانا الذي في السموات" و"يا قديسة مريم". وقد تعرضت لمخاطر كثيرة، ثم نجوت منها بفضل هذه الصلاة. ولذلك فأنا أؤمن إيمانًا راسخًا بالقديس "جوليانو"، فلا أستطيع التحرك نهارًا أثناء السفر، ولا حتى الوصول بأمان إلى الليلة التالية، إلا إذا صليت هذه الصلاة في الصباح.

فسأله الرجل ثانيةً:

- وهل تلوت صلاتك هذه صباح اليوم؟

فأجابه رينالدو:

- بالتأكيد.

فقال الرجل في نفسه: لن تنفعك صلاتك هذا اليوم في شيء، فحظك سيء الليلة، إلا إذا لم تعاكسنا الظروف. ثم توجه له بالكلام:

- لقد سافرتُ كثيرًا، لكني لم أتل هذه الصلاة من قبل. ومع ذلك، فلم يحدث لي مكروه. لكنني أتلو بعض الصلوات التي تعلمتها من جدتي، وسنرى مَن منا سيوفّق في سفره.

وواصلوا السير، وهم يتحدثون على هذا المنوال، ويتجاذبون أطراف الحديث إلى أن وصلوا إلى نهاية قلعة "جوليلمو"، وكانت الشمس قد غابت، وكان اللصوص يتحينون الفرصة المناسبة للانقضاض عليه. فلما رأوا الليل قد حل، والمكان بعيد عن الأنظار، انقضوا عليه وأخذوا كل ما معه، ولم يتركوا له سوى الثوب الذي يرتديه، ثم قالوا له:

- هل نفعتك صلاتك هذا الصباح؟ هل نفعك القديس "جوليانو"؟ أما نحن، فقد نفعتنا صلاتنا، وحصلنا على مال وفير.

ثم عبروا النهر وذهبوا بعيدًا. وكان خادم "رونالدو" قد فرَّ ممتطيًا صهوة الحصان حين رآهم يسلبون سيده، ولم يحاول مساعدته؛ بل ظل يجري بالحصان عائدًا إلى قلعة "جوليلمو"، إلى أن وجد مكانًا يصلح للمبيت، فنزل لينام، ولم يهتم بمصير سيده. أما "رينالدو"، فكان حافي القدمين، ويرتعش من شدة البرد، ولا يدرى ما يفعل؛ فظل يبحث عن مكان يأوي إليه ليحميه من شدة البرد القاتل، ولكن دون جدوى. فتوجه مسرعًا إلى قلعة "جوليلمو"، عساه يجد فيها ملاذًا من شدة البرد، دون أن يعلم أن خادمه قد

توجه إليها أيضًا. وصل إلى هناك، والليل قد اشتدت ظلمته، فوجد أبوابها مغلقة، فأخذ يبكي من شدة معاناته، ولسقوط الثلوج فوق رأسه. وفي أثناء ذلك، لمح بيتًا بجوار سور القلعة، فتوجه إليه مسرعًا، فوجد بابه مغلقًا، فجلس أمام البيت ينعي حظه ويشكو حاله للقديس "جوليانو"، نادمًا على أنه وثق فيه وتضرع إليه صباح هذا اليوم. لكن القديس "جوليانو" كان يحبه، فلم يتركه على هذا الحال. كانت تعيش بالمنزل الذي يجلس أمامه امرأةٌ بارعة الجمال، وكانت من عشيقات الماركيز "أتسو"؛ فكان كلما أراد أن يلتقي بها يجيء إليها في هذا المنزل. وصادف أن الماركيز- في ذلك اليوم- كان قادمًا إليها ليبيت عندها تلك الليلة. وقد أرسل إليها رسولًا يخبرها بقدومه، حتى تجهز له الطعام، وتعد له الماء الساخن ليغتسل. وبعد أن أعدت المرأة كل شيء، جاءها رسول من المركيز يخبرها بعدم قدومه، حيث اضطُر لسفر مفاجئ؛ فقررت المرأة أن تستحم بالماء الذي أعدته للماركيز، وأن تأكل الطعام ثم تنام. وبينما هي تغتسل إذ سمعت صوت "رينالدو"، وهو يبكي ويتألم خارج المنزل، فطلبت من خادمتها أن تتحقق من الأمر؛ فذهبت الخادمة ونظرت من نافذة الدار، فرأت "رينالدو" يتألم من شدة البرد؛ فسألته مَن يكون، وما الذي يجلسه هنا، فأجابها وهو لا يكاد يقدر على النطق من شدة البرد، ثم توسل إليها ألا تتركه يموت من البرد، فأشفقت عليه الخادمة، ثم ذهبت وأخبرت سيدتها بقصته، فأعطتها المفتاح، وقالت لها:

- افتحي له الباب، ولدينا طعام وفير، فقدمي له الطعام، ثم أعدي له مكانًا ليبيت فيه.

وبالفعل، فتحت له الباب وأدخلته. وحين رأته السيدة يرتعش من البرد،

طلبت منه أن يدخل الحمَّام حيث كان دافئًا من سخونة المياه. وبالفعل دخل الحمَّام ثم اغتسل بالماء، وبدأ يشعر بالدفء يتسلل إليه، وكأن روحه تعود إليه مرةً أخرى. ثم أرسلت له السيدة ثيابًا جديدة ليرتديها. وبعد أن ارتدى الملابس ظل يشكر القديس "جوليان" الذي أنقذه من الموت. وكانت السيدة قد أمرت بإشعال النار في المدفأة، ثم سألت بعد ذلك خادمتها عن "رينالدو" فأجابتها:

-لقد ارتدي الثياب التي قدمناها له، ويبدو أنه رجل من علية القوم، وهو على قدر من الوسامة.

فقالت لها سيدتها:

-اذهبي إذن واطلبي منه أن يأتي إلى هنا بجوار المدفأة، حتى نتناول العشاء سويًّا.

جاء رينالدو، فانحنى ليحيي السيدة، ثم شكرها على صنيعها معه، فلاحظت السيدة وقاره ووسامته، كما أخبرتها الخادمة، فتلطفت معه في الحديث، وأجلسته بجوارها، ثم سألته عن قصته؛ فحكى لها كل ما دار معه. وكانت المرأة قد علمت قبل ذلك بقدوم خادم "رينالدو" إلى القلعة، وتعلم مكانه، فأخبرت "رينالدو" بذلك، وأنه يستطيع الوصول إلى خادمه بسهولة إن أراد. ثم شرعا في تناول العشاء معًا. كان رينالدو طويل القامة، وسيم الوجه وفي سن الشباب، فافتتنت به المرأة، وأرادت في قرارة نفسها أن يكون هو ضجيعها في تلك الليلة بدلًا من الماركيز. وبعد أن انتهيا من تناول العشاء، أخبرت السيدة خادمتها بما كانت تفكر فيه، فشجعتها خادمتها على ذلك، وأخذت المرأة تنظر إلى "رينالدو" بوله، ثم قالت له:

-فيم تفكر يا "رينالدو"؟ أتفكر في حصانك وملابسك التي سلبت منك؟ دع عنك هذا التفكير، واستمتع بحياتك؛ فأنت الآن في بيتك. وأريد أن أقول لك إنك في هذه الثياب تذكرني بزوجي المتوفى؛ فأشعر كأنني أريد أن أحضنك وأقبِّلك. ولولا أنني أخشى أن ذلك قد يضايقك لقبَّلتك بالفعل.

حين سمع "رينالدو" ذلك الكلام، علم ما تريده منه، فقال لها:

-أنت، يا سيدتي، أنقذت حياتي من الموت. وسأكون ناكرًا للجميل إن لم أفعل كل ما يسعدك؛ فاحضنيني وقبِّليني، وأنا سأحضنك وأقبِّلك كذلك، بكل سعادة.

فارتمت المرأة بين ذراعيه، وتوالت الأحضان والقبلات، ثم نهضا إلى الفراش. وحين أصبح الصباح، أعطته ثيابًا قديمة ليرتديها، حتى لا يفتضح أمرهما. وأعطته كذلك كثيرًا من النقود، وأخبرته بالمكان الذي يوجد به خادمه، وطلبت منه أن لا يخبر أحدًا بما دار بينهما. ثم خرج من البيت، وظل يمشي متظاهرًا بأنه آتٍ من مكان بعيد، إلى أن وصل إلى خادمه. وهناك، ارتدى ثيابه التي كانت بحوزة الخادم، وامتطى صهوة الجواد الذي كان مع الخادم؛ وفيما هو كذلك، إذ رأى اللصوص الثلاثة مقبوضًا عليهم، وقد اعترفوا بكل شيء؛ فأعادوا له حصانه وأمواله. شكر "رينالدو" مجددًا القديس "جوليانو"، ثم امتطى صهوة جواده، وعاد إلى منزله سالمًا غانمًا، بينما اللصوص الثلاثة تم اقتيادهم إلى السجن في اليوم التالي مباشرةً، وقد عُلقوا وأرجلهم مدلدلة في الهواء.

القصـة الثّـالثة

يفتقر ثلاثة إخوة بعد أن يبددوا كل ثرواتهم، فيلتقي ابن أخ لهم برئيسة دير، وهو عائد إلى موطنه يائسًا، فيكتشف أنها ابنة ملك انجلترا، فيتزوجها؛ ومن ثم ينقذ أعمامه من الفقر.

استمع الجميع بتقدير واهتمام إلى مغامرات "رينالدو"، وصلاته للقديس "جوليانو"، وشكروا الرب والقديس على استجابتهم لدعائه. ولم ينتقد أحدٌ ما فعلته السيدة أو يتهمها بالفجور؛ وذلك لأنها استغلت الهبة التي أرسلها الرب لها. وفيما كانت الفتيات يتهامسن فيما بينهن عن تلك الليلة السعيدة التي قضتها السيدة مع "رينالدو"، أدركت "بامبينيا"- التي كانت تجلس بجوار "فيلوستراتو"- أن دورها قد جاء، فأخذت تفكر مليًّا في ما سترويه لهم. وبعد أن طلبت منها الملكة أن تحكي لهم قصة، بدأت تحكي وتقول:

سيداتي العزيزات، مهما حكينا عن المال والثروة، فلن تنتهي أبدًا حكاياتنا. فكل ما نعتقد بسذاجتنا أنه ملكٌ لنا هو في الواقع ملكٌ للقدَر، ينقله من شخص لآخر دون حساب ولا مساءلة. وهذا واضح وجلي في كل ما يحدث من حولنا، وسوف أضيف لكم قصة في هذا الموضوع.

كان في مدينتنا رجلٌ نبيل من علية القوم، ينحدر من أسرة عريقة، وكان من أثرى أثرياء المدينة، وله ثلاثة أولاد؛ الأكبر يُدعى "لامبرتو"، والثاني "تيدالدو"، والثالث "أجولانتي". مات ذلك الرجل وترك كل ثروته لأولاده. وكان ابنه الأكبر حينها يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا؛ فأخذوا ينفقون ببذخ على متعهم الشخصية، ويتخذون العديد من الخدم، ويقتنون الخيول والكلاب والصقور، ويقيمون الحفلات بصفة مستمرة، وانغمسوا في متعهم وملذاتهم. وبعد فترة، بدأت الأموال التي ورثوها تقل شيئًا فشيئًا؛ فشرعوا في بيع بعض الممتلكات ورهن بعضها، إلى أن انتهت كل ممتلكاتهم تقريبًا، ولم يتبق لهم سوى القليل. فاجتمع "لامبرتو"، الابن الأكبر، مع أخويه، وشرح لهما ما آلوا إليه، ثم نصحهم أن يبيعوا ما تبقى لديهم من ممتلكات، ويهاجروا إلى انجلترا؛ لأن حالهم وهم فقراء سيكون شنيعًا. وبالفعل، باعوا ما تبقى لديهم ثم سافروا إلى انجلترا في الخفاء، وعاشوا هناك في بيت صغير. وأصبحوا لا يسرفون في النفقات، وبدأوا يستخدمون ما تبقى من مالهم في القروض الربوية؛ وكانوا يأخذون فوائد كبيرة جدًّا حتى استطاعوا أن يجمعوا مالًا وفيرًا مرةً أخرى في وقت قصير. ثم عادوا بعدها إلى مدينتهم، وقاموا باستعادة معظم ممتلكاتهم، وتزوجوا وبقوا في المدينة. ولكي تستمر تجارتهم الربوية في انجلترا، أرسلوا أحد أقاربهم، ويدعى "أليساندرو"، وبقوا هم في "فلورنسا"، وأخذوا ينفقون، ثانيةً، أموالهم ببذخ وإسراف، متجاهلين أنهم الآن أصبحوا مسؤولين عن زوجات وأبناء. وكان "أليساندرو" يرسل لهم المال باستمرار من فوائد القروض التي كانت كثيرة.

وبينما هم كذلك، إذ نشبت حرب في انجلترا بين الملك وابنه، فانقسمت

انجلترا نصفين؛ لذلك لم يستطع "أليساندرو" أن يحصل على الأموال، وظل ينتظر أن يحل السلام. وفي أثناء ذلك، كان الإخوة الثلاثة ينفقون ببذخ دون مبالاة. استمرت الحرب في انجلترا عدة سنوات، وضاعت أموال الثلاثة أخوة هناك، حيث تمت مصادرة كل أموالهم، فبدأوا يستدينون. ثم لم يستطيعوا الوفاء بتسديد الديون في مواعيدها، فتم حبسهم، وأصبحت زوجاتهم وأبناؤهم يعيشون في فقر مدقع. وحين رأى "أليساندرو" أن الحرب في انجلترا لن تنتهي، عاد إلى "فلورنسا". وفي أثناء عودته، قابله رئيس أحد الأديرة يرتدي ثيابًا بيضاء، وحوله عدد كبير من الكهنة، وبجانبه فارسان مسنّان من أقرباء الملك كانا يعرفان "أليساندرو"، فطلبا منه أن يأتي معهم فوافق. وفي أثناء سيرهم، سألهم عن وجهة هذا الموكب، فقالا له:

-لقد تم اختيار ذلك الرجل الذي يرتدي البياض ويسير في المقدمة ليكون رئيسًا لأكبر دير في انجلترا، وهو أحد أقاربنا. ولأن سنّه ما تزال صغيرة على هذا المنصب، فنحن متوجهون الآن إلى روما، كي نطلب من البابا أن يوافق على منحه هذا المنصب، ويصدر أمرًا بذلك.

وكان ذلك الرجل الشاب المرشح لرئاسة الدير يسير في المقدمة تارةً، وفي المؤخرة تارةً أخرى، تمامًا كما يفعل السادة أثناء سفرهم. وأثناء ذلك لمح "أليساندرو"، فنظر إليه طويلًا وأعجبته وسامته وقوته، فدعاه إلى جانبه، ليعرف منه قصته ووجهته، ثم تعاطف معه كثيرًا بعد أن علم بحاله. وبعد أن رأى صدقه وأدبه، واساه قائلًا له إن الرب سيرد له كل ذلك المال الذي فقده، إن كان رجلًا صالحًا بحق. وشكره "أليساندرو" على هذه المواساة. وفي أثناء سيرهم مروا على بلدة، فطلب رئيس الدير من الحاشية أن يتوقفوا، بناءً على

نصيحة "أليساندرو"، ليبيتوا هذه الليلة في تلك البلدة. كان "أليساندرو" يعرف صاحب أحد الفنادق في تلك البلدة، فذهبوا جميعًا إليه ليبيتوا في فندقه. وبالفعل، قام الرجل بتوزيع أفراد الحاشية جميعهم على غرف الفندق بعد أن تناولوا وجبة العشاء، ولم يتبق سوى "أليساندرو"، فسأله عن المكان الذي سيبيت فيه، فأجابه صاحب الفندق قائلًا:

- لا أدري، فالغرف جميعها مشغولة الآن كما ترى، ولكن الغرفة التي بها رئيس الدير تضم مخزنًا صغيرًا للمؤن؛ سأضع لك فيه فراشًا، وتقضي ليلتك هناك.

فقال له "أليساندرو":

- كيف سأنام في غرفة رئيس الدير؟ إنها صغيرة جدًّا ولا تكفي لذلك. ولو أعلم أن بها متسعًا لجعلنا أحد الكهنة يبيت معه ليكون في خدمته، إن أراد شيئًا.

فرد عليه صاحب الفندق:

- الأمر كما ترى، فإن شئت وضعت لك فراشًا هناك. ورئيس الدير قد نام، ولن يشعر بشيء من ذلك.

وافق "أليساندرو" في النهاية، بعدما تأكد أن رئيس الدير نائم تمامًا، وأنه لن يتم إزعاجه. فنام على الفراش في صمت. لكن رئيس الدير لم يكن نائمًا في الحقيقة، بل كان يفكر في إشباع رغباته الجنسية. وقد سمع كل ما دار من حديث بين "أليساندرو" وصاحب الفندق. وقرر رئيس الدير- بعد أن دخل "أليساندرو" الغرفة- أن يشبع رغباته، فناداه لينام إلى جانبه، فوافق "أليسندرو" على الفور. فبدأ رئيس الدير يداعبه كما تفعل الفتيات، ثم

أمسك بيد "أليساندرو"، الذي تملكته الدهشة، ووضعها في فتحة صدره، فلاحظ "أليساندرو" أن رئيس الدير يمتلك نهدين كبيرين ناعمين؛ فعلم أنه مع امرأة وليس مع رجل، فاحتضنها على الفور، وحاول تقبيلها، فقالت له:

- اسمع، أولًا قبل أي شيء، أنا امرأة، كما ترى. وقد وقعت في غرامك منذ أن رأيتك، إما لحسن حظي أو لسوء حظك، وأريد أن أتزوج منك. فإن كنت لا ترغب في ذلك، فارجع إلى فراشك.

ولأنها كانت جميلة، وكان يبدو عليها أنها سيدة من علية القوم، وافق "أليساندرو" على الزواج منها، على الرغم من معرفته بها. فقامت المرأة وجثت أمام صورة منقوشة ليسوع المسيح، ثم وضعت خاتمًا في إصبع "أليساندرو"، وبهذا يكونان قد تزوجا. ثم باتا ليلتهما في سعادة إلى أن أصبح الصباح، فغادر "أليساندرو" الغرفة دون أن يعلم أحد بما حدث، وواصلو جميعًا سفرهم نحو روما. وبعد أن وصلوا إليها ظلوا فيها عدة أيام كي يستريحوا من عناء السفر، ثم توجه بعد ذلك رئيس الدير والفارسان و"أليساندرو" لمقابلة البابا. وبعد أن وصلوا وأدوا التحية، بدأ رئيس الدير الكلام:

- أيها الأب المقدس، أنت خير مَن يعلم بأن مَن يريد أن يعيش عيشًا كريما، فعليه أن يتجنب كل ما يحول بينه وبين ذلك. ولأنني أريد عيشًا كريمًا فاعلم أنني فتاة، وأنني ابنة ملك انجلترا، وقد هربت منه ومعي كمية كبيرة من الأموال، بعد أن أصرَّ على تزويجي من ملك اسكتلندا؛ وهو رجل مُسن وأنا فتاة في مقتبل العمر. وجئت إليك هاربةً كي تتولى أنت تزويجي. وقد فعلت ذلك خشية أن أتزوجه، ثم يدفعني شبابي إلى اقتراف الخطيئة مع أحد غيره، فأكون بذلك قد ارتكبت ذنبًا يعاقبني عليه الرب. وبينما أنا في

طريقي إليك، إذ وفّقني الرب إلى أن أقابل رجلًا سيكون زوجًا لي، وأشارت إلى "أليساندرو". وإن كان ذلك الرجل ليس من النبلاء، إلا أنه يملك من الصفات النبيلة ما يجعله أهلًا للزواج بي، ولن أقبل بزوج غيره. وأريد أن أُشهر هذا الزواج أمامكم، لتمنحوني البركة، أنا وزوجي، فنظل سعيدين إلى أن نموت بعد عمر طويل.

أصاب "أليساندرو" الذهول حينما علم أنها ابنة ملك إنجلترا، وشعر بسعادة كبيرة في نفس الوقت. لكن الفارسين غضبا غضبًا شديدًا من زواجها بـ"أليساندرو"، وهمَّا بضربها لولا وجود البابا. وذهل البابا من جانبه من هيئتها، واختيارها لزوجها بنفسها، لكنه لم يجد بدًّا من إتمام هذا الزواج. فوافق أن يمنحهما البركة، وهدَّأ من روع الفارسين.

وفي صباح اليوم التالي، وفي حضور جمع من كبار رجال الدولة، استدعى البابا الفتاة، وكانت ترتدي ملابسها الملكية، فبدت رائعة الجمال، وكان "أليساندرو" كذلك يرتدي ثيابًا فخمة، فلم يبد من هيئته أنه يعمل مرابيًا، بل كان يبدو أنه من أسرة ملكية. ثم أقيمت مراسم الزفاف، وقد بارك الرب زواجهما، ثم غادرا روما بعد ذلك متوجهين صوب "فلورنسا". وكان خبر زواجهما قد انتشر في المدينة، فقابلهما الناس بالترحاب والسرور. ثم قامت بتسديد ديون الإخوة الثلاثة، وبذلك تم إخراجهم من السجن وعادوا إلى زوجاتهم، وعادت إليهم ممتلكاتهم التي كانوا قد رهنوها. ثم سافر الزوجان بعد ذلك إلى باريس، ورافقهما "أجولانتي"، الأخ الأكبر، في سفرهما. وقد أكرمهما ملك فرنسا غاية التكريم. ثم توجها بعد ذلك نحو انجلترا، وكان الفارسان قد سبقاهما إلى هناك، ليتوسطا لهما عند الملك كي يعفو عن ابنته.

وبالفعل، استقبلهما الملك بالحفاوة، وأقام لهما الاحتفالات، ومنح "أليساندرو" رتبة كبيرة في الجيش. وكان "أليساندرو" رجلًا ماهرًا، فاستطاع بذكائه أن يُصلح بين الملك وابنه، فعادت انجلترا موحدةً مرةً أخرى، وانتشر السلام فيها، فنال بذلك حب الناس جميعًا. واستطاع "أجولانتي" أن يحصل على أمواله التي كانت له في انجلترا، فأصبح من أثرياء القوم، وعاد راجعًا إلى "فلورنسا". أما الزوجان، فقد عاشا سعيدين. ويقول البعض إن "أليساندرو" استطاع بعد ذلك- بحكمته وشجاعته- أن يغزو اسكتلندا، وينتصر على ملكها، ثم صار ملكًا عليها.

القصــة الرَّابعــة

يفتقر "لاندولفو روفولو" فيعمل بالقرصنة. وبعد أن يسلبه تجار من مدينة "جنوة" كل ماله، يضعونه في سفينتهم؛ فتغرق السفينة إثر عاصفة، وينجو هو بواسطة صندوق خشبي مليء بالجواهر، فتسحبه امرأةٌ إلى خارج الماء، بالقرب من مدينة "جورفو"[16]، فيعود إلى وطنه ثريًّا.

كانت "لوريتا" تجلس بجوار "بامبينا". فلما انتهت "بامبينا" من قصتها ذات الخاتمة المجيدة، بدأت "لوريتا" على الفور قصتها التي تتناول نفس الموضوع والحكمة، قائلةً: صديقاتي العزيزت، ليس هناك حظ أفضل من أن يتحول إنسان من رجل بائس إلى ملك عظيم. وهذا ما حدث مع "أليساندرو" في القصة الماضية. وسوف أروي لكم قصة رجل، وإن كان على درجة كبيرة من البؤس، إلا أنه لن يصل في النهاية إلى ما وصل إليه

[16] تقع المدينة على الساحل الشرقي لجزيرة "جورفو"، ضمن شبه جزيرة عريضة ممتدة في البحر "الأيوني"، وتبعد عن البر اليوناني مسافة 18 كيلومتر. حاول العثمانيون الاستيلاء عليها عدة مرات، لكنهم لم ينجحوا.

"أليساندرو"؛ لذا فربما لن تنال قصتي مزيدًا من الاهتمام.

يقال إن شاطئ البحر- من مدينة "ريجو" حتى مدينة "جايتا"- هو الأجمل في كل شواطئ إيطاليا. وهناك بالقرب من مدينة "ساليرنو"[17] ثمة منطقة يدعوها أهلها "كوستا دامالفي"، وهي مليئة بالحدائق والأنهار والمدن الصغيرة، ويكثر بها الرجال الأثرياء الذين يعملون في التجارة. وكان من بين تلك المدن واحدة تُدعى "رافيلُّو"، كان يسكن فيها قديمًا رجل واسع الثراء يُدعى "لاندولفو روفولو". ولم يكن ذلك الرجل قانعًا بما يمتلكه من مال وفير، فكان يرغب دائمًا في مضاعفته، حتى أوشك أن يفقد حياته في سبيل ذلك.

ففي ذات يوم قرر أن يشتري سفينة عملاقة، مثلما يليق بكبار التجار، ثم ملأها بالبضائع، وأنفق في ذلك ماله كله. ثم اتجه بها صوب "قبرص". وعندما وصل إلى هناك، لاحظ وجود العديد من السفن المحملة بنفس البضائع التي جاء بها، فاضطُر إلى بيعها بأي ثمن، فخسر في ذلك كل ماله، وأصابه اليأس والقنوط لما حل به من خسارة؛ فقرر أن ينتحر أو يسرق، حتى يعود لبلده غنيًّا كما خرج منها؛ فباع سفينته واشترى بدلًا منها سفينة صغيرة، وملأها بالأسلحة لكي يستخدمها في عمليات القرصنة. وبالفعل بدأ يسرق السفن، وخاصةً سفن الأتراك، ويستولي عليها. فأصبح ثريًّا جدًّا بأكثر مما كان من قبل. وبعد مرور عام، قرر أن يترك القرصنة ويعود ثانيةً إلى بلده.

---

[17] مدينة إيطالية، عاصمة مقاطعة "ساليرنو" جنوبي البلاد. تقع على خليج "ساليرنو" بالبحر "التيراني"، وتبعد 57 كم جنوب شرق مدينة "نابولي".

ولم يحاول العمل بالتجارة، فقد خشي أن يرجع للتجارة مرةً أخرى فيخسر ماله مرةً ثانية. لذلك، وضع المال كله في سفينته الصغيرة، وشرع في العودة إلى موطنه. وفي طريق عودته هبَّت رياح قوية فغيرت مسار السفينة، فاضطُر أن يرسو بها عند جزيرة صغيرة. وبعد قليل، رست سفينتان كبيرتان قادمتان من مدينة "جنوة" بالقرب من سفينته، بسبب شدة الريح. وحينما علم مَن بالسفينتين مَن هو صاحب هذه السفينة الصغيرة، عرفوا أنّ معه الكثير من المال، فقرروا أن يأخذوا كل ما معه من مال، فحاصروا السفينة ومنعوها من التحرك، ثم نزلت مجموعة مسلحة من البحارة واقتادو "لاندولفو" إلى متن إحدى السفينتين، ثم استولوا على كل ما في السفينة من مال. وبعد ذلك قاموا بإغراقها عل الفور. وفي اليوم التالي، هدأت الريح، فعاودت السفينتان رحلتهما. ولكن بعد فترة هبّت ريح قوية، فانحرفت السفينة التي بها "لاندولفو" عن الأخرى، ثم ارتطمت في صخور ضخمة بالقرب من جزيرة "سيفالونيا"، فتحطمت وتحولت إلى قطع صغيرة، فطفت الألواح الخشبية والصناديق فوق الماء. وحاول البحارة السباحة لكي ينجوا بأنفسهم من الموت. وكان الظلام حالكًا، فحاول كل منهم أن يعثر على لوح خشبي لكي ينجو به إلى الشاطئ، وكذلك فعل "لاندولفو". فرغم أنه كان يفكر في الانتحار، حينما خسرت تجارته على أن يعود لبلده فقيرًا، إلا أنه الآن حينما رأى الموت بعينيه حاول العثور على لوح خشبي لينجو به. وبالفعل وجد أحد الألواح، فتعلق به وظل كذلك في البحر تتقاذفه الأمواج حتى أصبح الصباح؛ فنظر حوله فلم يجد سوى البحر الواسع والغيوم من فوقه، ورأى كذلك صندوقا يطفو فوق الماء تقذفه الأمواج بالقرب منه أحيانًا، فخشي أن تأتي موجة كبيرة فتقذفه

ناحيته بقوة فيصدمه ويغرقه؛ فحاول أن يبتعد عنه ما استطاع. وفجأة جاءت موجة كبيرة فألقت بالصندوق فوق اللوح الخشبي الذي يطفو عليه "لاندولفو"، فسقط في الماء على الفور وغاص فيه، إلا أنه تمكن من الخروج إلى سطح الماء، يدفعه خوفه أكثر مما تدفعه قوته، فوجد اللوح الخشبي قد ابتعد كثيرًا، لكن الصندوق كان لا يزال قريبًا منه، فتوجه ناحيته، وارتمى فوقه، باسطًا يديه، محاولًا أن يحافظ على توازنه. وظل على هذا الحال طيلة النهار والليل، وقد أنهكه الجوع. وبفضل الإرادة الالهية، اقترب الصندوق، مدفوعًا بقوة الريح، من شاطئ جزيرة "كورفو"، حيث كانت هناك امرأة تغسل ثيابها على الشاطئ. وحين رأت "لاندولفو" يقترب بالصندوق من الشاطئ، تراجعت إلى الوراء وهي تصرخ، فلم يستطع أن يقول لها شيئًا؛ فقد كان لا يقوى على الكلام. لكنه حين وصل إلى الشاطئ، أمعنت السيدة النظر فيه، فأشفقت عليه وسحبته من شعره حتى أخرجته من الماء هو والصندوق. ثم أخذت "لاندولفو" ووضعته في ماء دافئ، كما لو أنه طفل صغير. وبعد أن شعر بالدفء، عادت إليه بعض قواه. ثم بعد ذلك تناول الطعام والشراب. وبعد عدة أيام استرد صحته وعافيته، فقررت المرأة أن تسلمه الصندوق الذي كان سبب نجاته، فأخذه "لاندولفو"، فوجده خفيف الوزن، فظن أنه خالٍ من أي شيء ذي قيمة. وبعد أن تركته المرأة بمفرده، أراد أن يعرف ما بداخله، ففتحه، ووجد به مجموعة كبيرة من الأحجار الكريمة باهظة الثمن، فحمد الرب على ذلك، واعتبر أن ذلك تعويضًا له. ولأنه خسر ماله مرتين، فلم يشأ أن يخسر هذا الكنز هذه المرة؛ فوضع الأحجار الكريمة في ثوب قديم، ولفها به جيدًا، ثم أعطى الصندوق الفارغ للمرأة على أن تعطيه بدلًا منه كيسًا من

القماش. فاستجابت له المرأة وأعطته ما أراد، فشكرها على ذلك، ثم وضع الكنز في هذا الكيس وحمله على كتفه، وانطلق عائدًا إلى بلده. فاستقل مركبًا أوصله إلى مدينة "برانديتسيو"، ومنها استقل مركبًا آخر إلى مدينة "تراني". وهناك التقى ببعض أصدقائه، فأعطوه ثيابًا جديدة، بعد أن علموا بالمخاطر التي تعرض لها. لكنهم لم يعلموا عن أمر الصندوق وما بداخله شيئًا. وأعطوه كذلك حصانًا وخادمًا ليرافقه في رحلته إلى بلده "رافيلُّو". وحين وصل إلى هناك وشعر بالأمان، بدأ يتفحص الأحجار الكريمة التي كانت معه، وأخذ يفكر في الثروة العظيمة التي سيمتلكها عند بيعه هذه الأحجار. وبالفعل، قام ببيعها، وأصبح في ثراء واسع. ثم أرسل مبلغًا كبيرًا من المال إلى المرأة التي أنقذت حياته، وأرسل مبلغًا كذلك لأصدقائه الذين أكرموه، وقدموا له الملابس في "تراني"، واحتفظ لنفسه ببقية المال، ولم يعد للتجارة مرةً أخرى، وظل كذلك يعيش حياة كريمة حتى وافته المنية.

القصـة الخامسَـة

بعد أن سافر "أندريوتشو" من "بيرودجا"[18] إلى "نابولي"، ليشتري خيولًا، واجه هناك ثلاثة مخاطر، لكنه نجا منها، وحصل في النهاية على ياقوتة عاد بها إلى بيته.

جاء الآن دور "فياميتا" لتحكي قصتها، فقالت إن صندوق الأحجار الكريمة في القصة السابقة ذكَّرها بقصة أُخرى مغايرة، وأحداثها أخطر من سابقتها، لكن أحداثها لم تستغرق فترة طويلة، بل حدثت كلها في يوم واحد، بدلًا من أن تحدث في عدة سنوات. بدأت تقول:

- كان يعيش في مدينة "بيرودجا" شاب يُدعى "أندريوتشو"، يعمل في تجارة الخيول. وحين نما إلى علمه وجود سوق جديدة للخيول في "نابولي"، وضع في كيس نقوده خمسمائة فلورين من الذهب، وسافر إليها على الفور، برفقة بعض التجار. ثم وصل إليها مساء يوم الأحد، ونزل في أحد الفنادق؛ فأخبره صاحب الفندق عن الكثير من المعلومات التي يحتاجها عن السوق.

---

[18] مدينة في أواسط إيطاليا، عاصمة إقليم "أمبريا".

ثم توجه- في صباح اليوم التالي- إلى السوق، ورأى العديد من الخيول، فأخذ يساوم أصحاب الخيول في سعرها؛ ولكي يثبت لهم جديته في الشراء كان يخرج كيس نقوده، ويظهره لهم؛ فعلم الجميع أنه يمتلك نقودًا كثيرة. وكانت حين ذاك في السوق شابة بارعة الجمال، من مدينة "صقلية". وكانت على استعداد لإمتاع أي رجل مقابل القليل من المال؛ فلما رأت كيس نقوده فكَّرت في الأمر، وأرادت أن تحصل على هذه النقود. كانت تسير بجوار هذه الشابة امرأة عجوز من صقلية هي الأخرى، وكانت هذه المرأة العجوز تعرف "أندريوتشو" جيدًا، وكان هو كذلك يعرفها؛ فلما رأته في السوق رحبت به وصافحته، فصافحها "أندريوتشو" بحرارة كذلك، ووعدته أن تأتي لزيارته في الفندق الذي نزل به. في ذلك الوقت، كانت الفتاة تراقب الأمر من بعيد. ثم انصرفت العجوز، واستمر "أندريوتشو" في السوق يساوم التجار في أسعار الخيول، دون أن يشتري شيئًا في ذلك اليوم. كانت الفتاة الجميلة قد قررت الاستيلاء على المال الذي بحوزة "أندريوتشو"، أو على الأقل على جزء كبير منه. فلما لاحظت العلاقة الحميمة بينه وبين تلك المرأة العجوز، سألتها عنه وعن عمله، فأجابتها عن أسئلتها بالتفصيل، قائلة لها إنها قد تعرفت على أبيه في صقلية ثم في "بيرودجا"، وأخبرتها عن طبيعة عمله وأسباب قدومه إلى هنا. وبعد أن حصلت الفتاة عن معلومات وفيرة عنه وعن عائلته، وضعت خطة خبيثة للاستيلاء على أمواله؛ فطلبت من السيدة العجوز أن تنجز لها بعض الأعمال، التي ستبقيها بعيدة عن المكان لفترة من الوقت. ثم أرسلت إلى "أندريوتشو" بنتًا صغيرة، تعودت أن تستخدمها في مثل تلك الحالات. وعندما وصلت البنت إلى المكان المتواجد به "أندريوتشو"، وكان يقف بمفرده

بجوار الباب، سألته عن اسمه، فلما أخبرها، قالت له:

- إن فتاةً من هذه المدينة ترغب في التحدث معك، إذا سمحت بذلك.

ولأن "أندريوتشو" كان يرى في نفسه شابًّا وسيمًا، ظن أن تلك الفتاة قد وقعت بالتأكيد في غرامه، لأنه لا أحد يضاهيه في "نابولي" كلها؛ فأخبر البنت أنه لا يمانع في ذلك، ولكن أين، ومتى؟ فأخبرته أنه يمكنه المجيء في أي وقت، فهي تنتظره في بيتها. فانطلقا سويًّا على الفور، دون أن يخبر صاحب الفندق، إلى أن وصلا إلى البيت. كان يقع في حيّ يُدعى "مالبرتوجو"، وهو اسم يدل على مدى عراقة وشرف هذا المكان. فلما دخلا المنزل، قالت البنت الصغيرة بصوت عالٍ:

- ها هو "أندريوتشو" قد وصل.

فإذا بفتاة رائعة الجمال- كانت تقف على درجات السلم- تسرع نحوه، وارتمت في أحضانه، وأخذت تُقبِّله وهي تبكي، كأنها لا تستطيع قول شيء، ثم قالت له بتأثّر:

- أهلا بك يا "أندريوتشو"، يا حبيبي.

فقال "أندريوتشو":

- هل أنتِ بخير، يا سيدتي؟

أمسكته الفتاة من يده، ودخلت به إلى بهو المنزل، ومنه إلى غرفة نومها، حيث كانت تنتشر فيها الروائح العطرية، وتتدلى منها الستائر؛ فشعر أنه في منزل أحد من علية القوم. ثم جلسا سويًّا، وبدأت هي الكلام:

- أعلم أنك قد اندهشت لمعانقتي لك، وكذلك لبكائي حين رأيتك؛ فأنت لا تعلم مَن أنا ولم ترني من قبل. لكن دهشتك هذه ستزداد حينما تعلم

أنني أختك. وبعد أن تعرفتُ على واحد من إخوتي الذين لا أعرفهم، سأموت الآن وأنا مطمئنة. أعرف أنك لا تفهم ما أقول؛ لكني سأحكيه لك بالتفصيل. فأنت تعرف أن والدنا قد عاش مدة طويلة في "باليرمو"، وكان رجلًا محبوبًا من الجميع، وكانت أمي من بين هؤلاء الذين أحبوه. لكن أحدًا لم يحبه مقدار حبها له. وكانت أرملة من علية القوم. ومن شدة حبها له، تنازلت عن شرفها وسلمته نفسها دون التفكير في أهلها. ومن هذه العلاقة وُلدتُ أنا. وبعد فترة، اضطُر أبونا إلى السفر إلى "بيرودجا"، تاركًا وراءه أمي وابنتها الرضيعة، التي هي أنا، دون أن يسأل عنا طيلة هذه المدة. ولولا أنه أبي، لتحدثت عنه بكلام قبيح، لهجره لأمي وعدم سؤاله عنها. وحين كبرتُ زوجتني أمي، وهي امرأة غنية، من رجل من علية القوم من مدينة "جرجنتي". ولشدة حبه لي ولأمي، قرر أن يترك بلدته ويقيم معنا هنا في "باليرمو"[19]. ولأنه كان مقربًا من الملك "كارلو"، ملك هذه المدينة التي نعيش فيها الآن، فقد كان يبرم له الاتفاقيات والمعاهدات. وحين علم بذلك الملك "فيديريكو"، ملك المدينة التي كنا نعيش فيها من قبل، اضطُررنا للهرب، وقد حملنا معنا بعض الممتلكات القليلة، أقصد قليلة بالمقارنة بما تركناه من ممتلكات؛ فقد تركنا القصور والأراضي التي كنا نمتلكها، وجئنا إلى هذه المدينة عند الملك "كارلو". وقد أكرمنا وعوَّضنا عن بعض ما فقدناه هناك، ومنح زوجي، الذي هو صهرك، أملاكًا وأموالًا جعلتنا نعيش حياة كريمة كما

---

[19] عاصمة إقليم صقلية ذاتي الحكم، وكبرى مدنه، وهي المركز الثقافي والتاريخي والاقتصادي-الإداري الرئيسي في صقلية.

ترى، وقد أكرمني الرب بأن أراك هنا، يا أخي الحبيب.

وبعد أن انتهت من الكلام، عانقته ثانيةً ودموعها تسيل على خديها، ثم قبّلت جبهته. وبعدما سمع "أندريوتشو" هذه الحكاية المتقنة والمرتبة، حيث لم تتلعثم في كلمة وهي تحكيها، ولأنه يعلم أن أبيه كان يعيش بالفعل في "باليرمو"، ويعلم أن الشبان بالفعل يميلون إلى إقامة مثل هذه العلاقات، ولرؤيته الدموع في عينيها وهي تحكي، صدَّق بالفعل كل ما سمعه منها. ثم قال لها:

-لا تتعجبي من شدة دهشتي؛ فأبي لم يقل لي ذلك من قبل. ولم أكن أعلم عنك شيئًا. ومع ذلك، فأنا سعيد بأن ألتقي بأختي في هذه المدينة التي لا أعرف فيها أحدًا. ولكن كيف عرفتني، وتأكدت أنني أخوك؟

فقالت له:

-أخبرتني بذلك، صباح هذا اليوم، امرأة عجوز تأتي إليَّ أحيانًا لتقضي لي بعض الأعمال. وأخبرتني أنها كانت تعرف والدنا منذ أن كان في "باليرمو"، ثم في "بيرودجا" بعد ذلك. ولو أعلم بذلك من قبل، لجئت إليك أنا، ولم أنتظر حتى تسوقك الأقدار إليَّ.

ثم بدأت تسأله عن أفراد العائلة، وتذكرهم له بالاسم؛ فزاده ذلك يقينًا من صدق كلامها. ثم قدمت له الشراب والحلوى. ولمّا أراد أن يغادر المنزل لأن موعد عشائه في الفندق قد حان، قالت له وهي تعانقه:

-كيف ذلك؟ يا لي من إنسانة تعيسة؛ فكم هو قليل حبك لأختك! كيف تفكر في العشاء في الخارج، وأنت في بيت أختك التي كان يجب أن تنزل فيه، منذ أن قدمت إلى هذه المدينة. لن تخرج، بل سنتناول العشاء معًا.

ومع أن زوجي غير موجود، لكنني أعرف كيف أكرمك.

فقال لها "أندريوتشو":

-أنا أحبك كما يحب الأخ أخته، لكني إن لم أذهب الآن، فسينتظرني رفاقي في الفندق، وقد يقلقون عليَّ.

فقالت له:

- يا إلهي؛ ألا يوجد خادم نرسله إلى هناك فيخبرهم ألا ينتظروك؟ وإن كان من الأليق أن تذهب أنت إليهم، وتحضرهم جميعًا إلى هنا، لنتناول العشاء سويًّا.

فأخبرها "أندريوتشو" أنه لا يرغب في العشاء مع رفاقه هذه الليلة، وأنه سيتناول العشاء معها. فتظاهرت بأنها أرسلت من يخبر رفاقه بألا ينتظروه على العشاء، ثم جلسا لتناول العشاء سويًّا. وتجاذبا أطراف الحديث حتى اشتدت ظلمة الليل. آنذاك، قرر "أندريوتشو" أن يغادر المنزل، فرفضت وأخبرته بأن مدينة "نابولي" لا يمكن السير فيها في هذه الساعة المتأخرة من الليل، وبالأخص الغرباء. وتظاهرت بأنها أرسلت للفندق من يخبرهم أنه لن يبيت هناك هذه الليلة، وصدَّق هو ذلك بالفعل. فظلا يتبادلان أطراف الحديث، وبعد فترة تركته في غرفتها ومعه صبي ليقوم على خدمته، ثم ذهبت هي إلى غرفة أخرى.

كان الحر شديدًا فخلع ملابسه، ووضعها على حافة السرير. ثم أراد أن يذهب إلى الحمَّام ليقضي حاجته، فسأل الصبي عن مكان الحمَّام، فأشار له الصبي بإصبعه ناحية أحد الأبواب، ففتحه "أندريوتشو" فوجد ألواحًا خشبية موضوعةً بجوار بعضها، وبينها فتحات، وبالأسفل ثمة حفرة كبيرة بها الكثير

من البراز؛ فوضع قدمه على أحد هذه الألواح، فانزلقت وسقط في الحفرة. أخذ ينادي بأعلى صوته على الصبي، الذي أسرع ليخبر الفتاة بما حدث؛ فأسرعت الفتاة وذهبت إلى غرفة النوم، ثم تناولت ملابسه وبدأت تبحث فيها عن النقود. وبعد أن وجدتها، أخذتها، ثم أغلقت باب الحمام الذي سقط فيه، ولم تعبأ به. وعندما أحس "أندريوتشو" أنهم لا يستجيبون لندائه، شعر بأنهم قد دبَّروا له مكيدة، فتسلق الجدار ثم قفز إلى الشارع، وراح يطرق باب البيت، وقد تلطخ جسمه بالبراز. لكن أحدًا لم يفتح له الباب، فأخذ يبكي ويقول:

- لقد خسرت في لحظة كل نقودي وأختي!

وأخذ يطرق الباب، وينادي بصوت عال؛ فتضايق الجيران من الضجيج الذي يصدره، ثم أطلَّت امرأة من نافذة المنزل، وهي تتظاهر بالنعاس وقالت له:

- مَن الذي يطرق الباب بهذه القوة؟

فقال لها:

-أنا "أندريوتشو"، أخو السيدة "فيوردااليزو"، ألا تعرفينني؟

فردت عليه قائلة:

-يبدو أنك سكران، اذهب ونم قليلًا، ثم عُد غدًا، واتركني أنام؛ فأنا لا أعرف مَن "أندريوتشو" هذا.

فصاح "أندريوتشو" قائلًا:

-ماذا؟ ألا تعرفين "أندريوتشو"؟ فإذا كنتم تنسون أقاربكم بهذه السرعة، فاعطيني ملابسي، على الأقل.

فقالت له وهي تبتسم:

- يبدو أنك تحلم، أيها الرجل الطيب.

ثم دخلت، وأغلقت النافذة. فغضب "أندريوتشو" غضبًا شديدًا، وقرر أن يأخذ أشياءه بالقوة. فأمسك بحجر كبير، وأخذ يحطم في الباب؛ فغضب الجيران من الضجيج الذي يقوم به، وظنوه رجلًا خبيثًا يريد أن يضايق الفتاة، فصاحوا فيه بأعلى أصواتهم:

- ما هذا السفه! كيف تأتي في هذا الوقت المتأخر من الليل إلى بيت هذه الفتاة الطيبة، وتتكلم بهذه الخرافات؟ هيَّا انصرف من هنا، ودعنا لننام في هدوء، وتعال لهم في الصباح، ويكفيك إزعاجًا لنا هذه الليلة.

ثم أطل من نافذة البيت مرةً أخرى رجلٌ فظ، يبدو أنه قوَّاد لتلك الفتاة، وكان قد سمع كلام الجيران، فصاح بأعلى صوته:

- من بالأسفل؟

فنظر "أندريوتشو" لأعلى، فوجد رجلًا ذا لحية كثيفة سوداء، ويبدو على هيئته أنه كان نائمًا، حيث كان يفرك عينيه، فقال له:

- أنا أخو الفتاة التي تسكن في هذا البيت..

فقال له الرجل في غضب، ولم يدعه يكمل حديثه:

- سأنزل إليك، وأشبعك ضربًا، أيها السكِّير المزعج.

ثم أغلق النافذة. فقال الجيران لـ"أندريوتشو" ينصحونه:

- انصرف سريعًا، حتى لا يقتلك، انصرف!

أصاب "أندريوتشو" الرعب من صوت ذلك الرجل وهيئته المخيفة، فاستجاب لنصيحة الجيران، وقرر أن يعود إلى الفندق، بعد أن يئس من

استرداد نقوده وملابسه. لكنه أراد أن يذهب إلى البحر أولًا حتي يغتسل من القاذورات التي علقت بجسمه. وبينما هو ذاهب نحو البحر، رأى رجلين قادمين نحوه يحملان مصباحًا. ولخشيته منهم اختبأ في بيت مهجور، لكن الرجلين دخلا نفس البيت، كأنهما يتعمدان ملاحقته. وبعد أن دخلا، وضع أحدهما بعض الأدوات التي كانت بيده على الأرض، فقال له الآخر:

- ما هذا الذي أشمُّه؟ إنني أشم أنتن رائحة في حياتي.

فرفع المصباح لأعلى، فرأى "أندريوتشو"، فسأله مستغربًا:

- من أنت؟

ظل "أندريوتشو" صامتًا، فاقتربا منه وسألاه عن ما يفعل في هذا المكان، فحكى لهما كل ما حدث معه. فأخذا يفكران في أي منزل قد يكون حدث له ذلك، فقال أحدهما:

- من المؤكد أن هذا حدث في بيت القوَّاد المجرم "بوتافويكو".

ثم نظر إلى "أندريوتشو"، وقال له:

- رغم أنك فقدت أموالك كلها، إلا أنه يجب عليك أن تحمد الرب؛ فلو أنك نمت هناك ولم تسقط في الحمَّام لكانوا قد قتلوك؛ وربما يحاولون قتلك إذا علموا أنك تتحدث في هذا الأمر. فلا تفكر في المال، لأنك لن تستطيع استعادته مرةً أخرى.

ثم نظر الرجلان إلى بعضهما البعض، وبعدها توجه أحدهما إلى "أندريوتشو" قائلًا له:

- اسمع، لقد أشفقنا على حالتك، فيمكنك المجيء معنا لإنجاز عملٍ ما ننوي فعله الآن، وسيكون نصيبك أكبر مما فقدته.

فأبدى "أندريوتشو" موافقته على الفور.

وكان قد تم دفن أسقف "نابولي"، "فيليبو مينوتولو"، في ذلك اليوم. وقد وضعوا معه في نعشه مجموعة من الحُلي النفيسة وخاتمًا به ياقوتة تساوي أكثر من خمسمائة فلورين ذهبي. وكان العمل الذي ينويان القيام به هو سرقة هذه الأشياء. وقد شرحا ذلك لـ"أندريوتشو"، فطمع هو أيضًا في ذلك المال. ثم توجهوا سويًّا إلى الكنيسة الكبرى. ولأن "أندريوتشو" كانت رائحته نتنة جدًّا، فقد قال أحدهما للآخر:

-ألا يوجد مكان يغتسل فيه، فرائحته منتنة جدًّا؟

فأجابه الآخر:

-يوجد في طريقنا بئر، وبه حبل ودلو، فليغتسل هناك.

وعندما وصلوا البئر، وجدوا الحبل ولم يجدوا الدلو؛ فقررا ربط "أندريوتشو" بالحبل وإنزاله إلى البئر فيغتسل بداخله. وبعد أن ينتهي يشدان الحبل ويخرجانه.

وبالفعل، بدأوا في التنفيذ. وبعد أن أنزلاه في البئر، شعر بعض حراس حاكم المدينة بالعطش، إما من شدة الحر، أو لأنهما كانا يطاردان في ذلك اليوم أحد هذين الرجلين. فتوجه الحرس صوب البئر، فلما رآهم الرجلان لاذا بالفرار، فلم يهتم الحراس بأمرهما؛ فقد كانوا يريدون الشرب من البئر. وفي تلك الأثناء، كان "أندريوتشو" قد انتهى من الاغتسال، فبدأ يجذب الحبل. وبدأ الحراس يسحبون الحبل لأعلى، وهم يظنون أن الدلو قد علق بشيءٍ ما. وحين وصل "أندريوتشو" إلى أعلى البئر، أمسك بالسور الذي يحيط به بكلتا يديه، ثم خرج منه. وكان الحراس حينما رأوه قد ألقوا الحبل من

شدة الخوف، وتركوا أسلحتهم على الأرض، وأسرعو في الركض مبتعدين عن البئر. ولولا أنه أمسك بالسور لكان سقط ثانيةً في البئر، وربما كان قد مات. وبعد أن خرج "أندريوتشو"، لم يجد أحدًا في انتظاره. فتعجَّب من ذلك، ووجد سلاحًا كذلك على الأرض، وهو يعلم أن الرجلين الذين كانا معه لم يكن بحوزتهما سلاح؛ فتشاءم من هذا الأمر. ثم سار بعيدًا عن البئر. وفي أثناء سيره، قابل الرجلين، وكانا عائدين لإخراجه. فلما حكى لهما ما رآه خارج البئر، ضحكا وأخبراه بما حدث. ثم انطلقوا جميعًا نحو الكنيسة الكبرى. وبعد أن دخلوها، توجهوا إلى غرفة الدفن. وكان النعش الموضوع به الأسقف كبيرًا، فقاموا بفتح غطائه بالأدوات التي كانت بحوزتهم. وكان ثقيلًا جدًّا ومصنوعًا من المرمر. ثم ثبتوه عند مستوى معين، بحيث يستطيع أحدهم أن يدخل منه، فقال أحد الرجلين: من الذي سيدخل؟

فأجابه الآخر: بالطبع، ليس أنا.

فرد عليه ثانيةً: ولا أنا.

ثم أردف قائلًا: فليدخل "أندريوتشو"!

فقال "أندريوتشو": لا، لن أدخل.

رد الرجلان قائلين: إذا لم تدخل، فسنضربك بهذه الأدوات حتى الموت.

شعر "أندريوتشو" بالخوف، فاستجاب لطلبهم ودخل في النعش. وبينما هو بالداخل، توقع أن يغدرا به، ويأخذا كل شيء لهما دون أن يعطوه شيئًا. فقرر أن يحتفظ هو بنصيبه بنفسه. فتذكر الخاتم ذا الياقوتة الثمينة، فنزعه من إصبع الأسقف، ووضعه في إصبعه. ثم أمسك بصولجان الكاهن وأعطاه للرجلين، وكذلك تاجه وقفازيه وعباءته. ثم أخبرهم أنه لا يوجد شيء آخر.

فسألاه عن الخاتم فأنكر وجوده، فطلبا منه أن يبحث جيدًا، فتظاهر بأنه يبحث عنه، ثم أكد لهم أنه غير موجود. ولأن الرجلين كانا ينويان فعلًا عدم إعطائه شيئًا، فقد أغلقا النعش، وهو ما يزال بداخله، ثم انصرفا.

حاول "أندريوتشو" أن يفتح غطاء النعش الرخامي بكتفيه، لكنه لم يستطع. أخذ يحاول عدة مرات حتى أُصيب بالإغماء، فسقط مغشيًّا عليه فوق الأسقف. ولما أفاق بعد فترة، أخذ يبكي، ويتخيل مصيره المحتوم؛ فإما أن يموت من الجوع داخل النعش، وإما سيشنقونه بتهمة السرقة. وبينما هو على هذا الحال، إذ سمع وقع أقدام تقترب من النعش؛ حيث كانت مجموعة من الكهنة يريدون سرقة النعش. وبعد أن وصلوا إليه، فتحوا غطاء النعش الرخامي وثبَّتوه، ثم بدأوا يتنازعون حول مَن الذي سيدخل النعش، وكل منهم يرفض الدخول، إلى أن قال أحدهم:

– لماذا أنتم خائفون هكذا؟ إنه لن يأكلكم، فالموتى لا يأكلون البشر، أنا سأدخل.

ثم بدأ يتهيأ للدخول. ثم أدخل ساقه في النعش؛ وعندها أمسك "أندريوتشو" بساق الكاهن، وأخذ يسحبه بقوة للداخل، فأخذ الكاهن يصرخ بأعلى صوته، ثم فرَّ هاربًا هو وبقية الكهنة، وتركوا النعش مفتوحًا، فخرج "أندريوتشو" وهو في غاية السعادة. ثم غادر الكنيسة متوجهًا صوب الفندق الذي يوجد به رفاقه، واضعًا الخاتم في إصبعه. فوجدهم قلقين جدًّا عليه. فحكى لهم ما حدث معه، فنصحه صاحب الفندق أن يغادر "نابولي" على الفور؛ وهو ما قام به بالفعل، فقد عاد إلى "بيرودجا" ليشتري بثمن الخاتم خيولًا، ويعود لتجارته.

القصة السَّادسة

بعد أن فقدت السيدة "بيريتولا" ولديها، يُعثر عليها في إحدى الجزر بصحبة جديين من الماعز، ثم تسافر- بعد ذلك- إلى "لونيجانا"؛ وهناك يوجد أحد أبنائها سجينًا، لأنه أحب ابنة سيده الذي يعمل عنده خادمًا. يحدث بعد ذلك تمرُّد في صقلية ضد الملك "كارلو". وتتعرف الأم على ابنها، ويتزوج من ابنة سيده، ويتعرف على أخيه الآخر، ويعود لهم مجدهم.

ضحك الجميع من سيدات ورجال شبان من عميق قلوبهم مما حدث لـ"أندريوتشو". وبعد أن انتهت القصة، طلبت الملكة من "إيميليا" أن تروي قصةً، فشرعت تقول: النكبات والأمور المؤلمة هي من صروف القدَر. لذلك لا تستطيع عقولنا أن تفعل شيئًا حيالها، فتستكين لها في خضوع. ورواية هذه القصص المؤلمة تواسي التعساء المنكوبين، وتنبِّه السعداء الذين لم تصبهم نوائب الدهر. وسأحكي لكم قصة حزينة مليئة بالمرارة، لكنها تنتهي نهاية سعيدة. ومع ذلك، فأنا لا أظن أن تستطيع السعادة- التي تتحقق في نهايتها- أن تخفف شيئًا من حجم المرارة التي تخللتها.

تعلمن، يا عزيزاتي، أنه بعد موت "فيدريجو الثاني"، امبراطور صقلية، تم

تتويج "مانفريدو" خليفةً له. وكان أحد المقربين من الامبراطور الجديد رجلٌ من كبار وجهاء "نابولي"، يُدعى "أريجيتو كابيتشي"؛ وكان متزوجًا من سيدة جميلة من "نابولي"، أيضًا، تُدعى "بيريتولا كاراتشولا". وقد عيَّنه الامبراطور حاكمًا على جزيرة صقلية. وفي أثناء ذلك، علم أن الملك "كارلو" قد انتصر على الامبراطور "مانفريدو" وقتله، وصارت ايطاليا كلها تحت حكمه؛ فقرر "أريجيتو" الهرب خشية أن يُعتقل أو يُقتل. وبالفعل، حدثت فوضى عظيمة، وتم اعتقال كل المقربين من الإمبراطور السابق، وتسليمهم إلى الملك "كارلو". وفي ذلك الوقت، لم تكن "بيريتولا" تعلم شيئًا عن مصير زوجها. ولخشيتها على نفسها من الأذى، قررت الهرب؛ فتركت كل ممتلكاتها، وانطلقت نحو البحر؛ فركبت سفينة هي وابنها الذي يبلغ من العمر ثماني سنوات، ويُدعى "جوزفريدو". وكانت حينها حبلَى، فأوصلتها السفينة إلى مدينة "باري"؛ فنزلت هناك وبقيت فيها حتى وضعت مولودها، وأسمته "سكاتشاتو"، وأحضرت له مرضعة، ثم ركبت السفينة وتوجهت صوب "نابولي"، حيث يقيم أهلها.

وبينما السفينة في عرض البحر، إذ هبَّت ريح قوية فحرفتها عن مسارها، فرست عند جزيرة "بونزا"، ريثما تهدأ الريح. نزل الجميع إلى البر، ونزلت كذلك معهم السيدة "بيريتولا"، تاركةً ولديها في السفينة برفقة المرضعة. ثم لجأت إلى مكان بعيد منعزل في الجزيرة، وشردت بتفكيرها في مصير زوجها، وما عساه قد حلَّ به. وبينما هي كذلك، إذ هجم القراصنة على السفينة واستولوا عليها. وبعد فترة، عادت السيدة "بيريتولا" إلى الشاطئ، فلم تجد السفينة؛ فنظرت إلى البحر فرأت القراصنة، فعلمت ما حدث

للسفينة، فازداد حزنها لفقدها ولديها بعد أن فقدت زوجها. وأخذت تنادي على ولديها تارةً وعلى زوجها تارة أخرى، حتى سقطت مغشيًّا عليها. وظلت في تلك الحالة مدة طويلة، لأنه لم يكن يوجد أحدٌ ليسعفها. وبعد أن استفاقت بعد فترة، أخذت تنادي على زوجها وابنيها مرةً أخرى، وعيناها تفيضان بالدموع، ولكن دون جدوى.

وبعد أن بدأ الظلام يخيِّم على المكان، عادت مرةً أخرى إلى المكان الذي كانت تجلس فيه من قبل، حتى أشرقت شمس الصباح؛ فشعرت بالجوع. وحيث أنها لم يكن معها شيء من الطعام، بدأت تأكل من نباتات الأرض حتى شبعت. ثم راحت تفكر في مصيرها المحتوم في هذا المكان. وفي أثناء ذلك، لمحت عنزةً تدخل كهفًا بالقرب منها، ثم تخرج منه مرةً أخرى وتختفي بين الأشجار. فذهبت إلى الكهف لتستطلع الأمر، فوجدت به جديين صغيرين، حديثي الولادة، فأغرمت بهما لجمالهما، واحتضنتهما وقررت إرضاعهما من ثديها؛ فلم يكن اللبن قد جف من صدرها بعد. واستجاب الجديان لها، ورضعا منها حتى شبعا. فوجدت المرأة في ذلك تسلية لها، فكانت تأكل النباتات وتشرب الماء ثم ترضعهما. وحدثت ألفة بينها وبين الجديين وأمهما، ولم يكن الجديان يفرِّقان بينها وبين أمهما. وكانت كلما تذكرت زوجها وابنيها، وما سيؤول إليه مصيرها، تفيض عيناها بالدموع.

ظلت المرأة على هذا الحال فترةً من الزمان، حتى تغيرت هيئتها؛ إلى أن حدث- ذات يوم- أن رست سفينة قادمة من مدينة "بيزا"[20] بالقرب من

[20] مدينة تاريخية تقع على الساحل الغربي لشبه جزيرة إيطالية، على نهر "أرنو".

شاطئ الجزيرة، لسوء الأحوال الجوية؛ وكان على متنها رجلٌ من علية القوم، يُدعى "كورادو مالاسبيني"، وكان من الوجهاء وبرفقته زوجته، وهي امرأة صالحة. وكانا عائدين من زيارة كل الأماكن المقدسة الموجودة في "بوليا". وقد قرر النزول من السفينة والتنزه قليلًا في الجزيرة، هو وزوجته وبعض الخدم وكلاب الحراسة. وحين اقتربوا من الكهف الذي به السيدة "بيريتولا"، لاحظت الكلاب الجديين، فبدأوا في مطاردتهما، فأسرع الجديان بالدخول في الكهف، وكانت "بيريتولا" داخل الكهف. فخرجت ممسكةً بالعصا لتزجر الكلاب، فرآها "كورادو" وزوجته، فأخذتهما الدهشة من هيئتها؛ فقد أصبحت سمراء نحيلة منكوشة الشعر. واندهشت هي كذلك لرؤيتهما؛ فسألاها مَن تكون، وماذا تفعل في هذا المكان؛ فحكت لهما كل ما حدث معها بالتفصيل. فتأثر "كورادو" أشد التأثر، وانهمرت الدموع من عينيه؛ فقد كان يعرف زوجها "أريجيتو". ثم عرض عليها أن تأتي معهم، فرفضت بشدة. وحاول إقناعها، ولكن دون جدوى. فطلب من زوجته أن تجلس معها، وتقدم لها الطعام والثياب الجديدة، وتقنعها كذلك بالعودة معهما. وبالفعل، استطاعت المرأة بعد فترة أن تجعلها تلبس الثياب الجديدة، وتأكل الطعام. ثم استطاعت في النهاية- بعد إلحاح شديد- أن تقنعها بالعودة معهما، وأن تصطحب معها الجديين وأمهما.

ثم أقلعت السفينة مرةً أخرى، بعد أن تحسَّن الجو، إلى أن وصلت إلى مصب نهر "ماجرا". وهناك رست السفينة. ثم نزل "كورادو" وزوجته و"بيريتولا" والماعز. وقد عاشت "بيريتولا" معهم كامرأة أرملة وسيدة صالحة تعتني بجدييها.

توجه القراصنة الذين استولوا على السفينة، التي كانت تقلّ "بيريتولا" وابنيها، إلى مدينة "جنوة". وبعد أن وصلوا إلى هناك، بدأوا يتقاسمون الغنائم؛ فأصبحت المرأة المرضعة وابني "بيريتولا" من نصيب رجل يُدعى "جاسبارينو"؛ فقام بإرسالهم إلى منزله ليعملوا كخدم عنده. فبكت المرأة المرضعة على مصيرها ومصير سيدتها. لكنها أدركت أن الدموع لن تنقذها من العبودية التي تعيش فيها الآن، وكانت امرأة فطنة. فأخفت عن الناس حقيقة الطفلين اللذين معها، خشية عليهما، وزعمت أنهما ابناها، وقامت بتغيير اسم الولد الأكبر من "جودوفريدو" إلى "جانُّوتُّو دي بروسيديا"، وشرحت له العلَّة من وراء ذلك؛ وكان الولد ذكيًّا فلم يخبر أحدًا بشيء.

وقضت المرضعة والولدان عدة سنوات يعملان كخدم في منزل "جاسبارينو"، وكانوا يرتدون ثيابًا سيئة ونعالًا أكثر سوءًا. ولمَّا بلغ "جانُّوتُّو" السادسة عشرة من عمره، لم يحتمل هذا الوضع المهين، فهرب في إحدى السفن المتجهة إلى "الإسكندرية". ثم تنقل بين العديد من المدن، غير أنه لم يوفّق في حياته، إلى أن علم- بعد سنتين أو ثلاثًا من سفره- أن أبيه الذي كان يظنه قد مات لا يزال حيًّا، لكنه أسير عند الملك "كارلو"؛ فحزن لذلك حزنًا شديدًا. ثم أخذ يتنقل بين المدن إلى أن وصل إلى مدينة "لونيجانا". وهناك بدأ يعمل لدى السيد "كورادو مالاسبيني"، وقد راق له العمل لدى هذا الرجل. وقد رأى أمه أكثر من مرة جالسةً مع زوجة "كورادو"، لكنه لم يتعرف عليها، وكذلك هي لم تعرفه؛ فقد تغيرت ملامحهما بمرور الزمن. وقد حدث أن إحدى بنات "كورادو"، وتُدعى "سبينا"، مات زوجها المدعو "نيكولو دا جرينيانو"، وكان "جانُّوتُّو" حينها مستمرًّا في العمل لدى سيده،

فتعرفت عليه. وقد كانت فتاة جميلة في السابعة عشر من عمرها، فأحب كل منهما الآخر، ولكن دون أن يعلم أحد بهذا الحب. وظلا كذلك عدة شهور. وذات يوم، وبينما هما يسيران في الغابة، إذ وجدا نفسيهما في مكان بعيد منعزل عن الناس، فتبادلا مشاعر الحب واستسلما لشهواتهما، وظلا على هذا الحال مدة طويلة، دون أن يشعرا بذلك، إلى أن أتت أم الفتاة ورأتهما في هذا الوضع المشين. ثم أتى بعد ذلك "كورادو"، فاشتاط غضبًا، وطلب من الخدم أن يقيدوهما ويسحبوهما إلى المنزل كي يقتلهما.

ورغم أن الأم كانت غاضبةً عليهما، هي أيضًا، لكنها حين علمت ما ينتوي زوجها فعله، أخذت تستعطفه أن يغيّر رأيه ويعاقبهما بعقوبة أخرى، كأن يحبسهما مثلًا. وظلت كذلك في توسلها إلى أن وافق على ذلك، فقرر حبسهما في مكانين منعزلين، وأن يقدِّم لهما القليل من الطعام، وألا يذوقا طعم الراحة حتى يحسم أمره في مصيرهما. وبالفعل، تم حبسهما. وكانا يبكيان طوال الوقت من شدة الجوع. وظلا على هذا الحال لمدة عام كامل، ثم حدث أن الملك "بييرو دي راونا" قد عقد اتفاقًا مع السيد "جان دي برتشيدا" على التمرد على الملك "كارلو". وبالفعل، تم إزاحة الملك "كارلو" من حكم صقلية، ففرح "كورادو" لهذا الخبر فرحًا شديدًا؛ فقد كان من معارضي الملك "كارلو". وحين علم "جانُّوتُّو" بالخبر، وهو في محبسه، صاح:

- يا لتعاستي؛ لقد انتظرت سنين طويلة هذه اللحظة، وقد جاءت الآن وأنا حبيس في هذا السجن، أنتظر الموت.

فقال له السجان مستفسرًا:

- ما هذا؟ مالك أنت ومال الملوك، وما يحدث بينهم؟ وما علاقتك

بصقلية؟

فرد عليه "جانُوتُّو" قائلًا:

- كلما تذكرت أبي وما يعانيه في محبسه هناك، أشعر كأن قلبي يتمزق. فرغم أنني كنت صغير السن حينما هربنا، إلا أنني أتذكره جيدًا؛ فقد كان رجلًا من علية القوم، أثناء حكم الملك "مانفريدو".

فسأله السجان:

- ومن يكون أبوك؟

فأجابه "جانُوتُّو":

- الآن، يمكنني أن أفصح عن اسم أبي؛ فقد زال الخطر. أبي هو "أريجيتو كابيتشي"، واسمي الحقيقي هو "جودوفريدو"، وليس "جانُوتُّو". ولو تمكنت من الخروج من هذا السجن، وسافرت إلى صقلية، فستكون لي هناك مكانة عظيمة.

وسرعان ما نقل السجان هذا الكلام إلى السيد "كورادو". لكن السيد "كورادو" لم يُظهر للسجان أي اهتمام بهذ الأمر. ثم أرسل إلى "بيريتولا"، وسألها إن كانت قد أنجبت من السيد "أريجيتو" ابنا يُدعى "جودوفريدو"، فأجابته وهي تبكي أنها كان لديها بالفعل ابنٌ بهذا الاسم، ولو أنه ما يزال حيًا لبلغ من العمر الآن اثنتين وعشرين سنة. فأدرك "كورادو" أن ابنها هو ذلك الشاب الحبيس، فأخذته به الشفقة، وقرر أن يخرجه من محبسه ويزوجه ابنته، تعويضًا له عما لحق به من أذى. فأمر بإحضاره من السجن، ثم سأله عن قصته، فلما تأكد من صحة كلامه، قال له:

- تعلم يا "جانُوتُّو" أن مافعلته بابنتي يعد إهانةً كبيرةً لي، بعد أن

أكرمتك وعاملتك بالحسنى؛ وكان عليك أن تصون شرف بيتي ولا تلطخه. ولو حدث ذلك مع أحد غيري لقتلك على الفور. لكني كنت رحيمًا بك، ولم أقتلك. وبعد أن علمت الآن أنك من معدن أصيل، أود أن أعوضك عما لحق بك من أذى. أنت تعرف أن ابنتي أرملة، وأنا ليس لدي مانع من أن تتزوجا، فتمارسان الحب بطريقة شرعية، بدلًا من الطرق الأخرى غير الشريفة. وسوف أعتبرك كأحد أبنائي، وبإمكانك أنت وابنتي أن تعيشا معي هنا في هذا البيت.

كان السجن قد غيَّر من هيئة "جانُوتُّو"، فأصبح نحيلًا؛ لكنه- في نفس الوقت- لم يستطع أن يغيِّر أصله النبيل، ولا أن يقلل من حبه لابنة "كورادو". وعلى الرغم من سعادته لما سمع، إلا أنه قرر أن يجيبه بهذه الطريقة:

-اعلم يا "كورادو" أنني لم أخنك في أهل بيتك سعيًا لنيل جاه أو مال، لكنني أحببت ابنتك ولا أزال أحبها، وسأظل إلى آخر العمر، لأنها تستحق ذلك الحب. ولو أن ما فعلته معها يراه الناس خطيئة، فهي إذن خطيئة الشباب، وليست خطيئتي. ولكي نقلع عنها، فيجب أولًا أن نحذف فترة الشباب من حياتنا. ولو أن كبار السن يتذكرون ما كانوا يفعلونه في شبابهم، لنظروا إلينا نظرة الصديق لا نظرة العدو. وما تعرضه عليَّ الآن هو ما تمنيته طيلة الوقت. ولو أني كنت أعلم برأيك هذا من قبل، لطلبت ذلك منك من البداية. ولكن إن كنت غير جاد فيما تقول، فأعدني إلى السجن، ودعني أعاني فيه ما أعاني. فمهما فعلت بي، فسأظل أحبك من أجلها، لأني أحبها.

أطربت هذه الكلمات مسامع "كورادو"، وكبُر الشاب في نظره، فقام إليه

وعانقه، وأمر بإحضار ابنته "سبينا" على الفور. فأتت وقد تبدلت حالتها، وأصبحت في غاية النحافة والهزال، وكأنها فتاة أخرى غير ابنته. ثم وافق كلاهما من الزواج بالآخر، في حضور "كورادو". وتمت مراسم الزفاف، دون أن تعلم أم الفتاة أو أم الشاب بشيء من ذلك كله. وبعد عدة أيام، قرر "كورادو" أن يفاجئهما بهذ الخبر السار، فأحضر "بيريتولا"، وقال لها:

-ما رأيك يا سيدتي إذا ما أحضرت لك ابنك الكبير لتريه مرةً أخرى، وقد تزوج واحدةً من بناتي؟

فأجابته قائلةً:

-لا أجد ما أقوله سوى أنني سأحمل جميلكم هذا، وأكون وفية لكم، طول العمر. فلو أعدتم لي ابني الذي أحبه أكثر من نفسي، فستكونون بذلك قد أعدتم لي روحي وآمالي الضائعة.

ثم توقفت عن الكلام، وقد سالت الدموع من عينيها. فتوجه كورادو لزوجته قائلًا:

-وما رأيك أنت في أن أقدم لك زوجًا لابنتك؟

فقالت له:

-أي شاب ستقدمه لي سيرضيني، ما دام يرضيك؛ حتى وإن لم يكن شابًا من علية القوم.

فقال لهما "كورادو":

-أتمنى أن تسعدا قريبًا.

وبعد أن استعاد العروسان عافيتهما، ولبسا ثيابًا جديدة، سأل "كورادو" الشاب قائلًا له:

- أتريد أن ترى أمك؟

فأجابه قائلًا:

- لا أظن أنها لا تزال على قيد الحياة. ولو أنها كانت ما تزال حية، ورأيتها لكانت سعادتي غامرة، ولساعدتني على استرداد ممتلكاتنا وأموالنا في صقلية.

فأمر "كورادو" بإحضار زوجته وإحضار "بيريتولا". فدخلا، وقاما بتقديم التهنئة للعروسين. وحينها تذكرت "بيرتولا" كلمات "كورادو"، التي قالها لها، تأملت الشاب فتذكرته؛ حيث كانت بعض الملامح لا تزال موجودة به، فارتمت في حضنه على الفور، وعجزت- من شدة فرحتها- عن الكلام، حتى أغشي عليها بين يديه؛ فأصيب الشاب بالدهشة، حيث أنه قد رآها من قبل أكثر من مرة، إلا أنه لم يشعر من قبل بما يشعر به الآن. وعاتب نفسه لأنه لم يتعرف عليها رغم رؤيته لها من قبل. وعندما استفاقت "بيريتولا"، راحت تقبله وراح هو يحتضنها بكل احترام وتقدير، وسط فرحة الجميع. وبدأ كل منهما يحكي للآخر ما حدث معه. وفي تلك الأثناء، أمر "كورادو" بإقامة حفل كبير، ودعا إليه كل أصدقائه، للاحتفال بالزفاف؛ فقال له الشاب "جودوفريدو":

- لقد منحتني السعادة أكثر من مرة، يا "كورادو"؛ وقد أكرمت أمي لزمن طويل. ولم يتبق سوى أن ترسل في طلب أخي الصغير الذي يعمل خادمًا لدى السيد "جاسبارينو دي أوريا"، ليحضر معنا الحفل، وكذلك ترسل أحدًا إلى صقلية، ليتقصى أخبار والدي هناك.

وافق "كورادو" على الفور. وأرسل رسله- في سرية تامة- إلى "جنوة"، ليسألوا عن الأخ الأصغر، وإلى صقلية ليسألوا عن الأب. وفي "جنوة"، قاموا

بالسؤال عن "جاسبارينو"؛ وحين وصلوا إليه أعلموه برغبة "كورادو" في أن يبعث إليه بالفتى والمرأة المرضعة. وحكوا له القصة كلها، فأخذته الدهشة لما سمع، وقال لهم:

-سألبّي كل ما يطلبه "كورادو". بالفعل يوجد هنا في المنزل هذا الفتى وأمه، ولكن أخبروه أن "جانُوتُّو" هذا الذي يُسمي نفسه الآن "جودِوفريدو"، شاب خبيث؛ فليأخذ حذره منه، ولا يثق في أكاذيبه هذه التي يرويها.

ثم احتفى بالرسل وأكرمهم. وفي أثناء ذلك استدعى المرضعة وسألها عن قصتها. ولأنها علمت بما حدث من تمرد في صقلية، فلم تخش من أن تصرِّح بالحقيقة؛ فأخبرته بكل ما حدث. فوجد كلامها متطابقًا مع كلام الرسل، فعلم بصدق كلامهم. فندم على ما كان يعاملهم به من شدة وقسوة، وقرر أن يزوج ابنته البالغة من العمر أحد عشر عامًا بهذا الفتى. فأقام لهما حفلًا وتمت مراسم زواجهما، ثم انتقلوا جميعا إلى حيث يوجد "كورادو"؛ فقد كان في انتظارهم. وقد تم تجهيز الحفل الكبير. كانت سعادة الأم لا توصف، برؤيتها لولديها، وكذلك سعادة الأخوين والمرأة المرضعة. وكان مشهدًا مؤثرًا للغاية. ثم شاءت الإرادة الإلهية أن تأتي أخبار سارة عن "أريجيتو كابتشي"؛ فبينما هم في منتصف الحفل، إذ قدم الرسل من صقلية ليخبرونهم بأن الناس هناك قد أخرجوه من السجن أثناء التمرد، وعيَّنوه قائدًا عليهم، فواصلوا القتال تحت قيادته حتى طردوا الفرنسيين؛ فأكرمه الملك "بيرو"، وأعاد إليه كل ممتلكاته وسلطاته. وقد استقبلهم "أريجيتو" بحفاوة وأكرمهم، حينما علم منهم أن زوجته وابنيه لا يزالون على قيد الحياة. ففرح الجميع بهذه الأخبار، وأقام "كورادو" للرسل مأدبة طعام؛ فأخبروه بأن

"أريجيتو" يشكره شكرًا عميقًا لصنيعه هذا. وتواصل الحفل عدة أيام، احتفى خلالها "كورادو" بصهره وعائلته. وبعدها قررت "بيريتولا" أن ترحل هي وابناها، ومعهم "سبينا"، إلى صقلية عند زوجها. فركبوا السفينة، وودعهم "كورادو" وزوجته بالدموع. كان الجو معتدلًا، فوصلت السفينة إلى هناك في سلام، وتم استقبالهم وسط فرح الجميع وسعادتهم، وعاشوا في سلام ووئام.

القصــة السَّــابعة

سلطان "بابيلونيا" يزوج ابنته من ملك جزيرة "مالطا"[21]، ويرسلها إليه في سفينة، فتقع معها أحداث كثيرة، وتقضي أربع سنين في أحضان تسعة رجال في أماكن مختلفة؛ ثم تعود إلى أبيها وتوهمه أنها لا تزال عذراء، فيرسلها ثانيةً كزوجة إلى ملك "مالطا".

بمجرد أن انتهت "إيميليا" من قصتها، سالت دموع الجميع من شدة تأثرهم لما حدث لــ"بيريتولا". ثم رأت الملكة بعد ذلك أن يقوم "بانفيليو" برواية القصة التالية؛ فبدأ حكايته قائلًا:

سيداتي الجميلات، يعتقد الكثيرون أن بإمكانهم الحصول على المال والعيش بلا تعب. وهم لا يكتفون بطلب ذلك من الرب، بل يبذلون كل ما في وسعهم لتحقيقه. وهم في بحثهم عن المال، يواجهون مخاطر عظيمة؛ فقد يتعرض البعض منهم للقتل ممن كان يومًا ما يحبهم ويعطف عليهم أثناء

---

[21] بابيلونيا Babilonia: يقصد بها مصر؛ وهو اسم قديم لها. مالطا: في الأصل "Garbo"، وهي إحدى مدن مالطة الشهيرة.

فقرهم. والبعض الآخر يخوضون معارك لا تعد ولا تحصى، ثم يصبحون ملوكًا أغنياء وأقوياء، بفضل دماء إخوتهم وأصدقائهم التي سالت في الحروب، على أمل أن يعيشون حياة طيبة وسعيدة؛ غير أنهم يعيشون حياة مليئة بالخوف، خشية من تعرضهم للتسمم أثناء شربهم من أكواب الذهب على طاولة الطعام الملكية. والبعض الآخر يرغبون بشدة في قوة الجسم والجمال، ثم يدركون لاحقًا أن هذه كانت سببًا سيقودهم إلى الوفاة أو الحياة المؤلمة. ولن أتطرق إلى كل ما يرغب فيه الرجال، ولكني أؤكد لكُنّ أن الرب الخبير بنا يمنحنا ما يعلم أننا نحتاج إليه. ولكن إذا أخطأ الرجال وأرادوا كل هذه الأشياء، فإنكن يا سيداتي تخطئن في شيء واحد: وهو الرغبة في أن تكُنّ جميلات؛ غير مكتفيات بالجمال الطبيعي الذي منحته لكن الطبيعة، وتحاولن زيادته بكل الطرق. لذلك، سوف أحكي لكُن قصة فتاة مسلمة جميلة، ولشدة جمالها، تزوجت، في أربع سنوات، تسع مرات.

- كان يحكم "بابيلونيا" قديمًا سلطان يُدعى "بيمنيداب". وكان – خلال فترة حكمه للبلاد – حسن الطالع، بحيث لا يسير في أمر معين إلا وينتهي نهاية سعيدة. وكان لديه الكثير من الأبناء الذكور والإناث؛ وكان من بينهم فتاة تُدعى "ألاتيل"، وكانت فائقة الجمال؛ فلا توجد فتاة في العالم تضاهيها في جمالها. وقد سمع ملك "مالطا" عنها كثيرًا، فتعلق بها وأراد أن يتزوجها، فطلبها من أبيها، فوافق أبوها السلطان على الفور؛ حيث كان ملك "مالطا" قد ساعده في حربه ضد من أرادوا غزو بلاده. وبهذا، يكون قد ردَّ له الجميل الذي فعله معه. فجهز السلطان سفينة لتنقل ابنته إلى ذلك الملك،

وملأها بالهدايا الثمينة والخدم، وجعل عليها الكثير من الحراس لحمايتها. تحرّكت السفينة من ميناء الإسكندرية، وكان الجو معتدلًا، وظل كذلك عدة أيام والسفينة تسير بأمان، إلى أن تجاوزت جزيرة "سردينيا"، فتغيَّر الجو ونشطت الريح بقوة؛ فبدأت السفينة تتمايل فوق الأمواج، وبدأت تمتلئ بالماء، فأيقن الجميع بالهلاك. لكن البحارة استطاعوا بمهارتهم أن يصمدوا على هذا الحال لمدة يومين. وفي اليوم الثالث، هبَّت ريح أقوى من السابقة فحرفت السفينة عن مسارها، ولم يستطع البحَّارة عمل شيء؛ فقد كانت السماء ملبدة بالغيوم، ولم يتمكنوا من الرؤية. وظلت السفينة على هذا الحال إلى أن قذفتها الريح بالقرب من جزيرة تُدعى "مايوركا". ولأن السفينة كادت تمتلئ بالماء، حاول البحارة النجاة بأنفسهم، فألقوا بزورق في البحر، ثم نزلوا من السفينة وصعدوا على متنه. ولم يعلموا حينها أن ذلك التصرف سيكون سببًا لهلاكهم وليس لنجاتهم؛ حيث لم يستطع الزورق تحمّل كل هذه الحمولة الزائدة، فغرق بهم في البحر، وماتوا جميعًا.

خلت السفينة من ركَّابها، ولم يتبق أحد منهم سوى "ألاتيل" والخدم المرافقين لها، وقد أيقنوا من الموت فكان خوفهم عظيمًا. وكانت الريح تدفع السفينة رغم ما بها من ماء، إلى أن ارتطمت بشاطئ جزيرة "مايوركا"، فانغرست في رماله. وظلت السفينة على هذا الوضع طيلة الليل، ولم تستطع الريح أو الأمواج أن تحرِّكها من مكانها. ثم هدأت الريح حينما أشرقت شمس الصباح، وحينئذٍ أفاقت "ألاتيل" من الغيبوبة التي أصابتها من هول ما حدث، ففتحت عينيها، ومدت يديها المنهكتين لتتحسس المكان من حولها، وهي لا تصدق أنها لا تزال على قيد الحياة. ثم أخذت تنادي بصوت

ضعيف على الخدم الذين كانوا معها. لكن أحدًا لم يُجب نداءها؛ فقد ماتوا جميعًا سوى بعض النسوة اللائي أسكتهم الضعف والتعب، فلم يستطعن الكلام. ازداد خوف "ألاتيل"، حين شعرت أنها بمفردها في السفينة. ثم حاولت بما تبقّى لها من قوى أن تخرج منها وتنزل إلى الشاطئ. وحينما رأت أن هناك بعض الفتيات لا يزلن على قيد الحياة، حاولت أن تساعدهن على النهوض. وبعد أن نهضن وعلمن أنه لم يتبق رجل واحد على قيد الحياة، أخذن يبكين وأصابهن القنوط من القدرة على النجاة. وظللن على هذا الحالة حتى ارتفعت شمس الضحى. عند ذلك، كان يمرّ بالقرب من الشاطئ رجل من الوجهاء يُدعى "بيريكون دا فيسالجو"، وكان يمتطي صهوة جواده، ومن حوله مجموعة كبيرة من الحراس يمتطون الخيول أيضًا. وحين رأى السفينة، أرسل أحد أتباعه إليها ليستطلع ما فيها، وقد أدرك حقيقة ما حدث. فصعد الرجل على مقدمة السفينة بصعوبة، فوجد هناك "ألاتيل" والفتيات يختبئن بداخلها، فتوسلن إليه ألا يؤذيهن، وأن يرحم ضعفهن. ثم لاحظن أنه لا يفهم اللغة التي يتحدثن بها، فحاولن استخدام الإشارات. فتركهن الرجل وعاد إلى سيده وأخبره بما وجد، وبما فهمه من إشاراتهن. فأمر "بيريكون" من معه بأن يذهبوا إلى السفينة، ويُحضروا كل ما عليها من فتيات وهدايا ثمينة إلى قصره. وهناك قدَّم لهن الطعام والشراب. وقد أدرك من الملابس التي كانت ترتديها "ألاتيل" أنها فتاة من علية القوم، فازداد اهتمامه بها دون غيرها. وقد لاحظت هي ذلك؛ ولأنها كانت بارعة الجمال- على الرغم من نحولها وضعف جسمها، جرَّاء ما حدث لها- فقد قرر "بيريكون" أن يتزوجها، إن لم يكن لها زوج، أو يتخذها عشيقة إن كانت متزوجة. وكان رجلًا صارمًا

وحاد الطباع. فلما استردت "ألاتيل"- بعد فترة- كل عافيتها، ازدادت جمالا وبهاءً، فكان يتحسر لعدم قدرته على الحديث معها بلغتها، فيعرف مَن هي وما قصتها. ولأنه لم يكن بقادر على مقاومة جمالها الفتان، فقد أخذ يراودها عن نفسها. لكنها أصرت على الرفض في كل مرة، فزاد ذلك من رغبته فيها.

كانت "ألاتيل" تعلم أنها تعيش بين قوم مسيحيين، وكانت هي مسلمة. وقد علمت أنها إن كشفت لهم ذلك فلن يفيدها ذلك بشيء، وأنها ستضطر في النهاية، رغما عنها، للرضوخ لرغبات "بيريكون". لكنها قررت أن تظل تقاومه لأطول فترة ممكنه. وقد طلبت من الفتيات اللاتي كُن معها ألا يكشفن هُن كذلك عن حقيقتهن، إلا لمن يستطيع مساعدتهن، وألا يستسلمن لرغبات أي أحد، إلا أن يكونوا أزواجهن؛ فأثنت الفتيات عليها وعاهدنها على ذلك.

كان كل يوم يمر يزيد من شدة رغبته فيها؛ فقد كان يراها قريبةً منه، وبعيدةً في الوقت نفسه. وحينما أدرك أنه لا طائل من وراء التلطف بها والتودد معها، قرر أن يستخدم معها الحيلة والدهاء، قبل أن يستخدم معها القوة والبطش. فذات يوم لاحظ أنها قد راقها منظر الخمر، لكنها لم تشربه، لأنه محرَّم في شريعتها؛ فأمر بإعداد العشاء، وأظهر لها أنه غير متضايق منها لتهربها منه، وجلسا يتناولان الطعام، وكان طعاما شهيا. ثم أحضر الخمر، وأضاف عليه بعض العصائر الأخرى وقدمه لها، فشربت منه دون أن تعلم بحقيقته، وأفرطت في الشراب حتى ثملت؛ فرأت بعض النساء من أهل الجزيرة يرقصن على طريقتهن، فنهضت وأخذت ترقص معهن على الطريقة

الإسكندرانية؛ فشعر "بيريكون" أن اللحظة قد اقتربت. وبعد أن انتهى وقت العشاء، وأرخى الليل سدوله، دخل معها إلى حجرة نومها. ولأنها كانت ثملة من كثرة ما شربت من الخمر، فقد شرعت في نزع ثيابها في حضور "بيريكون"، دون أن تشعر بأي خجل، ثم دخلت تحت الفراش، فأطفأ "بيريكون" الأنوار، ودخل معها في نفس الفراش. ثم ضمّها بين ذراعيه، وهي مستسلمة تمامًا، حتى قضى وطره منها. ولم تكن "ألاتيل" قد مارست هذا الشيء من قبل، فندمت على أنها لم تستجب له من أول مرة. وأصبحت "ألاتيل" تطلب ذلك بنفسها، دون أن يبادر هو بطلبه. وأصبحت هذه الممارسة هي اللغة التي يجيدانها. غير أن القدر ساق إليها محنة جديدة؛ فقد كان لـ"بيريكون" أخ شاب في العشرين من العمر، وكان وسيمًا وبديعًا يُدعى "ماراتو"، رأى "ألاتيل" ذات مرة، فأخذه جمالها وهام بحبها. ولاحظ أنها لا تمانع في التقرب منها، ولكن تمنعها الرقابة الصارمة التي يفرضها عليها "بيريكون"؛ فأضمر الشاب لأخيه الشر.

في ذلك الوقت، كانت ترسو سفينة بضائع تنتظر اعتدال الريح حتى تبحر صوب مدينة كيارينزا في رومانيا؛ فاتفق "ماراتو" مع صاحبي السفينة، وكانا شابين من مدينة "جنوة"، على أنه سيسافر معهما هو وزوجته إلى رومانيا. وعند غروب الشمس، أحضر "ماراتو" مجموعة من رفاقه، وتوجهوا إلى بيت أخيه، واختبأوا فيه دون أن يراهم أحد. وفي منتصف الليل، دخلوا غرفة نوم أخيه فوجدوه نائمًا بجوار "ألاتيل"، فقتلوه وهو نائم، ثم حملوها عنوةً، وهددوها بالقتل إن فتحت فمها بكلمة. وأخذوا كل ما في البيت من مقتنيات ثمينة، وخرجوا في هدوء دون أن يشعر بهم أحد، إلى أن وصلوا إلى

السفينة؛ فصعد "ماراتو" و"ألاتيل"، وانصرف بقية رفاقه. ثم أقلعت السفينة وانطلقت في عرض البحر. وظلت الفتاة حزينة لما حل بها في نكبتها هذه، وما حل بها من قبل. غير أن "ماراتو" استطاع أن ينسيها كل شيء حينما احتضنها، وأظهر لها ما منحه الرب إياه من قدرات؛ فلم تعد حزينة لما حل بها، بل راضية بما حدث غاية الرضى. وحينما رآها الشابان صاحبا السفينة، أغرما بجمالها، فقررا أن يمارسا معها الحب سويًّا؛ غير أنهما لم يتمكنا لشدة مراقبة "ماراتو" لها؛ فقررا أن يتخلصا منه. فبينما هو واقف على حافة السفينه، إذ قاما بدفعه لأسفل فسقط في البحر، ولم يعلم أحدٌ فوق السفينة بتغيبه إلا بعد فترة، وقد كانت السفينة حينها قد ابتعدت كثيرًا عنه. حزنت الفتاة كثيرًا حين علمت بأنه لن يعود إليها مرةً أخرى. أما الشابان، فحين رأيا أن اللحظة قد حانت ليمارسا معها ما ينتويان فعله، فقد اختلفا فيمن منهما سيبدأ بذلك أولًا، فتشاجرا، حتى أخرج كل منهما خنجره، وبدءا يتقاتلان. ولم يستطع أحد أن يفصل بينهما، فأسفر ذلك عن مقتل أحدهما، وإصابة الآخر بجروح خطيرة. ازداد حزن "ألاتيل" لما حدث، وخشيت أن يصيبها أحدٌ من أقارب الشابين بأذًى؛ إلا أن الجريح قد منعهم من أن يتعرضوا لها بشيء. وحينما وصلوا إلى مدينة "كيارينزا"، ذهبت "ألاتيل" مع الشاب الجريح، وأقاما في فندق في المدينة.

ثم انتشر خبر جمالها الفتان بسرعة، إلى أن وصل إلى مسامع أمير "مورينا"؛ وقد كان موجودًا بالمدينة حينها، فقرر رؤيتها. وبعد أن رآها، دق قلبه في الحال وهام بها. وبعد أن علم بقصتها، أصر على أن يأخذها معه، فرحبت الفتاة بذلك؛ وخصوصًا بعد أن طلب منها أقارب الشاب الجريح أن

تغادر مدينتهم على الفور. لاحظ الأمير من هيئتها أنها فتاة من الوجهاء، وشعرت "ألاتيل" حينها أن محنها قد انتهت، وأنها ستعيش حياة سعيدة.

شاع خبر جمالها الأخاذ في كل أنحاء رومانيا، وامتد إلى ما هو أبعد من ذلك؛ فسمع بها حاكم مدينة "أثينا"، وكان شابًا وسيمًا ومعتزًا بنفسه، فقرر أن يذهب ليراها؛ فقد كان صديقًا وقريبًا في نفس الوقت للأمير؛ فأخبره أنه قادم لزيارته، كما هي عادته. واصطحب معه مجموعة من الأعيان. ولما وصلوا إلى هناك، استقبلهم الأمير بالحفاوة والترحاب، وأقام لهم وليمة كبيرة. وفيما كانا يتبادلان أطراف الحديث، إذ تطرق الحديث عن "ألاتيل"؛ فسأله إن كانت جميلةً حقًا، كما يقول الناس، فأجابه الأمير قائلًا:

- بل أكثر مما يقولون بكثير، وسترى ذلك بعينك.

فاصطحبه إلى حيث توجد الفتاة. فلما رأتهما ابتسمت لهما، فجلسا وأجلساها بينهما. ولأنهما لا يفهمان لغتها، فلم يتوجها لها بأي حديث، بل ظلَّا يتأملان جمالها الفتَّان، حتى ظن حاكم "أثينا" أنها ليست من البشر. وظل ينظر إليها حتى تمكّن حبها من قلبه، وملكت عليه كل جوانحه. فلما تركاها وخرجا سويًا، حسد صاحبه على هذه الفتاة الجميلة. ولشدة هيامه بها، قرر أن يأخذها لنفسه بأي ثمن. وبدون تفكير في عواقب الأمور، قرر أن يستخدم الحيلة والخداع؛ فاتفق مع حاجب لدى الأمير يُدعى "شورياتشي" على أن يغدرا به ليلًا. وبالفعل دخلا عليه غرفته حينما حل الظلام، فوجدوه عاريًا يتطلع من نافذة الغرفة، التي تطل على البحر، من شدة الحر. وكانت الفتاة نائمة في السرير. فأخرج حاكم "أثينا" خنجره واقترب منه، ثم طعنه في جنبه، فنفذ الخنجر فيه حتى خرج من جنبه الآخر. ثم حملاه

بسرعة وألقيا به من النافذة. لم يسقط في البحر، لكنه سقط بين الصخور على شاطئ البحر.

لم يشعر أحدٌ بشيءٍ مما حدث؛ فتوجه حاكم أثينا إلى الحاجب "شورياتشي"، وأظهر له امتنانه لمساعدته، ثم هجم عليه وطعنه بالخنجر، وألقاه من النافذة؛ فسقط بجوار الأمير، ولم يشعر أحد بشيء كذلك. ثم توجه حاكم "أثينا" إلى السرير، حيث "ألاتيل" مستغرقة في نوم عميق. كان يحمل في يده مصباحًا، فرفع الغطاء عنها، وتمعَّن في النظر إلى جسدها العاري؛ فلم يستطع مقاومة رغباته المستعرة، فنام بجوارها، وحضنها بين ذراعيه؛ فظنت أنه الأمير فبادلته الأحضان واستمتعا بالغرام. وبعد أن قضى حاكم "أثينا" وطره منها، نهض، ثم أمرها أن تقوم وتأتي معه دون أن تصدر أي ضجيج. وقام بتهديدها، فخرجا من الباب الخلفي للقصر، وتمكنا من الرجوع إلى "أثينا". ولأنه كانت لديه زوجة، فلم يستطع أن يأخذها معه إلى قصره، لذلك تركها في قصر له على مشارف المدينة، بالقرب من البحر، دون أن يُخبر أحدًا بذلك، وأحضر لها كل ما تحتاجه.

وفي مساء اليوم التالي، انتظر رفقاء الأمير قدومه ليتسامروا سويًّا، فلما طال تأخره أصابهم القلق، ففتحوا غرفته فلم يجدوه، فظنوا أنه ربما يكون قد سافر هو والفتاة الحسناء ليقضيا وقتًا ممتعًا لبضعة أيام خارج المدينة. واطمأنوا لهذا التعليل فلم يساورهم القلق على مصيره. وبعدها بقليل، رأوا رجلًا مجنونًا يجر جثة الحاجب "شورياتشي"؛ وكان قد سحبها من بين الصخور، فحاولوا معه بكل الطرق لكي يدلهم على المكان الذي وجدها فيه، وبالفعل دلّهم على المكان، فوجدوا فيه جثة الأمير، فانتزعوها من بين

الصخور، ثم بدأوا يتقصّون عن مرتكب هذه الفعلة النكراء؛ فعلموا أن حاكم "أثينا" قد سافر فجأةً، دون أن يعلم أحد بذلك. فتوقعوا أن يكون هو مَن قتل الأمير، وأخذ معه الفتاة الحسناء. تسلَّم شقيق الأمير المقتول مقاليد الحكم خلفًا لأخيه، وقرر أن ينتقم من قاتله؛ فأعد جيشًا عظيمًا وأعلن الحرب على "أثينا"؛ فاضطُر حاكم "أثينا" أن يستنجد بحلفائه للدفاع عن نفسه، وكان من بينهم "قسطنطين"، ابن امبراطور القسطنطينية، و"مانوفيللو" حفيد الامبراطور. وقد استقبلهما حاكم "أثينا" هو وزوجته بحفاوة بالغة؛ فقد كانت زوجته أختًا لـ"قسطنطين"، ثم دعتهما إلى حجرتها لتخبرهما بسبب اندلاع هذه الحرب. وكانت دموعها تسيل وهي تخبرهما بما حدث، وكانا قد سمعا من قبل عن "ألاتيل" وجمالها، فحاولا التسرية عنها دون أن يسألاها عن التفاصيل؛ فوعداها أنهما سيحاولان حل هذه المشكلة. فطلبا من حاكم "أثينا" أن يريهما "ألاتيل"، فأقام مأدبة عظيمة في إحدى بساتينه ثم أحضرها، فجلست وجلس "قسطنطين" بجوارها ونظر إليها؛ فشعر أنه لم ير امرأة في مثل جمالها من قبل، والتمس العذر لحاكم "أثينا" فيما قام به من أفعال لأجلها. تمكَّن حب الفتاة من قلب "قسطنطين". وحينما دقت طبول الحرب، وخرج الجميع من "أثينا" للقاء العدو، تظاهر "قسطنطين" بالمرض، وطلب أن يرجع إلى "أثينا"، فيبقى بجوار أخته، فاستجاب له حاكم "أثينا" وسمح له بالعودة.

وبينما هو جالس مع أخته، إذ ذكَّرها بما فعله زوجها مع الفتاة، والإهانة التي لحقتها من جرَّاء ذلك. ثم واساها واعدًا إياها بأنه سينفي هذه الفتاة إلى مكان بعيد جدًّا من هنا؛ فظنت أنه يود فعل ذلك ليرد لها كرامتها، لا لأنه

يريد الاستئثار بالفتاة؛ فأبدت موافقتها على تلك الفكرة، وسمحت له بفعل ما يريد. فأمر بتجهيز سفينة سريعة، وطلب من الربَّان أن يرسو بها بالقرب من البيت الذي تسكن فيه "ألاتيل". ثم ذهب مع مجموعة من الحراس إلى "ألاتيل" في بيتها، فاستقبلته بالبشر والترحاب. ثم طلب منها أن يتمشيا بمفردهما في البستان، لأنه يريد أن يخبرها بأشياء تتعلق بحاكم "أثينا"؛ فسارا معًا إلى أن اقتربا من البحر، ثم أمسك بها وأمرها أن تصعد على متن السفينة. فلما صعدت وجلست تبكي حالها، جلس بجوارها، ثم أمر ربَّان السفينة أن يتوجه صوب جزيرة "إيجينا". ووصلوا إليها في نهار اليوم التالي. فقرر أن ينزلا ليستريحا قليلًا، وكانت الفتاة لا تزال تبكي وتندب حظها. وبعد فترة، صعدا سويًّا على متن السفينة، وأمر الربَّان بأن يتوجَّه بالسفينة صوب مدينة "كيوس"، لأنها، من وجهة نظره، ستكون أكثر أمانًا؛ فقد كان يخشى أن يعاقبه والده الامبراطور، وينتزع منه "ألاتيل". أما هي، فظلت تبكي عدة أيام، ولكن "قسطنطين" استطاع أن يجعلها تنسى كل ما حدث معها من محن، ورضيت بما ساقه لها القدر، كما كانت تفعل في كل مرة.

كان "أوزبك"، ملك الأتراك، في حروب مستمرة مع الامبراطور، فعلم بما فعله قسطنطين، وأنه يعيش الآن في مدينة "كيوس" بدون حراسة؛ فجهَّز أسطولًا وتوجَّه إليها، فوصل إلى المدينة ليلًا واقتحمها، وقتل كل من حاول مقاومته، ثم أخذ الأسرى والغنائم، وبعدها أحرق المدينة. حمل "أوزبك" الغنائم على السفن، ثم توجه بهم نحو مدينة "أزمير" التركية. وهناك، بدأ يتفقد الغنائم، وكان لا يزال في سن الشباب؛ فكانت سعادته غامرة حين رأى "ألاتيل" بين الغنائم، فتزوجها على الفور، وأقام لها حفل زفاف، وعاشت

"ألاتيل" في سعادة وهناء عدة أشهر.

كان الامبراطور قد تحالف- قبل وقوع هذه الأحداث- مع "باسانو"، ملك "كابادوتشا"، واتفقا على أن يهجم أحدهما بجيشه على "أوزبك" من جهة، ويهجم الآخر من الجهة المقابلة. لكن التنفيذ تأخر، بسبب بعض المطالبات التي كان يطالب به الملك "باسانو" ويرفضها الامبراطور. ولكن بعد ما حدث من الملك "أوزبك"، قرر الامبراطور أن يهجما عليه في أسرع وقت، ووافق على طلبات "باسانو". وبالفعل، تحرك "باسانو" بجيشه. وحين وصل الخبر إلى مسامع "أوزبك"، خرج على رأس جيشه، وترك "ألاتيل" في "أزمير" في رعاية أحد أقاربه. وبدأت الحرب، واستطاع "باسانو" أن يهزم "أوزبك" ويقتله، ودخل بجيشه في مدينة "أزمير" وصار حاكمًا عليها. وكان قريب "أوزبك" الذي يعتني بـ"ألاتيل"، واسمه "أنتيوكو"، قد وقع في غرامها. وحيث أنه كان يجيد التحدث بلغتها، فقد فرحت بذلك كثيرًا؛ فقد كانت تشعر أنها صماء بكماء، لعدم قدرتها على التواصل مع الآخرين الذين يجهلون لغتها. وقد أنس كل منهما للآخر، واستسلما لسلطان الهوى والغرام. فلما علما بموت "أوزبك"، وانتصار "باسانو"، لم ينتظرا حتى يدخل "باسانو" المدينة، فجمعا ما استطاعا من مقتنيات نفيسة كان يمتلكها "أوزبك"، وهربا إلى مدينة "رودي". وهناك عاشا مدةً من الزمن، ثم مرض "أنتيوكو" حتى أشرف على الموت، فجاءه صديقٌ له لزيارته والاطمئنان عليه؛ وكان تاجرًا من قبرص، فقرر أن يمنحه كل ممتلكاته بعد وفاته. وحينما أحس بدنو الأجل، استدعى صديقه و"ألاتيل"، ثم وجه لهما الحديث:

-أشعر باقتراب الموت، ويحزنني ذلك؛ فما رغبت في الحياة من قبل مثل

رغبتي فيها الآن. ولكن عزائي هو أني أموت ومن حولي أحب شخصين إلى قلبي. ويحزنني أيضًا أن "ألاتيل" ليس لها عائل بعدي، ولكني آمل منك يا صديقي أن تكون لها سندًا وعونًا. وأنتِ يا "ألاتيل" الحبيبة، تذكريني دائمًا حتى أسعد في قبري بحب أجمل امرأة في الكون. عداني بتنفيذ وصيتي لكما، حتى أموت وأنا مستريح البال!

وبينما هو يقول لهما ذلك، كانا يبكيان ويخبرانه أنه سيشفى من مرضه، غير أنهما وعداه بتنفيذ وصيته، ثم مات بعد ذلك بوقت قليل؛ فدفناه. ثم اضطُر التاجر- بعد عدة أيام من دفنه- أن يرحل إلى "قبرص"، وكانت هناك سفينة على وشك الإقلاع. فأخبر "ألاتيل" بنيته، وسألها عن ما تودّ فعله، فأجابته أنها تريد أن تسافر معه، لأنها تعلم أنه سيعاملها كأخت له، تقديرًا للصداقة التي كانت بينه وبين "أنتيوكو"؛ فوافق التاجر على اصطحابها معه. وتجنبًا للأقاويل أخبر مَن في السفينة أنها زوجته؛ لذلك منحوهما غرفة بسرير واحد. فلم يستطيعا أن يرفضا حتى لا ينكشف أمرهما، واضطُرا أن يناما في سرير واحد. فدفعهما دفء الفراش وظلمة الليل إلى مخالفة ما اتفقا عليه، ونسيا "أنتيوكو" ووصاياه، واستسلما لنداء الجسد.

وبعد أن وصلا إلى المدينة، عاشا سويًّا فترة طويلة من الزمن. وفي أحد الأيام، كان يمر أمام البيت رجل مُسن اسمه أنتيجونو، وهو رجل فقير عمل بالتجارة ولكن الظروف لم تساعده كي يكون ثريًّا؛ غير أنه رجل عاقل وحكيم. وكانت "ألاتيل" تُطل من النافذة، فلما رآها جذبه جمالها، فأمعن النظر فيها. وحينها، أحس أنه يعرفها من قبل. أما هي، فقد تذكرته جيدًا، فقد كان يعمل من قبل في خدمة أبيها في مدينة "الإسكندرية"؛ أما الآن فهو

يعمل في خدمة ملك قبرص. فاستدعته، وسألته إن كان اسمه "أنتيجونو دي فاماجوستا"، فأجابها بنعم، ثم قال لها:

-يبدو لي أني قد تعرفت عليك من قبل يا سيدتي، لكني لا أذكر أين، فهل تتكرمين وتساعدينني كي أتذكر؟

وبعد سماعها هذه الكلمات، انهمرت الدموع من عينيها، وارتمت بين ذراعيه، وسألته، وهو في حالة من الذهول، إن كان قد رآها في الإسكندرية، فتذكر الرجل أنها "ألاتيل"، ابنة السلطان، التي شاع في مصر كلها خبر غرقها في البحر؛ فانحنى لها لتحيتها، فمنعته من ذلك، وطلبت منه أن يجلس بجوارها، فوافق الرجل على استحياء. وسألها- بكل احترام- كيف وصلت إلى هذا المكان، ومع مَن ومتى كان هذا. وأخبرها بأن الجميع في مصر موقن بخبر غرقها، فأجابته قائلة:

-يا ليت هذا الخبر كان صحيحًا، وإلا لما عشت هذه الحياة التي عشتها. ولو علم أبي بما حدث لي لتمنى لو أني غرقت بالفعل.

وانهمرت في البكاء، فقال لها:

- كُفي عن البكاء، يا سيدتي؛ وأخبريني أولًا، إن لم يكن ذلك يضايقك، عن ما حدث معك، وعن هذه الحياة التي عشتها، وسيجعل الله لك مخرجًا، بعونه وفضله.

فقالت له:

-أشعر، وأنا أجلس معك الآن يا "أنتيجونو"، كأنني أجلس مع أبي. وأنا سعيدة جدًّا لرؤيتك. لذلك، سأفتح لك قلبي، وأحكي لك عن كل شيء، وكأنك أبي. فإن رأيت أن بإمكاني العودة إلى مصر مرةً أخرى، فأرجوك أن

تساعدني في ذلك. أما إن رأيت غير ذلك، فلا تخبر أحدًا بأنك رأيتني.

ثم بدأت تحكي له كل ما مر بها من أحداث، وعيونها لا تكف عن البكاء، حتى وصلت إلى اللحظة التي يجلسون فيها الآن؛ فتأثر الرجل تأثرًا شديدًا، وسالت الدموع من عينيه. ثم قال لها، بعد تفكير عميق:

-بعد كل هذه المحن التي تعرضتِ لها، يا سيدتي، سأعيدك إلى أبيك وستتزوجين من ملك "مالطا".

فسألته عن كيفية ذلك، فشرح لها ما سيفعله بالتفصيل، ثم توجه في الحال لمقابلة ملك "قبرص"، وهناك قال له:

-بإمكانك، إن شئت، يا سيدي، أن تقوم بعمل عظيم سيخلِّد اسمك، ودون أن يكلفك شيئًا.

فسأله الملك:

- وكيف ذلك؟

فأجابه قائلًا:

-وصلت إلى هذه المدينة يا مولاي فتاة جميلة، وهي ابنة السلطان؛ وهم يظنون في موطنها أنها ماتت غرقًا. وقد مرَّت بمحن كثيرة في سبيل الحفاظ على شرفها وكرامتها. وهي الآن فقيرة، وتريد أن تعود إلى أبيها السلطان. فإن أمرت بإرسالها إلى أبيها، وأرسلتني معها لأعتني بها، فلن ينسى لك أبوها هذا الجميل، وسيكافئني أنا أيضًا.

وافق الملك على الفور، وأمر بإحضارها، فاستقبلها هو وزوجته، وسألاها عن المحن التي تعرضت لها، فأجابتهم. وكان "أنتيجونو" يساعدها في الإجابة على بعض الأسئلة. ثم أرسلها الملك إلى أبيها، برفقة "أنتيجونو" ومجموعة من

الرجال والنساء؛ فاستقبلها أبوها بالترحاب، واحتفى بـ"أنتيجونو" كذلك. ثم طلب منها أن تحكي له كل ما حدث معها، وكان "أنتيجونو" قد شرح لها ما يجب عليها أن تقوله، فبدأت تحكي له قائلة:

-بعد أن أقلعت السفينة يا أبي بعشرين يومًا، هبَّت عاصفة قوية، فتحطمت السفينة، ودفعتها الريح إلى الشاطئ، ففقدت الوعي. ثم استفقت عند الفجر، فوجدت بعض الناس ينهبون السفينة، ثم أخذوني ومعي فتاتان أخريان، وأنزلونا على الشاطئ. وحاول رجلان أن يأخذاني داخل الغابة، فأخذت أقاومهما بكل قوة، فأمسكوا بشعر رأسي وسحبوني على الأرض، وأنا أبكي. فرأى ذلك أربعة فرسان فاقتربوا منَّا. ويبدوا أنهم كانوا من أفراد الشرطة، حيث أسرع الرجلان هاربين عند رؤيتهم. ثم سألوني بكل حزم عن كثير من الأشياء، فكنت أرد عليهم بلغتي وهم لا يفهمونها، وأنا لا أفهم لغتهم؛ فنظروا إلى بعضهم البعض، ثم حملوني على أحد خيولهم، وذهبوا بي إلى أحد الأديرة، وبه نساء متدينات، يعبدون الله على طريقتهم وحسب شرائع دينهم. وقد قال الفرسان للنساء في الدير شيئًا ما، فأخذن يرحبن بي ويكرمنني. وعشت في ذلك الدير في حياة الورع والصلاح. وكانت النساء يعاملنني بكل حب وطيبة. ثم بدأت أشاركهن في خدمة القديس "كريشي إنفالكافا"، وهو قديس محبوب من كل أهل المدينة. وبعد أن تعلمت بعضًا من لغتهن أخبرتهن، وقد خشيت أن أتعرض للأذى إن عرفوا حقيقتي، أنني ابنة سيد من سادة "قبرص"، وأن أبي زوجني لرجل من مدينة "كريتي"، غير أن السفينة قد تحطمت حينما وصلت بالقرب من شاطئ مدينتهن. وكنت أمارس معهن بعض طقوسهن. وذات مرة سألتني رئيستهن ما إذا كنت أرغب

في العودة إلى "قبرص"، فأجبتها بأن ذلك يسعدني كثيرًا؛ لكنها رفضت أن ترسلني مع أي رجل خشية على شرفي وعرضي، وانتظرت شهرين حتى جاء إلى الدير رجال صالحون من فرنسا بصحبة زوجاتهم. وكانت إحدى الزوجات من قريبات رئيسة الدير، وكانوا في طريقهم إلى بيت المقدس لزيارة الأماكن المقدسة؛ فأرسلتني معهم، وأوصتهم بأن يوصلوني إلى أبي في "قبرص"، فوافقوا وأبحرنا. وسيطول الكلام إذا ما تحدثت عنهم وعن أخلاقهم وإكرامهم لي. وحين وصلنا إلى قبرص، وأرادوا أن يوصلوني إلى أبي، كما أوصتهم رئيسة الدير، لم أكن أعلم ماذا أفعل وكيف أتصرف، لكن الله كان رحيمًا بي فأرسل لي "أنتيجونو"، حيث رأيته واقفًا على الشاطئ، بعدما نزلنا من السفينة مباشرةً. فناديته، وحيث أنهم لا يعلمون لغتي، فقد طلبت منه أن يتظاهر بأنه أبي. وبعد ذلك، حاول "أنتيجونو" أن يعيدني إليك يا أبي، فذهب إلى ملك قبرص، وشرح له قصتي فأكرمني وأرسلني إليك. هذا ما حدث. وإذا كان هناك شيء قد نسيته، فسوف يذكرنا به "أنتيجونو".

فتقدم "أنتيجونو" نحو السلطان، ثم قال له:

-ما حكته لك هذا يا مولاي، هو نفس ما حكته لي من قبل. وقد حكاه لي أيضًا أولئك الرجال الصالحون الذين أوصلوها إلى قبرص. وقد حكت لك كل شيء إلا شيئًا واحدًا منعها أدبها وحياؤها من ذكره؛ وهو المديح والثناء عليها من كل من عرفها وخالطها، لنقائها وعفتها وطهارتها. ولقد بكى الرجال الصالحون وهم يسلمونها لي في "قبرص" وهم يودعونها. ولو نقلت لك كل ما قالوه عنها من ثناء، فلن يسعفني الوقت لذكره. وحتى لا أطيل عليك يا سيدي، فإني أود أن أقول لك إن ابنتك من أطهر وأشرف وأجمل البنات في

عصرنا هذا.

ابتهج الملك بما سمعه، وسأل الله أن يعينه ليرد الجميل لكل من ساعد ابنته، وخصوصا ملك قبرص الذي قام بإرسالها إليه. ثم أقام حفلًا كبيرًا وأعطى "أنتيجونو" منحًا وهدايا كثيرة، وسمح له بالعودة إلى "قبرص". ثم أرسل سفراءه إلى الملك لينقلوا له شكر السلطان له، وامتنانه بما صنع مع ابنته. ثم أراد أن ينجز ما كان ينتويه من قبل، أي يزوج ابنته لملك "مالطا"، فأرسل له رسولًا يخبره بعودة الأميرة، وما حدث معها، وأنه سيرسلها إليه إذا كان لا يزال راغبًا في الزواج منها. فرح ملك "مالطا" بهذه الأخبار، وأقام حفلًا كبيرًا، واستقبلها بكل تكريم وترحيب. ثم قضيا ليلتهما في سعادة، وقد صدَّق أنها لا تزال عذراء، وهي التي مارست الغرام آلاف المرات. وعاشا سويًّا في سعادة بالغة. ولذلك قالوا في الأمثال: الشفاه لا تذبل من كثرة التقبيل، بل تزداد تألقًا وجمالًا مثل القمر.

القصـة الثَّـامنة

يتم اتّهام أمير "أنجويرسا" ظلمًا بارتكاب جريمة مشينة، فيُضطر إلى الهرب، ويرحل إلى انجلترا. وهناك يترك ابنيه في مكانين مختلفين ويسافر. وبعد أن يرجع، يجد ابنيه في أحسن حال. ثم يلتحق بجيش فرنسا. وبعد أن تظهر براءته يعود لمنصبه الأول.

بعد أن انتهى "بانفيلو" من قصته، تنهدت الفتيات لما حل بـ"ألاتيل" من محن. ومن يدري؟ فلعل من بينهن من يتنهدن لرغبتهن في زيجات كثيرة، مثلما حدث معها. وضحكت بعضهن للمثَل الأخير الذي قاله "بانفيلو". وفي النهاية، أمرت الملكة "إليزا" أن تحكي قصتها؛ فشرعت تقول:

بعد أن استطاع الألمان انتزاع الامبراطورية الرومانية من بين أيدي الفرنسيين، لم تنته الحروب بينهما من ذلك الحين؛ فقام ملك فرنسا بتجهيز جيش جرار وحَّد فيه كل جيوش حلفائه وأصدقائه، ثم انطلق هو على رأس ذلك الجيش، مصطحبًا ابنه معه صوب الأعداء. وكان- قبل أن يخرج بجيشه- قد أمر أحد أصدقائه الأوفياء أن يقوم بتدبير شئون الحكم إلى أن يرجع. وكان ذلك الرجل يُدعى "جوالتيري"، وكان أميرًا لمدينة "أنجويرسا"،

ومشهورًا بالحكمة والإخلاص لسيده. ومع أنه قائد عسكري محنَّك، إلا أن الملك فضل أن يبقيه في فرنسا ليخلفه في أمور الحكم.

كان الأمير يتصرف في شئون الحكم بحيطة وحذر، وكان يطلب المشورة من زوجة الملك، وكذلك من زوجة ابنها ولي العهد، بصورة مستمرة. وكان يعاملهما باحترام فائق. كان "جوالتيري" في الأربعين من عمره، طويل القامة، جميل الطلعة، أنيقًا في ملبسه، ومهذبًا في تعامله مع الآخرين. وبعد أن تولَّى ذلك المنصب بقليل، ماتت زوجته تاركةً له ابنًا وبنتًا في سن الزهور. كان "جولتيري" كثير الاستشارة لزوجة الملك، وزوجة ابنها، بسبب صعوبة المنصب الذي يحتله. ومع الوقت، أصبحت زوجة ابن الملك تألفه وتميل إليه. وشيئًا فشيئًا زاد حبها له في قلبها. ولأنها ما تزال في سن الشباب، وهو بلا زوجة الآن، دفعها ذلك إلى أن تحاول أن تصارحه بحبها له؛ وظنت أنه سيلبي نداء الغرام ويطفئ لهيب الشوق الذي يملأ قلبها، دون مراعاة لشرفها وكرامتها.

فاستدعته ذات يوم، وكانت بمفردها في غرفتها، فظن أنها تريد أن تقول له أمرًا من أمور الحكم؛ فحضر إليها على الفور. ثم طلبت منه أن يجلس على السرير، فجلس ثم جلست بجواره. فسألها عن سبب استدعائها له، فصمتت ولم تُجب. فسألها مرةً أخرى، وكان قد احمرَّ وجهها من الخجل، فظلت تتنهد وتحاول الكلام فتخرج كلماتها غير مكتملة. ثم استجمعت قواها، وقالت له:

- صديقي العزيز وسيدي الحبيب، أنت رجل عاقل حكيم، وتستطيع أن تعرف مدى ضعف الرجل والمرأة أمام رغباتهما الجسدية، وتفاوت الضعف

بين امرأة وأخرى. فقد تتوفر لواحدة عوامل وأسباب تجعلها أضعف من الأخرى. فالقاضي العادل لا يحكم على مَن يرتكبون نفس الجريمة بنفس العقاب. فالمرأة الفقيرة، التي تعمل بيديها لتكسب قوت يومها، يكون عقابها شديدًا إذا ما سقطت في حبائل العشق والهوى، بعكس المرأة الغنية المرفهة. وأنا أرى أنه يجب ألا نلوم المرأة المرفهة إذا حاولت إشباع رغبات الهوى، وبالأخص لو أنها اختارت لذلك رجلًا حكيمًا عاقلًا. و لذلك كله، فإنني- بالإضافه إلى أنني في سن الشباب، وزوجي بعيد عني- فقد سقطت في غرامك وعشقك، ولا أرى عيبًا في ذلك. أنا أعلم أنه ليس من اللائق بي أن أعترف لك بذلك، غير أن غرامي بك جعلني لا أهتم بهذه الشكليات. إنني لا أستطيع، في ظل غياب زوجي، مقاومة الغريزة المتأججة بداخلي، التي لا تقوى امرأة ولا رجل، مهما بلغت قوته، على مقاومتها. ولذلك سقطت في عشقك، فأنت رجل نبيل وحكيم وأنيق ووسيم. ولن يعلم أحد بذلك؛ فلا تخش من شيء. تذكر أن زوجي بعيد عني، وأنك بلا زوجة، وأن غرامي بك دفعني لأن أعترف لك برغبتي؛ فلا ترفض حبي، وارحم قلبي الذي يذوب في عشقك، كما يذوب الثلج أمام النار.

ثم خنقتها عبراتها، فمنعتها من الكلام. وحاولت أن تكمل حديثها دون جدوى، فأسندت رأسها على صدره وعيناها تفيضان بالدموع. اندهش الأمير، الرجل المخلص لسيده، من هذا الكلام، وغضب غضبًا شديدًا، ثم أبعدها عنه بقوة، وأخبرها أنه سيظل وفيًّا لسيده، ولن يسمح لنفسه ولا لغيره أن يلطخ شرف سيده.

وبعد أن سمعت المرأة هذا الكلام، نسيت مشاعر الحب السابقة، وقالت

في غضب:

-أترفض حبي بعد أن بُحت لك به، أيها الصعلوك؟ أتريدني أن أموت كمدًا؛ ولكن هذا لن يكون، بل أنت الذي ستموت، أو تُنفى من الأرض.

ثم مزقت ثوبها، ونكشت شعرها، وصرخت بأعلى صوتها:

-أغيثوني، أغيثوني، الأمير "جوالتيري" يريد الاعتداء على شرفي!

خشي الأمير أن يستغل أعداؤه هذا الاتهام الكاذب، ويحاولون النيل من سمعته. ورغم أنه واثق من براءته، إلا أنه خشي أن يعجز عن البرهنة عليها، فخرج من القصر مسرعًا وذهب إلى بيته؛ فأخذ ابنيه وانطلق هاربًا صوب مدينة "كاليزي". وعند سماع صرخات المرأة واستغاثاتها المتكررة، هب الكثيرون لنجدتها. ولما رأوها ورأوا دموعها، لم يشكُّوا في صدق كلامها، فتوقعوا أن الأمير كان يتظاهر باللطف والوداعة، وكان يلبس الثياب الجميلة لكي يصل إلى مأربه منها؛ فتوجهوا فورًا إلى بيته للقبض عليه فلم يجدوه. وكانت جموع من الناس حول المنزل، فاقتحموه. وبعد أن نهبوا وسلبوا كل ما فيه، سووا به الأرض.

وصل الخبر إلى الملك وابنه، وقد أضيفت عليه الكثير من الافتراءات حول الأمير وسلوكه، فغضبا عليه غضبًا شديدًا، وحكما عليه بالنفي هو وولديه، وعرضا مكافأة كبيرة لمن يستطيع القبض عليه وتسليمه حيًّا أو ميتًا. وعلى الرغم من براءته، إلا أنه بهروبه أثبت إدانته. وبعد أن وصل إلى مدينة "كاليزي"، اتجه بعدها إلى لندن. وهناك، اضطر للتسول من الناس. وكان قد أوصى ولديه بعدم الكشف عن حقيقتهما لأحد، حفاظًا على حياتيهما، وأن يصبرا على الحياة البائسة التي تنتظرهما. كان ابنه يُدعى "لويجي"، وكان في

التاسعة من عمره؛ أما ابنته فاسمها "فيولانتي"، وعمرها سبع سنوات. وقد التزما بتعليمات والدهما بالقدر الذي يسمح به سنهما الصغير. وقد منحهما اسمين آخرين، فأصبح الولد يُدعى "بيروتو"، والبنت تُدعى "جانيتا". وحينما دخلوا مدينة "لندن"، كانت ثيابهم بالية، ويعيشون حياة الفقراء. وبعد أن نفد ما معه من مال، اضطر أن يتسول ويمد يده للناس. وبينما هم واقفون ذات صباح أمام إحدى الكنائس، في موعد خروج المصلين، ليتسولوا منهم بعض المال، رأتهم زوجة وزير من وزراء الملك، فأمعنت النظر فيهم، ثم سألته عن موطنه الأصلي، وعن الولدين ما إذا ما كانا من أبنائه أم لا؛ فأجابها "جوالتيري" أنه من مدينة "بيكارديا"، وأنه اضطرته الظروف أن يأتي بولديه إلى "لندن". أشفقت المرأة علي الطفلة الصغيرة، فقد كانت جميلة، فتوجهت له قائلة:

-أيها الرجل الطيب، لقد أحببت ابنتك الجميلة هذه، فإن شئت أن ترسلها معي لأتولى تربيتها، فسأكون سعيدة لذلك، وربما أزوجها فيما بعد لرجل يسعدها ويكرمها.

فرح الأب بطلبها هذا ووافق على الفور، ثم ودَّع ابنته وهو يوصي السيدة بها. وبعد أن اطمأن على ابنته، قرر أن يجرِّب حظه في مكان آخر؛ فسار هو وابنه على قدميهما وهما يتسولان، حتى وصلا إلى مدينة "جاليس". وكانا قد هدهما التعب من طول المسافة. كان حاكم هذه المدينة قائدًا من قادة ملك انجلترا، وكان ينفق ببذخ. ذهب "جوالتيري" وابنه إلى قصره أكثر من مرة ليتسولا هناك، وكانا أحيانًا يدخلان حديقة القصر فيريان ابن الحاكم وهو يلعب مع أبناء النبلاء. وذات يوم اقترب "بيروتو" منهم، وبدأ يلعب معهم

فكان يلعب بمهارة فائقة. ولاحظ الحاكم ذلك، فسأل عنه، فأخبروه أنه ابن رجل فقير. فاستدعى الحاكم الأب، وطلب منه أن يترك ابنه هذا عنده ليرعاه ويربيه. وكان "جوالتيري" يتمنى ذلك، فوافق على الفور، برغم ما سيصيبه من حزن على فراقه. وبعد أن اطمأن على ابنه وابنته في حياتهما الجديدة، قرر أن يغادر انجلترا، فسافر إلى أيرلندا، وعمل هناك في مدينة "ستانفورد" خادمًا لأحد السادة. وظل على هذا الحال مدة طويلة. كبرت ابنته "فيولانتي" التي أطلق عليها اسم "جانيتا"، واستطاعت أن تكسب محبة سيدتها، وكذلك محبة سيدها، وكل من في المنزل، وكل من يراها؛ وذلك لأدبها الجم وحسن أخلاقها. وقررت سيدتها أن تزوجها من رجل من طبقتها، وليس من النبلاء. لكن عناية الرب العادل، الذي يعلم أصلها، لم يشأ أن تدفع الفتاة ثمن ذنب لم ترتكبه، فلم يقدَّر لهذا الزواج أن يتم.

وكان للسيدة ولد وحيد، جميل الوجه والهيئة وحسن الطبع والسمت، وكانا يحبانه كثيرًا. كان ذلك الشاب يكبر "جانيتا" بست سنوات، وكانت الفتاة تروق له، حتى وقع في حبها، فلم يعد يشعر بالسعادة إلا في وجوده بجوارها. غير أنه لم يكن يستطع أن يطلب من أبويه أن يزوجاها له، لظنه أنها من طبقة متدنية. ولم يستطع كذلك أن يصرِّح بحبه لها، فزاد ذلك من ولهه بها حتى أمرضه حبها، فخارت قواه وسقط طريح الفراش. لم يعلم أحدٌ من الأطباء بحقيقة مرضه فيئسوا من علاجه. وازداد حزن الأب والأم، وتوسلا إليه أن يخبرهما بسبب ما هو فيه، فلم يكن يجيبهما سوى بالتنهدات، أو بأنه لا يقوى على التحمُّل. أحضر له الأب طبيبًا شابًّا بارعًا لا مثيل له؛ وذات يوم، فيما كان ذلك الطبيب يجلس بجواره يجس نبضه، إذ دخلت "جانيتا"

الغرفة، وكانت تقوم بخدمته لتنال رضى أبيه وأمه، فلاحظ الطبيب أن دقات قلبه تسارعت، ثم لاحظ أنها عادت لطبيعتها بعد أن خرجت "جانيتا". فأراد أن يتثبت من الأمر، فأرسل إليها مرةً أخرى، وتظاهر بأنه يطلب شيئًا ما. وعندما دخلت الغرفة، لاحظ تسارع نبضات القلب مرةً أخرى، ثم عودتها إلى طبيعتها بعد أن خرجت الفتاة. أدرك الطبيب البارع أنه اكتشف حقيقة مرضه، فطلب من الأب والأم أن ينتحي بهما جانبًا، ثم قال لهما:

- علاج ابنكما ليس عند الأطباء، لكن عند جانيتا. لقد لاحظت ذلك، وتأكدت منه؛ فحبه لها قد ملك فؤاده، وهي لا تعلم بذلك، أو ربما تتظاهر بأنها لا تعلم. فلتقررا ما تريانه صوابًا، وإن كنتما تريدان الشفاء لابنكما فقدما له العلاج على وجه السرعة. فإن لم تفعلا وساءت حالته، فلن ينفع معه أي علاج.

سعد الأبوان لمعرفة علاج ابنهما، وتمنيا أن توافق "جانيتا" على أن تكون عشيقته، دون أن يكونا مضطرين لتزويجها له. ثم ذهبا إليه بعد أن انصرف الطبيب، وتوجهت إليه أمه قائلة له:

- لم أكن أتوقع منك أن تُخفي عني ما ترغب فيه، يا بني، وخصوصًا إذا كان هذا الشيء سيودي بحياتك إن لم تنله. اعلم يا بني أنني مستعدة لعمل أي شيء من أجلك. غير أنك لم تخبرني بسبب دائك، لكن الرب الرحيم بك أعلمني به، إنه داء الغرام. وما كان يجب عليك أن تخجل من البوح بذلك، فكل الشبان في مثل سنك يتعرضون لهذا الشيء. وإن لم تتعرض أنت له لقلقت عليك. فاطرح عنك هذا الخجل، يا بني، وحاول أن تسترد صحتك، وسأحقق لك كل ما تتمناه؛ فلست أمًّا قاسية.

شعر الشاب بالخجل في البداية، لكنه اقتنع بكلامها، وأدرك أنها يمكنها مساعدته، فاستجمع قواه، وقال لها:

-لقد أخفيت حبي يا أمي، لأنني أعلم أن الذين تقدموا في السن لا يحبون تذكر ما كان يحدث في سن الشباب. ولكن طالما أنكِ متفهمة لذلك، فسأخبرك بمَن كانت سبب آلامي، لتساعديني في الوصول إليها، لتعود لي الحياة.

فطلبت منه أن يخبرها، وهي واثقة من أنها يمكنها تنفيذ كل رغباته من جانيتا، دون أن تحتاج لتزويجه بها. ولم تعلم أنها سترفض حفاظًا على شرفها، فقال لها:

-سبب ما أنا فيه هو حبي لـ"جانيتا". فأنا لا أستطيع الحياة بدونها، ولعلمي أنها لن تستجيب لحبي خارج إطار الزواج، ولعلمي كذلك أنك لن توافقي على زواجي منها، فلم أخبرك بذلك، ولم أخبرها هي كذلك. فأوصلني ذلك كله إلى ما أنا عليه الآن. وإن لم تفي بوعدك لي، فلن أظل على قيد الحياة طويلًا.

فقالت له الأم لتخفف عنه:

-آه يا بني، أهذا هو سبب آلامك؟ اطمئن! واترك الأمر لي، وسترى ما يسرُّك.

أخذت صحة الشاب في التحسن، وسعدت الأم لذلك؛ فبدأت في تنفيذ وعدها له، ولم تكن تعرف كيف تفاتحها في الموضوع، لأنها تعرف أنها عفيفة وتحافظ على شرفها. فأرادت أن تتأكد من ذلك، فسألتها إن كان لها عشيق أم لا، فأجابتها في حياء:

-لا يجوز، يا سيدتي، لفتاة فقيرة مثلي، مطرودة من بلدها، أن تفكر في هذه الأشياء.

فقالت لها سيدتها:

-من الأفضل لشابة في جمالك ورقتك أن يكون لها عشيق، وقد اخترته لك بنفسي.

فردّت عليها "جانيتا" قائلةً:

-سيدتي، لقد انتشلتِني من حياة الفقر التي كنت أعيشها، وقمتِ برعايتي حتى كبرت. ولذلك فلزامًا عليَّ أن ألبِّي لك كل ما ترغبين فيه، إلا أن يكون لي عشيق. أما إذا أردتِ أن تزوجيني من أحد، فسيلقى مني ذلك الزوج كل الحب. فشرفي هو الثروة الوحيدة التي ورثتها من أهلي، وسأحافظ عليه حتى أموت.

كبُرت "جانيتا" في نظر السيدة، لكنها مع ذلك لم تستسلم لها، فألحّت عليها ثانيةً قائلةً لها:

- كيف ذلك يا "جانيتا"؟ فهل إذا ما رغب الملك في الاستمتاع بك، وهو الفارس الشاب ، فهل ستمانعين؟

فأجابتها على الفور قائلةً:

-لن أقوى على منعه، إذا استخدم القوة؛ أما طواعيةً مني، فلن يكون.

أدركت السيدة مدى تمسك "جانيتا" بالحفاظ على شرفها، فزاد تقديرها لها؛ لكنها أرادت أن تختبرها، فاقترحت على ابنها أنها- بعد أن تعود إليه كامل عافيته- ستجعله يختلي بها، ويحاول هو أن يستميلها لما يريده منها، دون أن تكون هي وسيطًا بينهما. فلم يرق هذا الأمر للشاب، وأحس بأن أمه لن

توفي له بما وعدته به، فساءت صحته. وحين رأت أمه سوء حالته، طلبت هي من "جانيتا" أن تمكنه من نفسها، فرفضت. فلما رأت إصرارها قررت هي وزوجها أن يزوجاهما، على الرغم من عدم رضاهما عن هذا الزواج؛ لأن "جانيتا" فقيرة وليست من النبلاء مثلهم. ومع ذلك فلم تخبرهم "جانيتا" بحقيقة أصلها. وبعد ذلك، عادت للشاب صحته، وعاشا معًا في سعادة.

كبر أيضًا "بيروتو"، واستطاع كذلك أن يكسب حب وتقدير سيده. فقد كان عاقلًا وشجاعًا، ويجيد استخدام الأسلحة وفنون القتال السائدة في عصره، وكان الناس يطلقون عليه اسم "بيروتو البيكاردي"، ويحظى بثناء الجميع. وكما حفظ الرب أخته، حفظه هو أيضًا من وباء قاتل قضى على نصف سكان المدينة، ورحل النصف الآخر إلى المدن المجاورة. مات في هذا الوباء سيده، حاكم المدينة، وزوجته وابنه، ولم يتبق من عائلته سوى بنت وحيدة ورثت كل ملكه، وكانت شابة في سن الزواج، ومعجبة بـ"بيروتو" وأخلاقه؛ فقررت الزواج منه. وبذلك أصبح "بيروتو" سيدًا من السادة الأثرياء. وحين سمع ملك انجلترا به وبمزاياه العظيمة، قرر أن يعينه حاكمًا على المدينة.

وبعد مرور ثمانية عشر عامًا من هروب الأب، وقد أصبح الآن شيخًا كبيرًا، أراد أن يعلم مصير ابنه وابنته، وما حدث معهما؛ فسافر من أيرلندا متوجهًا صوب مدينة "جاليس"، حاملًا متاعه القليل على ظهره، إلى أن وصل إلى مكان قصر الحاكم "بيروتو"؛ فلم يكشف له عن شخصيته، وأراد أن يعرف أولًا ما حدث مع ابنته "جانيتا". فسافر إلى "لندن"، وأخذ يسأل ويتقصى إلى أن علم بزواجها، فسعد لذلك. لكن بسعادته بابنه "بيروتو"

كانت أكبر. وأنساه ذلك ما تعرض له من محن في حياته. ثم وصل إلى البيت الذي تقيم فيه، فرآه زوجها، ويُدعى "جاكيتو لامينز"، فأشفق على حالته المزرية، فأمر خادمًا له بأن يأخذه داخل المنزل، ويقدم له الطعام. وفيما كان يتناول الطعام، إذ رآه أولاد "جانيتا"، وكان أكبرهم في الثامنة من عمره؛ فالتفوا حوله، كأنهم يشعرون أنه جدهم. فأدرك أنهم أبناء ابنته، فداعبهم ولاطفهم فتعلقوا به، وفضلوا البقاء معه على الذهاب مع المعلم. فأقبلت الأم نحوهم لتعنفهم، فرفضوا الذهاب مع المعلم، وأخبروها بأنهم يودون البقاء مع ذلك الرجل الطيب، لأنه يحبهم أكثر من المعلم. فابتسمت الأم وابتسم كذلك الرجل الطيب، ثم قام لتحيتها، ليس باعتباره أبيها، ولكن باعتباره متسولًا فقيرًا، وحيته هي كذلك، ليس باعتبارها ابنته، ولكن باعتبارها سيدته. وفي أثناء ذلك، لم تتحقق من شخصيته. ثم غادرت المكان، وسمحت للأطفال بأن يبقوا معه، ولا يذهبوا مع المعلم. وبعد فترة، حضر والد زوجها، فأخبره المعلم بما حدث، فغضب، ثم قال له، محتقرًا "جانيتا" وأصلها الوضيع:

- دعهم يفعلوا ما يشاؤون؛ فليس غريبًا أن يفضلوا البقاء مع المتسولين على الذهاب معك. فهم شبيهون بأمهم ذات الأصل الوضيع.

غضب الرجل الطيب عند سماعه هذه الكلمات، لكنه اعتاد على سماع الشتائم فلم يرد عليه. وحينما سمع "جاكيتو"، زوج "جانيتا"، بحب أبنائه الصغار لذلك الرجل الفقير الطيب، قرر أن يمنحه عملًا ليكون قريبًا من الأطفال، فأخبره أنه يجيد سياسة الخيول، ولا يجيد عملًا غيره، فكلفه به. فكان يؤدي عمله بإتقان، ثم بعد ذلك يلعب مع الأطفال.

وقد حدث في فرنسا أن مات الملك في الحروب، فاعتلى ابنه العرش بعده،

وهو الذي تسببت زوجته في نفي الأمير "جوالتيري"، وفي كل ما حدث معه بعد ذلك. فطلب ملك فرنسا الجديد المعونة من ملك انجلترا، فأرسل له جيشًا بقيادة "بيروتو" و"جاكيتو"، وطلب منهما الرجل الفقير الذهاب معهما، باعتباره سائس الخيول، وذهب معهم بالفعل.

-مرضت زوجة ملك فرنسا وشعرت بالموت، فقررت أن تعترف للكاهن لشعورها بالندم. وبالفعل، أحضرت الكاهن، واعترفت له بكل ما حدث بينها وبين الأمير "جوالتيري". واعترفت ببراءته، واعترفت كذلك أمام النبلاء والوجهاء ببراءته، وطلبت أن يعيدوا الاعتبار له ولأبنائه، إن كانوا لا يزالون على قيد الحياة، ثم ماتت بعد ذلك.

حزن الملك عندما علم بالظلم الذي تعرَّض له "جوالتيري"، وأعلن عن مكافأة عظيمة لمن يدلي بمعلومات عنه وعن أبنائه، وأنه سيعيده إلى مكانته السابقة إذا عثر عليه، ليرد له كرامته واعتباره. انتشر الخبر في كل مكان، وسمع به "جوالتيري"، سائس الخيول، فتوجه إلى "جاكيتو"، وطلب أن يقابله هو و"بيروتو"، لأنه سيخبرهما بمعلومات عن الشخص الذي يبحثون عنه. وحين التقى بهما، توجه السائس إلى "بيروتو" قائلًا:

-هل تعلم يا "بيروتو" أن "جاكيتو" هذا هو زوج أختك، وأنه تزوج بها دون أن يجهزها أحد بما تُجهز به الفتيات عند زواجهن. لذلك فإن هذه المكافأة المعروضة لمن يتعرف عليك، وعلى أختك "فيولانتي"، التي هي زوجة "جاكيتو"، يجب أن يحصل عليها هو، وأن يحصل كذلك على المكافأة المعروضة لمن يتعرف عليَّ أنا، أنا الأمير "جوالتيري"، أبوك وأبو "فيولانتي".

وفيما كان "بيروتو" يسمع هذا الكلام، أخذ يدقق النظر فيه بإمعان، حتى

تأكد أنه أبوه، فهب قائمًا، ثم ذهب إليه وعانقه، وهو منخرط في البكاء، قائلًا له:

-أبي! حمدا للرب على سلامتك!

تفاجأ "جاكيتو" بكل ذلك فلم يدر ما يقوله، وتذكر نظرته له حينما كان متسولًا فقيرًا، فعانقه باكيًا، وطلب منه الصفح. فهدَّأ "جوالتيري" من روعه. وبعد أن تكلموا جميعًا في سعادة عما حدث، أراد "بيروتو" و"جاكيتو" أن يلبساه ثيابًا جديدة، فرفض وأصرَّ على أن يقابل الملك بثيابه هذه. ثم توجه "جاكيتو" إلى الملك، وأخبره بقدوم "جوالتيري" وابنه، فأعد لهما الملك الهدايا الثمينة. دخل "جوالتيري" على الملك بثياب سائس الخيل ومعه ابنه، فقدمهما "جاكيتو" للملك قائلًا:

-هذا هو الأمير "جوالتيري"، يا سيدي، وهذا ابنه. أما ابنته فهي زوجتي، وستراها قريبًا بمشيئة الرب. جثا "جوالتيري" على قدميه، فتمعَّن الملك في وجهه، فاستطاع أن يتذكره، رغم ما حل به من تغيرات. فذهب إليه واحتضنه بمودة. ثم توجه الملك إلى "جاكيتو" سائلًا إياه عن سبب ارتداء "جوالتيري" لهذا الزي الذي يرتديه ساسة الخيول، فأخبره عن كل شيء؛ فأمر الملك له بثياب جديدة، وأعاده إلى منصبه السابق، ومنح "جاكيتو" المكافأة التي أعلن عنها. وبعد أن تسلّم "جاكيتو" المكافأة وجَّه له "جوالتيري" الحديث قائلًا:

– خذ هذه المكافأة من جلالة الملك، ولا تنس أن تخبر والدك بأن أم أولادك ليست من أصل وضيع.

أرسل "جاكيتو" إلى زوجته ليستدعيها، كما أرسل "بيروتو" إلى زوجته

كذلك. وظلوا في فرنسا لبعض الوقت، ثم سمح لهم الملك بالمغادرة إلى بلادهم؛ فودعوا الأمير "جوالتيري" بالدموع، ومكث هو في فرنسا، وعاد إلى منصبه القديم، ورُدّت إليه أمواله. وظل على هذا الحال سنوات عديدة، وقد أحبه الناس واحترموه أكثر من أي وقت مضى.

القصـة التّاسـعة

يستطيع "أمبروجولو" أن يخدع "برنابو"، فيقرر الأخير قتل زوجته البريئة؛ فتهرب وترتدي ملابس الرجال، وتعمل لدى السلطان، فتقابل "أمبرولوجو" المخادع. تستدعي "برنابو" إلى الإسكندرية، فيتم معاقبة المخادع، وتعود إلى زوجها بعد أن خلعت ملابس الرجال، فيرجعان إلى "جنوة" بالكثير من المال.

بعد أن وصلت "إليزا" إلى نهاية قصتها، بدأت الملكة "فيلومينا" بالكلام؛ وكانت أكثرهن بهاءً وجمالًا، فقالت: سأحترم رغبة "ديونيو" وما اتفقنا عليه. وبما أنه لم يتبق سوانا، فسأبدأ أنا، ثم يكون هو آخر من يحكي. ثم شرعت تحكي وتقول:

يقولون في الأمثال إنه من حفر حفرة لأخيه وقع فيها. ومن الصعب إثبات ذلك نظريًّا، ولكن بالتجربة العملية يتضح ذلك جليًّا. ولذلك، فسأحكي لكم قصة تؤكد هذا المعنى، حتى تأخذن حذركن من المخادعين.

كان ينزل في أحد الفنادق بباريس مجموعة من التجار. وبعد أن تناولوا وجبة العشاء ذات ليلة، بدأوا يتجاذبون أطراف الحديث في مواضيع شتَّى،

وتطرقوا إلى موضوع زوجاتهم اللاتي يجلسن في البيوت وينتظرن عودتهم؛ فقال أحدهم مازحا:

-أنا لا أدري، هل تخونني زوجتى أم لا؛ ولكني أعلم أنني أخونها. فحين أرى فتاة جميلة أنسى زوجتي وحبي لها.

فقال له أحدهم:

-وأنا مثلك تمامًا؛ غير أني متأكد أن زوجتي تخونني في غيابي. فالطيور على أشكالها تقع.

ثم تكلم تاجر ثالث وشاركهم نفس الرأي؛ فقال إن الزوجات ينتهزن غياب أزواجهن للتجارة ويشبعن رغباتهن. إلا أن واحدًا منهم، ويُدعى "برنابو لوملين"، من مدينة "جنوة"، خالفهم الرأي، وقال إنه متزوج من امرأة فاضلة، لا شبيه لها في إيطاليا كلها؛ فقد بلغت درجة الكمال في كل شيء؛ فهي فتاة شابة، جميلة، صالحة وتقية، تجيد أعمال المنزل والأشغال اليدوية، كالتطريز، وتجيد فن الطعام وإعداد السفرة ببراعة، وتجيد كذلك ركوب الخيل والصيد بواسطة الصقور، وتجيد كذلك الأعمال الحسابية أفضل من التجار أنفسهم. وظل يمتدحها ويمتدح عفتها وطهارتها وثقته بها. فهو على يقين أنها لن تخاطب رجلًا طوال فترة غيابه، مهما طالت.

وكان بين الجلوس تاجرٌ شاب يُدعى "أمبروجولو دا بياتشنتسا"، انفجر في الضحك بأعلى صوته، بعد أن سمع كلام "برنابو"، وسأله ساخرًا إن كان الامبراطور قد خصه بهذه الزوجة الثمينة دون غيره من الرجال. فأجابه "برنابو" غاضبًا، أن الذي منحه إياها هو الرب، الذي هو أقوى من الامبراطور. فقال له "أمبروجولو":

-أعلم أنك واثقٌ جدًّا من زوجتك، وتعتقد أن ما تقوله هو الحقيقة. ولكني أظن أنك لست خبيرًا بما فيه الكفاية بطبيعة الأشياء، وهو ما يدفعك إلى قول هذه الأشياء عن زوجتك. أما نحن، فنعلم حقيقة الأمور. فالرجل والمرأة هما خير المخلوقات على الأرض، لكن الرجل يفوق المرأة في درجة الكمال، نظرًا لشدته وحزمه؛ بينما المرأة أضعف منه وأقل حزمًا وعزيمة. فإذا كان الرجل- مع حزمه هذا- يضعف أمام إغراء أية فتاة شابة جميلة، فكيف تقوى المرأة على المقاومة، وهي الأضعف منه، أمام الحيل والإلحاحات التي لا تنتهي التي يستخدمها شاب يهواها؟ أنا لا أُصدِّق أنك لا تؤمن بهذه الحقيقة؛ فلو كنت ترى أن زوجتك من لحم ودم مثل سائر النساء، فعليك أن تتيقن أنها من المحتمل أن تفعل ما تفعله سائر النساء. ولا يمكن لك أن تنفي هذه الحقيقة، أو أن تصر على اليقين بخلافها.

فرد عليه "برنابو" قائلًا:

-أنا تاجر ولست فيلسوفًا. وربما كان ما تقوله هذا ينطبق على النساء الساقطات أو الساذجات؛ أما العاقلات، فإنهن- حين يتعلَّق الأمر بشرفهن- يصبحن أقوى من الرجال في الحفاظ عليه. وزوجتي من هذا النوع من النساء.

فقال له "أمبروجولو":

-في الحقيقة، لو أن كل امرأة خانت زوجها ظهر لها قرن في رأسها، لامتنعن عن ذلك، إلا قلة منهن. ولكن حيث أن الأمر يتم في الخفاء دون علم أحد، فهن لا يبالين بالقيام بذلك. وللحق أقول لك إن المرأة الشريفة الوحيدة هي التي لم يحاول أي رجل أن يراودها عن نفسها، أو التي حاولت

هي مع رجل لكنه أبى ذلك؛ هذه هي الحقيقة التي خبرتها من تجاربي مع نساء كثيرات. ولو أني رأيت زوجتك العفيفة لأغويتها كما فعلت مع النساء الأخريات.

فقال له "برنابو" غاضبًا:

-إذا استمر الحديث على هذا المنوال فلن ينتهي، ولن نصل إلى نتيجة. لكن لو أن كل النساء سواء، كما تزعم، وأنك تستطيع إغواء زوجتي، وأنا واثق أنك لن تستطيع ذلك، فأنا أراهنك على ذلك. فإن تمكنت من إغوائها، فسأضع رأسي أمامك لتقطعها؛ أما إذا لم تتمكن، فستدفع لي ألف فورين ذهبي.

فرد عليه "أمبروجولو" متحمسًا:

-لن أستفيد شيئًا إن قطعت رأسك، ولكن سيكون عليك أن تعطيني بدلًا من ذلك خمسة آلاف فورين ذهبي؛ أما أنا فسأعطيك ألفًا فقط إن خسرت الرهان. وسأسافر في التو إلى مدينة "جنوة"، حيث تقيم زوجتك، وسأجعلها تستجيب لرغباتي في غضون ثلاثة أشهر من اليوم الذي سأسافر فيه، وسأقدم لك كل الأدلة على ذلك حتى تتيقن، شريطة ألا تخبرها بشيء عن هذا الرهان.

وافق "برنابو"، بينما حاول التجار أن يثنوه عن هذه الفكرة. ولكن، مع إصرار الطرفين، لم يجدوا مفرًّا من أن يكونوا شهودًا على هذا الرهان، ويوقِّعوا عليه بأسمائهم.

وبالفعل، توجه "أمبروجولو" إلى "جنوة"، بينما ظل "برنابو" في باريس. وفي "جنوة"، بدأ "أمبروجولو" في جمع المعلومات عن تلك المرأة، والسؤال عنها،

حتى تيقن من صدق كلام "برنابو"، فأصابه اليأس. غير أنه تعرَّف على امرأة عجوز فقيرة تتردد على منزلها، وكانت زوجة بيرنابو تحبها كثيرًا؛ فقدّم لها مبلغًا من المال لتساعده في الدخول إلى البيت. وصنع صندوقًا خشبيًّا على مقاسه ونام بداخله. ثم طلب من المرأة العجوز أن تطلب من زوجة "برنابو" أن تسمح لها بوضع ذلك الصندوق في غرفة نومها، حيث أنها ستسافر لعدة أيام خارج المدينة، ثم ستأتي وتأخذه مرةً أخرى. وبالفعل وافقت المرأة، وتم وضع الصندوق في غرفة النوم.

وبعد أن حل الظلام، ونامت السيدة هي وخادمتها، وتأكد "أمبروجولو" من ذلك، فتح الصندوق وخرج منه بحذر. ثم بدأ يتفحص جدران الغرفة جيدًا ويحاول تذكر كل معالمها، وما بها من لوحات معلقة على الجدران. ثم اقترب من السرير ورفع الغطاء ببطء، ففتنته بجمالها. ثم أمعن النظر في شامة أسفل نهدها الأيسر، تحيط بها شعيرات صفراء ذهبية اللون. ثم أعاد الغطاء مرةً أخرى، ولم يحاول أن يجازف بالاقتراب منها، رغم رغبته في ذلك، خشية أن يحدث ما لا يُحمد عقباه. ثم أخذ من الغرفة حافظة نقودها، وثوبًا من ثيابها، وحمالةً للصدر، وبعضًا من خواتمها، وأشياء أخرى من حاجياتها الخاصة، ثم عاد إلى الصندوق مرةً أخرى، ونام بداخله، محتفظًا معه بكل هذه الأشياء التي أخذها من الغرفة.

وظل على هذا الحال ليلتين متتاليتين، إلى أن أتت المرأة العجوز في اليوم الثالث- كما اتفقا سويًّا- وأخذت الصندوق. ثم خرج منه، وسافر بعدها إلى "باريس". وهناك جمع كل التجار الذين كانوا شهودًا على الرهان، ثم قال لبيرنابو إنه كسب الرهان. وقدم له الأدلة على ذلك؛ فوصف له غرفة نوم

زوجته، وما بها من لوحات معلقة على الجدران؛ ثم أخرج له الأشياء التي أخذها من الحجرة، وقال له إن زوجته هي التي أعطتها له. تأكد "برنابو" أن الحجرة التي وصفها له هي بالفعل غرفة نومه، لكنه اعتبر أن هذا الوصف من الممكن أن يكون قد حصل عليه من الخادمة التي تعمل في المنزل، وأن الأشياء التي أحضرها معه من الممكن أن يكون قد حصل عليها عن طريق الخادمة كذلك.

فقال له "أمبروجولو":

-إذا كانت هذه الأدلة لا تكفي لإقناعك، فسوف أعطيك دليلًا آخر؛ فتحت نهد زوجتك الأيسر شامةٌ تحيط بها شعيرات صفراء ذهبية اللون.

تغيَّر وجه "برنابو"، لدى سماعه هذا الوصف، وشعر كأن أحدًا يطعنه في قلبه، وكست وجهه الكآبة، وظل صامتًا لفترة. فعلم الحضور صحة كلام "أمبروجولو". ثم تكلم "برنابو" قائلًا:

-نعم أيها السادة، ما قاله "أمبروجولو" صحيح. وقد كسب الرهان. وبإمكانه أن يأخذ ما اتفقنا عليه من مال، في أي وقت شاء.

وبالفعل، دفع له في اليوم التالي المبلغ المتفق عليه. ثم توجه بعدها إلى "جنوة"، وهو يضمر لزوجته الشر. وحينما وصل إلى المدينة ذهب إلى إحدى مزارعه التي تبعد عن المدينة عشرين ميلًا، وقرر أن يبيت ليلته هناك في بيت ريفي بسيط. ثم طلب من خادمه أن يذهب إلى زوجته، وأرسل معه جوادين ورسالة يعلمها فيها بقدومه، ويطلب منها أن تأتي إليه. ثم أمر الخادم أن يتحين مكانًا مناسبًا ويقتلها فيه، قبل أن تصل إليه.

وبالفعل، ذهب الخادم إلى الزوجة، وسلّمها الرسالة ففرحت السيدة بعودة

زوجِها، ثم انطلقت مع الخادم صوب المزرعة التي يقيم بها زوجها. وفي أثناء سيرهما، كانا يتبادلان الحديث إلى أن وصلا إلى مكان مهجور، تحوطه الصخور الضخمة والأشجار الكثيفة؛ فرأى الخادم أن هذا المكان ملائم ليقتلها فيه. فأخرج السكين، وأمسك بالسيدة قائلًا لها:

- اطلبي الصفح من الرب، يا سيدتي، فستموتين الآن.

فتوسلت إليه المرأة، وهي مذعورة، حين رأت السكين، وسمعت هذا الكلام، قائلة له:

- الرحمة لأجل الرب، ما الذي فعلته لك حتى تقتلني؟

فقال لها الخادم:

- لا شيء يا سيدتي، ولكني أنفِّذ أوامر زوجك. وقد هددني بالقتل إن لم أنفِّذ أوامره. ومع أني أشفقق عليك، لكني لا أستطيع ان أخالفه.

فقالت له السيدة، وهي تبكي:

- الرحمة، لا تقتل إنسانًا لم يؤذك قط من أجل خدمة شخص آخر. ويعلم الرب أني لم أسئ إلى زوجي قط حتى يعاقبني بالقتل. ولكن يمكنك أن تجعل الرب يرضى عنك، وأن تجعل زوجي يرضى عنك كذلك، وأنا أيضًا سأكون راضية عنك، لو قمت بما سأقوله لك. اعطني معطفك وقبَّعتك لأرتديهما، وخذ أنت ثيابي واعطها لزوجي، وأخبره أنك قد قتلتني. وأعدك أنني سأذهب بعيدًا بحيث لن يراني أحد مرةً ثانية.

ولأن الخادم كان مشفقًا عليها، فقد وافق على ذلك؛ وأعطاها معطفه وقبَّعته، وطلب منها أن تغادر المدينة. ثم ذهب إلى سيده، وأخبره أنه قد قتلها، وأنه ألقى بجثتها للذئاب.

سارت المرأة حتى وصلت إلى إحدى القرى القريبة، فوجدتها امرأةً عجوز، فاصطحبتها إلى بيتها. وهناك صنعت لها ملابس كملابس البحَّارة الرجال. ثم توجهت بعد ذلك إلى شاطئ البحر، وهناك وجدت سفينة لرجل من "كتانيا" يُدعى السيد "اينكارارك"، كان قد رسا بسفينته ونزل على الشاطئ ليستجم قليلا، ويشرب ماءً باردًا من أحد الينابيع الموجودة هناك. فتبادلا أطراف الحديث، واتفقا سويًّا على أن تعمل معه كخادم له، دون أن يعلم أنها امرأة. فصعدت على متن السفينة، وأخبرتهم أنها تُدعى "سيكورانو دا فينالي"، فأعطوها ملابس جديدة، ولم يشكوا في أنها رجل. وصارت تخدم سيدها بإخلاص، فحازت على ثقته.

وذات يوم، أبحر صاحب السفينة إلى الإسكندرية، وكانت سفينته محملة بالبضائع. وحينما وصل إلى هناك، ذهب إلى السلطان، وقدَّم له بعض الصقور كهديَّة، فدعاه السلطان ليتناولا الطعام سويًّا. وبينما هما يأكلان، لاحظ السلطان مدى اهتمام "سيكورانو" بسيده، وسرعة تنفيذه لأوامره؛ فطلب منه أن يمنحه هذا الخادم، فوافق السيد اينكارارك. وسرعان ما نال "سيكورانو"- بنشاطه وإخلاصه- حُب السلطان وثقته.

وكان ثمة سوق كبيرة في مدينة "عكا"، وهي مدينة خاضعة لحكم السلطان، وكان الكثير من التجار المسلمين والمسيحين يوجدون في هذه السوق، ولم تكن تحدث بينهم أية مشكلات؛ فقد كان السلطان يرسل إلى هذا السوق الكثير من الجنود والضباط والقادة لحفظ الأمن. ففكر في أن يرسل خادمه "سيكورانو" ليكون قائدًا للجنود الذين يحمون السوق، لأنه كان يتقن اللغتين. وبالفعل، قامت "سيكورانو" بواجبها على أكمل وجه، وقابلت

الكثيرين من التجار القادمين من "صقلية" و"بيزا" و"فينيسيا" و"جنوة" وغير ذلك. وكانت تشعر- كلما قابلت تاجرًا منهم- بالحنين والشوق إلى موطنها. وذات يوم، وهي تتفقد بضائع التجار القادمين من "فينيسيا"، رأت حافظة نقود وحمالةً للصدر موجودتين وسط مجموعة من التحف، فتذكرتهما، وتيقنت أنهما تخصانها. ولكن لم تُظهر ذلك. ثم سألت عن صاحبهما، وهل ينوي بيعهما أم لا؛ وكان "أمبروجولو" حينها واقفًا بالقرب منها، فأجابها مبتسمًا:

-هذه أشيائي، يا سيدي؛ وهي ليست للبيع. لكن إن كنت تريدهما، فخذهما هدية مني لك.

خشيت "سيكورانو" أن يكون قد شك فيها، فقالت له بحزم:

-أتبتسم لأنني رجل شرطة، وأسأل عن هذه الأشياء النسائية؟

فأجاب "أمبروجولو" قائلًا:

-لا، يا سيدي، ولكني تذكرت الطريقة التي حصلت بها على هذه الأشياء.

فقال له "سيكورانو":

-هل بإمكانك أن تحكي لي كيف حصلت عليها حتى نضحك سويًّا؟

فقال له "أمبروجولو":

-لقد أعطتهما لي امرأة من "جنوة"، تُدعى "زنيفرا"، وهي زوجة لتاجر يُدعى "برنابو لوميلين". فبعد أن مارسنا الحب سويًّا في إحدى الليالي، أعطتني هذه الأشياء لأحتفظ بها كذكرى. وأنا أضحك لأني تذكرت غباء زوجها، فقد راهنني أن يعطيني خمسة آلاف فورين ذهبي، لو استطعت أن

أفعل ذلك معها، وكان واثقًا أن زوجته لن ترتكب الخطيئة أبدًا؛ لكني كسبت الرهان في النهاية. وقد سمعت بعد ذلك أنه عاقبها بالقتل، وكان أجدر به أن يعاقب نفسه على ثقته العمياء في زوجته، وكأنها ليست مثل سائر النساء.

آنئذٍ، علمت "سيكورانو" سبب غضب "برنابو" منها، وقررت أن تعاقب ذلك الرجل؛ فتظاهرت أمامه بالضحك، وكأنها معجبة بالقصة؛ ثم استمرا في الحديث حتى أنِس كل منهما إلى الآخر. ثم دعته أن يأتي معها إلى الإسكندرية، بعد أن ينتهي من تجارته. وقد أعدت له منزلًا هناك، وأعطته الكثير من المال حتى يظل أطول فترة ممكنة. ثم أرسلت إلى زوجها بعض التجار ليقنعوه بالسفر إلى الاسكندرية. وحيث أنه أصبح فقيرًا، فقد وعدوه بأن صديقًا له هناك ينتظره كي يساعده. وفي نفس الوقت، كانت "سيكورانو" قد ساعدت "أمبروجولو" في الذهاب إلى السلطان، ليحكي له قصته الطريفة تلك. وبالفعل، سمع السلطان القصة، واستمتع بها كثيرًا. وبعد أن وصل "برنابو" إلى الاسكندرية، طلبت "سيكورانو" من السلطان أن يأمر بإحضاره هو و"أمبروجولو"، وأن يأمر "أمبروجولو" بأن يقول حقيقة ما حدث بينه وبين زوجة "برنابو". وبالفعل، تم إحضارهما إلى القصر، ثم توجه السلطان إلى "أمبروجولو" وطلب منه، بحزم، أن يحكي حقيقة ما قام به ليكسب الرهان ويحصل على خمسة آلاف فورين ذهبي؛ فنظر "أمبروجولو" إلى "سيكورانو" متوسلًا إليه، فرآه يهدده بالتعذيب إن لم يتكلم. ولشدة خوفه من السلطان ومن "سيكورانو" حكى كل شيء. وقد كان يظن أن عقاب الملك له سيقتصر على أن يأمره بأن يعيد لـ"برنابو" الخمسة آلاف فورين ذهبي، والأشياء التي

أخذها من الغرفة. وبعد أن حكى "أمبرولوجو" حقيقة ما حدث، توجه "سيكورانو" إلى "برنابو"، وسأله:

-وأنت؟ ما الذي فعلته حين سمعت بتلك الأكاذيب عن زوجتك؟

فأجاب "برنابو" قائلًا:

-دفعني غضبي الشديد بسبب المال الذي دفعته، وبسبب العار الذي لحق بي، إلى أن أطلب من خادم لي أن يقتلها، وقد أكَّد لي أنه قتلها بالفعل.

كان السلطان يستمع لكل هذا الحوار الذي يدور، وعلم حقيقة ما حدث مع زوجة ذلك التاجر. لكنه لم يكن يعلم ما الذي يريده "سيكورانو" منهما، ولماذا طلب إحضارهما؛ فسأله عن ذلك، فأجابه "سيكورانو" قائلًا:

-لقد رأيت بنفسك، يا سيدي، ما وقع لهذه المرأة من هذا العشيق، وهذا الزوج. هذا العشيق أساء إلى سمعتها وشرفها بأكاذيبه، وتسبب في إفقار زوجها؛ وهذا الزوج صدَّق ادعاءات ذلك الرجل الغريب، ولم يصدِّق حقيقة زوجته التي يعرفها عن قرب، فأمر بقتلها وتركها طعامًا للذئاب. وأنت، يا سيدي، تعرف ما يستحقه كلاهما من عقاب؛ لكني أطلب منك يا سيدي أن تسمح لي أنا بأن أحكم عليهما، فحكمي هو أن يُعاقب المخادع، وأن يُصفح عن المخدوع. وسأجعل تلك المرأة تمثل أمامكم الآن، يا سيدي.

وافق السلطان على ما قاله "سيكورانو"، وقد اندهش "برنابو"؛ فقد كان يظن أن زوجته قد ماتت، وزاد خوف "أمبرولوجو" من العقوبة التي تنتظره. وفي أثناء ذلك جثت "سيكورانو" عند قدمي السلطان، وقالت وهي تبكي:

-أنا التعيسة "زينيفرا"، يا مولاي، أرتدي زي الرجال، وأتعرض للهوان منذ ست سنوات، بسبب هذا الخائن الكاذب؛ وكنت على وشك أن أُقتل

ويُلقي بي للذئاب بسبب هذا الزوج القاسي.

ثم كشفت عن صدرها ليتأكد الملك أنها امرأة. وسألت "أمبروجولو" متى بات معها، فلم يجب عليها بشيء، وقد شعر بالخزي.

كان السلطان مندهشًا مما يراه ويسمعه. ثم أثنى على "زينيفرا" التي كانت تُدعى "سيكورانو"، وأمر بمنحها ثيابًا نسائية تليق بها، ثم عفا عن "برنابو" استجابة لطلبها، حيث كان يستحق عقوبة الإعدام. وحين علم "برنابو" أنها زوجته، ارتمى عند قدميها باكيًا، طالبًا منها أن تغفر له ما ارتكبه في حقها؛ فغفرت له ذلك، ثم أنهضته من الأرض، وعانقته بحب وحنان. وأصدر السلطان أوامره بأن يُقيَّد "أمبروجولو" في أحد الأعمدة عاريًا، ثم يُطلى جسده بالعسل، ويُترك على هذا الحالة حتى تقتله الحشرات والزنابير؛ وبأن يتم إعطاء كل أمواله للمرأة التي أساء إليها. ثم أقام للزوجين حفلًا كبيرًا وقدَّم لهما الكثير من الهدايا الثمينة. وفي نهاية الحفل، سمح لهما بالعودة إلى "جنوة"، وقد منحهما سفينة لتنقلهما إلى هناك. وقد استقبلهما الناس بالحفاوة والتكريم، وبالأخص السيدة "زينيفرا"، حيث كانوا يظنون أنها قد ماتت. وقد عادا ثريين، وعاشا في سعادة وهناء، وظلت "زينيفرا" حسنة السمعة بين الناس حتى آخر يوم في حياتها. أما "أمبروجولو"، فقد هجمت عليه الحشرات والزنابير والذباب، حتى أكلوا لحمه ولم يبق منه سوى العظم، وظلت عظامه معروضة أمام الناس لتكون شاهدًا على خبثه. وبذلك، يكون من حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

القصة العاشرة

يقوم "باجانينو دا موناكو" بخطف زوجة "ريتشاردو دا كينزيكا". وبعد أن يعرف الأخير بمكانها يتصادق مع "باجانينو"، ثم يطلب منه إرجاعها لأبيه؛ فيوافق بشرط قبولها بذلك؛ فترفض، وتقرر البقاء معه. وبعد موت "ريتشاردو" يتزوجان.

حازت قصة الملكة على إعجاب الجميع، وبالأخص "ديونيو"، الذي لم يتبق سواه ليحكي لهم قصتة لهذا اليوم؛ فبدأ يقول:

أيتها الفتيات الجميلات، لقد دفعتني بعض أحداث القصة التي روتها الملكة إلى أن أغيِّر القصة التي كنت أنتوي أن أقولها لكم. ولذلك، فسأحكي لكم قصة أخرى، لأثبت لكم سطحية تفكير "برنابو" وأمثاله، الذين يقضون أيامهم يطوفون في البلاد، فيصاحبون هذه الفتاة في هذا اليوم، وتلك الفتاة في اليوم الذي يليه، ويظنون أن زوجاتهم يبقين في البيوت مكتوفات الأيدي؛ لأنهم لا يعرفون شيئًا عن رغبات النساء واحتياجاتهن. وسأوضح لكم- في هذه القصة- مدى سذاجتهم، إذ يظنون أنهم أقوى من الطبيعة، ويستطيعون القيام بما يشاؤون، حتى وإن كان فوق قدراتهم.

كان يعيش في مدينة "بيزا" قاضٍ يُدعى "ريتشاردو دا كينزيكا". وكانت قدراته العقلية أكبر من قدراته الجسدية؛ فكان يظن أنه يستطيع إقناع أي فتاة بقوته البدنية. وحيث أنه كان رجلًا ثريًا، لذا كان يبحث عن فتاة شابة وجميلة كي يتزوجها. وبالفعل وجدها. فقد عرض عليه السيد "لوتو جالندي" فتاة شابة وجميلة تُدعى "بارتولوميا"، وكانت من أجمل فتيات "بيزا"، فأمر القاضي بتجهيز حفل كبير للزفاف. وفي أول ليلة من الزواج، استطاع أن يضاجعها مرةً واحدة، ثم أصابه التعب والإرهاق، ولم يستطع أكثر من ذلك في هذه الليلة. وفي الصباح، بدأ يشرب النبيذ، ويأكل الحلوى حتى يقوى على جماعها مرةً أخرى، لكنه لم يستطع. فقرر أن يشرح لزوجته الأعياد الدينية والعطل الرسمية التي يجب عدم ممارسة الجنس خلالها، تبجيلًا لهذه المناسبات. ووضع لها تقويمًا بها. ثم أضاف إليها أيام الجمعة والسبت والأحد من كل أسبوع، حيث يتم فيها الصلاة والتسبيح، بالإضافة إلى أيام الصوم وبعض الأيام القمرية وبعد الاستثناءات الأخرى، بحيث أصبحت ممارسة الجنس مقصورةً- في النهاية- على مرة واحدة في الشهر.

وعلى الرغم من تذمر الزوجة، إلا أنهما عاشا على هذا الحال زمنًا طويلًا. وكان يغار عليها ويراقبها باهتمام، حتى لا يأتي رجلٌ فيعلمها أيام العمل، بعد أن علمها هو أيام الأعياد والعطل الرسمية. ثم بدأت حرارة الجو تزداد شيئًا فشيئًا، فقرر أن يذهب إلى مزرعته الجميلة ليقضي بها عدة أيام، ورافقته زوجته في رحلته تلك. وفي أثناء ذلك، قرر أن يذهبا سويًا لرحلة صيد للأسماك؛ فأحضر قاربين؛ ركب هو والصيادين في أحدهما، وركبت هي وبعض النساء في القارب الآخر. وكانت رحلة ممتعة، فتوغلوا في البحر دون

أن يشعروا بذلك. وفجأة هجمت عليهم سفينة قراصنة، يمتلكها قرصان مشهور يُدعى "باجانينو دي موناكو"؛ فأسرع القاربان ناحية الشاطئ لينجوا بأنفسهما؛ لكنه استطاع أن يستولي على قارب النساء لأن سرعته لم تكن كبيرة. ولما رأى القرصان الفتاة، راقه جمالها، فطلب أن تُحمل إلى السفينة. وبالفعل، ركبت في السفينة أمام نظر زوجها الذي كان قد وصل إلى الشاطئ. فغضب غضبًا شديدًا، حيث كان غيورًا جدًّا على زوجته، فأخذ يسب ويلعن القراصنة، دون أن يعلم مَن منهم تحديدًا الذي أخذ زوجته.

فرح القرصان "باجانينو" بالفتاة؛ فقد كانت جميلة، ولم يكن متزوجًا. لكن الفتاة كانت تبكي باستمرار، فحاول أن يواسيها بالكلام طيلة النهار. فلما خيّم الليل ووجد أن الكلام لم يأت بنتيجة، قرر أن يستخدم أسلوبًا آخر. وحيث أنه لم يكن لديه تقويم خاص به أيام العطلات التي لا يجامع فيها النساء، فقد جامعها في هذه الليلة بطريقة جعلت الفتاة تنسى القاضي وقوانينه. ثم عاشا في "موناكو" كزوجين في سعادة وهناء. وكان يستخدم هذا الأسلوب في موساتها ليلًا ونهارًا، إلى أن نما إلى علم زوجها مكان وجودها في "موناكو". فقرر أن يذهب إلى هناك، ويفتديها بأي مبلغ من المال. وبالفعل، ركب السفينة، ووصل إلى "موناكو"، ثم رأى زوجته هناك، ورأته هي أيضًا؛ فأخبرت "باجانينو" بالأمر. وفي اليوم التالي، ذهب "ريتشاردو" لمقابلة "باجانينو"، وطلب منه أن يرد إليه زوجته مقابل أية فدية يطلبها، فقال له "باجانينو" مبتسمًا:

-مرحبًا بك، يا سيدي. وحتى لا أطيل عليك، فأنا بالفعل لديَّ فتاة في بيتي، لكني لا أعرف إن كانت زوجتك أم لا. فأنا لم أعرفك من قبل، ولم

أكن أعرفها من قبل هي كذلك. ولأنك يبدو عليك الوقار والحشمة، فسآخذك إليها؛ فإن عرفتك وقالت إنها تود الرجوع معك، فسأتركها تأتي معك، وسآخذ أنا الفدية. أما إذا لم تعرفك، فليس من المروءة أن تأخذ مني هذه الفتاة؛ فأنا في سن الشباب، وأستطيع أن ألبي رغباتها، وخاصةً هذه الفتاة التي لم أر مَن في جمالها.

فقال له السيد "ريتشاردو":

-إنها زوجتي، وستتأكد من ذلك بنفسك، حين تراها تجري نحوي، وتحتضنني حينما تراني.

فقال له "باجانينو":

-إذن، هيَّا بنا.

ثم ذهبا إلى البيت. وهناك، طلب "باجانينو" من الفتاة أن تدخل عليهما حيث يجلسان؛ فدخلت وهي ترتدي ثيابًا أنيقة، واقتربت منهما. لكنها لم تقل شيئًا لـ"ريتشاردو" إلا كما تقول لأي زائر غريب. اندهش القاضي، فقد كان يتوقع أن يتهلل وجهها حين تراه، لكنه قال في نفسه:

-لعل ملامح وجهي قد تغيرت، بسبب حزني عليها، فلم تعرفني. ثم قال لها:

-لقد كلفتني رحلة صيد السمك غاليًا، يا زوجتي؛ حيث كانت سببًا في فقدك، ولم أشعر بحزن من قبل مثل الحزن الذي شعرت به حينها. وأنت الآن تتحدثين معي كأنك لا تعرفينني. ألا تذكرين زوجك "ريتشاردو"؟ لقد جئت إلى هنا لأدفع لهذا الرجل ما يريد من فدية كي تعودي معي.

فالتفتت إليه الفتاة، وقالت، وهي تبتسم:

-هل تحدثني أنا، يا سيدي؟ أنا لا أتذكر أني رأيتك من قبل، حاول أن تتثبت من الأمر.

أجابها "ريتشاردو" قائلًا:

-انظري إليَّ جيدًا، حاولي أن تتذكري؛ أنا زوجك "ريتشاردو دي كينزيكا".

فردت عليه قائلة:

- عذرًا، يا سيدي، لا أستطيع أن أنظر إليك أكثر من ذلك؛ فهذا يتنافى مع عفتي وحيائي. لقد نظرت إليك، وتأكدت أني لا أعرفك.

ظن ريتشاردو أنها ربما تقول هذ الكلام خوفًا من "باجانينو"، فطلب منه أن يلتقي بها على انفراد في إحدى الغرف، فوافق "باجانينو"، شريطة ألا يقبِّلها عنوة. ولما انفردا سويًّا قال لها:

- يا فؤادي، ويا روحي، ويا أملي، أما زلت لا تذكرين زوجك "ريتشاردو" الذي يحبك من كل قلبه؟ هل تغيرت ملامحي إلى هذا الحد؟ أيتها العينان الجميلتان، انظرا إليَّ جيدًا!

فقاطعته الفتاة، وهي تضحك، قائلة:

-أنا لم أفقد ذاكرتي، وأعرف أنك "ريتشاردو دا كينزيكا"، زوجي، لكنك لم تستطع أن تلبي رغباتي واحتياجاتي عندما كنت عندك. ولا أقصد الطعام والملبس، ولم تقدِّر شبابي وجمالي. فإذا كنت تحب القوانين ودراستها، فلم تزوجت إذن؟ ومع ذلك، فأنا لا أراك تصلح قاضيًا، بل تصلح مُنظمًا للأعياد والعطل الرسمية. فلو أنك منحت كل هذه العطل التي فرضتها عليَّ لعمالك في الحقل، لما جنيت منه حبة قمح واحدة. أما هذا الرجل الذي

رزقني به الرب، فلا يعرف الأعياد والعطل، ولا الامتناع عن تلبية احتياجاتي، في أي يوم، سواء كان الجمعة أو السبت أو الأحد، ولا في أي يوم آخر، بدعوى الصلاة أو الصوم؛ بل على العكس، فهو لا يعرف سوى العمل الدائم ليل نهار. ولذلك، فسأظل معه طوال فترة شبابي. أما أيام العطلة والصيام والصلاة، فسأؤجلها إلى وقت الشيخوخة. فارجع واستمر في حساب أيام العطل بمفردك.

حزن السيد "ريتشاردو" حينما سمع كلامها هذا، ثم قال لها بعد أن انتهت:

-يا روحي الغالية، ما هذا الذي تقولينه؟ وشرفك؟ ألا تفكرين فيه؟ أتفضلين أن تعيشي عشيقة لهذا الرجل، وترتكبين معه الخطيئة، على أن تأتي معي وتعيشي زوجةً لي؟ إنه سيطردك شر طردة بمجرد أن يملَّ منكِ، أما أنا فسأحافظ عليك طول العمر. هل تتنازلين عن شرفك لإشباع رغباتك ونزواتك؟ عودي معي يا حبيبتي، وسأحاول تلبية رغباتك.

فأجابته الفتاة قائلة:

-لا أظن أن أحدًا يهتم بشرفي أكثر مني، وأقل الناس اهتمامًا بشرفي هم أهلي الذين زوجوني منك. وبما أنهم لم يهتموا بشرفي حينها، فلن أهتم بشرفهم الآن. وإذا كنتُ أعيش الآن في الرذيلة، فسيأتي زمن وأكفِّر فيه عن خطاياي. فأنا هنا أشعر بأني زوجة، أما في بيتك فكنت أشعر بأني صديقتك، ننظر إلى السماء لنتحرَّى مواعيد الصيام. أما هنا، فإنني أبيت في أحضان "باجانينو"، وهو يداعبني ويلاعبني. أما أنت، فتعدني أنك ستحاول تلبية رغباتي، فما الذي ستحاول فعله، يا ترى؟ حاول أولًا أن تبقى على قيد الحياة

بجسمك النحيل ولونك الشاحب. وأريد أن أقول لك أيضًا، حتى لو ملَّني وطردني، ولا أظنه سيفعل ذلك، فلن أعود إليك وسأبقى هنا، حيث لا يوجد عطل ولا صيام. فانصرف سريعًا من هذا المكان، في أمان الرب. وإن لم تفعل، فسأصرخ بأعلى صوتي، وأقول إنك تجبرني على ما لا أريده.

أدرك "ريتشاردو" حينها أنه أخطأ خطأً كبيرًا حينما تزوج بفتاة شابة، ثم انصرف وهو حزين، وعاد إلى بلدته "بيزا". وعاش هناك بقية حياته، وهو يهذي. وكان كلَّما ألقى عليه أحد التحية، يرد عليه قائلًا:

– ذلك الرجل الشرير لا يعرف العُطل.

ثم مات بعد ذلك بقليل. وعندما وصل خبر موته إلى "باجانينو"، قرر الزواج من الفتاة، ثم عاشا في سعادة وسرور، دون عطل أو صوم، إلى آخر العمر.

ضحك الجميع بعد انتهاء القصة، ووافقوا "ديونيو" في رأيه. وبعد أن انتهى كل واحد منهم من حكي قصته، وكانت الشمس قد قاربت على المغيب، نزعت الملكة التاج عن رأسها، وتوجهت نحو "نيفيله"، ووضعته فوق رأسها قائلةً لها:

–والآن جاء دورك، يا عزيزتي، لحُكم هذا الشعب الصغير.

شعرت "نيفيله" بالخجل لبعض الوقت، واحمرَّت وجنتاها. وبعد أن استقبلت التهنئة والتحية من الجميع، توجهت نحوهم قائلة:

– بما أنني أصبحت الملكة، فلن أتَّبع ما قامت به الملكتان السابقتان. وسأعرض عليكم ما يجب علينا فعله، إن سمحتم بذلك. سيوافق يوم غد الجمعة، كما تعلمون. فسنقضيه في الصلاة لمن تحمَّل الآلام من أجل

خلاصنا. أما بعد غد، يوم السبت، ففيه تقوم النساء بغسل شعورهن، وتنظيف أجسادهن مما تراكم عليها بسبب العمل والإجهاد طيلة أيام الأسبوع، والبعض يصومونه تقديرًا للسيدة العذراء البتول. وسنخصص يوم الأحد للراحة، فلن نحكي قصصًا طيلة هذه الأيام الثلاثة. وأقترح أن ننتقل من هذا المكان، الذي مكثنا فيه لليوم الرابع على التوالي. وحين نعود لرواية القصص يوم الإثنين، أقترح أن يدور موضوعها حول الحظ، وما يحدث للمرء من بلوغ المراد، أو مكسب من تجارة، أو تعويض لخسارة، أو أية قصة ممتعة ومفيدة، على أن يظل "ديونيو" هو آخر من يحكي، كما طلب من قبل.

وافق الجميع على مقترحات الملكة، وأثنوا عليها. ثم أمرت الملكة كبير الطهاة بإعداد العشاء، وأخبرته بما يودون تناوله. ثم سمحت لهم أن يفعل كل منهم ما يحلو له؛ فتوجهوا صوب البستان للتنزه، ثم عادوا ليتناولوا وجبة العشاء. وبعدها، بدأ وقت السَّمر، فعزفت "إيميليا"، وبدأت "بامبيونا" تغني، ويردد الجميع وراءها:

مَن التي يطيب لها الغناء أكثر مني،
وأنا مَن نلت كل ما أبتغي وأشتهي.
هيا معي، أيها الحب، يا منبع بهجتي وفرحتي،
يا أملي، يا هنائي،
تعال معي لنغني،
غناء لا يعرف الأحزان والمآسي،
فبفضلك أضحت المرارة حلاوة في فمي.
لم أعد أرغب في حياة الأشجان،

أريدها تبعد وتندثر لتكون من ورائي،
أدعوك، كما لو كنت أدعو إلهي.

أيها الحب، يا من وضعت أمام عيني،
شابًّا وسيمًا حسن الأخلاق،
لا مثيل له في النبل والشجاعة والإقدام.
أصبتني بلهيب عشق، فأحرقتني،
وها أنا ذا أغني منشرحةً يا سيدي.

أيها الحب، إنه أصل فرحتي،
وأحبه قدر ما يحبني،
والفضل في ذلك يُعزي إليك يا سيدي،
فكل ما تمنيته حققته في دنياي،
وأصبو إلي سلام أبدي في آخرتي،
مؤمنةً بالله، واثقة من أنه سيجمعنا برحمته في ملكوته الأبدي.

انتهت الأغنية عند هذا الحد، ثم تلتها أغنيات ورقصات أخرى عديدة، وعزفوا أطيافًا متنوعة من الموسيقي. وقد انقضت ساعات الليل الأوائل، فما كان من الملكة إلا أن أصدرت أوامرها بذهاب الجميع إلى النوم والراحة، فانطلق كل منهم حاملًا شعلة تنير أمامه، متجها إلى غرفته. ثم كرسوا اليومين التاليين لما تحدثت عنه الملكة في هذا اليوم. حقًّا إنهم ينتظرون حلول يوم الأحد بفارغ الصبر. وهنا أسدل الستار علي اليوم الثاني.

اليـوم الثَّـالث

انتهى اليوم الثاني من الديكاميرون، ويبدأ هنا اليوم الثالث، تحت حكم الملكة "نيفيله". ويجري فيه الحديث حول مَن تمكن من الحصول على شيء رغب فيه، أو استعاد شيئًا مفقودًا، عن طريق حيلةٍ ما.

بعد بداية بزوغ فجر يوم الأحد، وكانت الشمس قد ظهرت بلونها البرتقالي، استيقظت الملكة، وكان يوم أحد، وأيقظت الآخرين، وأمرت القهرمان بأن يسبقهم إلى المكان الذي سيجلسون فيه، وحمل ما سيحتاجون إليه من أمتعة. كانت الملكة تسير في المقدمة بخطى بطيئة، وتتبعها الفتيات والشبان الثلاثة، متوجهين نحو الغرب، على طريق ضيق مغطى بالعشب الأخضر والأزهار، التي بدأت تتفتح حينما أخذت حرارة الشمس في الاشتداد، حيث ينتشر في المكان تغريد البلابل والطيور. كانوا يمضون

فرحين وهم يغنون ويضحكون، إلى أن وصلوا، بعد أقل من ألفي خطوة تقريبا، إلى قصر منيف وبديع يقع فوق ربوة عالية، فدخلوا إليه تتقدمهم الملكة وتجولوا بداخله، معجبين جميعهم بالقاعات الفسيحة، والحجرات النظيفة المنسقة؛ فأثنوا على صاحب ذلك المكان. ثم انتقلوا بعد ذلك إلى فناء القصر وكان به الكثير من أقبية النبيذ والمياه العذبة الباردة التي تخرج من أحد الينابيع؛ فجلسوا في فناء القصر ومن حولهم الورود الجميلة حتى جاء القهرمان، فقدم لهم أصنافًا من الحلوى والنبيذ. ثم قاموا بنزهة في الحديقة، متأملين كل شيء بدقة. كانت تتخلل تلك الحديقة ممرات واسعة، تغطيها عرائش العنب. وكانت أشجار العنب مزدهرة، بما يوحي بأن محصول نبيذها في ذلك العام سيكون وفيرًا. وكانت الروائح زكية، حتى ليخيل إليهم أنهم في الشرق. كانت الأشجار كثيرة، وكذلك الزهور؛ فهناك ورود بيضاء، وياسمين. وفي منتصف الحديقة مرج صغير أخضر، تنمو فيه أنواع مختلفة من الزهور، ويحيط به سياج من أشجار الأرز وأشجار البرتقال بثمارها وأزهارها، التي لا تروق رؤيتها فقط للعين، بل يحلو طيب عبيرها للأنف. ويوجد في منتصف هذا المرج نبع من المرمر ناصع البياض، ذو نقوش عجيبة، ولا ندري أهو من صُنع الطبيعة أم هو عمل بشري؛ حيث تتدفق منه المياه الكثيرة لأعلى نحو السماء، ثم تعود بشكل بديع لتسقط في قاع النبع الصافي الشفاف. وتنساب المياه خارجةً من المرج في قنوات صغيرة جميلة وصناعية، حيث تصبح واضحة، ثم تتجمع هذه القنوات الصغيرة- المتشابهة والمنحدرة من جميع نواحي الحديقة- عند مخرج الحديقة، منحدرة بقوة نحو الوادي، بشكل جلي وبديع. وقد أُعجب كل من السيدات والشبان الثلاثة كثيرًا بهذه الحديقة،

وبتناسقها البديع ونباتاتها، وبالنافورة التي تنساب منها الجداول، مما جعلهم يؤكدون أنه إذا ما كانت هناك جنة أرضية، فلن يتخيلوا أن تكون أكثر جمالًا من هذه الحديقة. كان الجميع سعداء راضين، بعد أن بعث مرأى تلك الحديقة في نفوسهم متعة كبيرة، وأخذوا يصنعون أكاليل من أغصان الزهور، ويستمتعون بالاستماع إلى تغريد الطيور. وبعد مسيرة طويلة، نصبوا بعض الموائد، وأمرت الملكة بإحضار الطعام. وطلبت من الجميع أن يتذوقوا أصنافه المتنوعة. وبعد ذلك، وعند انتهائهم من تناول الطعام، تركوا المائدة، وواصلوا الغناء، إلى أن أجبرتهم شدة الحر إلى الذهاب لنوم القيلولة. إلا أن بعضهم فضل البقاء للاستمتاع بجمال المناظر، وراح بعض هؤلاء يقرأون قصص الفروسية، والبعض الآخر يلعب الدومينو والشطرنج. وعند التاسعة، استيقظ النائمون، واجتمعوا كعادتهم بالقرب من النافورة كما تفضل الملكة، مستعدين لحكاية قصصهم حول الموضوع الذي تم اقتراحه من قبل الملكة. وكان أول من أمرته الملكة بالكلام "فيلوستراتو" الذي بدأ كالتالي:


https://telegram.me/maktabatbaghdad

القصــة الأولــى

يدَّعي "مازيتو دي لامبوريكيو" أنه أبكم، ويصير بستانيًّا في دير راهبات، فيتنافسن على مضاجعته.

سيداتي الجميلات، هناك العديد من الرجال والنساء البلهاء، الذين يظنّون أن المرأة، لمجرد أن يضعوا لها حجابًا أبيض على رأسها، ويجعلونها ترتدي رداء الرهبنة الأسود، فهي بذلك لا تعود تشعر بعد بالرغبات الأنثوية، كما لو أنها- عند تحولها إلى راهبة- تتحول كذلك إلى حجر. وعند سماعهم ما يخالف ذلك، يتكدرون ويغضبون، كأن إثمًا كبيرًا قد اقتُرف. ويعتقد هؤلاء كذلك أن أعمال الحقل، والتقشف بالاكتفاء بأكل الخضار فقط، والعمل المنهك، يقضي تمامًا على شهوات الجسد. إلا أن ظنهم هذا خاطئ، وهو ما أريد أن أبرهن عليه من خلال هذه القصة.

ففي بلادنا هذه ثمةَ دير للراهبات مشهور بقداسته، ولن أبوح باسمه، حتى لا يفقد سمعته. كانت تقطن في هذا الدير، منذ زمن ليس بعيدًا، رئيسة الدير ومعها ثماني نساء، كلهن يافعات، وبستاني يعتني بالحديقة، غير أنه لم يكن راضيًا عن الأجر الذي يعطينه له؛ فسوَّى حسابه معهن، وعاد إلى

قريته في "لامبوريشيو".

وكان بالبلدة فلاح شاب، قوي البنية متسق القوام، يدعى "مـازيتو"، أراد أن يعرف من البستاني طبيعة عمله في ذلك الديـر؛ فقـال البـستاني: كنـت أعمل في حديقة جميلة وكبيرة، وأذهب لأحتطـب في الغابـة، وأحـضر المـاء، وأؤدي أعمالًا أخرى مماثلة. لكـن الأجـر زهيـد للغايـة، إلى الحـد الذي لا يكفي حتى لشراء حذاء. وبالإضافة إلى ذلك، فلم يكن شيء ممـا أقـوم بـه يحظى برضاء تلك الراهبات الشابات، وكأن الـشيطان قـد تلبـسهن؛ حيـث كن يقضين سحابة يومهن مرددين "ضع هذا هنا، وضـع هـذا هنـاك"؛ ثـم يقلن بعد ذلك: "هذا ليس في مكانه المناسب"، فأرهقني ذلك كلـه، فتركـت العمل. وقد طلب مني الوصيف- الذي يحرس بوابة الدير- أن أبحـث له عـن شخصٍ ما يحسن هذا العمل، وأرسله إليه، فوعدته بذلك. ولكني لا أفكـر في إرسال أحد إليه.

عندما سمع "مازيتو" هذا الكلام، رغب في الحصول على ذلك العمل، ليكون فرصة لتحقيق رغباته. لكنه كان حذرًا، وقال لصديقه: لقد أحسنت صنعًا أن عدت، فما عساك كرجل أن تفعله بين النساء؟ إن العيش مع إبليس نفسه أفضل من العيش معهن؛ فهن- في الغالب- لا يعرفن ما الذي يردنه.

قام "مازيتو"، بعد ما سمعه من صديقه "نوتو"، بوضع خطة للالتحاق بذلك الدير؛ وكان يتقن حرفة صديقه. وحيث أنه شاب بهي الطلعة، خشي ألا يقبلوا به. ففكر قائلًا لنفسه: "لا أحد يعرفني في هذا المكان البعيد. لذا، فيمكنني التظاهر بأنني أبكم، وهكذا يقبلونني".

وذهب متنكرًا كرجل فقير إلى الدير، وقابل هناك الوصيف المشرف على أعمال الدير، وطلب منه بالإشارات، أن يتصدق عليه، عارضًا عليه تقطيع الحطب. فقدم له الوصيف طعامًا، ثم أشار إلى جذوع حطب لم يستطع "نوتو" تقطيعها، فقطعها له في الحال. ثم سار به بعد ذلك إلى الغابة لتقطيع المزيد من الحطب، وطلب منه بعد ذلك أن يحمل الحطب على حمار، وأرسله مع الدابة إلى الدير. احتبسه الوصيف معه لعدة أيام ليساعده في أداء بعض الأعمال. وفي هذه الأثناء، رأته رئيسة الدير، وسألته عنه. فقال الوصيف: إنه أصم أبكم فقير يا سيدتي، طلب مني صدقة، فكلفته ببعض الأعمال، ويمكنه البقاء هنا، إذا كان يحسن صيانة البستان؛ فهو قوي البنية. وأعتقد أن وجوده معنا سينفعنا. ولن يمثل وجوده أية مشكلة، لأنه لا يستطيع التحدث إلى راهباتك.

وافقت رئيسة الدير، وقالت: صحيح ما تقوله؛ لذا حاول أن تقنعه بالبقاء. أعطه حذاءً وثوبًا قديمًا، وقدم له الطعام.

فوعدها الرجل بعمل ذلك. وكان "مازيتو" قد سمع كل شيء، وقال لنفسه:

- "سأعتني ببستانكن مثلما لم يعتن به أحد من قبل".

كانت الطريقة التي يعمل بها "مازيتو" تسعد كثيرًا الوصيف؛ فسأله- باستخدام الإشارات- ما إذا كان يود البقاء هناك. فرد عليه "مازيتو" بهز رأسه بالموافقة، وكلفه بالعمل في البستان، إضافة إلى واجبات أخرى.

بدأت الراهبات في مضايقة "مازيتو". ولاعتقادهن بأنه أبكم، كن يقلن له الكثير من الكلمات المشينة. وفيما كان يستريح، في أحد الأيام، بعد أن عمل طويلًا، ظنت راهبتان أنه نائم، فقالت إحداهن لصديقتها:

-سوف أبوح لكي بفكرة تطرأ لي أحيانًا، ويمكن لكِ أيضًا الاستفادة منها، شريطة ألا تخبري أحدًا.

فقالت الصديقة: أخبريني، ولن أقول شيئًا لأحد.

فقالت لها الجريئة: ألم تفكري في حياة الزهد والتقشف التي نعيشها، فهنا لا يمكن دخول أي رجل، باستثناء الوصيف، لأنه عجوز جدًّا، وهذا البستاني، لأنه أبكم. وقد سمعت نساءً يقلن إن أعظم المتع كلها هي متعة النوم مع الرجال. وقد فكرت في أن أجرب ذلك مع الأبكم، لأني لا أستطيع عمل ذلك مع آخرين، حيث أن هذا الأبكم هو أفضل شخص يمكننا تجريب ذلك معه، لأنه لا يستطيع أن يقول شيئًا. فما رأيك؟

فردت صديقتها: لقد نذرنا عذريتنا للرب، فما هذا الذي تقولينه؟

فقالت الأولى: وكم من النذور تُنذر له كل يوم، ولا أحد يفي بها!

- وماذا لو حبلنا؟ استفسرت من هي أكثر حذرًا.

فردت عليها صديقتها: إنك تفكرين بالشر قبل وقوعه. عندما يحدث ذلك، سنتدبر أمرنا. ولسوف نجد له ألف حل، ولن يعلم بذلك أحد.

عند سماع الأخرى لهذا الكلام، اشتعلت الرغبة بداخلها- أكثر من الأولى- في معرفة أي حيوان يكون هذا الرجل. ثم قالت: حسنًا، وكيف سنفعل ذلك؟

فقالت الأولى: لابد أن الراهبات جميعهن نائمات الآن في ساعة العصر. فلنتأكد من عدم وجود أحد في الحديقة. وبعدها، سنقوم فقط بالإمساك بهذا الرجل، واقتياده إلى الكوخ المجاور للينبوع. وبينما تكون إحدانا نائمة

معه، تقوم الأخرى بالمراقبة. وحيث أنه أبله، فسوف يفعل ما نريد.

وعندما نظرتا في كل الاتجاهات، وتأكدتا من أنه ليس هناك مَن يراهما، توجهت الجريئة منهما إلى "مازيتو"، الذي كان يسمع كل شيء، ومستعدًّا للانصياع. وأيقظته برفق، ثم أمسكت بيده بينما هو يضحك ببلاهة. وقادته إلى الكوخ، حيث فعل "مازيتو" ما أرادته منه بجدارة، ودون حتى أن يدفعها إلى طلب ذلك منه. وحيث أن الراهبة رفيقة مخلصة، فقد بادرت مسرعة بعد ذلك باستدعاء رفيقتها. وقام "مازيتو" بواجبه تجاهها أيضًا. وقبل أن يتركاه، عاودتا تجريبه مرةً أخرى، واتفقتا على أنه ألذ شيء في الوجرد. ومنذ ذلك الحين، صارتا تنتهزان الفرص المناسبة، وتذهبان للنوم مع البستاني. غير أنه في أحد الأيام، رأتهما إحدى الراهبات من نافذة حجرتها، وأرتهما إلى رفيقتين لها. فقررن- في البداية- الذهاب إلى رئيسة الدير وإخبارها بأمرهما، لكنهن سرعان ما غيرن رأيهن، واتفقن مع الراهبتين، وصرن شريكات يتقاسمن معهما التمتع بقدرات "مازيتو". وبينما كانت رئيسة الدير، التي كانت جاهلة بكل ما يجري، تتمشى في الحديقة ذات يوم قائظ، رأت "مازيتو" مستلقيًا تحت شجرة، لكثرة ما ينهك نفسه بالامتطاء ليلًا. وكانت الريح قد رفعت ثيابه، وكشفت كل شيء، فأصابها هي الأخرى من الإغواء ما أصاب راهباتها؛ فأيقظت "مازيتو" وأخذته إلى غرفتها، واحتبسته هناك عدة أيام، الأمر الذي تسبب في كدر راهباتها وتذمرهن. ذلك أن البستاني لم يعد يخرج ويفلح حديقتهن. أما رئيسة الدير، فكانت تتذوق الحلاوة التي كانت تستنكرها أمام الراهبات؛ إلا أن "مازيتو" لم يعد بإمكانه إرضاءهن جميعهن. وأدرك أن استمراره على بُكمه سيسبب له ضررًا كبيرا، فقال لرئيسة الدير في

إحدى الليالي: يقولون يا سيدتي إن ديكًا واحدًا يكفي لعشر دجاجات، ولكن لا يمكن لعشرة رجال أن يكفوا امْرأةً واحدةً؛ وأنا أقوم على خدمة تسع سيدات، وهو ما لم أعد قادرًا على تحمله؛ ولهذا، إما أن تسمحن لي بترك عملي والمغادرة، أو تجدن حلًّا لهذا الأمر. فذهلت رئيسة الدير عندما سمعته يتكلم، وقالت: ما هذا؟ كنت أظنك أبكم.

فقال لها "مازيتو": سيدتي، لقد كنت أبكم، وهو شيء لم أولد به، وإنما بسبب علة أصابتني وأفقدتني النطق الذي استعدته هذه الليلة. وهو ما أشكر الرب عليه.

فصدقته رئيسة الدير؛ لكنها سألته ما الذي يقصده بقيامه على خدمة تسع نساء. فأخبرها "مازيتو" بكل شيء؛ فلم تسمح لـ"مازيتو" بترك عمله، بل قررت أن تتوصل إلى تفاهم مع راهباتها في هذا الأمر، كي لا يذهب "مازيتو" ويشوه سمعة الدير. وكان الوصيف قد توفى في تلك الأيام، فأوضحت الراهبات للناس أن صلواتهن وكرامة القديس شفيع الدير قد أعادت النطق إلى البستاني الأخرس. ثم قمن بتعيينه بعد ذلك وصيفًا، ونظمن عمله فيما بينهن، بحيث صار بإمكان الرجل إرضاؤهن جميعًا.

ومع أنهن أنجبن الكثير من الراهبات الصغيرات، إلا أن أحدًا لم يعرف شيئًا عن ذلك، حتى موت رئيسة الدير. عندئذ كان "مازيتو" قد صار عجوزًا وغنيًا وأبًا لأبناء لم ينشغل بأمر إعالتهم والإنفاق عليهم، فعاد إلى بلده التي لم يكن معه حين خرج منها سوى فأس يحملها على كتفه، ليؤكد أنه هكذا يعامل المسيح كل من يتنازل عن شرفه.

القصــة الثَّــانية

يضاجع سائس خيل زوجة الملك "أجيلولف"، فيكتشف الملك ذلك، فيبحث عن الرجل ليلًا ويقص شعره. لكن السائس ينجو من العقاب، عندما يقص شعر الجميع.

بعدما انتهى "فيلوستراتو" من قصته، التي كان لها بالغ الأثر في النساء اللاتي احمرت وجوههن خجلًا، وجعلتهن يضحكن كثيرًا، رأت الملكة أن تواصل "بامبينيا" الحديث؛ فبدأت هذه الكلام بوجه بشوش قائلة:

ثمَّة أناس ينقصهم الذكاء، عندما يريدون أن يبرهنوا على أنهم يعرفون ما لا يمكنهم أن يعرفوه. وهم بهذا، حين يعاقبون الآخرين على جرائمهم التي لم ينتبه إليها أحد، يظنون أنهم قد غسلوا عارهم؛ بينما هم في الحقيقة يزيدونه حجمًا. ومع أن هذا صحيح، فإنني سأثبته من خلال قصة ملك أقل مكرًا من "مازيتو".

أقام "أجيلولف"، ملك اللونجوباردين، مقر مملكته في مدينة "بافيا"، في إقليم "لومبارديا"، مثله في ذلك مثل سابقيه. وتزوج من "تيوديلينجا"، أرملة "أوتاري" الذي كان ملكًا على اللونجوباردين قبله. وقد كانت امرأة باهرة

الجمال، حصيفةً عفيفة، لكنها قليلة الحظ في الغرام. وبينما كانت أحوال اللونجوباردين تزدهر ويعيشون بسلام، تحت القيادة الباسلة والحكيمة للملك "أجيلولف"، حدث أن أحد سائسي خيول تلك الملكة، وهو رجل وضيع المقام، لكنه متفوق في عمله، ويتصرف كالملوك في سلوكه، قد أغرم بهًا؛ غير أنه لم يكن قادرًا، بسبب وضعه، على التصريح لها بذلك الحب. فقرر إخفاءه، دون أي أمل في أن يبلغ مراده. وكان يواسي نفسه- مع ذلك- متباهيًا بأنه يحب سيدة عالية المقام. وكان يسعى جاهدًا لإرضائها بكل ما يستطيع؛ وكانت هي تفضل سائسها على كل الخدم الآخرين، فيشعر هو بالسعادة إذا لمس أثوابها يومًا ما. إلا أنه كلما تضاءلت الآمال غالبًا ما تزداد نار الحب تأججًا. وهذا ما حدث للسائس المسكين، حتى راح يفكر في أن الموت هو الحل، وقرر الإقدام على ذلك بطريقة تعلم منها محبوبته أنها السبب في موته. لكنه فكر أولًا في أن يتدبر حيلة للظفر بالنوم معها قبل أن يموت. ولم يجد سبيلًا لذلك إلا أن يلجأ إلى أن يتقمص هو دور الملك؛ فراقبه كيف يدخل إليها، كي يقلده. وراح يختبئ كل ليلة وراء ستارة، إلى أن رأى الملك في إحدى الليالي متوشحًا بعباءةٍ كبيرةٍ، يحمل مشعلًا مضاء في إحدى يديه، وعصًا في يده الأخرى. وعند وصوله إلى مخدع الملكة، طرق الباب بالعصا، فانفتح الباب على الفور، وأخذ المشعل من يده. وعندما تكرر حدوث هذا مرات عديدة، تكونت لدى صاحبنا فكرة عن الطريقة التي يجب عليه اتباعها؛ فأوصى بصنع عباءة مشابهة لعباءة الملك، وأتى بمشعل وعصا، واغتسل جيدًا كي يزيل عن جسمه روائح الروث، وانتظر في بهو القصر. وعند تأكده من أن الجميع قد خلدوا إلى النوم، قرر الشروع في تنفيذ خطته؛

فأشعل المشعل، ثم ذهب وطرق الباب مرتين بالعصا، وهو ملتف بالعباءة. ففتحت الباب خادمة يغلب عليها النعاس، فأعطاها المشعل، ودنا من سرير الملكة ونام بجوارها. احتضنها بين ذراعيه بلهفة، دون أن يقول لها أو تقول له شيئًا. وضاجع الملكة مرات عديدة، ولم يكن راغبًا بالمغادرة. لكنه حين فكر بتعقل، نهض من السرير، وتناول العباءة، وأخذ المشعل ورجع إلى فراشه مسرعًا. نهض الملك بعد ذلك بقليل، وذهب إلى مخدع الملكة. فذهلت المرأة وقالت له:

– ماذا حل بك الليلة، يا مولاي؟ لقد تركتني منذ قليل، بعد أن أمتعتك أكثر مما هو معتاد، وإذا بك ترجع الآن من جديد. فانظر إلى ما تفعله.

أدرك الملك الحصيف أنه تم خداعها، وأن أحدًا ما قد تقمَّص شخصيته؛ إلا أنه عندما رأى أن الملكة لم تدرك ما حدث لها، أخفى الأمر كي لا تفطن إلى ذلك. قد يتخذ كثيرون من الأغبياء سلوكًا آخر، فيقولون لزوجاتهم: أنا لم أكن هنا، فمن الذي كان معك؟ كيف حدث ذلك؟ ومَن ذلك المجرم؟ وغير ذلك مما ينتج عنه أشياء كثيرة؛ فقد تغضب الزوجة، وقد ترغب ثانيةً في مضاجعة ذلك الرجل، بعد أن أفتضح أمرها. فقال لها الملك بهدوء:

– ألا ترين أني قادر على أن أكون معك، ثم أعود إليك ثانيةً، يا امرأة؟

– بلى يا مولاي؛ ولكني أرجوك أن تراعي صحتك.

فقال الملك: سوف آخذ بنصيحتك، وسأغادر كي لا أسبب لك مزيدًا من الإزعاج.

وتناول عباءته، وذهب وقد تملكه الغضب وتعكر مزاجه. وقرر أن

يبحث، بتكتم عن المذنب، متخيلًا أنه لابد أن يكون ممن يعيشون في القصر، وأنه لم يتسن له بعدالخروج من القصر. فأمسك بأحد المصابيح، وتوجه إلى قاعة كبيرة تقع فوق حظائر الخيل، حيث ينام الخدم جميعًا. وفكر في أن نبض الفاعل وقلبه لابد أن يكونا مضطربين، لقصر الوقت المنقضي على الواقعة. وبكل تكتم، راح يلمس صدور الجميع ليكتشف الفاعل، وكانوا جميعًا مستغرقين في النوم، ماعدا السائس الذي ارتجف حين رأى الملك، وازدادت سرعة ضربات قلبه. فتظاهر بالنوم، وانتظر ما سوف يحدث. وعندما وصل الملك إليه، ولاحظ اضطراب نبضه، قال لنفسه: "هذا هو الفاعل". ولأنه لم يشأ أن يثير أية فضيحة، فقد تناول مقصًّا كان معه، وقصِ جزءًا من شعر الرجل في جانب من رأسه. وكان الرجال في ذلك العصر يطيلون شعورهم. وقرر العودة إلى حجرته، موقنًا من أنه- في اليوم التالي- سيتعرف على الفاعل. إلا أن السائس كان شديد الدهاء، وأدرك سبب قص شعره، فلم ينتظر طويلًا، بل نهض من فراشه، وقص شعر جميع النائمين بنفس الطريقة التي فعلها الملك، وهو الجزء الذي فوق آذانهم، دون أن يشعر به أحد، وعاد للنوم.

وفي صباح اليوم التالي، أمر الملك الجميع بالمثول أمامه. فتفاجأ حين رآهم جميعًا مقصوصي الشعر بنفس الطريقة التي قص بها شعر الرجل، فقال لنفسه: "قد يكون مَن أبحث عنه وضيع المكانة، ولكنه شديد الذكاء". ورأى أنه لن يستطيع اكتشافه دون إثارة فضيحة. فقرر أن يوبخه وأن يوضح له، بكلمات قليلة، أنه قد كشف أمره، فوجه كلامه للجميع قائلًا: على الفاعل ألا يعود إلى فعلته مرةً أخرى، وانصرفوا في أمان الله.

ولو أن أحدًا آخر مكانه لقام بتعذيبهم واستجوابهم إلى أن يكتشف الفاعل، ثم ينتقم منه شر انتقام؛ لكنه لم يقم بتعذيبهم أو استجوابهم، كي لا يُساء إلى شرف زوجته. تعجب مَن كانوا لا يعرفون شيئًا مما حدث، وتبادلوا الحديث فيما بينهم عما عناه الملك بقوله. ولم يفهم أحدٌ منهم شيئًا من ذلك، باستثناء صاحب الشأن. ولأنه كان ذكيًّا، فلم يستطع الملك اكتشافه طوال حياته، ولم يعد هو ثانيةً إلى تعريض نفسه لذلك الخطر.

القصـة الثّالثـة

تخدع امرأة كاهنًا عن طريق الإعتراف، وتجعله يجمعها بمعشوقها الشاب دون أن يدري، لتشبع رغباتها.

صمتت "بامبينيا" بعدما أنهت قصتها، التي امتدح فيها الجميع مكر السائس وجرأته، وكذلك تفكير الملك؛ فتوجهت الملكة إلى "فيلومينا" وأمرتها بأن تواصل، فبدأت قائلة:

سأحكي لكم عن امرأة أقدمت على التلاعب براهب، وهو ما سيبهج الملحدين بأكثر مما يبهج أولئك الذين هم غالبًا ما يتسمون بالغباء وقلة الذوق، لكنهم يظنون أنهم أفضل من الآخرين؛ ومع أنهم أدنى، فإنه ليس لديهم ما يستمتعون به كغيرهم من الرجال، سوى الانكباب على الطعام، إذا استطاعوا، مثلهم مثل الخنازير. وهذا- يا صديقاتي العزيزات- يبين لكُنّ أن رجال الدين الذين نوليهم ثقة كبيرة، يمكن أن يكونوا دمية، ليس بيد الرجال وحدهم، وإنما النساء أيضًا.

فمنذ سنوات، كانت تعيش في مدينتنا- المليئة بالخداع أكثر منها بالحب والوفاء- سيدة جميلة ومهذبة؛ إلا أنها كانت في الوقت نفسه شديدة المكر

والدهاء. لن أذكر اسمها ولا أسماء غيرها، لأن بعضهم ما يزال على قيد الحياة، وسوف يغضبه ذلك؛ في حين أنه أجدر به أن يضحك لا أن يغضب. وكانت تلك المرأة النبيلة متزوجة من صانع حرفي، لكنه ثري. ولأنه ليس له في أي شيء سوى الأقمشة وأنواعها، ولا يهتم بها، فقد أصرت على تجنب معاشرته، والبحث عمن يرضيها ويستحقها عن جدارة. فاستهوت رجلًا رفيع النسب، متوسط السن، أغرمت به وملأ حبه كل جنبات قلبها؛ فكانت لا تجد سبيلًا إلى الراحة في الليل، إذا هي لم تره في النهار. ولم يكن الرجل يعرف شيئًا من ذلك، لكنها قررت- لحرصها وحذرها- ألا ترسل إليه خادمة أو رسالة للتواصل معه. وقد لاحظت أن ثمَّة علاقة صداقة تربط بين الرجل وأحد الكهنة، فقررت أن تجعل من الكاهن وسيطًا بينها وبينه. فذهبت إلى الكنيسة، وطلبت استدعاءه لتفضي إليه بالاعتراف. فجاء الكاهن، ورأى أنها سيدة نبيلة؛ فأصغى إليها. وبعد أن انتهت من الاعتراف، قالت له:

-لقد جئت إليك، يا أبونا، طلبًا للنصح والعون. فأنت تعرف أسرتي وزوجي الذي يحبني، ويقدم لي كل ما أشاء، ولهذا أحبه أكثر من حبي لنفسي، وأشعر نحوه بالامتنان. وإذا ما فكرت في شيء غير إرضائه، فلن تكون هناك مخطئة تستحق النار أكثر مني. غير أن هناك شخصًا، أجهل اسمه في الحقيقة، لكنه يبدو سيدًا وجيهًا، ويتردد عليك بكثرة إذا لم أكن مخطئة. وهو أنيق ممشوق القوام، يرتدي ملابس سوداء فاخرة، ويبدو أنه يحاول إغوائي، لدرجة أنني لا أطل من النافذة أو الباب إلا وأجده أمامي. وهذا شيء يؤلمني، لأنه قد يشوه سمعتي. وقد فكرت في إخبار إخوتي، لكن الرجال عادةً ما يحولون الكلام إلى أفعال. ولتجنب الفضائح، قررت أن أخبرك أنت يا أبونا. ولأنه

صديقك، فأرجو منك أن تلفت نظره، وأن تنزع هذه الفكرة من رأسه. فربما يمكنه العثور على نساء أخريات يقبلن بهذه الأمور. أما أنا، فيسبب لي أشد الضيق والغضب.

وبمجرد أن انتهت من كلامها هذا، طأطأت رأسها، متظاهرةً بأنها توشك على البكاء. صدَّق الراهب كل ما قالته السيدة، وعرف على الفور مَن هو الشخص الذي تحدثت عنه. وبعد أن أطرى عفة المرأة، وعدها مؤكدًا أنه سيقوم بعمل ما يجب كي لا يعود ذلك الرجل إلى مضايقتها. ولعلمه بأنها امرأة غنية، فقد ذكرها بأعمال الخير، وما عليها من صدقات؛ فقالت له السيدة: أتوسل إليك، إذا ما أنكر هذا الرجل ما أخبرتك به، فلا تصدقه، وقل له إنني أنا من أخبرتك بنفسي، وإنني غاضبة من تصرفه هذا.

بعد الانتهاء من الاعتراف، وحصولها على المغفرة، تذكرت المرأة ما قاله الكاهن عن الصدقات، فملأت يده بالنقود، راجيةً منه أن يصلي لأرواح موتاها. ورجعت بعد ذلك إلى بيتها.

عندما ذهب الرجل المعني لزيارة الكاهن، لفت هذا نظره حول سلوكه مع المرأة. فاستغرب الأمر بالطبع، لأنه لم ينظر إليها قط، ونادرًا ما مرَّ من أمام بيتها. لكن الكاهن لم يتح له فرصة الحديث، مضيفًا: دعك من التجاهل، وإضاعة الوقت في الإنكار، فليس الجيران مَن أخبروني بالأمر، وإنما المرأة نفسها. وهذا غير لائق، والمرأة تتجنب مثل هذه الأمور. فأرجوك أن تبتعد عنها وتدعها وشأنها.

كان الرجل أذكى من الراهب، ففهم ألعوبة المرأة، فتظاهر بالخجل أمامه، واعدًا إياه بعدم العودة إلى النظر إليها؛ ثم ذهب إلى بيت السيدة التي كانت

تطل من نافذتها. وحين رأته أشرقت أساريرها. وعرف هو عندئذ أن ظنه بمكرها كان صحيحًا. ومنذ ذلك اليوم أخذ يمر من الطريق نفسه عدة مرات، كما لو أنه ذاهب إلى شأن آخر. ولكي تؤكد المرأة على الأمر، ذهبت باكية إلى الكاهن مرة أخرى، وقالت له:

– أبونا، إن الرجل الذي حدثتك عنه منذ أيام، مازال يلح عليَّ بطريقة لو استجبت معه إلى ما يبتغيه، لما عاد بإمكاني النظر إلى وجه أحد من الناس.

فقال الراهب: أولم يتوقف عن فعله؟

فأجابت المرأة: لا، يا أبونا، لم يتوقف؛ بل إنه غضب غضبًا شديدًا بعد أن أخبرتك، وأصبح يمر من أمام بيتي أكثر مما كان يفعل من قبل. وبلغت به الوقاحة أن أرسل لي يوم أمس امرأة لتحدثني عنه، وتسلمني كيس نقود وحزامًا منه؛ فأعدتهما إلى المرأة وطردتها من البيت. ولأنني خشيت أن يحتفظ بهما، ويقول إنني مَن أرسلتهما إليه، وهي أمور يفعلونها كما هي العادة، ناديتها مرةً ثانية، واختطفت الهدايا من يدها وأنا غاضبة. وها هي معي، كي تعيدها بنفسك إليه. وأود أن أنبهك يا أبونا، إذا هو لم يتوقف عن مسعاه، فسوف أخبر زوجي؛ لأنني أفضل أن يصاب هو بالأذى، على ألا تتلطخ سمعتي.

وصاحب أقوالها هذه سيلٌ من الدموع؛ ثم أخرجت من تحت ثوبها كيس نقود بديع وحزامًا ثمينًا، وألقت بهما إلى حضن الراهب، فصدق كل ما قالته المرأة، وأجابها قائلًا:

– أنا لا أستغرب، يا ابنتي، غضبك من هذه الأمور؛ ولا ألومك على ذلك،

وأمتدح اتباعك نصائحي. لقد حذرت ذلك الرجل، لكنه لم يطعني. ولسوف أوبخه توبيخًا شديدًا حتى يكف عن مضايقتك. إنني أباركك، فلا تستسلمي للغضب، وتخبري أهلك بالأمر. وأنا سأكون شاهدًا، أمام الرب والناس، على طهارتك.

تظاهرت المرأة بالرضى، وغيرت الحديث قائلةً، وهي تعرف جشع الكاهن:

-لقد ظهر لي في المنام أقاربي الموتى، وكان بعضهم في حزن شديد ويطلبون صدقات، لاسيما أمي. أظن أنها تتألم لرؤيتي في هذا الوضع الذي أدخلني فيه عدو الرب. وأريد منك أن تتلو على روحها صلوات القديس "جريجوريو" الأربعين وصلواتك، عسى الرب أن يخرجها من الألم الذي هي فيه.

وأثناء ذلك، وضعت في يده فلورينا ذهبيًا، فابتهج الراهب الذي باركها، وودعها بكلمات طيبة، وأثنى على تقواها. ودون أن ينتبه إلى الخدعة، استدعى صديقه ثانيةً، ووبخه بغضب؛ فأنكر الرجل مسألة الحزام، فقال له الراهب:

-كيف يمكنك الإنكار، أيها الخبيث؟ انظر، فقد أعطتنيه المرأة بنفسها، وهي تبكي.

فتظاهر الرجل بالخجل الشديد، وقال:

-أعترف بذنبي، وبأنني أخطأت. وأقسم لك أن هذا الأمر سينتهي، ولن تسمع من المرأة شكوى بعد اليوم.

وبعد أن تجاذبا أطراف الحديث، سلمه الراهب كيس النقود والحزام. أما

الرجل الذي تأكد تمامًا من حب السيدة له، فتوجه إليها خفيةً، ليعلمها أن الهدايا معه. فابتهجت المرأة بذلك، حيث أن خطتها تمضي من جيد إلى أفضل، ولم تعد تنتظر سوى غياب زوجها؛ وهو ما حدث بعد ذلك بقليل، عندما اضطُر الزوج إلى السفر إلى "جنوة". وما إن ابتعد، حتى ذهبت إلى الراهب، وقالت باكية:

– لقد نفد صبري، ولم أعد أستطيع تحمل المزيد، يا أبونا، وسأخبرك بما فعله صديقك، أو ذلك الشيطان. ففي صباح اليوم، وبعد أن علم أن زوجي قد سافر إلى "جنوة"، دخل عند الفجر إلى حديقة بيتي، وتسلق إحدى الأشجار، محاولًا الدخول إلى غرفة نومي. لكنني نهضت فزعة، وهممت بالصراخ لاعتقادي أنه لص. لكنه طلب مني الصفح عنه، وتوسل بالرب وتوسل بك كي لا أفضحه. وعرفني بنفسه ومَن يكون، فامتنعت عن الصراخ إكرامًا لك يا أبونا. وأسرعت وأنا عارية– مثلما ولدتني أمي– وأغلقت النافذة في وجهه، فانصرف. لا أستطيع أن أتحمل هذا الوضع، فقد عانيت بما فيه الكفاية منه.

لم يعرف الراهب ماذا يقول لها، فسألها إن كانت واثقة أنه هو الرجل نفسه، فأجابته المرأة: تبارك الرب! وكيف لي ألا أميزه عن أي رجل آخر؟ أقول إنني رأيته هو، وإذا ما أنكر فلا تصدقه.

فقال الراهب:

– لم يعد لديَّ ما أقوله لك يا ابنتي سوى أن هذا فعل مشين، وأنك فعلت ما يتوجب عليك فعله، وأرجوك أن تستمري على هذا النحو، ولا

تخبري أحدًا. ودعيني أتصرف بنفسي، كي أكبح هذا الشيطان. فإذا لم أتمكن، فسأمنحك مباركتي وافعلي ما يمليه عليك عقلك وترينه صوابًا.

قالت المرأة:

-إنني موافقة، ولا أريد إغضابك وعدم الانصياع لنصيحتك، هذه المرة؛ لكنه إذا ما ألح على ملاحقتي، فلن أعود لأستشيرك مرةً ثانية؛ وإنما سأخبر زوجي وإخوتي.

ثم انصرفت. وبمجرد خروجها من الكنيسة، جاء ذلك الرجل ، فاستدعاه الكاهن، وأخذه جانبًا، ووجه إليه أقبح اللعنات. وكان الرجل يعرف سبب غضب الكاهن عليه وتأنيبه له، فحاول أن يتكلم، وسأله:

-لماذا تصب غضبك عليّ، يا أبونا؟

فأجابه الكاهن:

- ما الذي تقوله، يا عديم الحياء؟ ولماذا خرجت هذا الصباح لارتكاب المعاصي؟ وأين كنت عند الفجر؟

فرد عليه الرجل:

- لست أدري أين كنت، فأخباري سرعان ما تصلك.

قال الكاهن: هذا صحيح. وقد أخبرتني المرأة بأنك اعتقدت بأنها ستلقي بنفسها بين ذراعيك، لأن زوجها غائب عن البيت. لقد تحولت إلى متسكع ليلي، تدخل الحدائق وتتسلق الأشجار. أتظن أنك ستتغلب بهذه الأساليب، وبالدخول من النوافذ، على عفة هذه السيدة الطاهرة؟ إنها تكرهك. أما أنت، فتجاهلت كل كلامي وتوبيخي لك، ولم تخبر هي أحدًا بشيء، استجابةً

لطلبي، وفضَّلت الصمت. ولكن، ما الذي ستفعله أنت إذا ما أخبرت المرأة إخوتها؟

ومن خلال هذا الكلام، أدرك الرجل ما هو المطلوب منه. فهدأ من روع الكاهن بوعود جديدة، ثم انصرف.

وفي فجر اليوم التالي، دخل إلى الحديقة، وتسلق الشجرة، ووجد النافذة مفتوحة. فدخل منها ووجد نفسه بين ذراعي السيدة التي استقبلته بسعادة، وهي تقول: فلنشكر الكاهن الذي علمك طريقة الدخول.

وبعد أن حصل كل منهما على متعته، تبادلا الحديث وضحكا كثيرًا من سذاجة الكاهن. ثم رتبا أمورهما، بحيث لا يحتاجان إلى الاستعانة مرةً أخرى بالسيد الكاهن في لقاءات ملذاتهما، التي أتوسل إلى الرب، برحمته الواسعة، أن يبلغني إياها قريبًا، ويوصل إليها كل الأرواح المسيحية الراغبة فيها.

القصـة الرَّابعـة

يُعلِّم "دون فيليتش" الراهب "بوتشو" أن التكفير يطهره ويمنحه السعادة؛ فيبدأ الراهب "بوتشو" بممارسة التكفير، بينما يستمتع "دون فيليتش" بزوجة الراهب.

بعد أن انتهت "فيلومينا" من قصتها، أثنى عليها "ديونيو" بكلمات ودودة، فالتفتت الملكة إلى "بانفيلو"، وقالت له: واصل أنت، واحكِ لنا شيئًا ممتعًا.

فأطاع "بانفيلو" أمر الملكة على الفور، وبدأ قائلًا:

بالرغم من أن ثمَّة أناسًا كثيرين لا يذهبون إلى الفردوس، إلا أنهم يرسلون غيرهم إليه. وهو ما حدث، منذ زمن بعيد، لأحد جيراننا.

كان هناك رجل صالح وغني يُدعى "بوتشو دي رينيري"، يعيش في "سان برانكاسيو". وكان قد أخضع نفسه طوعًا لقوانين الرهبنة الخاصة بطائفة القديس "فرانشيسكو"، وأصبح يُسمى الراهب "بوتشو". وبعد أن أسلم نفسه تمامًا للحياة الروحية، لم يعد يُدخل إلى بيته من النساء سوى زوجته وخادمة له. ولأنه شخص بدائي وتقليدي للغاية، فكانت صلاته تقتصر على ترديد

"أبانا الذي في السموات"، وحضور المواعظ والقُداس، وترتيل التسابيح، وممارسة الصيام وأعمال تقشف أخرى لقهر النفس. أما زوجته، السيدة "إيزابيتا"، فهي شابة يبلغ عمرها حوالي الثامنة والعشرين أو الثلاثين عامًا؛ وكانت يافعة وجميلة، وممتلئة الجسم مثل التفاحة. ونظرًا لتقشف زوجها وتدينه، وربما بسبب كبر سنه، كانت تعاني من نظام مفروض عليها أطول مما تستطيع تحمله؛ فإذا ما رغبت في النوم معه أو مداعبته، أخذ يحدثها عن حياة المسيح، أو مواعظ الراهب "ناستاجيو"، أو بكاء "مريم المجدلية"[22]، وأشياء أخرى من هذا القبيل. وفي تلك الأثناء، جاء من باريس كاهن يدعي "دون فيليتش"، وكان شابًّا بهي الطلعة، عبقريًّا، شديد المكر والذكاء، وواسع المعرفة. وربطته صداقة حميمة مع الراهب "بوتشو"، الذي رأى فيه رجلًا ورعًا، ويتمتع بالقدرةً على إيجاد حل لكل ما يدور بعقله من شكوك. وراح يأتي به إلى بيته، ويدعوه أحيانًا إلى الغداء أو العشاء. وأخذت الزوجة تحذو حذو زوجها، وأصبحت تعامله كما لو أنه أحد أفراد الأسرة.

ثم تكررت الزيارات، وبدأ "دون فيليتش" يمعن النظر في شباب المرأة. وأدرك الشيء الذي تفتقده. ولكي يخفف من أعباء الراهب "بوتشو"، قرر أن يحل محله. بدأ ينظر إلى المرأة بخبث، مرةً بعد أخرى، إلى أن أشعل فيها الرغبة نفسها التي يشعر بها. وفي أول فرصة أتيحت لـ"دون فيليتش"، أفصح لها عن

---

[22] تعتبر من أهم التلميذات ليسوع المسيح، رمزًا للإنسان الخاطئ الذي يتوب. ولها مكانة رفيعة. هي أول مَن ظهر لها المسيح بعد موته حسب ما جاء في **إنجيل يوحنا** (يو20). واعتُرف بمريم المجدلية قديسةً، ويحتفل بها في 22 يوليو من كل عام.

نواياه، ووافقت هي في الحال. غير أنه كانت هناك صعوبة في تحقيق ذلك، لأنها أرادت أن يتم الأمر في بيتها، لعدم ثقتها بأي مكان آخر في العالم. ولم يكن ذلك ممكنًا، لأن الراهب "بوتشو" لا يغادر البلدة أبدًا؛ ففكر "دون فيليتش" في طريقة لا يثير معها الشبهات، وقال للراهب "بوتشو" يومًا:

– أعتقد أنك ترغب في أن تصبح قديسًا، وأرى أنك سلكت أطول الدروب لبلوغ ذلك؛ إلا أنه ثَمَّة درب أقصر بكثير، يعرفه البابا وأعوانه الكبار ويمارسونه، ولا يريدون له أن ينتشر، لأنه سر كنسي عظيم. ولكن، بما أنك صديقي، فسوف أخبرك به؛ إذا ما وعدتني بألا تطلع أحدًا في هذه الدنيا عليه.

افتتن الراهب "بوتشو" بالأمر، وطلب منه عدة مرات أن يخبره بتلك الطريقة، وهو يقسم أنه لن يطلع عليها أحدًا، فقال له الراهب:

– بما أنك أقسمت، فسوف أخبرك. يرى أحبار الكنيسة أن بلوغ القداسة يتطلب القيام بالتكفير التالي: قبل البدء بالتكفير، يتوجب عليك الاعتراف، ثم تتبع ذلك بصيام وامتناع عن النساء مدة أربعين يومًا، لا يمكنك خلال هذه الفترة لمس أية امرأة، بمن في ذلك زوجتك نفسها. ويجب أن تمكث في الليل، في حجرة من بيتك تستطيع رؤية السماء منها؛ تذهب إليها في موعد صلاة النوم. وتكون لك فيها منضدة كبيرة، تتمكن- وأنت واقف- من إسناد كليتيك إليها، ومد ذراعيك على شكل صليب. ويمكن لك- إذا رغبت- أن تتمسك بمسامير، وتظل في هذا الوضع، ناظرًا إلى السماء، دون حراك، حتى بزوغ الفجر. وإذا كنت تعرف القراءة، فمن

المناسب لك- في هذا الوقت- أن ترتل بعض الأدعية التي سأعطيها لك. أما إذا كنت لا تعرف، فعليك أن تردد "أبانا الذي في السموات" ثلاثمائة مرة، و"يا قديسة مريم" ثلاثمائة مرة، تكريما للثالوث. ودون أن تتوقف عن النظر إلى السماء، عليك أن تفكر في الرب، خالق السماء والأرض. وعندما يبزغ الفجر، يمكنك النهوض، والذهاب إلى فراشك للنوم. وحين تستيقظ في الصباح، تذهب إلى الكنيسة، فتستمع هناك إلى ثلاثة قداديس على الأقل، وتصلي "أبانا الذي في السموات" خمسين مرة، ومثلها صلاة "يا قديسة مريم"، ثم تنصرف بعد ذلك إلى شؤونك الخاصة. وبعد أن تتناول الغداء، تعود بعد الظهر إلى الكنيسة لترتل بعض الصلوات التي سأعطيك إياها. وفي موعد صلاة النوم، تعيد السيرة نفسها. إذا ما فعلت هذا، فإنني آمل أن تشعر، قبل انتهاء التكفير، بأحاسيس عجائب القداسة.

عندئذ قال الراهب "بوتشو":

- هذا ليس بالأمر الشاق والطويل، ويمكنني القيام به على أحسن وجه. وسأبدأ في تنفيذه يوم الأحد إن شاء الله.

فذهب الراهب "بوتشو" إلى بيته، وأخبر زوجته بكل شيء، وكان قد حصل على إذن "دون فيليتش" بذلك؛ ففهمت الزوجة ما الذي أراده الراهب من أن يظل زوجها ساكنًا دون حراك حتى الفجر؛ فأخبرته أنها ستكون سعيدة بكل ما يفعله لتطهير روحه، وأنها ستعينه كي يتقبل الرب كفارته، فتشاركه في الصيام، ولكن ليس في بقية الأمور الأخرى.

وبهذا الاتفاق، بدأ الراهب "بوتشو" طقوس التكفير في يوم الأحد التالي. أما "دون فيليتش"، من جانبه، فراح يزور المرأة في الموعد المحدد، فيتناولان

العشاء، ويناممان معًا حتى الفجر، ثم يغادرها قبيل مجيء الراهب "بوتشو" إلى الفراش. وكان المكان الذي اختاره "بوتشو" لكفارته قريبًا من الحجرة التي تنام فيها المرأة، لا يفصلها عنها إلا جدار رقيق؛ ولأن الراهب كان يتقلب باندفاع شديد مع المرأة، فقد أحس الراهب "بوتشو"، في إحدى الليالي، كما لو أن الأرض تهتز؛ فنادى زوجته دون أن يتحرك من مكانه، وسألها عما تفعله. فأجابته صارخة من حجرتها، ربما وهي تمتطي دابة القديس "بينيديتو"، أو دابة القديس "جوفاني":

- الحقيقة يا زوجي أن بدني كله ينتفض بقوة.

فقال:

- تنتفضين؟ ولماذا تنتفضين؟

فضحكت المرأة الذكية والجريئة، ربما لأن لديها ما يدعوها للضحك، وأجابت:

- كيف لك أن تسأل عن سبب ذلك؟ لقد سمعت الناس ألف مرة يقولون: "من ينام دون عشاء يقضي الليل منتفضًا".

فظن الراهب "بوتشو" أن الصيام الذي تتظاهر بأنها تمارسه معه، هو السبب في عدم قدرتها على النوم، وأنها ترتعش في السرير لهذا السبب؛ فقال لها بثقة:

- لقد حذرتك من الصيام. وبما أنك مُصرة على الصوم، فلا تفكري في الجوع، وإنما فكري في النوم والراحة، لأن اهتزازك هذا في الفراش، جعل كل شيء في البيت يهتز.

فقالت المرأة:

- لا تقلق بشأني، فأنا أعرف ما الذي أفعله؛ قم أنت بما عليك عمله جيدًا، وأنا سأفعل ما عليَّ فعله على ما يرام.

واصل الراهب "بوتشو" ترتيل "أبانا الذي في السموات"، وعمدت المرأة والسيد الكاهن، منذ تلك الليلة، إلى وضع سرير في مكان آخر من البيت، كي لا يسمع ما يفعلانه. وواصلا هناك احتفالاتهما الليلية، إلى أن انتهت طقوس تكفير الراهب "بوتشو". فكانت المرأة تمزح مع الكاهن قائلةً له:

- لقد وصفت طريقة التكفير للراهب "بوتشو"، فأدخلنا نحن الجنة.

وقد استحسنت المرأة كثيرًا تلك الحال، حتى إنها، بعد انتهاء طقوس التكفير، وجدت سبيلًا لمواصلة اللقاء بالكاهن في أماكن أخرى.

وهكذا، بينما كان الراهب "بوتشو" مستغرقًا في التكفير، ظنًا منه أنه بذلك يكسب الفردوس، كان الكاهن يقوم بما عليه بإتقان مع زوجة "بوتشو"، التي كانت تعيش مع "بوتشو" في احتياج وعوز كبير؛ فقد لبى لها الكاهن ما تحتاجه بإحسان عظيم.

القصـة الخامسَـة

يعطي "الجنتل"، جواده للسيد "فرانشيسكو فيرجيليزي"؛ ويتحدث، في مقابل ذلك وبإذن منه، إلى زوجته. ولأنها تظل صامتة، فإنه يتولى الرد على كلامه بدلًا منها، ويُتبع الأقوال بالأفعال.

أنهى "بانفيلو" قصة الراهب "بوتشو"، وسط ضحك النساء، فالتفتت الملكة إلى "إليزا"، وأمرتها بمواصلة الحديث. فبدأت هذه القول:

يعتقد الكثيرون، لأنهم يعرفون الكثير، أن الآخرين لا يعرفون شيئًا. ويظنون، في أحيان كثيرة، أنهم سيخدعون الآخرين؛ فيجدون أنهم هم الذين خُدعوا. ولهذا أرى جنونًا عظيمًا فيمن يعمدون، غير مضطرين، إلى اختبار قوة ذكاء غيرهم. ولأن رأيي هذا قد لا يكون مقبولًا من الجميع، فإنني أريد أن أروي لكم، لأؤكد صحة كلامي، ما جرى لشاب من مدينة "بيستويا".

كان يعيش في مدينة "بيستويا" شاب يدعى "فرانشيسكو"، من أسرة "فيرجيليزي". وكان غنيًا جدًا، فضلًا عن أنه حكيم ومتيقظ؛ غير أنه بخيل إلى أبعد الحدود. وقد تم تنصيبه عمدة لمدينة ميلانو. ومن أجل السفر إلى

موقعه الجديد، أعد كل ما يحتاج إليه، باستثناء الجواد. فهو لم يجد حصانًا يروقه. وكان يعيش في المدينة نفسها آنذاك شاب متواضع الأصول، لكنه ثري، يدعى "ريتشاردو". وكان "ريتشاردو" هذا شديد الاهتمام بهندامه وتجمله، حتى أُطلق عليه لقب "الجنتل"، وكان مغرمًا بزوجة "فرانشيسكو"، يتودد إليها دون طائل، لأنها إمرأة فاضلة وباهرة الجمال. وكان "ريتشاردو" يملك واحدًا من أثمن جياد "توسكانا". ولأن الجميع كانوا يعرفون ما يكنه من إعجاب بزوجة السيد "فرانشيسكو"، فقد قالوا إنه قد يتمكن من الوصول إليها مقابل الجواد. وعلم السيد "فرانشيسكو" بذلك، فحركه الجشع، وأرسل إلى "ريتشاردو" يستدعيه كي يشتري منه الجواد، مفكرًا أن الآخر سيقدمه هدية إليه. ولكن "الجنتل" قال له:

– لن أبيع لك جوادي هذا، يا سيدي، حتى لو دفعت لي ذهب العالم كله ثمنًا له، لكني سأهديه لك بشرط واحد: وهو أن أتمكن من التحدث مع زوجتك، وفي حضورك، ولكن على أن تقف أنت بعيدًا، بحيث لا يسمع أحد سواها ما سأقوله لها.

ظن السيد الجشع أن "ريتشاردو" أبله، فوافق على الاقتراح. ثم تركه في قاعة قصره، ومضى إلى غرفة نوم زوجته؛ فأمرها بأن تصغي إلى كلام "الجنتل"، ولكن دون أن ترد عليه بأية كلمة، حتى يحصل على الجواد بأرخص الطرق وأسهلها. استنكرت الزوجة ذلك وعارضته، لكنها اضطُرت- في آخر الأمر- إلى الانصياع لرغبة زوجها، وخرجت لتستمع إلى ما سيقوله لها "ريتشاردو". فجلس هذا معها في أقصى القاعة. وقال لها: أظن أنك تعرفين منذ زمن بعيد، يا سيدتي، مدى غرامي بجمالك الذي يفوق جمال كل

مَن رأيت من النساء، وحبي لخصالك التي تكفي لدفع أي رجل إلى الوقوع في غرامك. لكنني أؤكد أن حبي لك ليس له مثيل بين الرجال، وسيظل متقدًا في صدري ما ظلت حياتي البائسة تحافظ على تماسك أعضاء جسدي من الانهيار. وإذا كان هناك حب في العالم الآخر، فسوف أحبك هناك إلى الأبد. ومهما كان ما ترغبين في الحصول عليه في هذه الدنيا، فسأجلبه لك. ولأثبت لك ذلك، أطلب منك أن تخبريني بما تريدينه، وسأحققه لك، أو سآمر بتحقيقه. إنني عبدك، وأتوسل إليك بتذلل أن تعطفي عليَّ لأنعم بالقول لك أنني مغرم بجمالك. فإذا لم تحرك توسلاتي مشاعر الرحمة فيك، فإنني سأموت حزنًا وغمًّا. ولسوف يؤنبك ضميرك يومًا ما، وستفكرين قائلة :"آه، لقد أسأتُ التصرف وكنت قاسية مع "جنتلي". ولن ينفع ذلك حينها، لأن الوقت سيكون قد فات. وسيزداد عندئذٍ شعورك بالندم والأسى. ولهذا، وقبل أن أموت، امنحيني الأمل. هذا ما أنتظره منك، كي تنعشي روحي. فأنت وحدك من تستطيعين جعلي أسعد إنسان، أو أشقى إنسان، في هذه الحياة.

صمت بعد ذلك وهو يتأوه، وبعض الدموع تسيل من عينيه، منتظرًا إجابة على كلامه. أما المرأة، التي كانت تبدي عدم تأثرها بمغازلات "الجنتل"، فقد رق قلبها للكلمات المؤثرة التي قالها. وبدأت تشعر بما لم تشعر به من قبل قط، وكان هذا هو الحب. لكنها، انصياعًا لأمر زوجها، ظلت صامتة، وإن دلَّت بعض الزفرات على حقيقة مشاعرها. وحين رأى "ريتشاردو" أنها لا تجيب بشيء، تعجب من ذلك، ثم أدرك الخدعة التي أعدها له الزوج. وقد منحته زفرات المرأة المكتومة شيئًا من الأمل؛ فخطرت له فكرة غريبة: فحاكى صوت المرأة، وأجاب هو بصوت خافت، على كل ما قاله:

– لقد لاحظت منذ زمن بعيد، أيها "الجنتل"، حبك لي، ورأيته حبًّا عظيمًا وساميًا. وقد أثرت فيَّ كلماتك هذه وأسعدتني كثيرًا. لكنني، وإن بدوت لك قاسية، فإنما ذلك حرصٌ مني على حفظ سمعتي وشرفي. ويمكنني الآن أن أثبت لك أنني أحبك. فانتظر بضعة أيام، ريثما يرحل زوجي لتولي مهام منصبه في ميلانو، وعندئذٍ أعدك، يا من أعطيته جوادك حبًّا لي، بأن أسلم نفسي لك. وكي لا نطيل في الكلام، أقول لك منذ الآن إنك يوم تجد منشفتين منشورتين على نافذة غرفتي المطلة على الحديقة، فهذا يعني أن زوجي قد سافر، فاحضر في الليل إلى حديقتي، واحترس كي لا يراك أحد، وستجدني في انتظارك، وسنقضي الليل معًا كما نريد.

ثم استعاد "ريتشاردو" صوته الرجولي، كي يرد على كلامها الذي جاء على لسانه: سيدتي الغالية، لا يمكنك تصور السعادة التي غمرتني بها، ولست أدري كيف أشكرك. لا يمكنني أن أعبر لك الآن عن شكري؛ وأعدك من جانبي أن أفعل ما أشرت به عليَّ. وسأنتهز عندئذٍ الفرصة لأشكرك على مشاعرك نحوي. فإلى اللقاء قريبًا يا حبيبتي، وليباركك الرب، ويمنحك ما هو أفضل.

لم تنطق السيدة بكلمة واحدة. فنهض "ريتشاردو"، واتجه إلى الزوج الذي قال له ضاحكًا:

– ألم أفِ بوعدي على أكمل وجه؟

فأجاب "الجنتل":

– لا يا سيدي؛ فقد وعدتني بالسماح لي بالتحدث إلى زوجتك، لكنك

تركتني أتحدث إلى تمثال من المرمر.

شعر السيد بالعادة لسماعه هذه الكلمات، وازداد حسن ظنه بزوجته، وإن كان هذا رأيه فيها من قبل، ورد عليه قائلًا:

- لقد صار الجواد لي.

- بالطبع يا سيدي. ولكنني لو علمت أنني سأجني هذه النتيجة، لكنت أهديت إليك الحصان، دون أن أطلب شيئًا.

فضحك السيد. وبعد ما حصل على الجواد، بادر بالإسراع في السفر إلى "ميلانو". فكرت المرأة، بعد تحررها من زوجها، في كلمات "ريتشاردو" وحبه، وراحت تقول لنفسها كلما رأته يمر بالقرب من بيتها: ماذا أفعل؟ ولماذا أضيع شبابي؟ زوجي في ميلانو، ولن يعود قبل ستة أشهر، فمتى سأشبع رغباتي؟ عندما أشيخ؟ وعلاوةً على ذلك، فمتى سألتقي بعاشق مثل "ريتشاردو"؟ إنني وحيدة، وعليّ أن أعيش الحياة الطيبة طالما هي متاحة لي. ولن تتكرر مثل هذه الفرصة، ولن يعلم أحدٌ بذلك، وحتى لو افتضح أمرنا، فإن الإقدام على عمل شيء، ثم الندم عليه بعد ذلك، لهو أفضل من عدم الإقدام عليه، ثم الشعور بالحسرة.

وعندما عقدت العزم على هذا الأمر، نشرت في أحد الأيام منشفتين على الشرفة، كما قال لها "الجنتل"؛ وعندما رآهما شعر بالسعادة، ثم ذهب في تلك الليلة، متكتمًا ودن أن يراه أحد، إلى باب الحديقة، فوجده مفتوحًا. ثم توجه من هناك إلى باب آخر يفضي إلى الداخل، حيث وجد السيدة في انتظاره، وحين رأته قادمًا، نهضت لاستقباله، واحتفلت بلقائه احتفالًا عظيمًا؛

فتعانقا وتبادلا سيلًا من القبلات. ولم تكن هذه هي المرة الأولى والأخيرة، فقد تكررت اللقاءات طوال فترة غياب السيد في "ميلانو"، وحتى بعد أن عاد، وجدا طريقةً ما للقاء.

القصـة السَّـادسة

يهيم "ريتشاردو مينوتولو" بحب زوجة "فيليبُّو فيجينولفو"؛ ولاكتشافه أنها شديدة الغيرة، يعرض عليها أن يجعلها ترى زوجها مع امرأة أخرى في أحد الحمامات. إلا أنها بعد أن تذهب إلى هناك، تكتشف أنها تضاجع "ريتشاردو" وليس زوجها.

امتدحت الملكة حدة ذكاء "الجنتل"، ثم أمرت "فياميتا" بأن تروي قصة أخرى، فاستجابت لها باسمة، وبدأت كلامها كالتالي:

أحيانًا يكون من المناسب الابتعاد عن مدينتنا؛ وإن كانت فيها أمثلة من كل نوع، لذلك سأفعل مثلما فعلت "إليزا"، وأروي قصصًا تدور في أماكن أخرى. فأذهب إلى نابولي، لأحكي لكم قصة امرأة عفيفة من أولئك اللواتي يتهربن من الحب، ولكن يقودها العاشق بمكره إلى تذوق ثمار الحب، قبل أن تعرف أزهاره. وستجدن يا صديقاتي في هذه القصة ما يدفعكن إلى توخي الحذر من الأشياء المفاجئة، والتمتع بالأحداث التي تقع.

كان يعيش في مدينة "نابولي" العريقة شاب ثري، اسمه "ريتشاردو مينوتولو". وكان متزوجًا من امرأة شابة وجميلة، لكنه وقع في حب امرأة

أخرى، تسمى "كاتيلا"، تفوق بجمالها نساء "نابولي" جميعهن، كما يقال من الجميع. كانت "كاتيلا" متزوجة من شاب ثري أيضًا يدعى "فيليبُّو سيجينولفو"، وكانت تحبه أكثر من حبها لأي شخص آخر. غير أن "ريتشاردو"- الذي هام حبًّا بـ"كاتيلا"- سعى بكل السبل إلى كسب حبها. ولأنه لم يتوصل إلى ذلك، أصابه اليأس والغم. وقد نصحته نساءٌ من قريباته، في أحد الأيام، بأن يترك ذلك الحب، لأن "كاتيلا" مغرمة بـ"فيليبو"، وليس بأحد سواه. وهي- فوق ذلك- زوجة شديدة الغيرة، تغار حتى من العصافير التي تحلق فوق زوجها. وقد أوحى كلامهن هذا إلى "ريتشاردو" بفكرة بارعة؛ فأصبح منذ ذلك الحين يبين أنه قد يئس تمامًا من حب "كاتيلا". وادَّعى أنه أحب سيدة أخرى، وراح يتظاهر بالتودد إليها مثلما كان يتودد إلى "كاتيلا". وسرعان ما انتشر الخبر في "نابولي"، ووصل إلى مسامع "كاتيلا"، فلم تعد تتحاشاه مثلما كانت تفعل من قبل، وأخيرًا أصبحت، كلما التقت به، تسلم عليه، كواحد من جيرانها.

وفي أثناء ذلك، كان الصيف قد جاء بحرِّه، وأخذ أناس كثيرون يذهبون إلى الحمامات، مثلما هي عادة أهالي "نابولي". وعلم "ريتشاردو" أن "كاتيلا" قد ذهبت إلى هناك، فتوجه هو الآخر إلى حيث كانت هي ورفيقاتها، فاستقبلنه ودعونه لصحبتهن. لكنه تصنع عدم الرغبة في الذهاب معهن. وبدأت النساء ومعهن "كاتيلا"، بالمزاح معه عن حبه الجديد. وعندما بدت له اللحظة المناسبة، تكلم إلى "كاتيلَّا"، مرفقًا ذلك بابتسامة، عن وقوع زوجها "فيليبو" هو الآخر في الغرام. ونجح في استثارة غيرتها، وتملكتها الرغبة في معرفة الأمر، فطلبت من "ريتشاردو" أن يخبرها أين هي المرأة التي أحبها زوجها،

وأقسمت عليه بحبه لفتاته أن يخبرها. فرد عليها: لقد طلبت مني ذلك، وحلفتني بمن لا يمكنني أن أرفض من أجلها أي طلب تطلبين. ولذلك فسأخبرك، شريطة أن تعاهديني بألا تتحدثي في الأمر حتى مع "فيليبو" نفسه، إلا عندما تجدين نفسك قادرة على إثبات ذلك. فقبلت المرأة ذلك، وأقسمت أنها لن تقول شيئًا. فابتعدا قليلًا كي لا تسمعهن الأخريات، وقال لها "ريتشاردو": سيدتي، لو أنني ما أزال أحبك كما كنت في السابق، لما أخبرتك بشيء يمكن له أن يسبب لكِ الحزن، ولكنني أستطيع الآن أن أكلمك بكل وضوح. لست أدري ما إذا كان "فيليبو" قد علم شيئًا عن حبي السابق لك، ولكنه لم يقل لي أي شيء عن الأمر قط. ولكنه يريد الآن كما يبدو أن ينتقم مني، فهو يسعى لمغازلة زوجتي. وهذا ما علمت به منها نفسها؛ وقد جعلت زوجتي ترد عليه بما أمليته عليها. وقد وجدت في بيتنا صباح اليوم صديقة لزوجتي، وكانتا تتبادلان الحديث همسًا. وعندما انصرفت المرأة، سألت زوجتي عن سبب زيارتها، فأجابتني: "إنها مبعوثة من "فيليبو"، وقد أرسل لي الآن أنه يريد قراري النهائي بأسرع ما يمكن. فإذا كنت أرغب فيه، فيمكنني الذهاب للقاء به سرًّا في أحد الحمامات. ولولا أنك طلبت مني السير في هذا الطريق، ومعاملته على هذا النحو، لسببٍ لا أدريه، لكنت حطمت وجهه". ثم أضاف "ريتشاردو" قائلًا: وقد بدا لي أن الأمر تطور كثيرًا، ورأيت أن أخبرك لكي تعرفي الجزاء الذي تلقينه مقابل وفائك وإخلاصك اللذين كادا يوديان بي إلى الموت. وكي أثبت لك الأمر، ولا تحسبي أنه مجرد ادعاء أو كذب، فقد جعلت زوجتي ترسل إليه أنها ستذهب يوم غد إلى الحمامات، حيث يمكنهما اللقاء في الساعة الثالثة ظهرًا، عندما

يكون الناس نائمين. وبالطبع، فأنا لن أسمح لها بالذهاب، لكنني أقترح عليكِ أن تذهبي أنت بدلًا منها إلى المكان نفسه. وأظن أننا سننتقم منه سويًّا، للإهانة التي أراد أن يلحقها بي وبك.

وما إن سمعت "كاتيلا" هذا الكلام، حتى ازدادت غيرتها، وصدقت كل ما قاله لها، وأخذت تربط بين هذا الأمر وأمور سابقة. وأجابت غاضبة بأنها ستأتي لكي تجعل زوجها يشعر بالعار.

فرح "ريتشاردو" بما حققه، ثم أضاف بعض التفاصيل، كي يزيد من قناعتها. ووعدته هي بألا تخبر أحدًا بشيء؛ وهذا ما كان يريده تمامًا منها. وفي اليوم التالي، شرح "ريتشاردو" للمرأة المشرفة على الحمامات نيته، كي تساعده. وكانت هذه المرأة تقدره كثيرًا، فقالت له إنه يمكنه الاعتماد عليها في كل شيء. واتفقت معه على ما يجب عليها قوله وعمله. وكانت هناك في المكان حجرة مظلمة، لا وجود فيها لأية نافذة يدخل منها الضوء. وضعت المرأة سريرًا في الغرفة، وذلك بتعليمات من "ريتشاردو"، ثم استلقى عليه بانتظار مجيء "كاتيلا".

كانت السيدة قد رجعت غاضبة إلى بيتها، بعد أن أطلعها "ريتشاردو" على تلك المعلومات. وعندما رأت أن زوجها غارق في التفكير ولا يداعبها كعادته، تفاقمت غيرتها، وقالت لنفسها: "إنه يفكر في المرأة التي ستقدم له المتعة في الغد؛ ولكنه لن ينال ذلك". وعند الثالثة، توجهت "كاتيلا" إلى المكان المتفق عليه، وسألت المرأة المسؤولة ما إذا كان "فيليبو" هناك، فردت عليها المرأة:

– أأنتِ المرأة التي ستأتي للحديث إليه؟

فأجابتها "كاتيلا":

- أجل، أنا هي.

فقالت لها الأخرى: تفضلي!

ثم أوصلت "كاتيلا" إلى الحجرة المظلمة، فدخلت وهي تغطي وجهها. فنهض "ريتشاردو" وعانقها وهو يقول، متصنعًا صوت زوجها: مرحبًا بحبيبة روحي. وتظاهرت "كاتيلا" بأنها زوجة "ريتشاردو"، فعانقته وقبلته وداعبته كثيرًا، معتقدة أنه زوجها "فيليبو". ولم تنطق بكلمة واحدة، خشية أن يتعرف عليها. وبسبب ظُلمةِ الغرفة، لم يكن بالإمكان رؤية شيء. واقتادها "ريتشاردو" إلى السرير، وناما معًا، دون أن يقول أي منهما شيئًا. وظلا يتبادلان الغرام على تلك الحال لوقت طويل، إلى أن اشتاطت "كاتيلا" غضبًا، وأخذت تقول: يا لسوء حظ النساء! ويا لبؤس مآل حبهن لأزواجهن! ويا لتعاستي، أنا التي أحببتك طوال ثماني سنوات أكثر من حبي لنفسي، بينما أنت تهيم بامرأة أخرى، أيها الخبيث. مع مَن تظن نفسك الآن؟إنك مع من تخدعها متظاهرًا بحبها، بينما أنت تحب امرأة أخرى. إنني "كاتيلا"، ولست زوجة "ريتشاردو"، أيها الخائن عديم الوفاء. إنك تتعرف على صوتي الآن، وتعلم أنه لو قدر لنا أن نعيش ألف سنة، فلن أتمكن من أن ألحق بك من الخزي والعار ما تستحقه، أيها الوقح. يا لي من تعسة بائسة! لمن منحت حبي طوال السنوات الثماني الماضية؟ لك أيها الكلب غير الوفيّ الذي يبدي القوة والحنان هنا، بينما هو في البيت ضعيف وعاجز! لكن تبارك الرب الذي شاء أن تغرس بذورك في حقلك وليس في حقل آخر. ولست أستغرب أنك لم تشأ الاقتراب مني في الليلة الماضية، لأنك كنت تأمل بالارتواء في فراش

امرأة أخرى، وأردت المجيء فارسًا قويًّا إلى المعركة؛ لكن المياه سارت، بفضل الرب، في اتجاه مخالف لما أردت. لماذا لا تجيب أيها المجرم؟ لماذا لا تقول شيئًا؟ لا أدري لماذا لا أغرس أصابعي في عينيك وأنزعهما! لا شيء يخفى على أحد، وقد علمت بنواياك وخابت ظنونك. كان "ريتشاردو" يستمتع لهذه الكلمات، فلا يرد عيلها إلا بالمعانقات والقبلات والمداعبات. فواصلت هي القول: إذا كنت تظن الآن أنك ترضيني بمداعباتك الزائفة، فإنك مخطئ. فلن يشفى غليلي إلا بعد أن أفضحك أمام الأهل والأصدقاء والجيران. ألست جميلة، أيها الخبيث، مثل زوجة "ريتشاردو"؟ لماذا لا تجيب، أيها الكلب؟ ألست ثرية مثلها؟ وما الذي تملكه هي، ولا أملكه؟ ابتعد عني، ولا تلمسني، فقد فعلت ما يكفي. كنت تظن أنني زوجته، فإذا ما فعلت مثل هذا أنا معه الآن، فلن يكون لك أي حق في لومي. واستمر كلامها على هذا النحو فترة طويلة، وقد ملأته المرارة، إلى أن فكر "ريتشاردو"، أخيرًا، في أنه إذا ما تركها تذهب وهي على تلك الحال، فسوف يؤدي ذلك إلى أخطار كثيرة، وقرر أن يخرجها من غضبها، فاحتضنها بين ذراعيه، وقال لها: لا تغضبي يا حبيبة روحي، فما لم أستطع الحصول عليه بالحب، علمني الحب أن أناله منك بالخداع. فأنا "ريتشاردو"، ولست زوجك.

عند سماع "كاتيلا" لذلك وتعرفها على صوته، أرادت مغادرة الفراش، لكنها لم تتمكن من ذلك؛ فحاولت الصراخ، ولكن دون جدوى؛ لأنه أطبق فمها وقال لها: ما حدث بيننا، يا سيدتي، لا سبيل إلى الرجوع عنه؛ وإذا ما واصلتِ الصراخ، أو علم أحدٌ بما جرى، فسوف يقع أمران، أولهما هو فقدانك لشرفك ولسمعتك، لأنني سأنكر أنني خدعتك، وسأقول أنني

جئت بك وقد وعدتك بأنني سأمنحك مالًا وهدايا، وأنك غضبتِ لأني لم أقدم ما وعدتك به؛ فلذلك أنت تصرخين؛ وأنت تعرفين أن لدى الناس استعدادًا لتصديق الشر بأكثر مما يصدقون الخير. ولسوف يصدقونني، ولن يصدقوك. وعند ذلك سيقع عداء شديد بيني وبين زوجك، وقد يصل الأمر إلى أن يقتل أحدنا الآخر، ولن تشعري بعدئذٍ بالسعادة أبدًا. ولهذا، أرى أنه من الأفضل أن تتكتمي على الأمر؛ ولستِ أول امرأة يتم خداعها، ولن تكوني الأخيرة. وأنا لم أخدعك لأستولي على شيء، وإنما لشدة حبي لك. كانت "كاتيلا" تبكي وقد ملأها اليأس، لكنها اقتنعت بصحة ما يقوله "ريتشاردو"، فقالت:

- لا أدري كيف سيمنحني الرب القدرة على تحمل هذه الإهانة والخديعة. ولست أريد أن أصرخ هنا، في هذا المكان الذي اقتادتني إليه غيرتي الغبية. ولكني لن أعيش مطمئنةً إلا بعد الانتقام منك. فدعني، ولا تلمسني، فقد حصلت على ما رغبت فيه، وحان الوقت الآن لأن تتركني. فدعني، أرجوك.

أخذ "ريتشاردو" يتودد إليها بأعذب الكلام والتوسلات، لأنه لم يشأ تركها وهي في هذا الحالة من الغضب، إلى أن تمكن من إعادة الوئام بينهما، واستمتعا معًا لمزيد من الوقت. وعرفت المرأة عندئذٍ كم هي لذيذة قبلات العشيق، وتحول حقدها وغضبها إلى حب رقيق. وقد تبادلا الحب بعد ذلك مرات كثيرة، متصرفين بحذر وتكتم. وأدعو الرب أن يمتعنا نحن كذلك بمن نحبهم.

القصة السَّابعة

تتخلى امرأةٌ عن "تيدالدو"، فيذهب إلى "فلورنسا"؛ لكنه يرجع بعد ذلك وهو يرتدي ثياب حاج. فيجعل المرأة تعرف خطأها، وينقذ زوجها من الموت بعد أن اتهموه بقتله، ثم يصالحه مع إخوته. ويستمتع مقابل ذلك بزوجته.

عندما انتهت "فياميتا" من قصتها، سارعت الملكة، كي لا تُضيع الوقت، إلى الطلب من "إيميليا" أن تواصل هي الحديث، فبدأت كالتالي:

أما وإن القصتين السابقتين قد ابتعدتا عن أمور مدينتنا، لذا فأود العودة إليها، وأبين لكُنَّ ما قام به أحد مواطنينا لكي يسترد امرأة أضاعها.

كان هناك شاب يُدعى "تيدالدو إيليسي" يعيش في "فلورنسا"، وقد هام حبًّا بامرأة تسمى "إيرميليندا"؛ وكانت هذه السيدة متزوجة من "ألدوبراندينو باليرميني". وكانت ذات خصال حميدة، مما جعل حب "تيدالدو" لها يكبر يومًا بعد يوم؛ حتى جاء اليوم الذي تمكن فيه من تحقيق مبتغاه. إلا أن الحظ، عدو السعداء، كان يقف له بالمرصاد؛ فقد امتنعت المرأة عن مواصلة إمتاعه بحبها، ولم تعد ترغب في رؤيته بأية حال. عانى "تيدالدو" من جراء

ذلك ألمًا وغمًّا عظيمين، دون أن يعرف أحد سبب معاناته، وحاول مرارًا وتكرارًا استرداد الحب الذي رأى أنه قد ضاع منه دون ارتكاب أي ذنب. ولأن كل جهوده باءت بالفشل، فقد قرر ترك عالمه، والابتعاد عن الجميع. فأخذ كل ما لديه من أموال، ودون أن يخبر أحدًا بأي شيء، باستثناء صديق يعرف عنه كل شيء، رحل إلى "أنكونا"؛ وأصبح يُعرف هناك باسم "فيليبو دي سان لوديشيو". وعمل لدى تاجر غني، وسافر معه إلى قبرص. وقد نال سلوك "فيليبو" المهذب إعجاب التاجر، الذي لم يكتف بدفع أجر جيد له، بل جعله شريكًا له؛ وأصبحا صديقين حميمين.

وفي غضون سنوات قليلة، أصبح "تيدالدو" تاجرًا غنيًّا. إلا أنه كان لا يزال يتذكر المرأة القاسية، ويرغب في العودة لرؤيتها. لكنه استطاع أن يتغلب على رغباته تلك طوال سبع سنوات. وفي أحد الأيام، بينما هو في قبرص، سمع أغنية كان هو نفسه قد صاغ كلماتها، ويتحدث فيها عن حبه للمرأة. فدفعه سماع الأغنية إلى التفكير في الأمر، والعودة إلى "فلورنسا". فرتب كل أموره، ورجع مع خادمه الوحيد إلى "أنكونا"؛ وكانت أمواله وأملاكه قد تم إرسالها إلى المدينة، فأرسلها من هناك إلى صديقه وشريكه في "فلورنسا". ثم انتقل هو نفسه، سرًّا، إلى "فلورنسا"، متنكرًا كحاج آتٍ من الديار المقدسة؛ ونزل في فندق متواضع يملكه أخوان ويقع بالقرب من بيت السيدة.

وكان أول ما قام به هو الذهاب إلى بيت هذه السيدة لكي يراها، ولكنه وجد الأبواب والنوافذ وكل شيء فيه مغلقًا، فخشى أن تكون قد ماتت، أو رحلت من هناك. وذهب إلى بيت إخوته، فوجدهم يلبسون ثياب الحداد

السوداء. فسأل عندئذٍ اسكافيًا عن سبب ذلك الحداد، فرد عليه: إن سبب حدادهم هو أن أخًا لهم يدعى "تيدالدو"، غادر قبل سنوات قليلة، قد مات قبل خمسة عشر يومًا. وقد ثبت للمحكمة أن "ألدوبراندينو باليرميني" هو الذي قتله، لأن الشاب كان قد رجع سرًّا إلى هنا، وأقام علاقة غير شرعية مع زوجته. تعجب "تيدالدو" كثيرًا من أن يكون هناك من يُشبهه إلى حد الاعتقاد بأنه هو نفسه. وعلم أن المرأة ما تزال على قيد الحياة. وكان الوقت قد أصبح ليلًا، فرجع إلى الفندق، وتناول العشاء مع خادمه، ثم ذهب إلى الفراش. وبسبب الأفكار الكثيرة التي داهمته من جهة، وخشونة الفراش من جهة أخرى، وربما أيضًا بسبب قلة طعام العشاء، لم يستطع "تيدالدو" النوم. وعند منتصف الليل، بدا له أنه سمع أشخاصًا ينزلون من السطح، فنهض ونظر من خلال الباب، فرأى ضوءًا يدنو منه، فأمعن النظر، فرأى فتاة جميلة تحمل مصباحًا، وثلاثة رجال يتقدمون نحوها، هم الذين نزلوا من السطح. وبعد أن تبادلوا التحية، قال أحدهم للفتاة:

- فليباركك الرب! بإمكاننا الاطمئنان الآن، لأننا نعرف أن إخوة "تيدالدو" قد ألصقوا تهمة قتله بـ"ألدوبراندينو باليرميني"، وقد اعترف هو بالجريمة، وصدر عليه الحكم. ولكن علينا أن نحافظ على صمتنا. فإذا ما عُرف أننا من قمنا بذلك، فسوف نتعرض للخطر الذي يتعرض له الآن "ألدوبراندينو".

أبدت المرأة ابتهاجها بهذا القول، ثم افترقوا وذهبوا للنوم. أما "تيدالدو" فأخذ يفكر في الأخطاء التي يمكن أن يقع فيها العقل البشري؛ ففكر في البداية في إخوته الذين بكوا غريبًا ودفنوه باعتباره أخاهم، ثم وجهوا التهمة

إلى بريء، وحُكم عليه بالموت بناءً على شهادات زور. وتأمل صرامة القوانين العمياء وظلم القائمين عليها، ممن يسمون أنفسهم أنصار العدالة، بينما هم جلادو الظلم والشيطان. ثم أمعن تفكيره بعد ذلك على إنقاذ "ألدوبراندينو"، وقدر بينه وبين نفسه ما يتوجب عليه عمله.

وفي الصباح، وعندما بدا له الوقت مناسبًا، ترك خادمه وذهب بمفرده إلى السيدة. وشاءت المصادفة أن يكون الباب مفتوحًا، فدخل ووجد السيدة على الأرض تبكي حزينة؛ فكان يبكي هو الآخر شفقة عليها، وقال لها: لا تقلقي يا سيدتي، فهناك حل لكل شيء، وستجدين الطمأنينة عما قريب. فنظرت إليه، وقالت باكية: يبدو لي أنك رجل طيب، أيها الحاج الغريب. ولكن ما الذي تعرفه أنت عن أحزاني؟

فرد عليها الحاج عندئذٍ قائلًا:

- أنا من القسطنطينية، يا سيدتي؛ وقد بعثني الرب لأحول دموعك إلى سعادة، ولأخلص زوجك من الموت.

قالت السيدة:

- ماذا تقول؟ إذا ما كنت غريبًا من القسطنطينية، ووصلت إلى هنا للتو، فكيف لك أن تعلم من هو زوجي، وما الذى حل به؟

فأخذ الحاج يروي لها من البداية قصة زوجها وقصتها، وأخبرها بأنه يعرف مَن هي، ومنذ متى تزوجت، وغيرها من الأشياء الأخرى الكثيرة التي يعرفها من حياتها؛ فتعجبت المرأة واعتبرته نبيًّا، وجثت عند قدميه متوسلة إليه أن يسرع في إنقاذ "ألدوبراندينو"؛ لأن الوقت المتبقي قليل جدًّا. فقال لها

الحاج، مبديًا وجه قديس: انهضي، يا سيدتي، وتوقفي عن البكاء، وما سأقوله لكِ لا تخبري به أحدًا. لقد أوحى إليَّ الرب أن سبب محنتك هي خطيئة كبيرة ارتكبتِها منذ زمن، ويريد الرب منك أن تصلحي تلك الخطيئة. وردت المرأة قائلة:

- لقد ارتكبت كثيرًا من الخطايا، ولست أدري أيها التي يريد الرب مني أن أصلحها؛ فإذا كنت تعرفها، فأخبرني بها، وسأفعل كل ما أستطيع لإصلاحها.

فقال لها الحاج:

- إنني أعرف تلك الخطيئة جيدًا، يا سيدتي، ولن أسألك عنها لكي أعرفها، وإنما لكي تشعري أنت نفسك، عند ذكرها، بمزيد من تأنيب الضمير. فأخبريني: ألا تتذكرين عشيقًا لك؟

أطلقت المرأة زفرة عظيمة حين سمعت هذا الكلام، وعجبت أشد العجب، وقالت له: أرى أن الرب يطلعك على كل أسرار البشر. والحقيقة أنني أحببتِ في شبابي الفتى قليل الحظ الذي ألصقوا بزوجي جريمة مقتله. وقد بكيت لموته وحزنت له أشد الحزن، لأني كنت قاسية معه، ولم يستطع رحيله، وغيابه الطويل، وموته أن يبعده عن قلبي.

فقال لها الحاج:

- أنت لم تحبي القتيل قليل الحظ قط، وإنما أحببتِ "تيدالدو". ولكن، أخبريني، لماذا صددته؟ هل أغضبك في شيء؟

فقالت المرأة:

- الحقيقة أنه لم يغضبني قط، لكن سبب صدي له هي كلمات كاهن ملعون، اعترفت أمامه يومًا، فاستنكر علاقتنا تلك، وقال لي إن استمراري على ذلك النحو سيودي بي إلى الجحيم والنار الأبدية. فخفت أشد الخوف، وقطعت علاقتي بحبيبي، ورفضت تلقي رسائله أو رسله. ولكنني كنت سأرجع عن قراري لو أنه كان أكثر صبرًا وتصميمًا، بدلًا من أن يرحل مثلما فعل.

فقال الحاج عندئذٍ:

- سيدتي، هذه هي الخطيئة الوحيدة المنسوبة إليك. فأنا أعرف أن "تيدالدو" لم يجبرك على شيء في علاقاتك معه، وأن كل ما حدث كان برغبتك. فلماذا صددته؟ هذا أمر يجب التفكير فيه، وعدم التصرف بتسرع وتهور. فقدِ كنتِ له مثلما كان هو لك. وكان بإمكانك أن تفعلي به ما تشائين. لكن أن تنتزعي نفسك منه فهذا أمر غير مقبول، ما لم يكن بإرادته. وأنا أعرف ككاهن كل عادات الكهنة. ولهذا، فأُريد منك أن تسمعيني جيدًا. سأخبرك بأمور كنت تجهلينها من قبل؛ ففي ما مضى، كان هناك كهنة شديدو الورع وقديسون، أما مَن يسمون كهنة اليوم، فيريدون أن يُنظر إليهم على أنهم كذلك؛ ولكن ليس لهم من الكهانة إلا الشكل؛ وحتى هذا الشكل لم يعد مثلما كان في السابق. فثياب الكهنة الآن فضفاضة زاهية وصناعتها متقنة ومبهرجة، وليست متواضعة ومن أقمشة خشنة. ومثل الصياد الذي يريد أن يصطاد بشبكته من الأنهار أسماكًا كثيرة دفعةً واحدةً، يريدون هم أن يأخذوا تحت جناحهم الكثير منِ المتدينات، والأرامل والنساء

والساذجات، بل ومن الرجال أيضًا. كان الكهنة من قبل يرغبون في خلاص البشر، أما كهنة هذه الأيام فيرغبون في النساء وفي الثراء. وكي يحصلوا عليهما، يستخدمون ثرثرتهم لإخافة العقول الساذجة. ويُعلمون الناس أن تقديم الصدقات يطهرهم من الخطايا، حتى يتنعم بها أولئك الذين دخلوا سلك الكهنوت بدافع الجشع "وليس الورع"، دون أن يمارسوا أي عمل بأيديهم؛ فهذا يرسل إليهم الخبز، وذاك يرسل إليهم النبيذ، وآخر يقدم إليهم المال من أجل سعادة أرواح موتاه. يعظون ضد لقاءات الغرام، كي يستبقوا لأنفسهم النساء اللواتي يبتعد الآخرون عنهن. ويستنكرون الجشع والربا كي تقدم إليهم الأموال المكتسبة بأساليب غير مشروعة. فإذا ما حاول أن يلومهم أحد على أفعالهم الكثيرة المستنكرة، يقولون: "اقتدوا بأقوالنا ولا تقتدوا بأفعالنا". فالكهنة يريدون منكم أن تتخلوا عن المال، ويرغبون في معرفة أسراركم، ويريدون منكم أن تحافظوا على العفة، وأن تغفروا الإساءات. وكل هذا حسن وشريف، لكن هدفهم هو التوصل بسهولة أكبر إلى ما يبتغون: فهم يريدون مالًا كي يظلوا كسالى بلا عمل؛ ويطالبون الآخرين بالعفة كي يستحوذوا على النساء، ويطلبون غفران الإساءات كي يسيئوا هم باطمئنان. وباختصار، فإذا كانوا يريدون القداسة حقًّا، فلماذا لا يتبعون كلمات الإنجيل المقدسة القائلة: "وبدأ يسوع يعمل ويُعلِّم"؟ فيعملوا أولًا ثم يعلموا الآخرين بعد ذلك. لقد رأيت في حياتي كثيرًا من الكهنة المتوددين إلى النساء، ومحبي النساء، ممن لا يقتصرون على التردد على النساء الملحدات، وإنما كذلك على راهبات الأديرة. فهل نتبع أمثال هؤلاء؟ ولو فرضنا أن الزنا خطيئة حقًّا، كما قال لك ذلك الكاهن، أليس أسوأ منها

تشريد رجل؟ صحيحٌ أن العلاقة الحميمة بين رجل وامرأة هي خطيئة طبيعية، ولكن سرقته، أو قتله أو نفيه، هي خبائث كبرى. وقد كنتِ أنت سببًا في تشريد "تيدالدو"، وهذه خطيئة أكبر من غيرها. أكان يستحق منك مثل هذه المعاملة؟ أنت نفسك لا تقرين بذلك. أضيفي إلى ذلك أنه يحبك كثيرًا. لقد كان نبيلًا وشريفًا. ولست أدري كيف انصعتِ إلى ذلك الكاهن القاسي والحاسد. فعلى النساء أن يفكرن في ما هن عليه، وفي النبل والمكانة السامية التي منحها الرب للإنسان، وعندما يشعرن أنهن محبوبات من الرجل، فعليهن أن يقدرنه وأن يبذلن كل ما في وسعهن لعدم فقدانه. أما أنت، فلم تتصرفي على هذا النحو، وشاءت العدالة الربانية أن تعاقبك على ذلك، فأصبح زوجك اليوم في خطر عظيم، وأنت في غم شديد. ولكي تخرجي من هذا الوضع، عليك أن تعديني بقبول "تيدالدو"، إذا ما عاد إليك من جديد.

فقالت: لقد أدركت من كلامك، أيها القديس، سبب كل ما جرى لي، وأصبحت أرى كل شيء بوضوح أشد، وأشعر بالندم لما جرى لـ"تيدالدو". ولكن، كيف يمكنني إصلاح تلك الخطيئة؟ فـ"تيدالدو" لا يستطيع الرجوع، لأنه مات.

ورد عليها الحاج: تيدالدو" لم يمت، يا سيدتي، لقد كشف لي الرب ذلك؛ بل إنه حي، وعلى ما يرام.

فردت المرأة: كيف تقول ذلك؟ أنا نفسي رأيته ميتًا طعنًا بالسكين أمام البيت. وبكيت بمرارة على جثمانه؛ وربما كان بكائي السبب الذي دفع الناس للتحدث عني بسوء، والطعن في شرفي.

فقال الحاج مؤكدا: سيدتي، أؤكد لك أن "تيدالدو" حي، وآمل أن تلتقي به قريبًا.

فقالت المرأة: أقصى سعادة أرجوها الآن هي رؤية زوجي حرًّا، ورؤية "تيدالدو" حيًا.

عندها بدا لـ"تيدالدو" أن الوقت قد حان للكشف عن حقيقته، ومواساة السيدة بشيء من الأمل عن زوجها، فقال لها:

– سيدتي، قبل أن أقدم لك أخبارًا عن زوجك، سأقدم لك مفاجأة، على ألا تخبري أحدًا بشيء.

كانا يجلسان بمفردهما، فأخرج "تيدالدو" بحرص خاتمًا يحتفظ به، لأنه تذكار قدمته إليه السيدة في الليلة الأخيرة التي التقيا فيها، وقال لها:

– أتتذكرين هذا الخاتم يا سيدتي؟

فأجابت وقد تعرفت عليه:

– أجل، أنا أعطيته لـ"تيدالدو".

عندئذ نهض الحاج، ورمى عنه عباءته والقبعة، وقال باللهجة الفلورنسية:

– وهل تعرفت عليَّ أنا أيضًا؟

وحين عرفت السيدة أنه "تيدالدو". كادت أن تهرب من شدة الخوف، كما لو أنها رأت ميتًا يخرج من قبره، فقال لها:

– لا تخافي يا سيدتي، إنني حبيبك "تيدالدو"، وأنا لا أزال حيًّا، ولم أمت قط، ولم يقتلني أحد.

اطمأنت المرأة بعض الشيء، وألقت بنفسها إليه مطوقة عنقه، وقالت

وهي تقبله: أهلًا بك يا "تيدالدو" الحبيب. وبعد أن عانقها وقبلها، قال لها:

- لاوقت للمداعبات الآن، يا سيدتي، ولنهتم بقضية "ألدوبراندينو". وآمل أن آتيك غدًا بأخبار طيبة.

ثم ارتدى ثياب الحاج مرةً أخرى، وغادر السيدة ليذهب إلى السجن الذي يقبع فيه "ألدوبراندينو". كان السجين خائفًا من الموت الوشيك، واستقبل "تيدالدو" على أنه شخص آت لمواساته، فأخبره قائلًا: أنا يا "ألدوبراندينو" صديق أرسله الرب الذي أشفق على براءتك. فإذا ما قدمت لي جميلًا سأطلبه منك، فسوف تنال حريتك في الغد، بكل تأكيد.

فرد عليه "ألدوبراندينو":

- إذا كنت مهتمًا بنجاتي ، فلابد أن تكون صديقًا لي، حتى وإن كنت لا أعرفك. أنا لم أفعل قط عملًا سيئًا أستحق عليه الموت. وسأفعل كل ما تراه إذا ما نجوت مما أنا فيه.

فقال الحاج عندئذ:

- أريد منك أن تصفح عن إخوة "تيدالدو"، الذين أوصلوك إلى هذا السجن. فهم يظنونك قد قتلت أخاهم، وأريد أن تكون صديقًا لهم إذا ما طلبوا منك الصفح.

فقال:

- المظلوم وحده هو من يعرف لذة الانتقام. ولكنني- إذا ما خرجت من هذا السجن- فسوف أسامحهم على الرحب والسعة.

شعر الحاج بسعادة لهذه النتيجة. ثم غادر، وقد وعده بحل كل المشاكل. ثم توجه إلى منزل رئيس المدينة، فقابله وقال له: علينا جميعا، وخاصة مَن هم

في مناصب عليا، مثلك يا سيدي، أن نعمل على إظهار الحقيقة. ومن أجل تحقيق ذلك، جئت إليك. فاعلم أنك قد تصرفت بقسوة وظلم مع "ألدوبراندينو باليرميني"؛ فالاتهام ضده مزور وزائف، وسأثبت لكم ذلك، وسأدلكم على المذنبين الحقيقيين.

استمع السيد إلى كلام الحاج؛ وبعد حديث طويل، أمر بإلقاء القبض على الأخوين صاحبي النزل وخادمتهما. وتحت التهديد بالتعذيب، تكلموا، واعترفوا بأنهم من قتلوا "تيدالدو ديلي إيليسي"، دون أن يعرفوه. وعند سؤالهم عن السبب، أجابوا بأن القتيل ضايق زوجة أحدهما كثيرًا، وهما خارج الفندق، وأرد إجبارها على الاستجابة لرغبته.

عندئذٍ ذهب الحاج إلى بيت السيدة "إرميلينا"، فوجدها بانتظاره متلهفة لمعرفة أخبار زوجها، فقال لها مبتسمًا: أبشري يا سيدتي، ففي صباح غد سيأتي إليك زوجك "ألدوبراندينو" سليمًا معافى. ولكي يزيد في طمأنتها، شرح لها كل ما جرى. وكانت هي سعيدة، فألقت بنفسها بين ذراعيه وقبلته، ثم ذهبا معًا إلى الفراش وتبادلا الغرام بكل سعادة.

وفي الصباح التالي، خرج "تيدالدو" من البيت بملابس الحاج. وأطلق رئيس المدينة سراح "ألدوبراندينو"، وأمر بقطع رؤوس الجناة الحقيقيين. وبعد أن تحرر "ألدوبراندينو"، أخبر زوجته وأقاربه بأن الفضل في خلاصه يعود إلى ذلك الحاج، وعرض عليه أن يقيم في بيته طوال الوقت الذي سيقضيه في المدينة؛ وقام الجميع هناك بتكريمه، وخاصة المرأة التي كانت تعرف جيدًا من هو ذلك الحاج الذي تكرمه.

وبعد مرور بضعة أيام، ذكَّر الحاج "ألدوبراندينو" بأن ينجز وعده

بمصالحة إخوة "تيدالدو"، فوافق الآخر على ذلك، ودعا الإخوة الأربعة وزوجاتهم إلى وليمة كبيرة. وهكذا تحققت المصالحة، وعادت الصداقة بينهم مرةً أخرى. فألقيت الأسلحة أرضًا، وطلبوا منه الصفح. وأقاموا وليمة كان الجو فيها مليئًا بالسعادة لا يعكره سوى الحداد والحزن على موت "تيدالدو". وعندما فرغوا من تناول الطعام، قال لهم: الشيء الوحيد الذي ينقص هذه الوليمة هو حضور "تيدالدو"، الذي كان بينكم طوال الوقت دون أن تعرفوه، ولكنني أريدكم أن تروه الآن. وألقى عن نفسه ثياب الحاج التي كان يرتديها، وظهر مرتديًا رداء أخضر. وليزيح كل أثر للشكوك، أخبرهم ببعض تفاصيل أحداث سرية جرت قبل رحيله، إلى أن أقنعهم. فسارعت النساء إلى معانقته، باستثناء "إرميلينا". فقال لها "ألدوبراندينو" حين رأي ذلك:

– ما هذا يا "إرميلينا"؟ لماذا لا تحتفين أنتِ أيضًا بـــ"تيدالدو"، مثل الأخريات؟

عندئذ قالت المرأة بصوت يسمعه الجميع: كنت أود ذلك بكل سعادة، لأني أكثرهن امتنانًا له، بعد أن استعدتك بفضله؛ لكنني لا أريد أن تتكرر الأقاويل المشينة التي انتشرت عندما بكيت موت من ظنناه "تيدالدو".

فرد عليها زوجها: هيًا، هيًا! أتظنين أنني أصدق كلام أولئك المسيئين؟ لقد ظهر الآن أن كل ذلك كان كذبًا وبهتانًا، فضلا عن أنني لم أصدق كلمة منه قط، فانهضي وعانقيه. ولم تكن السيدة ترغب في شيء أكثر من ذلك، فلم تتباطأ في الانصياع لرغبة زوجها، وسارعت إلى معانقته. وبذلك تم القضاء على أية فكرة تنال من عفة "إرميلينا".

وبعد ذلك بدأ الرقص، وكان الجميع سعداء، وواصلوا الاحتفالات عدة

أيام. ومع أن الفلورنسيين احتفوا بعودة "تيدالدو" إلى الحياة كمعجزة، إلا أن شكوكًا ظلت تراود الكثيرين، بمن فيهم بعض إخوته، حول حقيقة شخصيته، إلى أن حدث أمرٌ أوضح حقيقة الرجل الذي مات. ففي أحد الأيام، مر بعض الجنود الآتين من "لنيجيانا"، قبالة بيت "تيدالدو". وحين رأوه تقدموا منه وقالو له: ها قد وجدناك وقد تحسنت أحوالك يا "فازينولو"!

فرد عليهم "تيدالدو"، وهو بين إخوته:

– أعتقد أنكم تظنونني شخصًا آخر.

فقال الآخرون:

– معذرةً، يا سيدي، ولكنك تشبه إلى حدٍّ كبير صديقًا لنا يدعى "فازينولو بونتريمولي"؛ كان قد أتى إلى هنا منذ خمسة عشر يومًا، ولم نعد نراه. وقد استغربنا في الحقيقة ملابسك الفارهة، لأنه كان جنديًا مثلنا.

فسألهم عندئذ الأخ الأكبر لـ"تيدالدو" عما كان يرتديه. وعندما وصفوه تبين للجميع حقيقة ما حدث بشكل كامل؛ فالقتيل هو" فازينولو" وليس "تيدالدو". وبالتالي زالت كل الشكوك من نفوس إخوته والآخرين جميعهم، وتمسك بحبه للمرأة، واستمتع طويلًا بحبها. ندعو الرب أن يمنحنا السعادة مع من نحب.

القصــة الثَّــامنة

يتناول "فيروندو" مسحوقًا، فيُظَن أنه قد مات ويوارى الثرى؛ ورئيس دير كان يستمتع بزوجته، ينبش عنه ويخرجه من القبر، ويقنعه بأنه في المطهر، ثم يعيده حيًّا بعد ذلك كي يعتني بالابن الذي أنجبته زوجته من رئيس الدير نفسه.

بمجرد أن انتهت "إيميليا" من سرد قصتها، أشارت الملكة إلى "لوريتا" بإيماءة خفيفة كي تواصل، فبدأت تقول:

صديقاتي العزيزات، سأروي لكُن حقيقةً تبدو مستحيلة التصديق؛ وقد أوحت إليَّ بها القصة السابقة، حين روت عن البكاء على ميت آثم. وسأروي لكنّ عن حي دُفن على أنه ميت، ثم تم إقناعه بعد ذلك بأنه إنما انبعث من القبر، وأنه ليس حيًّا، فأحيط بهالة من القداسة مَن كان ينبغي أن يدان كمذنب.

كان وما يزال هناك في "توسكانا" ديرٌ، يقع في بقعة نائية تمامًا عن البشرية؛ رئيسه كاهن شديد الورع في كل الأمور، غير أنه ضعيف تجاه النساء. وكان يحيط فعله ذلك بسرية تامة، حتى إن أحدًا لم يطلع أبدًا على

شيء من سلوكه المشين. وقد ارتبط بعلاقة وطيدة بأحد الأثرياء القرويين، اسمه "فيروندو"، وكان شخصًا جاهلًا وفظًّا، له زوجة فاتنة الجمال، وقع رئيس الدير في غرامها إلى حد الهيام. فقد سلبته لبه ، وملك هواها عليه تفكيره. لكن اليأس من الوصول إليها استبد به، لأن "فيروندو" يحيطها بسياج من الحرص والغيرة. غير أن الكاهن الخبيث تمكن من إقناعه بإحضار زوجته إلى الدير لتعترف بين آن وآخر، كي تنال السعادة الأبدية. وقد نجح في جعل المرأة تهتم بتلك الأمور، فحصلت على إذن زوجها كي تغدو وتروح للاعتراف أمام رئيس الدير، وهناك باحت له بالسر قائلة:

– لو لم يكن لي زوج، يا سيدي، لكنت سلكت بفضل تعاليمكم طريق الحياة الأبدية. لكنني أعتبر نفسي أرملة مع متبلد المشاعر "فيروندو"، دون أن أتمكن من اتخاذ زوج آخر. وهو مع ذلك غيور جدًّا، يضيق عليَّ ولا يتيح لي العيش. ولهذا أطلب نصحكم حول هذا الأمر، قبل أن أبدأ بالاعتراف.

استمع رئيس الدير إلى السيدة، وقد راقت له كلماتها، وأثلجت شكواها صدره، وبدا له أن الحظ قد فتح له الطريق لبلوغ ما يشتهيه، فقال لها:

– أتفهم كم هو مزعج أن يكون لسيدة جميلة ورقيقة مثلك زوج غبي، وأن يكون- علاوة على ذلك- شديد الغيرة. ولست أرى سوى حل واحد، يمكن له أن ينهي غيرة "فيروندو". هناك دواء يمكن أن يشفيه، ولكن عليك أن تكتمي السر ولا تُفشي ما سأقوله لك، مهما كان الأمر.

فردت المرأة بالقول:

– أبونا، لن أتفوه بشيء بكل تأكيد؛ وأفضل الموت على البوح لأحد

بكلمة مما تقوله. ولكن كيف يمكن بلوغ ذلك؟

فقال رئيس الدير:

– إذا أردنا له الشفاء، فلابد من أن يذهب إلى المطهر.

قالت المرأة:

– وكيف يمكنه الذهب إلى هناك، وهو حي؟

رد رئيس الدير قائلًا:

– لا بد أن يموت أولًا، وعندما يتطهر من غيرته، نصلي للرب كي يعيده إلينا، فيتحقق ذلك.

فاستفسرت المرأة بقولها:

– وأصير أرملة؟

فأجابها رئيس الدير:

– لبعض الوقت فقط، ولا يمكنك الزواج من أحد خلال هذه الفترة، لأن الرب سيستاء من ذلك، وسيكون عليك أن تعودي إلى "فيروندو"، عندما يرجع من الموت، وعندئذ ستزداد غيرته أكثر من السابق.

فقالت المرأة:

– إذا كان سيشفى، فأنا مستعدة لعمل أي شيء. فافعل ما بدا لك.

رد عليها رئيس الدير:

– سوف أفعل؛ لكن ما المقابل الذي ستقدمينه لي؟

– سأفعل ما تريده يا أبونا؛ ولكن ما الذي يمكن لامرأة مثلي أن تقدمه لك؟

– ما يمكنك تقديمه لي لا يقل عما سأقدمه لك. فما سأفعله سيوفر لك

الراحة ، وأنت تستطيعين أن تقدمي ما يكون فيه منفعة لي وإنقاذ لحياتي.

فردت المرأة:

– إذا كان الأمر كذلك، فأنا موافقة.

قال رئيس الدير:

– ستمنحيني حبك إذن، لأنني أتحرق وأتلهف إليه.

ذهلت المرأة، حين سمعت هذا الكلام، وردت قائلة:

– أبونا، ما هذا الذي تطلبه؟ أنا أرى فيك قديسًا. فهل يليق بالقديسين أن يغازلوا النساء اللواتي يطلبن مساعدتهم؟

فقال رئيس الدير:

– لا تتعجبي، يا روحي الجميلة؛ فالقداسة لا تنتقص، لأنها في الروح، وما أطلبه منك هو خطيئة جسد. لقد أسرني جمالك، واضطرني إلى هذا السلوك. ويمكن لك أن تفخري بجمالك، لأنه يلقى إعجاب القديسين المعتادين على رؤية الجمال السماوي. ومع أنني رئيس دير، إلا أنني لا أزال رجلًا مثل بقية الرجال، وأنا لست مُسنا جدًّا كما ترين. ويجب ألا تتضايقي من هذا، بل تسعدين، لأنك ستظلين برفقتي طالما بقي "فيروندو" في المطهر، ولن يعلم أحد بذلك. فلا ترفضي نعمة الله إليك، فكثيرات يتمنين أن يكن مكانك. وإذا ما عملت بنصيحتي بتكتم، سيكون لك ما لدي من مجوهرات. فكافئيني، يا حبي، على الجميل الذي سأقدمه إليك.

ظلت تستمع إليه بإنصات، ولم تدر كيف ترفض ما يطلبه، لأنها لا ترى القبول لائقًا. فاستغل رئيس الدير ترددها، واستمر في محاولة إقناعها إلى أن توصل إلى مبتغاه. فانتهت إلى القول بخجل إنها موافقة، شريطة أن يتم ذلك

بعد انتقال "فيروندو" إلى المطهر.

فرد عيها رئيس الدير بسعادة:

- سأحاول إرساله إلى هناك فورًا. أخبريه أن يأتي للقائي غدًا، أو بعد غد.

ثم قدم للمرأة خاتمًا بديعًا، وودعها. وقد فرحت بالهدية، ومنت نفسها بهدايا أخرى كثيرة؛ فرجعت إلى بيتها وأخذت تروي أمورًا كثيرة عن نزاهة رئيس الدير وعفته.

وبعد أيام ذهب "فيروندو" إلى رئيس الدير، وكان الأخير مستعدًّا لإرساله إلى المطهر. فقد كان لديه مسحوق أهداه إليه أمير من مناطق الشرق، يتسبب في نوم من يتناوله. فأخذ كمية من المسحوق تكفي لتنويم "فيروندو" يومين أو ثلاثة، وأذابها في كأس نبيذ. وما إن تناولها "فيروندو"، حتى هجم عليه النعاس، وسقط ساكنًا بلا حراك، وراح يغط في نوم عميق. تظاهر رئيس الدير بالقلق والدهشة أمام الرهبان، وعامله كما لو كان مغمًى عليه، وطلب إحضار ماء بارد ورشه على وجهه، وجرب وسائل أخرى لإنعاشه. ولكن دون جدوى، إذ توقف نبضه، واعتبروه قد فارق الحياة. نقل الرهبان الخبر إلى زوجته وأقربائه، ثم وضعوه في تابوت. وبعد أن بكت المرأة على الجثمان، رجعت إلى بيتها لتعتني بطفلها، وبثروة "فيروندو".

وفي الليل، ذهب رئيس الدير مع راهب من مدينة "بولونيا" يثق به، وكان قد جاء من "بولونيا" في نفس ذلك اليوم، فأخرجا "فيروندو" من القبر، وأخذاه إلى غرفة مظلمة، تُستخدم سجنًا لمعاقبة الرهبان المذنبين. وهناك جرداه من ملابسه تمامًا، وألبساه ثياب راهب، وتركاه إلى أن يصحو ويستعيد الوعي.

وفي اليوم التالي، ذهب رئيس الدير مع بعض الرهبان لزيارة المرأة ومواساتها، فوجدوها ترتدي ثياب الحداد السوداء، فعزاها وذكرها في الوقت نفسه بالوعد الذي قطعته على نفسها. وحين وجدت المرأة نفسها، وقد تحررت من "فيروندو"، ورأت في يد رئيس الدير خاتمًا آخر بديعًا، اتفقت معه على اللقاء في تلك الليلة.

وعندما جاء إليها رئيس الدير في الليل، ضاجعها وتمتعا وتلذذا سويًّا حتى صباح اليوم التالي؛ ثم رجع إلى الدير. وكرر مجيئه إليها مرات كثيرة. وكان يرتدي ثياب "فيروندو"، حتى إذا ما لمحه أحد في ذهابه وإيابه، ظن أنه "فيروندو" الذي يقوم بالتكفير عن خطاياه في ذلك الحي بعد موته. وقد انتشرت قصص كثيرة عنه بين أهالي المنطقة، ووصلت أخبار بعضها إلى المرأة التي كانت تعرف حقيقة ما جرى.

أما "فيروندو" من جهته، فبعد أن استعاد وعيه، ودون أن يدري أين هو، دخل عليه الراهب البولوني حاملًا بعض العصي، وأمسك به وأشبعه ضربًا. فراح "فيروندو" يبكي ويصرخ، ويسأل:

– أين أنا؟

فيرد عليه الراهب:

– إنك في المطهر.

فيقول:

– وهل أنا ميت؟

– أجل.

أخذ "فيروندو" يبكي على نفسه وعلى زوجته وابنه. وأحضر له الراهب

طعامًا وشرابًا، فقال له "فيروندو" مستغربًا:

– وهل يأكل الموتى؟

فأجابه الراهب:

– أجل، بالطبع. وهذا الطعام الذي جئتك به هو ما أحضرته امرأتك إلى الكنيسة صباح اليوم، من أجل إقامة قداس كي تستريح روحك. وقد شاء الرب أن يقدم لك ذلك الطعام.

فقال "فيروندو":

– امنحها البركة، يا سيدي! لقد كنت أحبها كثيرًا قبل موتي، وأبقيها طوال الليل بين ذراعي، ولا أتوقف عن تقبيلها، وعن عمل أشياء أخرى كذلك، عندما تأتيني الرغبة.

ولأنه كان يشعر بجوع شديد، فقد راح يأكل ويشرب، فوجد طعم النبيذ سيئًا، فقال:

– إنه نبيذ سيء، يا سيدي، فهي لم ترسل إلى الكنيسة، بكل تأكيد، ذلك النبيذ الموجود بجوار الجدار.

وعندما انتهى من تناول الطعام، ضربه الراهب مرة أخرى ضربًا شديدًا، فسأله صارخًا:

– آه! لماذا تضربني؟

فقال الراهب:

– لأن الرب إلهنا أمر أن تضرب مرتين كل يوم.

– وما السبب؟

– لأنك كنت شديد الغيرة في تعاملك مع أفضل زوجة في المدينة.

أجاب الزوج:

– كم أنت محق فيما تقول، إنها أرق امرأة، بل إنها أحلى من السكر. ولكنني لم أكن أعرف أن الرب إلهنا يعاقب الرجل الغيور؛ ولو عرفت من قبل ما كنت كذلك.

– كان عليك أن تعرف ذلك وأنت هناك، وأن تندم عليه؛ وإذا ما حدث أن رجعت يومًا، فتذكر ما أفعله بك الآن، كي لا تكون غيورًا.

فقال فيروندو:

– وهل يمكن للموتى أن يعودوا؟

– أجل، عندما يشاء الرب.

قال "فيروندو":

– آه، إذا ما رجعت، فسوف أكون أفضل زوج في العالم! لن أضرب زوجتي أبدًا، ولن أوجه لها أية إهانات، إلا بسبب النبيذ الذي أرسلته هذا الصباح، ولأنها لم تحضر شموعًا لإنارة المكان.

فأعلن الراهب:

– لقد أحضرت شموعًا، ولكنها استهلكت في القداس.

– إذا ما رجعت فسوف أتركها تفعل ما تشاء. ولكن أخبرني، من أنت؟ وكيف تعرف أنت كل هذا؟

فقال الراهب:

– إنني ميت أيضًا، وأنا من "سردينيا". وكنت أمتدح سيدي كثيرًا لأنه غيور، فحكم عليَّ الرب بأن أقدم لك الطعام والشراب، وأن أضربك أيضًا، إلى أن يقرر الرب أمرًا آخر بشأنك وبشأني.

قال "فيروندو":

– ألا يوجد أحد سوانا، نحن الاثنين؟

– بل هناك الملايين، ولكنك لا تستطيع رؤيتهم أو سماعهم، مثلما لا يستطيعون هم رؤيتك أو سماعك.

فسأله "فيروندو":

– وكم نحن بعيدون عن موطننا؟

أجاب الراهب:

– إننا على بعد أميال كثيرة جدًا.

– هذا البعد يعني أننا خارج العالم.

واستمرت هذه الأحاديث، بالإضافة إلى تناول الطعام والشراب والضرب، حتى مضت عشرة شهور؛ وكان رئيس الدير- في أثناء ذلك- يتردد على المرأة الجميلة، ويستمتع بها على هواه. ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان؛ إذ حبلت المرأة، وأخبرت رئيس الدير بذلك في الحال. فرأى أن أفضل حل هو إعادة "فيروندو" من المطهر إلى الحياة، وأن يرجع إلى امرأته، فتقول له إنها حامل منه. وفي الليلة التالية، ذهب رئيس الدير إلى حجرة الحبس، وتصنع صوتًا مختلفًا، وقال لـ"فيروندو":

– فلتسعد يا "فيروندو"، فقد شاءت إرادة الرب أن تعود إلى الدنيا، وتعود إلى زوجتك، فيكون لك ابن منها تسميه "بينديتو"، لأن هذه النعمة جاءتك بفضل صلوات رئيس الدير المقدس، وصلوات امرأتك، وبفضل محبة القديس "بينديتو".

فرح "فيروندو" عند سماعه لهذا الكلام أشد الفرح، وقال:

– كم أنا سعيد، وليبارك الرب رئيس الدير والقديس "بينديتو" وامرأتي الجميلة.

أصدر رئيس الدير أوامره بأن يوضع له في النبيذ قليلٌ من ذلك المسحوق، بما يكفي لتنويمه بضع ساعات. وعندئذٍ ألبسوه ثيابه، وأعادوه إلى النعش الذي دفن فيه. وعندما بزغ ضوء الصباح، رأى أنوارًا من شقوق المدفن، وهو لم يره منذ عشرة شهور، فأدرك أنه حي، وبدأ يصرخ:

– افتحوا لي، أخرجوني ... أخرجوني!

وأخذ يضرب برأسه غطاء النعش بقوة، فحركه من مكانه، وبدأ يفتحه وهو يواصل الصراخ. عندئذٍ، سمعه الرهبان، فهرعوا إلى رئيس الدير الذي تظاهر بأنه توقف عن صلاته، وقال لهم:

– لا تفزعوا يا أبنائي، احملوا الصليب والماء المقدس، وتعالوا ورائي، وسنرى ما الذي تريد قوة الرب إظهاره لنا.

خرج "فيروندو" شاحبًا جدًّا لأنه لم ير الشمس منذ وقت طويل، وألقى بنفسه عند قدم رئيس الدير قائلًا:

– أبونا، لقد علمت أن صلواتك وصلوات زوجتي ومباركة القديس "بينديتو" هي التي أخرجتني من عذاب المطهر، وأعادتني إلى الحياة من جديد؛ فأدعو الله أن يبارك أيامك وشهورك، الآن وإلى الأبد.

فقال رئيس الدير:

–فلتباركك قدرة الرب العظيمة؛ امضِ يا بني لمواساة امرأتك، بعد أن أعادك الرب، فهي لم تتوقف عن البكاء منذ ذهابك. وكن من الآن فصاعدًا صديقًا وعبدًا للرب.

قال "فيروندو":

–أعرف ذلك، يا سيدي، لأنهم أخبروني بذلك. أريد الذهاب إليها الآن فورًا، لأراها وأقبلها، وأظهر لها مقدار حبي.

ظل رئيس الدير مع رهبانه يفكرون في الإعجاز الذي حدث، وطلب منهم إنشاد ترنيمة الرب الرحيم بخشوع. أما "فيروندو" فذهب إلى بيته، وكان كل من يراه يهرب منه، فيناديهم مؤكدًا لهم أنه انبعث من الموت. بل إن امرأته نفسها خافت منه. ولكن- بعد أن بدأ الناس يطمئنون إليه شيئًا فشيئًا، ويرون أنه حي حقًّا- راحوا يسألونه عن أشياء كثيرة. وتحول إلى رجل حكيم، يجيب على كل الأسئلة، ويقدم لهم الأخبار عن أرواح أقربائهم الموتى، ويصنع بنفسه أجمل أسطورة في الدنيا عن وقائع المطهر. وروى أمام الجميع النبوءة التي كشف له عنها الملاك جبرائيل قبل انبعاثه بقليل. ثم عاد بعد ذلك إلى زوجته وإلى بيته، معتقدًا أنه هو الذي تسبب في حمل زوجته. وشاءت المصادفة أن تنجب ابنًا ذكرًا بعد تسعة شهور، فسمي "بينديتو فيروندو".

وأدت هذه الأحداث إلى انتشار سمعة القداسة والورع لدى رئيس الدير، وإلى شفاء "فيروندو" من غيرته. وهكذا عادت المرأة للعيش معه، ولكنها إذا ما أتيحت لها فرصة اللقاء برئيس الدير القديس الورع، كانت تذهب إليه، شاكرةً له أنه لبى لها أشد احتياجاتها بحرص وذكاء.

القصــة التَّاسـعة

تعالج "جيليتا دي نيربونا" ملك فرنسا من قرحة أصيب بها في صدره، ثم تطلب منه أن يزوجها من "بيلترامو دي روسيلوني"، الذي يرى أنه تزوجها رغم إرادته، فيرحل غاضبًا إلى "فلورنسا". وهناك يتودد إلى فتاة، فتتظاهر "جيليتا" بأنها الفتاة، وتنام معه بدلًا منها، وتنجب منه ابنين، فيميل إليها ويعلق بحبها، ويتخذها زوجة له.

عندما انتهت "لوريتا" من قصتها، لم يتبق سوى "ديونيو" والملكة؛ ولأن الملكة لم تشأ أن تنكر على "ديونيو" امتيازه في أن يكون آخر المتكلمين، فقد بدأت كما يلي: من الذي يستطيع أن يحكي لنا الآن قصة تبدو جميلة، بعد سماع قصة "لوريتا"؟ ولحسن الحظ أنها لم تكن أول من بدأ من الرواة، وإلا لما أعجبتنا قصة أخرى، وهو ما سيحدث للقصتين المتبقيتين. ولكنني سأبدأ على أية حال رواية القصة التي تذكرتها ورأيت أنها مناسبة لموضوعنا الحالي.

كان هناك سيد يعيش في مملكة فرنسا، وكان يدعى "ايسنار"، وهو أمير مدينة "روسيون"، وكان مريضًا يعاني من داء دائم، مما اضطره إلى الإبقاء على طبيب يلازمه على الدوام يُدعى "جيرار دي ناربونا". وكان للأمير المذكور ابن

وحيد صغير اسمه "بيلترامو"، وكان الطفل جميلًا ولطيفًا، يلعب دائمًا مع أقران في مثل سنه، بينهم طفلة تدعى "جيليتا"، هي ابنة الطبيب. وعلى الرغم من صغر سنها، إلا أنها قد أحبت "بيلترامو" حبًّا عظيمًا. وكان يأسها كبيرًا حين مات الأمير فيما بعد، وتولى الملك رعاية "بيلترامو"، فاضطر هذا إلى الانتقال إلى باريس. وعندما رحل أبوها بعد وقت قصير من ذلك، أرادت لو تجد سببًا مقنعًا لتذهب إلى باريس وتلتقي بـ"بيلترامو"؛ وكانت قد بلغت سن الزواج، لكنها لم تستطع نسيان "بيلترامو"؛ وكانت ترفض كل من أراد أقرباؤها تزويجها له، دون أن تبدي سببًا لذلك الرفض. وبينما حبها لـ"بيلترامو" يزداد اشتعالًا، علمت أن ملك فرنسا قد أصيب بقرحة في صدره نتيجة ورم لم يعالج جيدًا، وأن تلك القرحة تسبب للملك غمًّا عظيمًا. ولم يكن يوجد، فوق كل هذا، طبيب قادر على علاجه، بالرغم من أن أطباء كثيرين حاولوا ذلك، ولم يوفقوا في العلاج، وإنما زادوا الأمر سوءًا.

فرحت الفتاة كثيرًا لهذا الخبر، واستعادت الأمل لا في الذهاب إلى باريس وحسب، وإنما الظفر بـ"بيلترامو" زوجًا لها كذلك. وكانت قد تعلمت من أبيها الكثير من معارفه الطبية، فحضَّرت دواء من أعشاب رأت أنها مفيدة لعلاج ذلك الداء، وامتطت جوادًا وتوجهت إلى باريس. وقبل أن تقدم على أي شيء، سعت للقاء "بيلترامو"، ثم مثلت بين يدي الملك، وطلبت منه أن يتكرم ويريها داءه. ولم يستطع رفض طلبها، وهو يرى جاذبيتها وجرأتها. ثم قالت له وهي تتعشم القدرة على علاجه:

– أتعشم، بقدرة الرب، يا سمو الملك، أن أتمكن من علاج هذا الداء، خلال ثمانية أيام، دون أن أسبب أي إزعاج أو مشقة لجلالتك.

لم يبال الملك بكلامها، وقال لنفسه ساخرًا منها: "أيمكن لهذه الفتاة أن تعرف ما لم يعرفه أعظم الأطباء؟" لكنه شكرها بلطف على طيب نواياها، وأجابها بأنه صمم على عدم الانصياع لنصيحة أحد من الأطباء، فقالت له:

– أنت تستخف بي، يا صاحب الجلالة، لأنني فتاة، وصغيرة السن. ولكنني أود تذكيركم بأنني أعتمد في العلاج على عون الرب، وعلى ما تعلمته من علم المعلم "جيرار دي ناربونا"، الذي كان أبي وأشهر أطباء العصر.

ففكر الملك عندئذٍ: "عسى أن يكون الرب هو من أرسل لي هذه الفتاة. فلماذا لا أجرب ما تعرف عمله، ما دامت تقول إنها ستشفيني خلال وقت قصير، ودون أي إزعاج؟" وبعد أن قرر تجربة علاجها، قال لها:

– وإذا لم تنجحي في شفائي، بعد أن أتخلى عن قراري في عدم العلاج، ما الذي تريدين أن أفعله بك؟ لقاء تحولي عما كنت اعتزمت من انصراف عن العلاج؟

فأجابت الفتاة:

– ضعني تحت الحراسة يا مولاي، فإذا لم أنجز ما وعدت به خلال ثمانية أيام، فأرسلني إلى المحرقة. ولكن، ما الذي ستقدمه لي إذا ما قمت بعلاجك؟

– أرى أنك لم تتزوجي بعد. وسوف أقوم، إذا ما شفيت، بتزويجك زيجة محترمة وكريمة.

فقالت الفتاة:

– هذا يسعدني حقًا يا مولاي، أن تتولى جلالتك تزويجي؛ ولكن

اجعلني أختار زوجي بنفسي، على ألا يكون من أختار واحدًا من أبنائك أو من الأسرة المالكة.

فوافق الملك على هذا الطلب. وبدأت الفتاة مرحلة العلاج، وتمكنت خلال ثمانية أيام من شفاء الملك. فقال لها:

– لقد ربحتِ، بكل جدارة، أيتها الشابة، الزوج الذي تختارينه، فأخبريني من يكون.

فأجابت:

–من أختاره يا مولاي هو أمير مدينة "روسيون"، الذي أحببته منذ طفولتي، وما أزال أحبه.

رأى الملك أنها بالغت كثيرًا في طلبها، ولكنه لم يشأ أن ينكث وعده لها، فاستدعى الأمير، وقال له:

– لقد صرت رجلًا يا "بيلترامو". ونريد أن تعود إلى حكم مدينتك، وأن تصطحب معك المرأة التي اخترتها زوجة لك.

سأل "بيلترامو":

– ومن هذه السيدة، يا مولاي؟

فأجاب الملك:

– إنها من جعلتني أسترد عافيتي بدوائها.

كان "بيلترامو" يعرفها، ومع أنه يراها شديدة الجمال، إلا أنه لا يعتبرها لائقة به وبسلالته، فرد مستاء:

– أتريد أن تزوجني، يا صاحب الجلالة، من طبيبة؟ لن يرضى الرب عن زواجي من مثل هذه المرأة.

فقال الملك:

– أتريدني أن أنكث بوعد قطعته؟

قال "بيلترامو"

– مولاي، لك أن تحرمني مما أملك، وأن تمنحني ما تشاء، لأني خادمك المطيع، يا سيدي؛ ولكن هذا الزواج لن يسعدني أبدًا.

فرد الملك عليه بقوله:

– بل ستسعدك، فهي فتاة شريفة وجميلة، كما أنها تحبك كثيرًا. وأعتقد أنك ستكون معها سعيدًا بأكثر مما ستكون مع أية سيدة أخرى، حتى ولو كانت أرفع شأنًا منها.

صمت "بيلترامو" ولم يتفوه بشيء. ثم أمر الملك بإقامة احتفالات عظيمة للزفاف. وفي اليوم المحدد عُقد، بحضور الملك، قران "بيلترامو" المتضايق على من تحبه أكثر من نفسها. وعندما انتهت مراسم الزفاف، وتنفيذ أمر الملك، استأذنه "بيلترامو" في الرحيل إلى مدينته، كي ينجز هناك زواجه بشكل عملي. لكن الأمير لم يتوجه، بعد الرحيل، مع زوجته ومرافقيه إلى مدينته، وإنما ذهب إلى "توسكانا". وكانت قد نشبت حرب بين الفلورنسيين والسينيين، فانضم إلى الفلورنسيين الذين استقبلوه بحفاوة، وعينوه قائدًا على قوة منهم، وبقي في خدمتهم لوقت طويل.

أما العروس المستاءة من هذا المصير، والراغبة في أن يعود زوجها إلى مدينته، فذهبت إلى مدينة "روسيون"، حيث استقبلها الجميع كسيدة لهم. ووجدت الخراب والفوضى منتشرين هناك لطول غياب الأمير عن المدينة، فأعادت تنظيم الأمور، وكسبت مودة رعيتها وتقديرهم، بل إنهم صاروا

يلومون الأمير لإهماله لها. وأخيرًا، أرسلت "جيليتا" رسولين من نبلاء المقاطعة إلى الأمير، وطلبت منه أن يخبرها إذا كان لا يريد العودة بسببها، فإنها ستغادر إرضاءً له. فأجاب الرسولين:

– فلتفعل ما تريد. أما أنا فلن أرجع إلى هناك، إلا إذا كان هذا الخاتم موضوعًا في إصبعها، وكانت تحمل بين ذراعيها ابنًا تنجبه مني.

كان الأمير يعتز بذلك الخاتم كثيرًا، ولا يخلعه من أصبعه أبدًا؛ فأدرك الرسولان قسوة شرطه المستحيل الذي يطالب به. فرجعا إلى السيدة وأطلعاها على كل شيء. ومع أنها تألمت كثيرًا، إلا أنها راحت تبحث عن طريقة تتوصل بها إلى فعل الأمرين كليهما، كي تتمكن من استعادة زوجها. وبعد أن فكرت فيما ستفعله، جمعت أكبر رجال المدينة ووجهاءهم، وروت لهم بكلمات وقورة ومؤثرة كل ما فعلته حبًّا للأمير، ثم قالت لهم أخيرًا إنها لا تريد أن يظل بعيدًا عن مدينته بسببها؛ ولهذا قررت أن تقضي ما بقي من عمرها في الحج وعمل الخير من أجل خلاص روحها. وطلبت منهم أن يتولوا إدارة كل شؤون المدينة بأنفسهم. وبينما أولئك الرجال يسمعون كلامها، سالت الدموع من عيونهم؛ فطلبوا منها أن تعدل عن قرارها، وتبقى في المدينة، لكنها لم تستجب. واستودعتهم الرب، وارتدت ملابس الحج مع قريب لها وخادمة، وتزودت جيدًا بالمال وبمجوهرات ثمينة، وانطلقت دون أن يدري أحد إلى أين. لم تتوقف إلا بعد أن بلغت "فلورنسا"، حيث استقرت لتعيش حياة بسيطة، في فندق صغير تملكه امرأة طيبة، بانتظار الحصول على أنباء عن زوجها.

في اليوم التالي، رأت "بيلترامو" يمر من أمام الفندق، ممتطيًا جوادًا مع

جنوده، فتظاهرت بعدم معرفته، وسألت عنه صاحبة الفندق، فقالت لها:

– إنه رجل غريب يدعى الأمير "بيلترامو"، وهو طيب ومحبوب جدًّا في مدينتنا. ومغرم بجارة لنا، امرأة نبيلة ولكنها فقيرة. والحقيقة أنها شابة عفيفة طاهرة، إلا أنها لم تتزوج حتى الآن بسبب فقرها، وتعيش مع أمها الطيبة، ولولا أمها لكانت الفتاة استجابت لنزوات الأمير.

حين سمعت الأميرة هذا الكلام، فكرت فيه جيدًا، واستفسرت عن كل التفاصيل، ثم اتخذت قرارها. بحثت واستفسرت عن اسم السيدة وابنتها، ثم ذهبت إليهما بثياب الحج، فوجدت المرأتين تعيشان في فقر مدقع. فحيتهما، وأشارت إلى الأم بأنها تريد التحدث إليها، فذهبتا معا إلى غرفة في البيت، وبدأت الأميرة الكلام قائلة:

– يخيل إليّ يا سيدتي أن الحظ تخلى عنكما مثلما تخلى عني؛ ولم يكن كريمًا معكما مثلما لم يكن كريمًا معي. ولكنني أعتقد أن بإمكاننا أن نساعد بعضنا البعض.

أُعجبت المراة بالفكرة، وطلبت من الأميرة أن تخبرها بما تريد. فأجابتها قائلة:

– أريد أن تعطيني عهدًا وميثاقًا بألا تخبري أحدًا؛ فإذا لم تكوني وفية في عهدك، فسوف تزداد أموركما وأموري سوءًا.

وردت المرأة عليها:

– تحدثي بثقة ودون خوف، فلن أخونك البته.

فأخبرتها الأميرة عن حبها، وعن كل ما جرى معها حتى تلك اللحظة، فأثارت في نفس المرأة مشاعر التأثر والشفقة. ثم انتهت إلى القول:

– لقد عرفت الآن محنتي، وما أحتاج إليه كي أسترد زوجي. وليس هناك سواكما من يمكنه مساعدتي، لأن الأمير مغرم بابنتك.

أجابت الأم:

– لا أعرف إن كان مغرمًا بها حقًا أم لا؛ وإن كان يبدي هذا. ولكن ما الذي يمكنني عمله من أجلك؟

– اسمعي. سأخبرك قبل كل شيء بالفوائد التي ستعود عليكما، إذا ما ساعدتماني. سأوفر لابنتك زيجة محترمة، وسأمنحها من أموال المهر ما تريانه مناسبًا.

اهتمت المرأة، لفقرها وحاجتها، بهذا العرض؛ ولكن طبعها النبيل دفعها إلى القول:

– أخبريني، يا سيدتي، بما تريدين مني أن أفعله؛ فإذا كان شريفًا، فسأفعله عن طيب خاطر، وتقدمين أنت لي بعد ذلك ما تشائين.

فأجابت الأميرة عندئذٍ بما تخطط:

– أريد منك أن تخبري زوجي الأمير، عن طريق شخص تثقين به، بأن ابنتك ستوافق على إرضاء رغباته كما يريد، ولكن إذا قدم لها دليلًا حقيقيًا على حبه لها. ولكي يثبت ذلك، عليه أن يرسل إليها الخاتم الثمين الذي يضعه في إصبعه. فإذا أرسله، تعطينني إياه. وتقولين له بعد ذلك إن ابنتك تنتظره؛ وأكون أنا مختبئة هنا، أرقد في فراش ابنتك بدلًا منها. ولعلني أحمل منه بعد ذلك بعون الرب. وهكذا أمتلك الشيئين الذين أحتاج إليهما لاسترداد زوجي، وتكونين أنت وسيلتي في ذلك.

خشيت السيدة أن يلحق ذلك سوء السمعة بابنتها، فترددت في القبول

بذلك؛ لكنها فكرت أيضًا في أنه من الواجب مساعدةُ المرأة المنكوبة، ووعدتها بأن تلبي رغبتها. وفعلت ما اتفقا عليه، وبعد الحصول على الخاتم "الذي تخلى عنه الأمير مجبرًا"، وفي ليلة النوم مع الأمير، أدخلت المرأة "جيليتا" في فراش ابنتها. ومنذ اللقاءات الأولى مع الأمير المتلهف، شاء الرب أن تحمل بتوأمين ذكرين، مثلما تبين بعدما وضعت حملها. وقد تكررت اللقاءات، دون أن يخامر الشك الأمير في أنه ينام مع تلك الفتاة التي وقع في حبها، وليس مع زوجته. وكان الأمير كلما افترقا في الصباح، يقدم لها الكثير من الحلي والجواهر، فتحتفظ بها. وعندما تأكدت من حملها، قالت لصديقتها:

– إنني شاكرة لك يا سيدتي، فقد حصلت على كل ما أريده. وعليَّ الآن أن أكافئك.

فشكرتها السيدة على كلماتها، لكنها أوضحت لها أنها إنما أقدمت على عمل ذلك لأنه بدا لها منصفًا وعادلًا.

– أنا شاكرة لك، يا سيدتي، ولكن تقديم المكافأة إليك صار واجبًا عليّ.

فطلبت منها السيدة الشريفة، بخجل كبير، أن تعطيها مئة ليرة كي تتمكن من تزويج ابنتها. وانتبهت الأميرة إلى خجلها وإلى طلبها المتواضع، فأعطتها خمسمائة ليرة، وكمية كبيرة من الحلي والجواهر الثمينة، قيمتها تساوي ذلك المبلغ. ابتهجت السيدة كثيرًا، وشكرت الأميرة على كرمها. ثم رحلت مع ابنتها إلى بيت أقرباء لها في الريف، لتبتعد عن أنظار الأمير "بيلترامو".

وبعد ذلك بقليل، طلب منه رجاله أن يعود إلى موطنه، وكان قد علم ان

الأميرة قد غادرت مدينة "روسيون"، فرجع إلى مدينته. وعندما علمت الأميرة أنه قد غادر "فلورنسا" وعاد إلى مدينته، فرحت فرحًا عظيمًا. لكنها ظلت مقيمة في "فلورنسا" إلى أن حان موعد وضع حملها، فوضعت طفلين توأمين شديدي الشبه بأبيهما. وحين رأت أن اللحظة المناسبة قد حانت، توجهت سرًا إلى مدينة "مونبلييه"، وهناك علمت أن حفلًا كبيرًا سيقام في مدينة "روسيون" في يوم عيد جميع القديسين. فذهبت إلى هناك، وهي بثياب الحج الذي خرجت بها، واستقصت عن السيدات والسادة الذين سيحضرون المأدبة. ودون أن تبدل ملابسها، دخلت إلى القاعة، وهي تحمل طفليها، وألقت بنفسها عند قدمي الأمير، وقالت له باكية:

– أنا زوجتك، يا سيدي، وقد جئت أطلب منك الوفاء بوعدك. وأرجو من الرب أن تكون محافظًا على الشرطين اللذين فرضتهما عليَّ، وأخبرت بهما الرسولين. فلديَّ هنا ابنان، لا ابنًا واحدًا منك؛ ومعي خاتمك أيضًا. وأعتقد أنني جديرة بأن أكون زوجة لك، وفق ما تعهدت به.

أُصيب الأمير بالذهول عند رؤيته للخاتم، وأدرك الشبه الكبير بينه وبين الطفلين، فقال:

– كيف حدث هذا؟

فقصت له الأميرة ما جرى، وأدهشت الحاضرين جميعهم. واستطاع الأمير أن يتأكد من حقيقة وصدق ما تقوله، كما أعجب بابنيه الصغيرين. ودفعته رغبة كل رعيته، فأنهض الأميرة من الأرض وقبلها، معترفًا بها زوجة له. ثم ارتدت ملابس لائقة، واستمرت الحفلات والولائم أيامًا أخرى. وعاشا منذ ذلك الحين في سعادة بالغة.

القصة العاشرة

تتحول الشابة "أليبيك" إلى ناسكة، فيعلمها الراهب "روستيكو" إدخال الشيطان إلى الجحيم. وبعد تركها هذه الحياة، تتزوج من "نيريبالي".

عندما أنهت الملكة قصتها، التي كان ديونيو يستمع إليها بانتباه، جاء الآن دوره، فلم ينتظر أن تأمره الملكة؛ بل إنه بدأ مبتسمًا:

سيداتي اللطيفات، من المحتمل أنكن لا تعرفن كيفية إدخال الشيطان إلى الجحيم؛ ولهذا فسأروي لكُن كيف يكون ذلك؛ فربما لا يزال ثمة فرصة أمامكن لإنقاذ أرواحكن. وحتمًا أنكن تعلمن أن الحب يعيش في القصور السعيدة، والحجرات الوثيرة، بأكثر مما يعيش في أكواخ الفقراء. ولكن هذا لا يحول دون الشعور بقوته وسلطانه وسط الغابات الكثيفة، وفي الجبال الوعرة، وفي الصحاري والكهوف؛ وهذا يحدث لأن كل شيء، كما يبدو، مرتبط بقوته. ولكنني أرجع إلى الحالة التي سأرويها، فأقول إنه في مدينة "قفصة"، في بلاد البربر، كان يعيش رجل شديد الثراء، له أبناء عديدون، بينهم ابنة جميلة ولطيفة اسمها "أليبيك". لم تكن مسيحية، إلا

أنها كانت ترى في المدينة الكثير من المسيحيين يُطرون على ديانتهم المسيحية وعلى خدمة الرب؛ فسألت يومًا أحدهم عن أحسن الطرق التي يمكنها اتباعها لخدمة الرب. فأجابها أن أفضل مَن يخدمون الرب هم أولئك الذين يتركون الأمور الدنيوية، كما يفعل من يذهبون إلى صحراء "تيبايدا".

وكانت الفتاة ساذجة، لا يزيد عمرها عن أربعة عشر عامًا، فانطلقت في صباح اليوم التالي، سرًّا وبمفردها، دون أن تخبر أحدًا، إلى صحراء "تيبايدا"، لا تدفعها رغبة واعية، وإنما نزوة صبيانية.

وقد واصلت الفتاة المسير تدفعها رغبتها، بالرغم مما لحق بها من إنهاك. وبعد بضعة أيام في تلك القفار، رأت من بعيد كوخًا صغيرًا؛ فذهبت إليه، ووجدت عند الباب راهبًا قديسًا، فتعجب لرؤيتها وسألها عمَّ تبحث عنه. فأجابته بقولها إنها، بوحي من الرب، تريد أن تضع نفسها في خدمته. ورأي الرجل الصالح أنها فتاة شابة وجميلة، وخشى أن يتلبسه الشيطان بالإغواء إذا ما استبقاها معه، فأثنى على نيتها، وقدم لها ماء تشربه، وبعض التمر والجذور والأعشاب البرية لتأكلها، وقال لها: بُنيتي، هناك رجل قديس على مسافة غير بعيدة من هنا، وهو أعلم مني بكثير في ما تبحثين عنه؛ فاذهبي إليه. ثم أشار لها إلى الطريق. وبعد أن وصلت إلى ذلك الراهب، واستمع إلى ما تريده، حدث نفس الأمر الذي كان لها مع الأول. فسارت مسافة أخرى حتى وصلت إلى كوخ ناسك شاب، وهو شخص ورع وطيب، يدعى "روستيكو"، فسألها مثلما سألها الآخران. ولكي يظهر هذا الناسك مدى عفته وثبات إيمانه، لم يصرفها عنه كما فعل سابقاه، بل استبقاها في كوخه.

وعندما حل الليل أعد لها فراشًا من جريد النخل وطلب منها أن تنام

عليه. وبعد أن فعلت، بدأت الغواية صراعها مع قُوى الناسك، ووجد أنه كان واهمًا عندما كان واثقًا في قوة إرادته. وبعد نوبات متعددة من الغواية، أدار ظهره معترفًا بهزيمته. فتخلى عن أفكاره الصالحة وصلواته واستقامته، ولم يعد يهتم إلا بشباب الفتاة وجمالها، ولا يشغله إلا كيفية التوصل إليها، دون أن تدرك هي ذلك، ودون أن تفطن إلى ما يبتغيه منها كرجل. فتأكد- في أول الأمر، ببعض الأسئلة الحذرة- من أنها لم تعرف رجلًا من قبل، وأنها ساذجة مثلما تبدو حقًّا. ففكر في كيفية استجابتها لرغباته تحت ذريعة خدمة الرب. وراح يعلمها في البداية، بكثير من الكلام، مدى عداوة الشيطان للرب، قائلًا لها إن أعظم خدمة تقدم إلى الرب هي وضع الشيطان في الجحيم، حيث حكم عليه الرب أن يقيم. فسألته الفتاة عن كيفية عمل ذلك، فقال لها "روستيكو": ستعرفين الآن، ولكن افعلي ما ترينني أفعله.

ثم أخذ يخلع ملابسه إلى أن أصبح عاريًا تمامًا؛ وفعلت الفتاة الشيء نفسه، وجثا هو عندئذٍ على ركبتيه متظاهرًا بأنه يصلي، وأحضرها إلى جواره. وشعر "روستيكو" حينئذٍ باشتعال نار شهوته كما لم يحدث من قبل، وأدى ذلك إلى انتصاب عضوه الذكري؛ فرأت الفتاة ذلك بذهول، وقالت له: "روستيكو"، ما هذا الشيء الذي أراه يبرز منك خارجًا، وليس لديَّ مثله؟

فأجابها الراهب:

– بنيتي، إنه الشيطان الذي سبق أن حدثتك عنه. وهو يسبب لي من الإزعاج ما لا أطيق تحمله.

قالت الشابة:

– فليبارك الرب! أرى الآن أنني أفضل حالًا منك؛ فأنا لا يوجد لديَّ

شيطان.

فقال "روستيكو":

– إنكِ محقة فيما تقولين، إلا أنه لديك شيئًا آخر لا أملكه أنا.

سألته الفتاة:

– وما هو؟

فكان رد "روستيكو" عليها، كالتالي:

– لديك الجحيم، وأظن أن الرب قد أرسلك لتنقذي روحي. فكلما عذبني الشيطان، يمكن لك إذا أنت أشفقت عليَّ أن تضعيه في الجحيم. وبهذا نرضي الرب، ونعمل في خدمته.

فأجابت الفتاة ببراءة:

– إذا كان الجحيم موجودًا لديَّ، فليكن ما تريده يا أبتاه.

فرد قائلًا:

– فليباركك الرب، يا بنتي. هلمي لندخل الشيطان في الجحيم ، كي لا يواصل مضايقتي.

قال ذلك، ثم أخذ الشابة إلى أحد الفراشين، وعلمها كيف يجب عليها أن ترقد من أجل إدخال ذلك الكائن– الذي لعنه الرب– إلى الجحيم. أما الفتاة، التي لم تكن قد أدخلت الشيطان إلى الجحيم من قبل، فقد شعرت بقليل من الألم في المرة الأولى، وقالت لـ"روستيكو":

– لابد أن الشيطان شيء خبيث فعلًا، ولابد أنه عدو الله حقًا؛ فحتى وهو في الجحيم، يسبب لي الألم عند دخوله؛ فما بالك حين يكون في مكان آخر.

أجاب "روستيكو":

– هذا الألم لا يحدث دائمًا، يا بنتي.

وكي لا يتكرر ذلك، قام بإعادة إدخاله ست مرات قبل أن ينهضا من الفراش؛ وهكذا انتزعا الغطرسة من رأس الشيطان وأبقياه خامدًا. ولكن الغطرسة ما لبثت أن عادت إليه، وتوالت مرات عديدة؛ فكانت الفتاة تبدي استعدادها على الدوام لانتزاعها منه، إلى أن بدأت اللعبة تحلو لها، وقالت لـــ"روستيكو":

– الآن أرى صحة ما يقوله رجال قفصة الحكماء الطيبون عن أن خدمة الرب هي أفضل الأعمال. فأنا لا أتذكر أنني فعلت شيئًا أكثر لذةً من إدخال الشيطان إلى جهنم. ويبدو لي أن أي شخص يهتم بأمر آخر غير خدمة الرب هو مجرد حيوان.

وكثيرًا ما كانت تأتي إلى "روستيكو" لتقول له:

– كفى كسلًا يا أبونا، فقد جئت هنا لأخدم الرب؛ فهيا ندخل الشيطان في الجحيم.

وبينما يقومان بذلك، كانت تقول له:

– لست أفهم يا "روستيكو" لماذا يهرب الشيطان من الجحيم، لأنه إذا كان يستمتع فيها مثلما تستمتع الجحيم وهي تستقبله، لما كان عليه أن يخرج منها أبدًا.

ثم أخذت الفتاة تدعو "روستيكو" وتجبره على خدمة الرب، إلى أن بلغ الأمر حدًّا أصبح يحس معه بأنه يفقد قواه. عندئذ أوضح للفتاة أنه يجب إدخال الشيطان إلى الجحيم فقط عندما تدفعه الغطرسة إلى رفع رأسه،

وقال:

– نحن، بفضل الرب، عاقبناه كثيرًا، حتى إنه أصبح يتوسل إلى الرب أن يتركه بسلام.

وبهذا هدَّأ قليلًا من اندفاع الفتاة. ولكنها حين رأت أن "روستيكو" لم يعد يطلب منها إدخال الشيطان في الجحيم، قالت له في أحد الأيام:

– لقد عوقب شيطانُك يا "روستيكو"، ولم يعد يضايقك. ولكن جحيمي لا يتركني أعيش بسلام، وتكون قد أحسنت صنعًا إذا ما ساعدتني بشيطانك لتهدئة جحيمي، مثلما ساعدتك بجحيمي على انتزاع الغطرسة من شيطانك.

إلا أن "روستيكو" الذي كان يتغذي على الجذور والأعشاب والماء، لم يستطع الاستمرار في تلبية حاجتها، وقال لها إن هناك العديد من الشياطين لإشباع جهنمها تلك. وصار يرضيها بين حين وآخر، ولكن في أوقات متباعدة ومرات قليلة؛ فكان ذلك مثل مَن يلقي حبة فول في فم أسد. وظنت هي أن "روستيكو" لم يعد يخدم الرب، وأسفت لذلك. إلا أنه في أحد الأيام، شب حريق هائل في "قفصة" مات فيه كل أفراد أسرتها، ولم يبق أحد سوى "أليبيك" كوريثة وحيدة. عندئذٍ علم شاب يدعى "نيريبالي" أنها لا تزال على قيد الحياة، فأخذ يبحث عنها ليتزوجها، قبل أن يصادر القضاء كل ثروتها. وقد أثلج صدر "روستيكو" أن "نيريبالي" أخذها معه إلى "قفصة"، وتزوج منها هناك، وورث معها الثروة الضخمة. وحين سألتها النساء (قبل أن ينام "نيريبالي" معها) عن الطريقة التي خدمت بها الرب في الصحراء، أوضحت لهن أنها كانت تضع الشيطان في الجحيم، وأن "نيريبالي" قد ارتكب خطيئة

كبرى بانتزاعها من تلك المهمة. فاستفسرن عندئذ:

– وكيف هي طريقة وضع الشيطان في الجحيم؟

فأوضحت لهن الشابة ذلك بالكلام والإشارات، مما أضحكهن كثيرًا، حتى إنهن مازلن يضحكن، وقلن لها:

– لا تقلقي يا صبية، فهذا ما يفعلونه هنا أيضًا، وعلى أحسن وجه، ولسوف يخدم "نيريبالي" الرب معكِ جيدًا في هذا الشأن.

ولاكت الألسنة الخبر حتى انتشر في المدينة بأكملها، وانتشر القول إنه لا توجد طريقة لخدمة الرب أفضل من إدخال الشيطان في الجحيم. ولهذا، عليكن أنتن، يا سيداتي الشابات، أن تحصلن على نعمة الرب، وتتعلمن كيفية إدخال الشيطان إلى الجحيم؛ لأن في ذلك سعادة الرب، ومتعة الطرفين، ويمكن أن يخلف خيرًا وفيرًا. أضحكت قصة "ديونيو" السيدات الموقرات؛ وعندما رأت الملكة أنها بلغت نهاية مُلكها، خلعت عن رأسها إكليل الغار، ووضعته على رأس "فيلوستراتو" قائلةً:

– والآن، سنرى ما إذا كان الذئب يجيد قيادة النعاج خيرًا مما قادت النعاج الذئاب.

وعند سماع "فيلوستراتو" لهذه الكلمات، قال ضاحكًا:

– لو أنكن تعملن بنصيحتي، لقامت الذئاب بتعليم النعاج طريقة إدخال الشيطان إلى الجحيم، وليس بطريقة أسوأ مما فعله "روستيكو" مع "أليبيك". وخير لكن ألا تدعوننا ذئابًا، لأنكن لم تكن نعاجًا أبدًا. ولكنني سأحكم هذه المملكة بالطريقة نفسها التي حُكمت بها قبل أن أتولى مسئوليتها.

عندئذ ردت عليه "نيفيله": لو أنك، يا "فيلوستراتو"، أردت تعليمنا، لتمكنت من أن تتعلم مثلما تعلم "مازيتو" من الراهبات.

أدرك "فيلوستراتو" أنه لن يتمكن من التغلب عليهن، وأنهن سيجدن ردًّا على أي قول يقوله، فتوقف عن المزاح، وركز اهتمامه على حكم المملكة التي عُهد بها إليه. فأمر باستدعاء الوصيف، وأراد أن يعرف منه وضع كل الأمور، ثم عرض بعد ذلك ما سيكون عليه الحال لإسعاد الجميع خلال فترة حكمه، وقال للسيدات:

– أيتها السيدات اللطيفات، إنه لمن سوء حظي أنني عانيت آلامًا كثيرة، لأنني كنت على الدوام هائمًا بحب واحدة من بنات جنسكن؛ ولم يفدني في شيء تواضعي وطاعتي وتعاوني سوى أن أجد نفسي أعاني الهجر، والتردي من سيء إلى أسوأ. وأعتقد أنني سأستمر على هذا الحال حتى الموت. ولهذا لا يرضيني أي موضوع آخر للحديث في الغد إلا بما يتماشى مع حالتي. وهذا يعني الحديث عن أولئك الذين وصلت غرامياتهم إلى نهاية تعيسة، لأنني أنا نفسي لم أعد أنتظر إلا نهاية بالغة التعاسة. وليس عبثًا أن الاسم الذي تنادونني به، وأنتن تعرفن ماذا يعنيه، قد أطلق عليّ. فمن أسماني كان يعرف ما الذي يفعله. ثم نهض واقفًا، وأعطى الجميع الإذن بعمل ما يشاؤون إلى أن يأتي موعد العشاء.

ولشدة جمال الحديقة، لم يشأ أي منهم الخروج والذهاب إلى مكان آخر؛ ولم تكن الشمس تسبب أي إزعاج، حيث كانت قد مالت للغروب؛ فأخذ بعضهم يلهو بمطاردة الحملان والأرانب وغيرها من الحيوانات الموجودة في الحديقة، والتي كانت تتقافز بينهم أثناء جلوسهم. وبدأ "ديونيو" و"فياميتا"

بغناء أغنيات عن السيد "جوليلمو" والسيدة "فيرجيل". واستغرقت "فيلوميتا" في لعب الشطرنج مع "بانفيلو". وظلوا على هذا الحال، بعضهم يلهو هنا وبعضهم هناك، إلى أن جاء موعد العشاء؛ فتم ترتيب الموائد حول نافورة جميلة، وتناولوا عشاءهم هناك بمتعة وشهية مع بداية الليل. ولم يحد "فيلوستراتو" عن الدرب الذي سلكته ملكات الأيام السابقة؛ فبعد رفع الموائد، أمر "لوريتا" أن ترقص وتغني أغنية، فقالت:

– لا أعرف، يا مولاي، أغنيات تلائم اجتماعنا السعيد؛ إلا أنه إذا رضيتم بما أعرفه من أغنيات، فسوف أغنيها بكل سرور.

فقال لها الملك:

– إن كل ما يصدر منك من أغانٍ لابد أن يكون جميلًا وممتعًا؛ فغني لنا ما تعرفين.

فأخذت "لوريتا" تغني بصوت رقيق، ونبرة حزينة، يرافقها الآخرون بهذه الأغنية.

لا حزينة في الكون مثلي
ألمت بها أوجاع الكآبة شأني،
تكبدت وعانيت من أوجاع في حبي.

فمن يحرك السماء والنجوم يحركني،
وعلي هواه يشكلني،
بهية، آسرة، رقيقة، حسنائي،
كوني هنا في الأسفل لصاحب الخلد،

علامة علي حسنه غير المرئي،
بيد أن خور ووهن البشر فان،
غير صحيح الحسبان،
فازدراني، ولم يمنحني حق قيمتي.

حقا هناك من بإرادته أحبني،
وبشجاعة وجسارة بذراعيه الفتية أخذني،
وإلي صدره ضمني،
وبحمايته لي دمجني،
لما أن انبهرت عيناه بنور عيني.
والوقت السريع المتلاشي سرعان ما ينقضي،
في الثناء والمديح علي ملامحي،
وكوني مهذبة الخلق، عاملته كسيدي،
بقاء الحالِ من المُحال،
فقد حرمت اليوم من ذلك الحب الآسر.

عرفت بعدها شابًا قاسيًا،
تكلَّف أخلاق النبل والكرم، فخدعني،
فصرت أسيرة حبه، لكنه بغيرته الحمقاء عليّ،
أشجاني وحسَّرني وآلمّني،
حينها أيقنت وقد فات الأوان،

أنني خلقت لأمنح السعادة للكل، وليس لفرد واحد يقتنيني.

كرهت سوء حظي وطالعي،
بهية جميلة من الخارج للناظر،
لكن جزع الحياة وقسوتها تتحشرج في داخلي،
ولم أنعم بالشرف في أيامي.
يا لها من رغبة مؤلمة تعتصرني،
فيا ليتني مت قبل أن أمنحك محبتي.
آه ياحبيبي الأول،
يامن عرفت معه سعادتي وبهجتي،
يا من صعدت إلي السماء العلا بموتك المفاجئ،
أمام الله الواحد البارئ،
لا يزال عطفك وحنانك يغمرني،
أنا لم أنسك في حياتي،
حتى وأنا مع آخرين سواك، وكنت بعيدًا عن ناظري
أنا المتلهفة المشتاقة إليك، فاجعل نار حبك وعشقك في قلبي لا ينطفي،
وادع متوسلًا إلي ربك الخالق أن يرفعني إلي جوارك.

بهذه الكلمات العذبة، أنهت "لوريتا" هذه الأغنية التي استحسنها الجميع، وفهمها كل منهم على هواه؛ من فهمهما على الطريقة الميلانية[23]، بأن

---

[23] أي على طريقة أبناء مدينة ميلانو الإيطالية.

الخنزير السمين أفضل من فتاة حسناء، ومن فهمها بشكل أكثر سموًّا ورقيًّا.
وبعد انتهاء هذه الأغنية، أمر الملك بإشعال مجموعة من الشموع بين ثنايا العشب والأزهار، وطلب إنشاد بعض الأغنيات الأخرى التي استمرت حتي تقدم الليل، وحان وقت النوم؛ فأصدر أوامره بذهاب كل منهم إلي غرفته، وتمنى لهم أحلامًا سعيدة. وهنا أسدل الستار على اليوم الثالث.

اليـوم الرَّابـع

انتهي اليوم الثالث من الديكاميرون، وبدأ اليوم الرابع، تحت حكم الملك الجديد "فيلوستراتو"، ويتحدث في المقام الأول عن قصص الحب الحزينة ذات النهايات المأساوية.

سيداتي الجميلات، من خلال أقوال الحكماء، وأيضًا الأمور التي شاهدتها في الحياة، فقد تصورت أن ريح الحسد الهائجة لا تؤذي سوى الأبراج العالية والأشجار السامقة ، ولكني أشعر أني على خطأ في تصوري هذا؛ فلقد هربت منها إلى السهول، بل إلى أعماق الأودية. أمضي في صمت وهدوء لتجنب تلك الروح الشريرة. وهذا الأمر يمكن ملاحظته بوضوح في القصص المكتوبة بلغة أهل "فلورنسا" العامية، وأيضًا بطريقة النثر، ودون عناوين، وبهذا النمط البسيط السهل والمحايد قدر الإمكان. وعلى الرغم من ذلك، فقد تعرضت لهجوم شرس "وصل إلى حد الاجتثاث" من رياح الغيرة هذه، ولم أستطع النجاة من أنياب الحسد. ثم تبين لي بوضوح ما قصده

الحكماء حين قالوا "البؤس وحده هو الذي ينجو من الحسد في هذا العالم".

سيداتي، كان هناك بعض من قرأ هذه القصص، وأشار إلى أني مهتم ومعجب بكُن جدًّا. وأنه ليس من الجيد، أو أنه من المبالغ فيه، الاهتمام بكُن بهذا الشكل، وبذل جهودي في إرضائكن وتسليتكن وإدخال السرور عليكن من خلال كتاباتي؛ أو ما هو أسوأ من ذلك، كما يقول البعض، المغالاة في المديح؛ وهناك آخرون ممن يحاولون الظهور أنهم أعمق بنظراتهم للأمور، فقالوا إن عمري لم يعد مناسبًا لتلك الأمور؛ وأظهر بعضهم قلقهم على سمعتي، وغيرهم قالوا إنه من الأفضل لي الاتجاه لربات الشعر والإلهام في مذهب البرناسية[24]، بدلًا عن الحديث عنكن. أيضًا كان هناك مَن أظهر الحقد والغيظ في كلماته بشكل واضح، فقالوا إنه يجب عليَّ البحث عن رزقي، وليس السعي وراء تلك المهاترات. وآخرون تحدثوا عن أن الواقع مختلف عما أروي لكم، وحاولوا بشتى الطرق تأكيد هذا. ولهذا، أجد أنني- أيها السيدات الكريمات- أتحمل مثل هذه الأقوال، وكل الأنياب الحادة، بما أنني أعمل لأجلكن، وسأظل أتعرض لهذه الإهانات، وهذا الإيذاء، بل ربما للجلد والصلب كذلك. لكنني- مع كل ذلك- أسمع كل ما يقال بهدوء واطمئنان. وبما أنه يجب عليكن الدفاع عني، فأنا لا أدخر

---

[24] مذهب أدبي فلسفي قام على معارضة "الرومانسية"، من حيث أنها مذهب الذاتية في الشعر، وعرض عواطف الفرد الخاصة على الناس شعرًا، واتخاذه وسيلة للتعبير عن الذات؛ فيما تقوم البرناسية على اعتبار الفن غاية في ذاته، لا وسيلة للتعبير عن الذات؛ وتهدف إلى جعل الشعر فنًا موضوعيًا، همه استخراج الجمال من مظاهر الطبيعة أو إضفائه على تلك المظاهر. وترفض البرناسية التقيد سلفًا بأية عقيدة أو فكر أو أخلاق سابقة.

جهدًا في الرد ردًّا مناسبًا من حين لآخر، حتى أغلق تلك الأفواه؛ فذلك واجب عليَّ فعله دون تردد، لأنهم يتكاثرون وينتشرون كما تنتشر النار في الهشيم. ولم يتسن لي سوى إنهاء ثلث العمل فقط؛ وأعتقد أنهم سيظلون يتزايدون عندما لا يجدون مَن يوقفهم عند حدهم، حتى يقدروا على النيل مني، وإغراقي، قبل أن أتمكن من الوصول إلى النهاية؛ ووقتها لن ينفع الندم، ولن تتمكن قوتكن، يا سيداتي، مهما كانت كبيرة وقوية، من التصدي لهم ومقاومتهم.

وقبل البدء بالرد عليهم، يحلو لي أن أقص على مسامعكن ما يمكن وصفه أنه جزء من قصة، وليس قصة كاملة. وحتى لا أضع قصتي المتواضعة بين تلك القصص الخاصة بمجموعه الرواة العشر المرموقة، وحتى يظهر من عدم اكتمالها أنها ليست ضمن تلك المجموعة القصصية لمجموعة الرواة؛ فإنني أقول لمن يوجهون أصابع اللوم والنقد لي أنه:

كان يعيش- بالقرب من بلدتنا، منذ وقت بعيد- شخص يقال له "فيليبو بالدوتشي"، وكان رجلًا متواضعًا؛ غير أنه ثري، ويجيد تلك الأمور التي يقوم بها من مثله. كان يحب زوجته إلى حد يبلغ الجنون، كما أنها كانت تحبه بنفس القدر. وكانا يعيشان في سعادة وهناء. كان كل منهما يسعي دومًا لإسعاد الآخر. وفجأةً- كما يحدث أحيانًا- توفيت الزوجة الطيبة، وتركت لزوجها "فيليبو" ابنهما الذي لم يتجاوز عمره العامين. شعر "فيليبو" بألم لا مثيل له لما أصابه من فقد حبيبته وشريكة حياته. وأراد ترك الدنيا بكل ما فيها، وقرر أن يعمل لخدمة الرب؛ فقام بتوزيع كل أمواله على الفقراء، ثم صعد بعدها إلى أعلى جبل "سينريَو"، ومعه ابنه، وعاشا هناك- في كوخ صغير- على

المساعدات وإحسان الناس عليه. كان يصلي ويدعو الرب ويصوم، ويبتعد عن كل ما في الحياة من ملذات وشهوات؛ حتى أنه لم يحدث ابنه إلا عن الأمور الدينية والتعبد والزهد والذات الإلهية ونعيم الجنة والقديسين. ولم يعلمه غير الصلوات والتراتيل. هكذا مرت السنون، وأمضيا- الأب وابنه- على هذا الحال سنوات عديدة، لم يسمح له والده بالخروج من الكوخ، أو حتى الحديث في أمور الدنيا، أو مشاهدة الدنيويات المحيطة. كان الأب معتادًا على المجيء إلى "فلورنسا" بين الحين والآخر، ليجمع المساعدات التي يحتاج إليها من الأتقياء والمحسنين؛ بعدها يعود سريعًا إلى كوخه.

مرت الأيام وانقضت الأعوام، وعندما أصبح عمر الفتى ثمانية عشر عامًا، وأصبح والده "فيليبو" شيخًا عجوزًا يبلغ من العمر عتيًّا، طلب الإبن من والده- بعد أن سأله عن وجهته، وأخبره الأب أنه ذاهب إلى مكان يُقال له "فلورنسا"- فقال له:

- والدي العزيز، لقد صرت شيخًا، وتمكن المرض منك؛ فلِمَ لا تصحبني معك إلى "فلورنسا" هذه، حتى أتعرف على محبي الله والراغبين في نيل رضاه وغفرانه ومعارفك هناك؛ فأذهب بعدها أنا لقضاء حاجاتك بدلًا عنك، وقتما تريد؟

فكر الرجل أن ولده أصبح في سن مناسبة، فقد أحسن تربيته وتأديبه، وهو ملتزم بالعبادة والمواظبة على تأدية العبادات في أوقاتها. وظن أن ما سيراه ابنه في الخارج لن يؤثر عليه، فأجابه قائلًا:

- معك حق، يا بني العزيز.

ولما جاء وقت ذهابه، أخذ الفتى معه. اندهش الولد برؤية المباني والقصور والكنائس، وبدأ يسأل أباه عما يراه من الأشياء. كان والده يخبره، وظل الفتى يسأل بإلحاح عما يراه؛ وأثناء هذا، شاهد مجموعة من الفتيات الحسناوات، فسأل أباه عنهن. فقال له أبوه:

– لا تنظر يا بني إليهن، ولا تمعن النظر إلى هذا الشيء السيء.

ظل الابن يسأل، ما اسمه؟

وحتى لا يوقظ بالفتى أية رغبات، وحتى لا يتعرف على النساء، لم يشأ ذكر الحقيقة له، ولم يقل له إنهن "نساء"، وإنما قال له:

– إنهن إوز.

تعجب الولد مما سمعه. لم يعد هذا الفتى الذي لم ير أبدًا من قبل أية امرأة، وبدأ يظهر إعجابه بالقصور، أو بالجواميس، أو بالأبقار، أو الخيول، أو الحمير، أو حتى النقود، أو بأي شيء مما يراه أثناء سيره، وقال فجأة:

– أرجوك، يا والدي، أحضر لي إوزة من هذه الإوزا

فرد عليه الأب:

– توقف، يا بني، إنه شيء خبيث.

فسأله الفتى ثانيةً:

– أهكذا تكون الأشياء الخبيثة؟

– نعم.

فقال الفتى له:

– لمَ تقول علي هذا الشيء إنه خبيث، على الرغم من أني لم أر ما هو

أجمل منه، حتى أنه أجمل من الملائكة المرسومين الذين أريتهم لي. أرجوك، يا أبي، اسمح لي بأخذ واحدة من هذا الإوز معي إلى الجبل، وأنا سأهتم بها، وآخذها إلى المراعي والحقول.

فرد عليه أبوه، وقال:

– لا أوافق على هذا، فأنت لا تعرف أين يرعي هذا الإوز.

أيقن الأب حينها أن الطبيعة تغلب الذكاء، وأن الغرائز تطغى على الوعظ، وتمنى لو أنه لم يأت به إلى "فلورنسا" من الأساس.

غير أنني، بما أن وصلت لهذا الجزء من القصة، أكتفي بهذا الجزء منها، وأقول لمن قصصتها لهم: يقول بعض من يوجه لي النقد، يا سيداتي اللطيفات، إنني لا أحسن التصرف حينما أسعي بشتى الطرق لإدخال البهجة عليكن، وإنني أكثر من الثناء عليكن لإعجابي بكن. وهو الأمر الذي لا أنكره مطلقًا؛ أقصد إعجابي بكن، وسعيي لإدخال البهجة على قلوبكن. غير أنني أود سؤال من ينتقدنني ويستغرب موقفي؛ ولنفترض أنني لم أعرف طعم قبلات العشاق والمعانقات الحميمة، واللقاءات الممتعة معكن، يا سيداتي المفضلات، ولكنني فقط شاهدت تصرفاتكن الرقيقة، وأسلوبكن الراقي، ومحاسنكن الواضحة، ولياقتكن الأخاذة، فضلًا عن العفة والنبل؛ فما الذي تقولونه عن هذا الفتى الذي عاش مع أبيه حياة الزهد والتعبد، في ذلك الكوخ على الجبل؛ وبمجرد أن نظر لكُن، لم يعد يفكر سوى بكُن، ولا يريد تذكر أي شيء آخر. وأنا شخصٌ وُلدت وروحي تدفعني لحبكن. لقد عشت طوال عمري، ومنذ صغري، وأنا أشعر بمدى قوة النور المضيء في عيونكن، ورقتكن وعذوبتكن، والنار التي تشعلن بها القلوب بتنهيدة

واحدة منكن. فكيف لي ألا أشعر بالإعجاب بكن، والسعي لنيل رضاكن. فيجب الأخذ في الاعتبار أنكن اجتذبتن انتباه الناسك، وهو ولد لا يعرف شيئًا عن المشاعر. وفي الواقع، فمن لا يشعر بالحب نحوكن، ولا يريد أن تحببنه، لهو شخص متبلد الإحساس، ولا يشعر بجمال المشاعر الإنسانية الفياضة. ولهذا لا أهتم بأمر هؤلاء مطلقًا.

أما بالنسبة لمن يتكلمون عن عمري، فهم يبينون مدى جهلهم. فالشباب هو شباب القلب، وليس مقترنًا بلون الشعر، كما يعتقد البعض. ويمكنني القول إنني لم أخجل، ولن أشعر بالخجل حتى نهاية عمري، لسعيي الدائم لبث البهجة في أولئك اللواتي مدحهن الشاعران "جيدو كافالكانتي" و"دانتي أليجيري" وهما عجوزان، وأيضا السيد "جون دي بيستويا"، وهو الذي هرم وبلغ من العمر مبلغه؛ فهم أيضًا كانوا من المهتمين بشأنكن. ولولا أنني لا أريد البُعد عن صلب الموضوع، لكنت تحدثت عن تاريخهما القصصي، وكيف سعيا في الأعوام الأخيرة لهما، لإبهاج السيدات. وأقول لهم، اذهبوا وابحثوا في الكتب ولتتعلموا. وإلى هؤلاء الذين يطالبونني بالوقوف دومًا بجانب ربات الإلهام، فإنني أخبرهم أن قولهم جيد، لكني لا يمكنني البقاء هناك، كما أنهم لا يقدرون على البقاء هنا. فإذا ما ابتعد المرء عنهم، فلا يجب لومه، فهو يسعد أيضًا حين يرى شبيهاتهن؛ فربات الشعر إناث كذلك، وحتى إن كُن لا يقمن بنفس الدور، فإن لهن نفس الشكل؛ وإن كان لا يوجد سوى هذا السبب لكان كافيًا. كانت النساء سببًا في نظمي لألف بيت من الشعر، وهذا ما لم تقم به ربات الشعر؛ فكل ما قمن به أنهن أوضحن لي كيف أنظم هذه الأبيات؛ وربما جئن لي حتى أكتب بعض هذه القصص، على

الرغم من قسوتها. وبهذا، فلا أعتقد أنني أبتعد عنهما، فالتشابه بينهما كبير، وإن كان البعض لا يرون ذلك.

أما الذين يشفقون عليَّ من الجوع، ويقولون إنه من الأفضل لي البحث عن لقمة عيش؛ فأنا أريد معرفة جوابهم، إذا ما اضطررتُ لطلب العون منهم. وأعتقد أنهم سيقولون: "امضِ وابحث عنها في أساطيرك!" فالشعراء يجدون في أساطيرهم أكثر مما يجد الأغنياء في ثرواتهم. ويمكن القول إنهم سيقومون بطردي والتنكر لي لو ذهبت إليهم لطلب العون، مع أني- والحمد والفضل للرب- لست بحاجة لأحد. لكن لو جاء ذلك اليوم، فأنا أعلم ، كـ"بولس الرسول"، كيف أعيش مع الثراء، وأيضا مع القلة والفقر؛ ولذلك لا تشغلوا بالكم بي.

أما الذين يقولون إن قصصي غير صحيحة، وإنها لم تحدث بالشكل الذي أقوله، فإنني أطلب منهم أن يأتوا لي بأصول الحقيقة المغايرة لما أكتب، لأتأكد من قولهم، ومعرفة صدق ما يقولون، وأقوم بتصحيح الخطأ لديْ. وإن لم يثبتوا هذا، وظلوا يتحدثون فقط، فسوف أتركهم على موقفهم، وأظل على موقفي، وأقول عنهم مثلما يقولون عني.

أعتقد الآن أني رددت بما هو مناسب هذه المرة؛ وأنني سأظل أمضي في طريقي إلى الأمام، مستعينًا بالرب ثم عونكن سيداتي العزيزات، وموجهًا ظهري لتلك الريح العاتية التي لا تهدأ. وأرى أن تأثيرها مثل الغبار الناعم في العاصفة، فهو قد يظل في مكانه، أو قد تحركه قوة الهواء فيرتفع لأعلى، أعلى من رؤوس البشر، ومن تيجان الملوك والسلاطين؛ وأحيانًا فوق القصور، والأبراج الشاهقة؛ ويبقي فوقها إلى أنِ ينزل منها. إنه يهوي إلى ما هو أدنى

من الموقع الذي حملته الرياح منه. فإن كنت قد عملت على إسعادكن، ولو لمرة واحدة، فإنني أصبحت أكثر إصرارًا على هذا الموقف. والآن، لا يمكن لشخص أن يتهمني صدقًا بأي شيء، غير أني والآخرين نحبكن. ونحن بذلك نستجيب للطبيعة البشرية. أما مخالفة قوانين الطبيعة، فهو أمر يحتاج إلى قوة كبيرة، وأعترف أني لا أمتلك تلك الإرادة، ولا أريدها. ولو قُدر لي أن أمتلك هذه القوة، لكنت انتفعت بها لصالحي، ولم أقدمها للآخرين.

فليسكت الحاقدون، وليلتزموا الصمت المطبق، وإن لم يقدروا على هذا الصمت، فليحيوا متجمدين، وليبقوا على أهوائهم، "أو بالأحرى متعهم الخبيثة" عاكفين، وليدعوني بسلام بما أمتلك في هذه الدنيا الفانية التي نحياها.

والآن، علينا العودة إلى أمورنا. فلقد تحدثنا وابتعدنا- أيتها السيدات- عما بدأنا به. في هذا الوقت، كانت الشمس قد أشرقت على المكان، وانجلى الليل ومضي. استيقظ "فيلوستراتو" وأيقظ الموجودين، وذهبوا جميعًا إلى الحديقة الجميلة ليتنزهوا فيها. ولما جاء وقت الغداء، جلسوا إلى المائدة في نفس مكان العشاء. ولما أن اشتدت حرارة الشمس توجهوا لأخذ قيلولة، وأفاقوا بعد العصر (لأن اليوم ينتهي قرب الغروب)، وتجمعوا حول النافورة الجميلة. وحينها أمر "فيلوستراتو" "فياميتا" بالبدء في روايتها مباشرة، فشرعت تقول:


https://telegram.me/maktabatbaghdad

القصـة الأولـى

"تانكريدو" أمير "ساليرنو" يقتل عشيق ابنته، ويقدم لها قلب حبيبها في كأس من الذهب. فتصب السم فوقه، وتتناوله وتلحق به.

حقًّا، إنه موضوع بالغ القسوة الذي فرضه الملك علينا اليوم، لا سيما أننا جئنا إلى هنا في الأساس للترفيه عن أنفسنا، وليس للتحدث عن آلام الآخرين، التي- من جراء سماعها- لا نستطيع سوى أن نشعر جميعًا، سواء مَن يروي أو المستمعون، إلا بالحزن والإشفاق عليهم. وربما أراد الملك هذا للتخفيف من وطأة سعادة الأيام المنقضية. ومهما كان الهدف، فسأقص عليكم قصة حزينة، قد تبكينا مما تتضمنه من أحداث محزنة للغاية.

كان "تانكريدو"- أمير مدينة "ساليرنو"- أميرًا عادلًا، بيد أن الغضب والعشق أعماه في آخر عمره. وكانت له ابنة وحيدة يحبها بشكل غير طبيعي، وكان هذا سببًا فيما أصابها. كان يحبها ويعتني بها كما لم تنل أية فتاة أخرى هذا الإهتمام من والدها من قبل؛ لدرجة أنه لم يكن راغبًا في زواجها، كي تبقي بالقرب منه، إلى أن تجاوزت سن الزواج منذ سنوات. ثم قام بتزويجها أخيرًا لأحد أبناء دوق "كابوا"؛ لكنها بعد وقت قليل، ترملت ورجعت إلى

بيت والدها من جديد. كانت جميلة، يافعة وفطنة، وفي ريعان شبابها. وبسبب حب أبيها لها، لم يهتم بتزويجها ثانيةً، ولم يتجرأ أحد على أن يطلب منه هذا الطلب؛ ففكرت في إقامة علاقة في السر، وبدأت تبحث عن شخص مناسب يعجبها.

كان هناك- في خدمة الأمير- الكثير من النبلاء وغيرهم، فبحثت فيهم عما تريد. كان من بينهم وصيف والدها الخاص المدعو "جيسكاردو"، الذي ينحدر من أصل فقير، لكنه يتمتع بالنبل والأخلاق؛ فأعجبت به. لاحظ الفتى هذا، وبدأ يتجاوب معها ووقع في حبها، وأصبح يفكر فيها دائمًا. أصبح كل منهما مغرمًا بالثاني سرًّا، وكانت الفتاة تريد لقاءه أكثر من أي شيء آخر في هذه الدنيا. وذات مرة أرادت لقاءه، فكتبت رسالة له تواعده على اللقاء في اليوم التالي، وأشارت إليه بها من بعيد، ثم وضعتها داخل عود من الغاب؛ وقدمتها له، وهي تضحك وتقول:

- يمكنك صناعة بوق من عود الغاب هذا، ليستعمله خادمك في إحماء النار الموقدة.

أخذه "جيسكاردو"، وتفحصه في منزله حتى وجد الرسالة، وقرأها. وفرح بشدة لما وجد فيها، واستعد للقائها. وقام بما قالت له في الرسالة. كان بالقرب من قصر الأمير، كهف مظلم لا يصل إليه نور الشمس إلا عبر فتحة صغيرة بين الصخور، لكنها كانت ممتلئة بالأعشاب والنباتات البرية. ولا يوجد طريق للكهف سوى درج يصل إلى حجرة، هي الحجرة التي تقيم فيها. لكن الباب المؤدي لها كان مغلقًا منذ زمن، بل وصار منسيًّا، ولم يعد يتذكره أحد. غير أن حبها له جعلها تبحث حتى تجد طريقة للدخول. قامت بفتح الباب

مستخدمةً بعض الأدوات، ونزلت عبر السلَّم حتى وصلت إلى الكهف، ثم أخبرته كيف يمكنه الوصول إلى هذا الكهف من تلك الفتحة. وبالفعل، وصل إلى هناك مستعينًا بحبل به بعض العقد التي تساعده على الإمساك جيدًا بالحبل دون أن يفلت منه، وربطه جيدًا بالشجرة حتى يستطيع دخول الكهف والخروج منه بسهولة ويسر. علاوةً على ذلك، فقد لبس ثيابًا من الجلد لحمايته من الأشواك المتناثرة هناك. ومن ناحيتها، صرفت الشابة خادمتها، وادعت أنها تريد النوم. بعدها، نزلت عبر السلم المؤدي إلى الكهف. وهناك، التقيا وتعانقا، ثم أخذته معها إلى حجرتها عبر السرداب، وقضيا معًا وقتًا جميلًا من الحب والمتع. واتفقا على تكرار هذه اللقاءات سرًّا دون أن يشعر بهم أحد. ثم عاد "جيسكاردو" إلى الكهف، وأغلقت السيدة البوابة كما كانت، وخرجت إلى وصيفتها. أما "جيسكاردو"، فقد بقي في الكهف حتى حلَّ الظلام، فتسلق الحبل، وخرج من الكهف كما نزل.

بعدما عرف الطريق، تكررت لقاءاتهما، وبقيا هكذا لوقت طويل. لكن لسوء حظهما، تحولت سعادتهما إلى حزن كبير. فقد كان الأمير معتادًا على دخول غرفة ابنته من وقتٍ إلى آخر ليتحدث معها. وذات مرة، نزل الأمير إلى هناك بعد الغداء، فوجد ابنته تلهو في الحديقة مع وصيفتها، ولم يشعر به أحد. ولعدم انتباه أحدهما له، فقد تركها تلهو. كانت نوافذ الحجرة مغلقة، وستائر السرير مسدلة، فجلس هناك، وأسند رأسه على حافة السرير، ثم غطي نفسه بالستارة ليفاجئ ابنته، إلا أن النوم قد غلبه. وهو على هذا الوضع، جاءت ابنته، وتركت خادمتها في الحديقة. ولتعاستها، فقد طلبت من عشيقها القدوم في ذلك الوقت؛ ففتحت له الباب، من غير أن تدري أن

هناك أحدًا في الحجرة. وذهبا معًا إلى الفراش، وراحا يتبادلان القبلات. في تلك اللحظة استيقظ والدها، فسمع ورأى ما كانا يفعلان. تألم لما رآه، وأراد أن يصرخ في البداية، لكنه تماسك، وقرر الإنتقام بحذر كي لا تلوث سمعته بالعار. وبقي العاشقان معًا، دون أن يعلما بوجود "تانكريدو"، إلى أن حان وقت مغادرة الفتى. ثم خرج "تانكريدو" من النافذة، ورجع إلى حجرته، وأمر بالقبض على "جيسكاردو"، فقُبض عليه في التو، وهو يصعد إلى الكهف، وأخذه الحراس إلى "تانكريدو"، فقال له، وهو في شدة الغضب:

– معاملتي الحسنة لك لا تستحق الإهانة التي ألحقتها بي، والخزي الذي شاهدته اليوم بنفسي.

فرد عليه الفتي:

– الحب أقوى منك ومني، يا مولاي.

أمر "تانكريدو" بحبسه هناك في سرية تامة، وفرض حراسة مشددة عليه. وفي صباح اليوم التالي، ذهب الأب لابنته، وهي لا تعلم شيئًا مما حدث، فقال لها وهو حزين:

– كنت أظنك، يا فتاتي، مهذبة وعفيفة. ولو أني لم أشاهد بعيني كل شيء، لما صدقت علاقتك الآثمة هذه أبدًا. سأظل في ألم بقية عمري. حتى أنكِ لم تختاري رجلًا نبيلًا، وإنما وقع اختيارك على هذا الوضيع الذي أحسنتُ إليه وربيته، منذ أن كان صبيًا. لقد أمرت باعتقاله حين خرج من الكهف، وتم القبض عليه؛ وقد قررت ما سأفعل به. أما أنتِ، فلست أدري ماذا أفعل معك. فحبي لك يمنعني، ولكن الغضب يقودني إلى خيارين، أولهما أن أسامحك، وثانيهما أن أعاقبك. ولكنني أريد سماع دفاعك، قبل أن

أتخذ قرارًا حيالك.

عندما أنهى حديثه، أخذ في البكاء كالأطفال. ولما سمعت الفتاة ما قاله لها والدها، تأثرت وانهمرت الدموع من عينيها؛ لكنها سرعان ما تماسكت؛ وقالت له، بدون خوف أو ارتباك:

– لن أنكر ما حدث، وليست لديَّ نية لرجاء العفو منك. وسأعترف لك بالحقيقة. لقد أحببت "جيسكاردو"، وسيبقى حبه في قلبي مرفرفًا حتى آخر لحظة في حياتي؛ حتى إن مت، فسأظل أحبه ووفية له. ولم يكن ضعفي ما دفعني إلى ما حدث، لكن كانت مزاياه وصفاته الحميدة، وعدم اهتمامك بأني ما أزال شابة وفي حاجة للزواج؛ ولم تهتم بتزويجي. أنت تعلم أنك بشر، وقد أنجبت بنتًا من لحم ودم، وليست من الحجر. ولئن كنت الآن شيخًا كبيرًا، فمن المؤكد أنك مررت من قبل بمرحلة الشباب، وتعرف كيف يكون الشباب، وأنا في عز صباي، ولديَّ من المشاعر والرغبات التي تدفعني لفعل هذا الأمر، علاوةً على أنني كنت متزوجة من قبل. لقد بذلتُ جهدًا كبيرًا حتى لا أسبب لك الأذى، ولكن الحب هو الذي قادني إليه، ووجدت فيه وسيلة لسعادتنا، دون أن تعلم بهذا. ولم أختر "جيسكاردو" بدون تفكير، ولكن بعد تأمل وتريث. والعجيب في الأمر أنك تلومني بتألم، لأنني أخطأت مع شخص ليس له مكانة، أي أنك ما كنت لتغضب لو كنت أواعد شابًّا نبيلًا. أبي، الأصل في الأمور أننا جميعا عند الرب سواسية، لا فرق بين خادم أو سيد، وأن حُسن الخلق هو الذي يميزنا عن بعضنا بعضًا، ومَن يقوم بالسلوك الطيب الحسن هو النبيل. وإن دققت النظر فيمن حولك من النبلاء، وقارنتهم بـ"جيسكاردو"، فسترى أنه أنبل منهم جميعًا،

وأن الحاشية التي حولك مثل الرعاع. ولم أشعر بحُسن صفاته من تلقاء نفسي، ولا استنادًا على آراء الآخرين، ولكن منك أنت ومن كلامك الطيب المستمر عنه، إلى أن وجدت بنفسي فيه كل الصفات التي ذكرتها فيه. ولهذا، فلا يجب أن تعتبره وضيع المقام. أما إذا تحدثنا عن قلة ماله، فأنت المسؤول عن فقره، فلم تعطه وتمنحه المكانة التي يستحقها. ورغم هذا كله، فالفقر ليس معناه عدم تمتعه بالكرامة والنبل، وإنما يسلبه الأموال فقط. وهناك أمراء كثيرون وحتى ملوك كانوا فقراء، وآخرون يعملون في الأرض كمزارعين كانوا من قبل أغنياء. فالدنيا ليست على وتيرة واحدة. أما فيما يتعلق بي أنا شخصيًا، فلو رغبت في القسوة عليَّ، وأنت في هذا العمر، فافعل ما تريده؛ فأنا لن أتوسل إليك، ولن أطلب منك العفو والمغفرة. لكنك إن قمت بما تنوي حيال "جسكاردو"، ولم تفعل الشيء نفسه معي، فسأقوم بهذا بنفسي، ولن أتردد في هذا، فعاقبنا نحن الاثنين معًا.

انتبه الأب لقوة وشجاعة ابنته، غير أنه لم يصدق أنها ستفعل ما قالته حقًّا. قام بمغادرة المكان؛ فعلمت أنه لن يؤذيها، لكنه أمر الحارس بقتل "جيسكاردو" خنقًا، ونزع قلبه من صدره. وتم تنفيذ الأمر، وأحضروا إليه قلبه. في اليوم التالي، أمر الأب بأن يضعوا قلب "جيسكاردو" في كأس ذهبية، وأمر خادمًا يثق فيه بأن يذهب بالكأس إلى ابنته، ويقول لها التالي: "يبعث إليك أبوك بهذا ليرضيك، كما قمتِ أنتِ بإرضائه".

كانت "جيسموندا" قد عقدت العزم على أنه إذا قتل أبوها حبيبها، فسوف تلحق به وتقتل نفسها. وبعدما تحدث معها أبوها وذهب، طلبت إحضار أعشاب وجذور سامة، وقامت بطحنها لتقتل نفسها بها. وعندما أتى

لها الخادم بالهدية في الكأس، وأبلغها رسالة والدها، أخذت منه الكأس بهدوء. ولما شاهدت القلب، علمت أنه قلب حبيبها "جيسكاردو"، فقالت بتألم وتحسر:

– لا يوجد ما هو مناسب ليكون مدفنا لهذا القلب النبيل كالذهب.

ثم قربت الكأس منها وقبلته، وأكملت كلامها:

– لقد تلقيت طوال حياتي حب أبي الحنون، غير أنني ممتنة له اليوم أكثر من أي يوم مضي؛ فأبلغه شكري الأخير له على تلك الهدية.

بعدما غادر الخادم، أعادت النظر إلى الكأس الذي كانت تمسك به بقوة في يدها، وقالت:

– آه يا حبيبي وملاذي! اللعنة على تلك القسوة التي جعلتني أراك على هذا الحال! سألحق بك في الطريق الذي قُدر لك، وتركت خلفك هموم الدنيا ومتاعبها، ونلت من ذلك الرجل العقاب بدون رحمة أو شفقة. لم يعد يتبقى لي ولك سوى دموع من أحببتها، وإليك أقدم دموعي. كنت أرغب بالموت بعينين جافتين، لتتحد بعدها روحي وروحك دون أن يفرقنا أحدٌ أبدًا من العالمين.

ثم انحنت على الكأس، وظلت تبكي ساكبة دموعها فيه، وهي تقبل قلب حبيبها في نفس الوقت.

لم تع الوصيفات ما يجري، وما الذي يعنيه هذا القلب، لكنهن أحسسن بالألم والأسف، وسألتها إحداهن عن سبب بكائها، لكن بلا جدوى. بعد مرور بعض الوقت على نحيبها وبكائها، مسحت عينيها وقالت:

– آه يا قلب روحي وحبيبي، لم يبق الآن سوى أن تجتمع روحي بروحك،

وتتحدا معًا.

ثم طلبت من الوصيفات أن يأتين لها بالوعاء الذي وضعت فيه الأعشاب السامة قبلها بيوم، وقامت بسكب الماء في الكأس الذي يحتوي قلب حبيبها والذي بكت فيه، ثم شربت ما فيه، ونامت على سريرها، وهي ممسكة بالكأس بيدها، وهي تضمه إلى قلبها، وتنتظر الموت، دون أن تتفوه بكلمة واحدة.

وعندما شاهدت خادمتها ما يحدث، أرسلت لوالدها ليبلغوه بما يجري، فشعر الأب بما يمكن أن يحدث، ونزل بسرعة إلى غرفة ابنته، ليحاول منعها، ولكن بعد فوات الأوان. فأخذ يبكي بحرقة وألم، هو الآخر. في تلك اللحظة، قالت له، وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة:

– لا تبكِ، يا أبي! لا أريد دموعك. إن كان ما يزال في قلبك القليل من الحب، فامنحني آخر طلب لي، وواريني الثرى بجانب جسد "جيسكاردو".

لم يقدر من شدة بكائه أن يقول شيئًا. وعندما شعرت بقرب لحظتها، ضمت قلب حبيبها على صدرها، وقالت لوالدها:

– الوداع يا أبي، فأنا راحلة.

ثم أغمضت عينيها وفارقت الدنيا، وذهبت الروح إلى خالقها.

وهكذا انتهت قصة حبهما بموت "جيسموندا" و"جيسكاردو". أما والدها، فقد أمر– وهو مفعم بالكثير من الحزن والألم، وشاعرًا بالندم على ما فعل– بأن يدفنا سويًا، بجانب بعضهما بعضًا، كما طلبت منه ابنته.

القصــة الثَّــانية

يقنع الراهب "ألبرتو" امرأةً بأن الملاك جبرائيل متيم بها، ثم يتظاهر أنه هو الملاك نفسه، ليلتقي بها ويعاشرها معاشرة الأزواج. يهرب من عندها لما جاء أهلها، ويختبئ في منزل رجل فقير. ويأخذه الرجل إلى ساحة وسط المدينة، متخفيًا بملابس فلاح؛ لكن الرهبان يتعرفون عليه، فيلقون القبض عليه، ويرمونه في الحبس.

بكت السيدات أثناء سماع قصة "فياميتا" عدة مرات؛ لكن حينما انتهت، قال الملك بحزم: سيداتي، أعتقد أني لو قدمت حياتي سيكون ثمنًا قليلًا جدًّا مقابل نصف ما حصل عليه "جيسكاردو" مع " جيسموندا". ويجب ألا تتعجب واحدةٌ منكن، فأنا أشعر في حياتي بألف ميتة كل ساعة، دون أن أستمتع بأي شيء. فلنُنح شأني جانبًا، فأنا أود أن تكمل "بامبينيا" الحديث في ذلك الموضوع. وإن قامت بمثل ما قامت به "فياميتا"، فبالتأكيد سأشعر بما يسرني ويلطف نار قلبي.

سمعت "بامبينيا" الأمر، فعلمت ما يجب عليها أن ترويه، مراعاة للحالة النفسية لرفيقاتها، دون أن تأخذ كلام الملك في اعتبارها. ورأت أن تروي ما

يدخل السرور عليهن. وأرادت أن تقص عليهن رواية مضحكة. وبدأت حديثها بالتالي:

كثيرًا ما يذكر عامة الناس المثل المعروف "المخطئ الطيب- في نظر الناس- قد يقترف أسوأ الشرور، دون أن يصدق أفعاله أحد"[25]. وهناك غيره الكثير من الأمثال التي تتناول هذا الموضوع. كما أنه يتيح لنا الحديث عن نفاق وخداع بعض رجال الدين، الذين يسيرون في الأرض مدعين ما ليس فيهم من خصال؛ بملابسهم الطويلة الفضفاضة ووجوههم الشاحبة المصطنعة، فيتحدثون بوداعة عندما يريدون أمرًا ما، وبفظاظة وغلظة حين يودون لوم الناس على ما يرتكبونه من أخطاء وعيوب. وحين يأخذون المال من العباد، فإنهم يساعدونهم على النجاة كما يقولون. وفوق كل هذا، لا يتصرفون على أنهم بشر مثلنا، مع العلم أن عليهم العمل للفوز بالجنة والنجاة من النار أكثر من غيرهم، لأنهم بمثابة القدوة التي يتبعها الناس. لكنهم يتصرفون كأنهم أصحاب الجنة وسادتها؛ يوزعون الجنة والمغفرة على كل من يموت، على حسب ما ترك لهم من مال: مكان صغير أو كبير، أو حتى في الفردوس الأعلى؛ ويقومون بخداع البسطاء المصدقين لهم والمؤمنين بهم. لكن الرب أراد كشف خداعهم، وإظهار حقيقتهم، مثل حالة هذا الراهب صغير السن، دون أن يكون شابًا، كما يعتقد البعض. فهو أحد القديسين في "فينيسيا". وسوف أتحدث عنه؛ وربما تغير هذه الرواية معنوياتكم،

---

[25] يشبه المثل العامي المصري: "يطلع من تحت الساهي دواهي"، و"اللي تحسبه موسي يطلع فرعون".

وتلطف الجو.

صديقاتي العزيزات، كان هناك في "إيمولا" رجل فاسد يعيش حياة كلها خداع، اسمه "بيرتو ديلا ماسًّا". كان دائم الكذب، لدرجة أنه حتى لو قال الحقيقة لا يصدقه أحد. وقتها، قرر أن يترك "إيمولا"، وينتقل للعيش في "فينسيا". وفكر في البحث عن طريقة ليحتال بها على الناس، فتصنع الندم عن كل أفعاله التي اقترفها في الماضي، وأظهر المسكنة، وتحول إلى راهب صغير الشأن، وأسمي نفسه الراهب "ألبرتو دا إيمولا". وادعَى وتظاهر أنه يعيش في تقشف وزهد، وراح ينصح الناس بالتوبة وترك المعاصي. وهكذا، تحول من لص ونصَّاب وقواد إلى واعظ كبير يدعو إلى الفضائل ومكارم الأخلاق؛ لكنه لم يترك رذائله، كلما سنحت له الفرصة لفعلها في الخفاء؛ بل أصبح كاهنًا فوق كل هذا. وكلما وجد نفسه أمام المذبح، وكانت هناك جموع من الناس في القداس، يتصنع البكاء لآلام المسيح، خاصةً أنه بارع التمثيل. وسرعان ما تمكن هذا الراهب المخادع من خداع البسطاء بمواعظه ودموعه، وأصبح الرجال والنساء يعترفون أمامه، ويأتمنونه على أموالهم، بل يطلبون منه النصيحة. وذاع صيته في تلك المنطقة، وازدات شهرته حتى تخطت سمعة القديس "فرانشيسكو دي أشيزي".

وفي أحد الأيام، ذهبت إليه سيدة جميلة، لكنها ساذجة تدعي "ليزيتا دي كاكيريني"، زوجة تاجر غني، للاعتراف بين يديه. وعرف منها أنها من "فينيسيا"، حيث العلاقات المتعددة؛ فسألها- بعدما أنهت الاعتراف أمامه- إن كان لها عشيق. فأبدت الاستياء، وقالت له:

– سيدي الراهب ، ألا توجد عينان في وجهك؟ أو لا ترى أني أجمل من

النساء الأخريات كثيرًا؟ ولو أردت، لكان لي عشاق كثيرون، غير أني لا يروق لي أي رجل. هل شاهدت في حياتك كلها أجمل مني؟ أنا جميلة، وسأظل جميلة، حتى في الفردوس.

بقيت تتحدث عن جمالها إلى حد يُشعر من يسمعها بالإستياء. من هنا، علم الراهب "ألبرتو" أنها حمقاء يمكن خداعها بسهولة. وحتى لا يثير حوله الشكوك، عاتبها على تماديها في تفاخرها بجمالها. فتعجبت من كلامه، وقالت له إنه أعمى لا يقدر على النظر والتمييز بين هذه وتلك. وحتى لا تزيد في هجومها عليه، بادر إلى مباركتها وصرفها.

وبعد أيام قليلة، ذهب إلى بيت "ليزيتا" مع صديق له، واختلي بها في إحدى حجرات المنزل، حتى لا يراه أحد، فركع أمامها وقال لها:

- سيدتي، جئت لطلب العفو والسماح، لأني لم أقدر جمالك في ذلك اليوم الذي أتيتِ فيه للاعتراف. وقد تلقيت العقاب على هذا في تلك الليلة، ولم أقدر على النهوض من الفراش سوى اليوم.

فقالت له بسذاجة:

- ومن الذي عاقبك هكذا؟

قال لها:

- سأحكي لكِ ما حدث بالتمام والكمال: عندما كنت أصلي في الليل، كما أفعل كل ليلة، رأيت نورًا يشع في حجرتي. وقبل أن أتمكن من النظر تجاهه لرؤيته والتحقق من ماهيته، إذا بشخص باهر الجمال يمسك بهراوة سميكة. أمسكني من ثيابي، وأخذ يضربني إلى أن أحسست أني على وشك

الموت. سألته لماذا تفعل بي هذا، فقال لي: "لأنك تجرأت اليوم على انتقاد جمال ومفاتن السيدة "ليزيتا"، التي أحبها في المقام الأول، بعد الرب، وأكثر من أي شيء آخر". سألته: "ومن تكون أنت"؟ فأجابني قائلًا إنه كبير الملائكة جبرائيل. طلبت منه العفو. فأخبرني أنه سيعفو عني بشرط أن أذهب إليكِ عندما أستطيع النهوض من فراشي لطلب العفو منك، وأن تسامحيني؛ وإن لم تسامحيني، فسيعود ليضربني من جديد". وليست لديَّ الجرأة لإخبارك بما قاله لي بعد ذلك، إلا إذا غفرت لي وسامحتني.

كانت تلك السيدة الساذجة، عديمة العقل، شديدة الحماقة، بلهاء مسرورة بهذا الكلام، بل صدقته، وظنت أن ما يقوله حقيقة، فقالت له:

– لقد قلت لك أيها الراهب "ألبرتو" إن جمالي ملائكي؛ وقد ساعدني الرب على إثبات هذا. ولكني مشفقة عليك، وسأسامحك لو أخبرتني حقًّا بما أخبرك به الملاك بعد هذا.

فقال الراهب "ألبرتو":

– بما أني قد حصلت على شرف عفوك عني، يا سيدتي، فسأخبرك بكل سرور. لكن يجب تذكيرك بشيء واحد، وهو أن عليكِ أن تبقي الأمر سرًّا، ولا تخبري أي أحد، كائنًا مَن كان في هذه الدنيا، حتى لا تفسد أمورك. فأنتِ أكثر النساء حظًّا في العالم. لقد طلب مني الملاك جبرائيل أن أخبرك بأنك تعجبينه كثيرًا، وقال لي إنه يرغب كثيرًا في القدوم إليك لقضاء الليل معك، غير أنه يخشى أن يخيفك. وهو يخبرك الآن، بواسطتي، بأنه يريد أن يأتيكِ في إحدى الليالي، ويمضي معكِ الليل، لتكون ليلة لا تنسى؛ ولأنه ملاك ولا

يمكنك لمسه، وهو على هيئته، فإنه يفكر في إسعادك ويـجيء إليـكِ في هيئـة بشر. ويريد منك إخباره متي تريدين أن يأتي، وهيئة مَن تريـدين أن يمثلهـا عندما يأتي، وسيفعل كما تريدين، وستكونين في قمة الـسعادة أكـثر مـن أي نساء العالم.

أجابت السيدة الساذجة أنها مسرورة بسماعها أن جبرائيـل مغـرمٌ بهـا، لأنها تحبه أيضًا، وتشعل له الشموع؛ وإنهـا على أتـم اسـتعداد للترحيـب بـه واستقباله ليزورها، وسيجدها في انتظاره في غرفتها. ولكن عليه ألا يتركهـا بعد قليل ليذهب إلى مريم العذراء التي يحبها كثيرًا كما سمعت، وهي تعتقد هذا. وقالت له أخيرًا إنه يستطيع المجيء بأية هيئة يختارها، ولكـن دون أن يسبب لها الخوف. فأجابها الراهب "ألبرتو" قائلًا:

- إنك تتكلمين بحكمة ولباقة منقطعة النظير، يا سيدتي. وسـوف أبلغـه بكل ما قلت. ولكني أرجو منكِ أن تقدمي لي معروفًا لن يكلفك شيئًا: هو أن تطلبي منه المجيئ بجسدي وباتخاذه هيئتي. وسبب ما أطلب أنـه عنـدما يتخذ هيئتي، سوف يخرج روحي من جسدي، ويضعها في الفردوس، وستبقى روحي في نعيم طوال الوقت الذي سيقضيه معكِ.

فقالت السيدة الحمقاء:

- أوافق على طلبك هذا، عن طيب خاطر؛ وحتى أعوضك عـن الـضرب والأذى الذي تلقيته بسببي.

فقال لها:

- تدبري الأمر، واتركي الباب مفتوحًا الليلة كي يـستطيع الدخـول؛ فهـو

سيأتي على هيئة بشرية، ولن يتمكن من الدخول إلا عبر الباب.

أكدت السيدة أنها ستهتم بالأمر، وستسير الأمور على خير ما يرام.

غادر "ألبرتو". أما هي، فبدأت- وهي فرحة- في الاستعداد لقدوم الملاك جبرائيل، وهي في قمة الفرحة والسعادة. أما "ألبرتو"، فقد فكر أنه سيكون فارسًا في تلك الليلة، وليس ملاكًا. وبدأ بتناول الحلوى، وكل ما لذ وطاب، ليقوي جسده، ولا ينزل بسهولة عن مطيته وفريسته السهلة هذه الليلة. ثم حصل بعدها على إذن من رئيسه للخروج.

ولما جاء الليل، ذهب ومعه رفيق له إلى بيت إحدى الصديقات اعتاد الخروج منه قبل ذلك للقاءاته مع النساء في الخفاء. وعندما وجد الوقت مناسبًا، ذهب متنكرًا بجناحي ملاك إلى بيت "ليزيتا"؛ فدخله وصعد إلى الطابق العلوي، ودخل إلى حجرتها. وما إن رأته متنكرًا، حتى جثت راكعة أمامه، فباركها الملاك وطلب منها النهوض من مكانها؛ ثم أشار لها بالذهاب إلى السرير. قامت بذلك بكامل رغبتها، ونام الملاك بجانب المرأة المؤمنة به. كان الراهب "ألبرتو" رجلًا جميل الشكل، مفتول العضلات قوي البنيان. وحين وجد نفسه مع تلك الجميلة المستسلمة له، ضاجعها بطريقة مختلفة عما اعتاد أن يفعل معها زوجها، وحلق معها عاليًا لعديد من المرات، بدون أجنحة. وراح يحدثها عن المجد السماوي، وكانت سعيدة جدًّا بهذا. وقُرب الفجر، دبر خروجه متنكرًا، وعاد لرفيقه، بعد أن قضى رفيقه الليلة مع صاحبة المنزل الذي اعتاد الخروج منه، حتى لا يشعر بالخوف. أما السيدة "ليزيتا"، فقد ذهبت بعد الغداء إلى الراهب "ألبرتو"، وأخبرته بزيارة الملاك لها، وحديثه معها عن المجد السماوي والحياة الأبدية، مضيفةً أيضًا بعض

الأشياء من تأليفها. فقال لها الراهب "ألبرتو":

- لا أعلم كيف تفاهمتما معًا، يا سيدتي. كل ما أذكره أنه عندما أتى لي، أخبرته بما طلبتِ مني، فحمل روحي فجأةً إلى مكان جميل، تملؤه ورود وأزهار لم أشاهد روعتها أبدًا، وبقيت هناك حتى الصباح. أما جسدي فلا أعلم ماذا حل به.

فقالت له:

- ألم تعلم؟ لقد كان جسدك طوال الليل بين ذراعي مع الملاك الحبيب، وإن لم تصدق، فانظر تحت ثديك الأيسر، فقد قبلت الملاك قبلة كبيرة في هذا المكان، لابد أن أثرها سيبقي لبضع ليال.

رد عليها الراهب "ألبرتو":

- سأقوم بعمل لم أقم به منذ مدة كبيرة، سوف أخلع ملابسي فيما بعد، لأتأكد من صحة كلامك.

بعد حديث طويل، رجعت المرأة إلى بيتها الذي أصبح الراهب "ألبرتو" يتردد عليه كثيرًا على أنه الملاك جبرائيل، وبدون أية مشكلات. وذات يوم، كانت "ليزيتا" مع إحدى صديقاتها، وتحدثن عن الجمال. وحتى تبرز جمالها على أي جمال آخر، قالت لصديقتها:

- لو تعلمين مَن هو المعجب بجمالي، لما تحدثتِ بكلمة واحدة عن جمال الأخريات.

فأرادت صديقتها، وهي تعرفها جيدًا، أن تسمع منها المزيد، فاستدرجتها لتتحدث، وقالت لها:

- ربما يكون كلامك صحيحًا، ولكن من غير الممكن تصديق هذا بدون معرفه من تقصدين.

فأجابتها تلك الساذجة:

- يجب ألا أتكلم عن هذا، يا صاحبتي. لكن "جبرائيل" الملاك يحبني أكثر من نفسه، وهذا لأنني أجمل امرأة في البر والبحر.

أمسكت صديقتها نفسها من الضحك، ومنعت نفسها لتجعلها تحكي أكثر، فقالت لها:

- إن كان الملاك جبرائيل يحبك، ويقول لك ما تدعين، فقطعًا هذه حقيقة مؤكدة. لكني أعتقد أن الملائكة لا يفعلون تلك الأشياء.

فردت عليها "ليزيتا" بقولها:

- أقسم بجروح المسيح أنكِ مخطئة، يا عزيزتي؛ فهو في هذا الأمر أفضل من زوجي، ويقول إنهم يقومون بذلك في الأعالي. لكنه أحبني، ويراني أفضل وأجمل من اللواتي في السماء، وهو يأتي لي كثيرًا؛ فهل عرفتِ الآن؟

بمجرد أن ذهبت من عند "ليزيتا"، ذهبت مسرعةً لأقرب مكان حتى تحكي ما سمعت منها. والتقت في حفل مع مجموعة من النساء، وحكت لهن كل ما سمعت بأدق التفاصيل. تناقلت النساء الخبر، ومن شخص لآخر، وانتشر الخبر كالنار في الهشيم؛ فكانت "فينيسيا" كلها تعرف الخبر خلال يومين.

كان إخوة زوج "ليزيتا" بين مَن بلغهم الخبر، وعقدوا العزم، دون أن يتحدثوا معها، على الإمساك به، ومعرفة إن كان ملاكًا أم شخصًا ينتحل هذه

الصفة الملائكية؛ وليعرفوا أيضًا مدى قدرته على الطيران. ظلوا يراقبون البيت لفترة من الزمن. ووصلت الأخبار للراهب "ألبرتو"، فذهب إليها ليلومها على بوحها بالسر. ولم يكد يخلع ملابسه، حتى كان إخوة زوجها قد وصلوا عند باب الغرفة ويحاولون فتحه. ولما سمع صوتهم، وأدرك ما يحدث، قام يجري ليجد مخرجًا. فوجد النافذة وفتحها، ورأي أنها تطل على قناة مياه، فألقى بنفسه من هناك في الماء. وبما أنها قناة كبيرة، فكان عمقها مناسبًا، كما أنه يجيد السباحة، فلم يصبه أذًى. سبح حتى الجانب الآخر، ودخل مسرعًا نحو بيت وجده أمامه، وتوسل إلى رجل طيب كان في البيت لينقذه، حبًّا للرب. وحكي قصة من وحي خياله ليبرر سبب وجوده عاريًا في تلك الساعة.

وافق الرجل على مساعدته، لكنه كان ذاهبًا إلى خارج البيت لقضاء أعماله، فوضعه في سريره، وقال له: عليك البقاء هنا لحين رجوعي. وأغلق عليه الباب، وذهب لعمله.

حين دخل إخوة زوج السيدة إلى غرفتها، وجدوا أن الملاك "جبرائيل" طار، لكنه ترك لهم جناحيه وملابسه، فشعروا بالإهانه والسخرية، وانهالوا على المرأة بالسباب والشتائم، ثم تركوها، بعدما نالت ما تستحقه. وعاد كل منهم إلى بيته حاملًا بعضًا من أدوات الملاك.

في هذا الوقت، أخذ ضوء النهار يتسلل من بين أجنحة الظلام، ثم أشرقت الشمس. وبينما الرجل في الخارج، سمع كيف ذهب الملاك "جبرائيل" في الليل لينام مع السيدة "ليزيتا"؛ وكيف ألقى بنفسه في القناة، حين اكتشف أمره إخوة زوجها، ولا يعلم أحدٌ ماذا حدث له. استنتج الرجل أن الملاك جبرائيل هو نفسه الشخص الموجود في بيته. وعندما رجع إلي بيته

تعرف عليه. وبعد كلام كثير دار بينهما، اتفقا على أن يعطيه الراهب خمسين عملة ذهبية حتى لا يسلمه لإخوة زوج "ليزيتا". ولما أراد الراهب الخروج من عنده، قال له الرجل:

– لا توجد سوى طريقة واحدة لتخرج من هنا، وهي أن نقيم حفلًا تنكريًّا اليوم؛ فيأخذ البعض معهم رجلًا متنكرًا في شكل دب، وآخرين يأخذون رجلًا متنكرًا في شكل إنسان متوحش، وغير ذلك. ويقام حفل الصيد في ساحة القديس "ماركوس"، وفي نهاية اليوم ينتهي الاحتفال، ويذهب كل فرد ومن معه إلى حيث يشاءون. ولا أعلم طريقه أخرى يمكنك الخروج بها من غير أن يفتضح أمرك، لأن أقارب السيدة يفكرون أنك قد تكون في أحد الأماكن القريبة، ووضعوا حراسًا، وأقاموا أكمنة ليمسكوا بك.

شعر الراهب "ألبرتو" أن خروجه بهذه الطريقة سيكون مهينًا وصعبًا بالنسبة له. لكن خوفه مما ينتظره لو أمسكوا به جعله يوافق سريعًا. ثم أخبر الرجل بالمكان الذي يريد الذهاب إليه. وأخذ الرجل يدهن جسم الراهب "ألبرتو" كله بالعسل، ثم غطاه بريش الطيور، ووضع سلسلة حول عنقه، وقناعًا على وجهه، وأعطاه عكازًا كبيرًا يمسكه في إحدى يديه، وفي اليد الثانية كلبين عملاقين أتى بهما من المجزر. وبعث بشخص ينادي بين الناس أن من يريد مشاهده الملاك "جبرائيل"، فعليه أن يأتي لميدان القديس "ماركوس".

بعدها بوقت قليل، أخذه خارج البيت ودفعه أمامه. ومشي هو وراءه، ممسكًا به من سلسة حول عنقه، فاجتمع عدد كبير من الناس، وكانوا

يتساءلون حوله: ما هذا؟ ومَن يكون؟ ثم ذهب به إلى الميدان، واجتمع هناك مَن جاءوا وراءه في الطريق وغيرهم، أتوا لما سمعوا المنادي وغيرهم من "ريالتو"؛ فالتم هناك جمع كبير من الناس. وفي مكان عال وظاهر، ربط رجله في عمود، متظاهرًا بأنه ينتظر بداية الحفل، فراح الذباب يضايقه لكونه مدهونًا بالعسل. ولما اكتظت الساحة بالناس، همَّ من مكانه، كأنه سيفك قيوده، إلا أنه وعلى غير المتوقع نزع القناع عن وجهه، وقال:

- أيها السادة، حيث أن الخنزير البري لم يحضر حفل الصيد، وحتى لا يكون قدومكم من غير فائدة، سأجعلكم ترون الملاك "جبرائيل" الذي ينزل من السماء للأرض في الليالي، ليواسي نساء "فينسيا".

ولما قام بنزع القناع عن وجه الراهب "ألبرتو"، عرفه الموجودون في الحال، وتعالت أصواتهم ضده، موجهين له سبابًا وإهانات لا مثيل لها، بأفظع الألفاظ، وأخذوا يلقون عليه القمامة لمدة طويلة.

وصل الخبر إلى الكنيسة، فجاء ستة من الرهبان، وستروا جسمه بعباءة، وفكوا قيوده، ثم أخذوه وسط حالة من الصخب، وأودعوه السجن. وأظن أنه مات بعد سنوات من السجن.

وهذا مثال حي لمن يمكن أن نعتبرهم أتقياء، وما كان أحد ليصدق أن تصدر منهم تلك الشرور، لدرجه أنه بطل روايتنا ادعى أنه الملاك "جبرائيل"، ونزل بجسده ليضاجع النساء. لقد نال جزاء أفعاله الدنيئة في نهاية المطاف. ولو بقي يبكي على أفعاله لكان بلا جدوى، لما فعله من آثام ومعاصي. ونتمنى من الرب أن يلقى كل من على شاكلته نفس المصير.

القصــة الثَّالثــة

ثلاثة من الشبان يقعون في حب ثلاث أخوات، ويهربون معًا إلى جزيرة "كريت". وبدافع من الغيرة، تقتل الأولى عشيقها، وتسلم الثانية نفسها للدوق لتنقذ أختها من الموت؛ فيقتلها رجلها ويهرب مع الأولى، وتُتهم الأخت الثالثة وعشيقها بتلك الجريمة، فيعترفان بها خوفًا من الموت؛ ثم يقومان برشوة الحارس بالمال، ويهربان مجردين من المال إلى جزيرة "رودس"[26].

بعدما سمع "فيلوستراتو" نهاية قصه "بامبينيا"، صمت قليلًا، ثم نظر إليها، وقال: حقًّا، كانت ممتعه نهاية الرواية السابقة. ولكني ربما أكون قد ضحكت أكثر مما ينبغي. ثم وجه كلامه لـ"لوريتا" قائلًا: أكملي لنا بقصة جديدة، أيتها العزيزة "لوريتا". فأجابت عليه باسمةً، وقالت: أنت أيها الملك قاسٍ على العشاق، لا تحب غير النهايات التعيسة. وحتى أرضيك، سأحكي قصة لثلاثة أشخاص انتهت بنهاية حزينة، من دون أن يفرحوا بحبهم سوى

[26] جزيرة يونانية في البحر المتوسط، تعرف تاريخيًا بكونها موقع تواجد تمثال "أبولو" "رودس" سابقًا، وهو أحد عجائب الدنيا السبع. تقع بالقرب من الساحل الجنوبي لتركيا، في منتصف المسافة بين جزر اليونان الرئيسية وقبرص.

القليل من الوقت. ثم بدأت تروي قصتها وقالت:

تعرفون، يا أصدقائي، أن الرذائل تقضي على أصحابها، وتكون لهم نهايات غير طيبة المآل. وأسوأ الشرور- من وجهة نظري- هو الغضب؛ فهو انفعال مفاجئ ويتسم بالتهور، ويحجب العقل، ويشعل النار في النفوس، فتتقد وتُقدم على الشرور. وهذا ما يحدث للرجال، وأحيانًا يصيب النساء أيضًا. وما يحدثه بنا الغضب من ضرر لهو كبير جدًّا! وإن تأملنا جيدًا، فسنرى أن تلك النار تشتعل أولًا في الأشياء الرقيقة، ثم تكبر وتصل إلى الكبيرة. ونحن النساء مرهفات الحس، متقلبات المزاج. هذه هي طبيعتنا، ويهتم ويعجب الرجال برقتنا ووداعتنا؛ فهي تمثل راحة لهم، لأن الغضب مشكلة كبيرة. وسأروي على مسامعكم رواية غرام ثلاثة من الشبان وثلاث سيدات، ذهبت السعادة وتركتهم جرَّاء غضب أحدهم.

تعرفون مدينة "مرسيليا"، الواقعة في منطقة "بروفنس"، المطلة على البحر؛ وهي مدينة قديمة وغنية، يسكنها رجال وتجار كبار. من بين هؤلاء شخص اسمه "نارنال كافاد"، الذي كان ينحدر من أصول فقيرة، لكنه أمين في تجارته؛ فكسب الكثير من الأموال، وامتلك الأطيان. أنجبت له زوجته الكثير من الأبناء، من بينهم ثلاث بنات بالغات، والباقي من الذكور. كانت الكبيرتان توأمين، وعمرهما خمسه عشر عامًا، والثالثة أصغر منهم بعام. وكن في انتظار عودة والدهم من تجارته بأسبانيا ليزوجهن. وكان اسم التوأمين "نينيتا" و"مدلين"؛ أما الصغرى فكانت تدعي "بيرتيل". قد أحبت "نينيتا" شابًّا نبيلًا، لكنه لا يملك المال، اسمه "رستنيون". وقد بادلته الفتاة مشاعره الطيبة، وكانا يتقابلان سرًّا دون علم أحد. وبعد مرور وقت على تلك

اللقاءات، وقع أخوان في حب الفتاتين الأخريين، أحدهما يدعي "فولك" والثاني "أجيت"، وكانا والدهما قد توفي، وورثا عنه ثروة كبيرة. ولما عرف "رستنيون" بهذا، حاول استغلال الموقف، ليحصل على ما يريد، فتقرب منهما، وأصبحوا يذهبون معًا للقاء الفتيات. ولما ازدادت الثقة بينهم وأصبحت كبيرة، كان يقابلهم عنده في منزله، وقال لهما:

– صديقاي المقربان، إنني أحبكما كثيرًا، وسأفعل أي شيء لكما. إن كنتما لا تكذبان، فأنتما تحبان الفتاتين بشدة، كما أني واقع في غرام أختهما. سأدبر مكانًا نذهب إليه ونعيش فيه بسعادة. وأعلم أني سأتمكن من إقناعهن بالذهاب معنا، وأن يأخذن معهن أموالًا من ممتلكات والدهن الكثيرة. وهكذا نصبح أغنى وأسعد الرجال. والقرار لكما.

أعجب الشابان بالفكرة. لكنهما انتظرا موافقة الفتيات على الذهاب معهم. تكلم "رستنيون" مع "نينيتا"، ورحبت بالأمر؛ ووعدته بإقناع أختيها والإعداد جيدًا للأمر.

ولما عاد الفتى إلى الشابين المنتظرين الرد على أحر من الجمر، وأبلغهما بموافقة الفتيات، فرحوا جدًّا، واتفقوا معًا على السفر إلى جزيرة "كريت". قام الفتيان ببيع أغلب ممتلكاتهم، وادعوا أنهم سيتاجرون بالمال، وحوّلا كل ما عندهم إلى نقود، واشتريا سفينة شراعية تجوب البحار بخفة ورشاقة. وقاموا بتجهيزها في السِّر إلى حين موعد سفرهم بها. كانت "نينيتا" تعلم جيدًا مدى رغبة أختيها في الرحيل، ومن ثم أقنعتهما بسهولة بكلامها المعسول؛ فهما كانتا في اشتياق للبقاء مع حبيبيهما.

وعندما انتهى تجهيز السفينة، فتحت الفتيات صندوق والدهم الكبير في

الليل، وأخذن منه كمية كبيرة من النقود والمجوهرات، وتركن البيت، وتوجهن- كما اتفقوا- إلى العشاق الثلاثة الذين ينتظرونهن. صعدوا على متن السفينة مسرعين، وأبحروا على الفور إلى أن وصلوا إلي "جنوة"؛ فالتقى كل حبيب بحبيبه اللقاء الأول، متذوقين ملذات العشق. ثم ذهبوا من هناك، بعد أن تزودوا بما يحتاجون إليه. وبعد ذلك مضوا في طريقهم، دون أية صعوبات، حتى وصلوا إلى جزيرة "كريت" قبل صباح اليوم الثامن. وهناك، اشتروا أملاكًا وعقارات جميلة وواسعة، وأقاموا- قرب مدينه "كانديه"- بيوتًا جميلة؛ وعاشوا فيها، وأقاموا الحفلات والولائم. وكان لديهم من الخدم، والكلاب، والخيول الأصيلة.

بعد كل هذا وتلك الحياة السعيدة، وبعدما يحصل الإنسان على ما يريد بدون تعب، ومن غير أن يكون الحب الذي عاشه حقيقيًّا، يأتي الشعور بالملل ممن يحب، إذا ما كان متاحًا بكثرة وإفراط. فحينما وجد "رستنيون"، المحب لـ"نينيتا"، أنه يحصل عليها ويستمتع بها متى يريد، دون خوف من أحد، بدأ يشعر بالملل، وبدأ حبه لها يقل.

في إحدى الحفلات تقابل مع فتاة أخرى جميلة من أهل البلد، وأخذ يلاحقها، ويتقرب منها، وينفق عليها بإسراف؛ فشعرت "نينيتا" بهذا الأمر، وبدأت الغيرة تسيطر عليها، ولم تعد ترضى بأن يخرج بدون موافقتها، وظلت تؤنبه وتوبخه بين الفينة والفينة. وكما أن الإفراط في أي شيء ضار، فإن منعها له زاد الأمر سوءًا. وكانت تصرفاتها تزيد من اهتمامه بتلك المرأة الجديدة. وبعد فترة، ودون أن تتحقق ما إن كان "رستنيون" قد أقام مع تلك المرأة علاقة حميمة، أم لم يحدث هذا، فقد جزمت بأنه خانها، وحزنت

بشدة، وقررت الانتقام منه. وتحول حبها السابق له إلى حقد وكراهية، وسيطر عليها الغضب، ففكرت بطريقه لقتله ومعاقبته على ما صدر منه تجاهها.

طلبت من عجوز، صاحبة خبرة في تركيب السموم، وقدمت لها الأموال نظير عمل سُم فتاك. وما هي إلا أيام قلائل حتى صار السم جاهزًا، وأسلمته لها دون أن يعلم أحد. كان تأثير السم قويًا، فدسته له، فمات قبل الصباح. وعلم كل من "فولك" و"أجيت" وامرأتيهما بأمر موته، ولم يعرفا سبب هذا الموت المفاجئ، وحزنوا على فراقه، وقاموا بدفنه بالشكل اللائق. لكن- بعد أيام قليلة- تم القبض على تلك المرأة التي أخذت منها السم، بسبب جريمة أخرى ارتكبتها. وفي السجن، اعترفت- خوفًا من التعذيب- بكل جرائمها، وكانت من ضمنها قضية "نينيتا". قام دوق المدينة بالتجول حول البيت، ودون أن تبدي مقاومة، ألقي القبض عليها، واعترفت بكل ما فعلته، وما حدث لـ"رستنيون".

عرف بعدها "فولك" و"أجيت" من الدوق لماذا تم القبض عليها، وحاولا بشتى الطرق، هما وأختاها، إنقاذها من الموت؛ فالكل كان يعلم مدي تشدد الدوق في تطبيق العدل. وكانت أختها الصغرى "مادلين" غايةً في الجمال، وكان الدوق معجبًا بها، وحاول التقرب منها قبل ذلك، لكنها لم تستجب له. وفكرت في أنها يمكنها إنقاذ أختها لو قبلت بإقامة علاقة معه، فبعثت له برسالة شفهية عن طريق أحد الموثوق بهم أنها مستعدة لفعل كل ما يرغب بشرطين: الأول، أن يعيد لها أختها سالمةً، وأن يبقى الأمر سرًّا بينهما لا يعلم به أحد.

لما وصلت الرسالة إلى الدوق، فكر في الأمر جيدًا، ثم وافق عليه. وصل

لها الرد أنه موافق، ويود هذا في أقرب وقت. وحتي يظـل الأمـر سرًّا، اعتقـل "فولك" و" أجيت" ذات ليلة، بحجة أنه يود التحقيق معهمـا، ليـبقى سرًّا مـع "مادلين". قام بوضع "نينيتا" داخل كيس، وادعي أنه سيلقي بها في البحـر في تلك الليلة، بعد أن ربطها بحجر. غير أنه أخذها لأختها مقابل قـضاء تلـك الليلة في أحضانها. طلب منها ألا يكـون هذا اللقاء الأخـير لهمـا، وأمرهـا أيضًا أن تُبعد المرأة القاتلة عـن الجزيـرة، حـتي لا يراهـا النـاس، ويـضطر لعقابها ثانيةً.

في اليوم التالي، أطلق سراح "فولك" و"أجيت"، وسمعا أنه تم رمي "نينيتا" في البحر ليـلًا، وصـدقا هـذا الـكلام، وعادا إلى المـنزل يواسـيان زوجتيهمـا لفقدان أختهما. وعلى الرغم من أن "مـادلين" حاولـت إخفـاء أختهـا عـن نظرهما، إلا أن "فولك" رآها، وتعجب من الأمر، وغمرته الشكوك فيها؛ فقد كان يعلم أن الدوق معجب بـ"مادلين"، وسأل كيف أتـت أختهـا إلى هنـاك. فلفقت "مادلين" حكاية من خيالها الواسـع لتفـسر له مـا حـدث؛ لكنـه لـم يصدق ما قالت، فلم تجد أمامها بدًّا غير قـول الحقيقـة. فغـضب بـشدة لمـا قامت به، وأمسك سيفه- وهو يغلي من الغضب- وقتلها، ولم يستمع لها ولا لأنها اضطُرت لما فعلت. ولخوفه من عقاب الدوق، هرب مسرعًا من الغرفة، إلى المكان الذي كانت فيه "نينيتا"، وقال لها مبديًا البشرى لها:

- هيا تعالي، آخذك للهروب من هنا، إلى مكان أخبرتني أختك عنه، حتى لا يمسك بك الدوق.

فسمعت كلامه، وذهبت معه لخوفها، وأرادت الذهاب من هناك، ومشت معه بدون تفكير، دون توديع أختها؛ لأن الوقت كان متأخرًا. ولم يكـن معها

إلا القليل من النقود التي أخذها "فولك" معه، رغم قلتها. ذهبا إلى الميناء، وركبا سفينة كانت راسية هناك، ولم يعرف أحدٌ ماذا حدث لهما بعدها.

في صباح اليوم التالي، وجد الخدم "مادلين" مقتولة، وكان هناك من يحقدون علي "أجيت"، ويريدون النيل منه، فذهبوا لإخبار الدوق، واتهموه بقتلها. انطلق الدوق بسرعة ليرى ما حدث لحبيبته، وقبض على "أجيت" وزوجته، ولم يعلما بخبر موت "مادلين" سوى منه. غير أنهما تحت التعذيب، اعترفا بما يريد سماعه. وبسبب خوفهما من الموت، حاولا رشوة الحراس للهرب، وأعطوهم ما تبقى لديهم من مال، وتمكنا من الهرب مع الحراس إلى "رودس"، دون أن يتمكنا من أخذ شيء من أملاكهما معهما. وعاشا في فقر، ولم يستمرا كثيرًا.

وبهذا انتهت قصة الحب نهاية مأساوية، بسبب جنون "رستيون"، وغضب "نينيتا" الذي دمرهم تمامًا.

القصة الرَّابعة

لم يفِ "جربينو" بوعده لجده الملك "جوليلمو"، فيحارب سفينة تابعة لملك تونس حتى يخطف ابنته؛ لكن يقتلها مَن هم على السفينة؛ فيقوم بقتلهم، ويُقتل هو أيضًا في آخر الأمر.

بعدما انتهت "لوريتا" من روايتها، بقيت صامتة. أما الآخرون، فقد ظهر حزنهم لمأساة هؤلاء العشاق، وأبدى البعض انتقاده لغضب "نينيتّا"؛ ووقتها نظر الملك لـ"إليزا"، وكأنه كان مشغول الفكر، وأشار لها بالحديث؛ فتحدثت برقة ونعومة:

صديقاتي، يعتقد الكثيرون أن الحب لا يحدث إلا من خلال سهام العيون ونظراتها الثاقبة، ويتعجبون ممن يقولون أن السمع له دور وتأثير في الحب. وستبين هذه القصة هذا التأثير. فالسمع لم يسبب فحسب الوقوع في الحب، لكن أيضًا تسبب في حدوث نهاية مروعة.

كان لدى ملك صقلية "جوليلمو الثاني"– كما يقول أهل صقلية أنفسهم– اثنان من الأولاد، الأول ذكر واسمه "روجيري"، والثانية ابنة تُدعى "جوستانزا". وقد توفي الولد قبل أبيه الملك، وترك له ابنًا يُقال له "جربينو"

الذي تولى جده رعايته وتربيته حتي أصبح شابا وسيمًا، عُرفت عنه الشجاعة واللباقة، حتى ذاعت شهرته، وتعدت حدود صقلية، ووصلت إلى مناطق أخرى حولهم، وخاصة بلاد البربر، الذين كانوا يدفعون جزية في هذا الوقت إلى ملك صقلية. ومن بين من سمعوا عن صفات وفضائل "جربينو" ابنة ملك تونس، تلك الفتاة الجميلة التي برهن كل من شاهدها علي جمالها المبهر، ووصفوها بأجمل الكلمات؛ فكانت فعلًا أجمل نساء الدنيا حينها، فضلًا عن أنها كانت أكثر النساء تهذيبًا وأخلاقًا. كانت تعجب بالفرسان الشجعان والحديث عن سيرهم الذاتية، وكانت قد سمعت الكثير عن شجاعة "جربينو" التي يحكيها الناس عنه، وأعجبت به دون أن تراه. وراحت تفكر كيف تكون هيئة هذا الفارس الشجاع الذي لا تكف ألسنة الناس عن مدحه، والتغني بفروسيته وإقدامه؛ فأحبته دون أن تلقاه، وأصبحت تفرح حينما يرد اسمه، وتستمع إلى أخباره.

ومن ناحية أخرى، فقد سمع الصقليون عن جمالها ومكانتها، وقدرها الرفيع. وبلغت الأخبار "جربينو"، وكم هي فاتنة هذه الفتاة. وكما هامت بحبه، كان هو الآخر يود رؤيتها والتعرف عليها، من كثرة ما سمع عنها. وراح يبحث عن مبرر ليطلب من جده الذهاب إلى تونس ليراها. وكان يطلب من أصدقائه الذاهبين إلى هناك- لو استطاعوا- التحدث إليها، وإبلاغها بحبه لها. وقد تظاهر أحد أصحابه بأنه تاجر حلي وزينة، وسافر إلى تونس، واستطاع التحدث معها، وإخبارها بحب "جربينو" لها، وأنه يضع روحه وكل ما يملك تحت تصرفها. اهتمت الأميرة بالرسول بشدة، وأكرمته، وطلبت منه أن يخبر الفارس الشجاع "جربينو" بأنها تبادله نفس المشاعر،

وبعثت له بجوهرة من أغلى ما تملك، كبرهان علي حبها الدفين له.

وعندما وصلت إليه رسالة الملكة من الرسول، غمرت السعادة قلبه، ورد عليها بإرسال الهدايا الثمينة القيمة التي تليق بالملكة، متمنيًا أن يلتقيا، وأن يريا بعضهما بعضًا. غير أن الأمر ظل على هذا الحال دون لقاء حقيقي بينهما.

في تلك الأثناء، قام والدها بالاتفاق مع ملك "غرناطة" على تزويجه ابنته، فحزنت الفتاة جدًّا لما علمت أنها ستكون بعيدة عن حبيبها، بل ستحرم منه إلى الأبد. وكم تمنت لو تجد طريقة لمنع حدوث هذه الزيجة؛ ففكرت في الهروب مثلًا من أبيها والذهاب إلى حبيبها. وكان "جربينو" مهمومًا هو أيضًا لما وصله الخبر، وأخذ يفكر في خطفها بالقوة. فمن المؤكد أنها ستذهب إلى عريسها عبر البحر. وقد سمع ملك تونس عن هذا الحب، من ثرثرات أهل المدينة، وعن رغبة "جربينو" في خطف ابنته، وهي في عرض البحر؛ فخاف من طيشه وتهوره. ولما حل موعد سفر ابنته، بعث ملك تونس إلى "جوليلمو" ملك صقلية ليبلغه بشكوكه نحو "جربينو"، وطلب ضمانات بمنع "جربينو" من اعتراض سفينة ابنته المتجهة إلى "غرناطة".

كان الملك "جوليلمو" عجوزًا، ولم يكن يعلم بحب "جربينو" وتعلقه بتلك الفتاة إلى هذه الدرجة، ولم يدرك مدي جدية الموضوع؛ وقام بإعطاء الضمانات التي طلبها ملك تونس، وبعث له قفازه تأكيدًا لذلك. بعدما تأكد ملك تونس من هذه الضمانات، جهز سفينة كبيرة وجميلة في ميناء قرطاج، ووضع فيها كل ما تحتاج إليه ابنته، وزينها استعدادًا للسفر، وانتظر الوقت المناسب، فيما يتعلق بالأجواء والرياح، حتي تقلع السفينة من مرساها.

كانت الفتاة تعلم كل ما يجري، وقامت بإرسال خادمها إلى "باليرمو" في السر، وطلبت منه نقل تحياتها إلى "جربينو"، وإعلامه بأنها ستغادر إلى غرناطة بعد عدة أيام، وعليه أن يثبت شجاعته التي يتحاكى بها الناس، إن كان يحبها فعلًا، كما أرسل لها. قام الخادم بما طلبت منه، ورجع إلى تونس.

كان "جربينو" مترددًا في اتخاذ قراره بخصوص ما سوف يفعله، خاصةً بعد أن نمى إلى علمه أمر الضمانات التي قدمها جده لملك تونس. لكن حبه دفعه، وحتي لا يبدو جبانًا أمام حبيبته، إلى الذهاب إلى "ميسينا"، وأمر بتجهيز سفينتين حربيتين سريعتين، وتوجه إلى "سردينيا"، لانتظار سفينة حبيبته هناك. لم يمر الكثير من الوقت حتي لاحت في الأفق سفينتها. ولما شاهدها، قال لرجاله: أيها الأصدقاء، إن كنتم شجعانًا، كما أعلم عنكم، وتعرفون معنى الحب، فستعلمون ما الذي أريده، وما أشعر به. أنا أحب، وحبيبتي داخل هذه السفينة. وأيضًا تمتلئ السفينة بالأشياء الثمينة. يمكننا الفوز بها بشجاعتنا. وأنا لا أرغب بغير الفتاة التي أحبها؛ وباقي ما في السفينة لكم من الآن. فهيا بنا، وسنتمكن من إنجاز ما أتينا من أجله.

كان الرجال على أهبة الاستعداد، لأنهم يريدون الغنيمة، وأيضًا لتحقيق النصر والفوز بما يريدون. فنفخوا الأبواق، وجهزوا الأسلحة، وانطلقوا كالبرق نحو السفينة. دافع جنود السفينة التونسية بكل قوة، ولما علموا مَن يهاجمهم، أظهروا له قفاز التحالف الذي أعطاه لهم جده، وفضلوا الاستسلام وإعطاءه أي شيء من السفينة. لكنه بعدما شاهد المرأة التي أحب، وجد أنها أجمل مما تصور، وتستحق التضحية بكل ما هو غال ونفيس. لم يفكر في أية عهود أو مواثيق، وطلب تسليم المرأة أو المواجهة. بدأت المعركة، وألقى كل

واحد منهم السهام والأحجار على الآخر، واشتدت المعركة ضراوةً، فيما بينهما. ولما شعر "جربينو" أن المعركة لن تنتهي بهذا الشكل، وأن رجاله لم يتمكنوا من حسم المعركة، أشعل النار بزورق صغير أتى به من "سردينيا"، ووجهه ناحية سفينتهم. ولما شاهد المسلمون هذا علموا أنه لم يعد لديهم خيار غير الاستسلام أو الهلاك؛ فأخذوا الفتاة إلى مقدمة السفينة، ونادوا عليه، وقتلوها أمامه، وألقوا بها في الماء، وقالوا له: ها هي؛ لا يمكننا تركها لك سوى بهذه الطريقة، تمامًا بمثل طريقة وفائك للعهود. وما إن رأى "جربينو" هذا المنظر البشع، حتى تقدم بقوة نحوهم لا مبال بالموت، ولا بالسهام التي يلقونها عليه، وأخذ يضرب بسيفه يمينًا ويسارًا كالأسد الثائر. وفي تلك اللحظة، كانت ألسنة اللهب تتطاير وتزداد في السفينة، فأمر مَن معه بأخذ ما يجدون، وإخراج جسد المرأة الجميلة من البحر، وظل يبكي لفقدانها بحرقة ومرارة.

ثم سافر بعدها إلى صقلية، وقام بدفنها في "أوستيكا"، وهي جزيرة صغيرة جدًّا قريبة من "تراباني". وبعدها عاد إلى بيته، وكان من أكثر الرجال بؤسًا وألمًا لما آلت إليه الأمور. ولما عرف ملك تونس بما جرى، أمر بإرسال السفراء بملابس الحداد لإعلان الاحتجاج على عدم الوفاء بالوعد. ولم يجد الملك "جوليلمو" مفرًّا من عقاب "جربينو"؛ فأمر بحبسه، وحكم عليه بالموت رغمًا من كونه وريث العرش. تم قطع رأسه بحضور الملك، ففضل رؤية موت حفيده، على أن يجلس بعده على العرش ملكٌ بلا شرف ولا عهد. وبهذا انتهت حياة العاشقين خلال فترة وجيزة، ولقيا مصيرهما التعيس، دون أن ينعما حتى لو بقدر قليل من السعادة.

القصــة الخامسَــة

يقوم أخوة "إيزابيتًا" بقتل عشيقها في الغابة. ثم تراه هي في المنام، ويرشدها إلى المكان الذي دفنوه فيه. تذهب إلى هناك، وتحفر سرًّا بحثًا عن جثته، وتأخذ معها رأسه، وتضعها في إناء فخاري به زهور الريحان، وتبكي عليه كل يوم. يشك أخوتها في الأمر، ويأخذون إناء الريحان منها، فتتدهور حالتها من الحزن، وتموت من شدة قهرها وكمدها.

حينما أنهت "إليزا" قصتها، التي أشاد بها الحاضرون والملك، نظر الملك إلى "فيلومينا"، وطلب منها أن تكمل روايتها لهذا اليوم. ولتأثرها بما حدث لـ"جربينو"، عاثر الحظ، وحبيبته، تنهدت، ثم بدأت الحديث وقالت: أيتها السيدات، روايتي اليوم ليست عن أشخاص من علية القوم، كالذين تحدثت عنهم "إليزا"، غير أنها تشترك معهم في نفس النهاية الحزينة. وقد تذكرتها عندما ذُكرت مدينة "ميسينا" منذ قليل، لأن القصة هذه حدثت فيها.

كان هناك ثلاثة تجار أخوة من "سان جيمينيانو"، ورثوا بعد موت والدهم ثروة كبيرة. وكانت لهم أخت اسمها "إيزابيتًا"، وكانت شابة لطيفة ورقيقة لم تتزوج بعد. وكان لديهم شخص وسيم اسمه "لورنزو"، يعمل عند أخواتها في

المتجر. وقد أعجبت الفتاة به، بعدما شاهدته مرات كثيرة، وشعر الفتى بنفس مشاعرها نحوه، فابتعد عن الفتيات الأخريات، وبدأ قلبه يميل ناحيتها. تقرب الاثنان من بعضهما رويدًا رويدًا، حتى أقاما علاقة حميمة معًا، وقضيا معًا الكثير من الأوقات الجميلة. لكنهم لم يتمكنوا من كتمان الأمر كثيرًا.

فذات مرة، عندما كانت "إيزابيتًا" ذاهبة بهدوء إلى مكان نوم عشيقها، لمحها أخوها الأكبر من غير أن تشعر به. ولأنه كان يجيد التخفي، نجح في مراقبتها. ورغم ضيقه مما رأى، إلا أنه فكر جيدًا، وقرر الانتظار حتى الصباح، والتحدث مع أخوته، والتشاور معهم حيال ما شاهد بعينيه. اتفقوا على أن يتخلصوا من هذا الفتى، دون أن يدري أحد، حتى لا يلحقوا العار بسمعة أختهم، وألا يتحدثوا عن الأمر حتى يأتي الوقت المناسب للتنفيذ. بالفعل، شرعوا في تنفيذ الخطة، وأخذوا يتحدثون مع "لورنزو"، وتعلو وجوههم الضحكات والابتسامات كما اعتادوا معه، متظاهرين معه بذلك، حتي لا يشك في أنهم كشفوا أمره؛ وقالوا إنهم سيخرجون للغابة للتسلية، ويريدون أن يأخذوه معهم. وعندما وصلوا إلى مكان ناءٍ لا أحد فيه، قاموا بقتله، ثم دفنوه، حتى لا يتمكن أحد من العثور عليه. وحينما عادوا إلى "ميسينا"، قالوا إنهم أرسلوه في عملٍ ما في مكان بعيد. وصدق الجميع ذلك، لأنهم كانوا يبعثونه كثيرًا لقضاء بعض المصالح لهم. ولما طال سفره ولم يعد، ظلت "إيزابيتًا" تسأل عنه كثيرًا، وتلح في السؤال، حتى رد عليها أحد أخوتها موبخين إياها:

– ما هذا؟ وما هي علاقتك بـ"لورنزو"، حتى تسألي عنه كثيرًا هكذا؟ إن

لم تكفي عن ذلك، فستنالين ما تستحقين.

بكت الفتاة كثيرًا وحزنت، وشعرت بالخوف والضيق من غير أن تعلم ماذا حدث. وظلت الليالي تمر عليها وهي منكفئة على نفسها باكية حبيبها، ترجو رجوعه اليوم تلو اليوم، خاصةً بعد أن طال الغياب. بقيت تنتظر عودته. وذات مرة راحت في النوم، بعد أن بكت كثيرًا، فرأته في المنام، شاحب الوجه ممزق الملابس، وقال لها:

- آه يا "إيزابيتّا"، أنتِ لا تتوقفين عن البكاء، يا حبيبتي، وبُعدي عنك يحزنك. لا أستطيع الرجوع؛ فمنذ آخر يوم رأيتك فيه، قام بقتلي أخوتك.

ثم وصف لها في المنام مكان جسده حيث دفنوه، وطلب منها ألا تنتظر عودته بعد اليوم، وألا تبكي ثانيةً. ولما أفاقت في الصباح، أحست أنها حقيقة، وبكت بمرارة. ولم تجرؤ على قول شيء لإخوتها، وذهبت إلى المكان الذي رأته في الحلم، بعد أن حصلت على إذن للخروج من إخوتها، بحجة التنزه مع خادمة لها.

ولما وصلت إلى المكان المعلوم الذي أرشدها إليه حبيبها في الحلم، أزالت الأوراق الجافة عن الأرض، وأخذت تحفر في المكان حتى وجدت أرضًا أقل صلابة عما حولها، فوجدت تحت التراب جثة حبيبها قليل الحظ؛ فتعرفت عليه، وأيقنت بالحقيقة المؤلمة. علمت أن دموعها لن تجدي نفعًا، وفكرت أن تأخذ جسده وتدفنه بشكل لائق. غير أنها لم تقدر، فأخذت سكينًا وفصلت بها رأس حبيبها عن جسده، ولفتها بمنديل. وأعادت دفن باقي الجسد، ورجعت إلى البيت برفقة خادمتها. ظلت تبكي كثيرًا في غرفتها، ومعها تلك الرأس التي ظلت تقبلها أكثر من ألف مرة. وأخذت إناء فخاريًّا

كبيرًا، ووضعت الرأس فيه ملفوفة بالمنديل؛ ثم غطته بالتراب، وزرعت فيه زهور الريحان الجميلة الفياحة. كانت تسقيها بدموعها، وبماء الورد أو الزهر حتي أنها أصبحت عادةً لها الجلوس بجانب تلك الريحانة، والبكاء أمامها طوال الوقت، حتى تبتل أوراق الريحان.

بسبب كل هذا الاهتمام بزهور الريحان هذه، أو بسبب خصوبة التربة، كبرت الريحانة وملأت رائحتها المكان. انتبه الجيران لحالتها، وأوصلوا لأخوتها ما يرونه، وتعجبهم من تغير شكلها، وكثرة بكائها. فكانت النتيجة تدهور صحة الفتاة. وقال الجيران للأخوة: "لاحظنا أنها تفعل هذا الأمر بشكل مستمر يوميًّا". ولما سمعوا هذا الكلام، وتأكدوا من صحته، وجهوا إليها اللوم والعتاب كثيرًا، إلا أنها لم تتوقف. أزالوا ذلك الإناء دون أن تراهم. وعندما لم تجده، طالبت به بإلحاح، وظلت تبكي وتصرخ لكن دون جدوى.

بعد كل هذا مرضت الفتاة، لكنها ظلت تطلب إناء الريحان، فتعجب أخوتها من إلحاحها، وفكروا ما الذي يمكن أن يكون بداخله، فقلبوه على الأرض، فوجدوا بداخله المنديل وبداخله الرأس التي لم تتحلل كلها بعد. وعرفوا من شعره أنه رأس "لورنزو". وحتى لا يعلم أحد بجريمتهم، قاموا بدفنها من جديد؛ ثم انتقلوا دون أن يشعر بهم أحد من "ميسينا" وذهبوا إلى "نابولى". ومع كل هذا ظلت الفتاة تطلب إناء الريحان إلى أن توفت. وهكذا انتهت قصة حبها الحزين. وبعد وقت قليل، علم الناس بحقيقة الأمر، وخرجت من هذه الرواية أغنية ما يزال الناس يغنوها حتى اليوم، وتقول:

من هو أخبث إنسان، مَن سرق مني إناء الريحان؟

القصــة السَّــادسة

تقع "أندريولا" في حب "جابريوتو". وتحكي له حلمها، ويقص عليها هو الآخر حلمًا له. ثم يموت وهو في أحضانها. ولما حاولت نقله إلى بيته، رآها حراس الحاكم، فقبضوا عليها. ولما حاولت توضيح ما حدث للحاكم، حاول أن يغتصبها؛ لكنها منعته وصدته. بعد ذلك يعرف والدها الحقيقة، فيساعدها لتخرج من محبسها، لأنها لم ترتكب أي جرم أو ذنب؛ لكنها تكره العيش في هذا المجتمع، وتتحول إلى راهبة.

استمتع الحاضرون بقصة "فيلومينا"، لأنهم كانوا قد سمعوا تلك الأغنية مرات كثيرة دون أن يعرفوا قصتها. ولما وجد الملك أنها انتهت من حكايتها، طلب من "بانفيلو" أن يكمل، فاستجاب لطلب الملك؛ وقال: الحلم الذي سمعناه في القصة السابقة ذكرني بقصة حلمين آخرين تنبآ بما سيحدث في المستقبل بعد أن ينتهي من رآهما من روايتهما. ولذا، سيداتي الحبيبات، أحيانًا ما نشعر ونحن نحلم بأن الحلم حقيقة. غير أننا حينما نصحو بعد هذا، تبدو لنا بعض الأمور ممكنة، وأمور أخرى لا يمكن تصديقها. لكن بعضها يحدث في الحياة، ولذلك، فهناك الكثير ممن يصدقون الأحلام،

ويبحثون عن تفسير لها. وهناك آخرون لا يـصدقون الأحـلام، إلى أن يـروا بأنفسهم ويجدوا أن ما حدث لهم هو تفسير حلمهم. ولست أنتمي إلى أي من الفريقين، لأن الأحلام قد تكون حقيقـة لبعـض الوقـت، أو مجـرد خيـال وخزعبلات في أوقات أخرى كثيرة. وما أود قوله إنه قد تبـين لنـا جميعًـا أن الأحلام ليست كلها حقيقة، وليست كلها وهمًا؛ وقد رأينـا هـذا في القـصة السابقة. وأعتقد أن من يحيا حياة فاضلة، ويتصرف بنبل وحـسن خلـق، لا يخاف أيًا من الأحلام، وعليه أن يلتزم بالصفات الحميدة ومكارم الأخـلاق ولا يستسلم للشيطان الذي يزين لنا الشرور والمعاصي. وسأبدأ الآن قصتي.

كان هناك رجل يعيش في مدينة "بريشا"[27]، ذو أصل نبيل يُدعي الـسيد "نيجرو دي بونت كارارو". كان لديه العديد من الأبنـاء، ومـن بيـنهم فتـاة اسمها "أندريولا"، جميلة وغير متزوجة، أحبها جار لهـم يـدعي "جـابريوتو"، ذلك الشاب الفقير ذو الأخلاق العالية. وعن طريق مساعدة خادمتها، كانـا يتقابلان في حديقة والدها. وبعد فترة على لقاءاتهما، اتفقا على الـزواج سرًا، وظلت مقابلاتهما في الخفاء. وفي إحدى الليالي، وبينما كانت الفتـاة نائمـة، شاهدت نفسها في الحديقة مع "جابريوتو" مـستلقيًا وممـددًا بـين زراعيهـا؛ وأيضا شاهدت شيئًا أسود فظيع الشكل، إلا أنها لم تعرف ما هو، يخـرج مـن جسد حبيبها. وأخذ منها هذا الشيء حبيبها وشده بقوة؛ ثم اختفي معه تحت

---

[27] مدينة في شمال إيطاليا، عاصمة مقاطعة "بريشا" بإقليم "لومبارديا"، تعرف بـ(*Leonessa d'Italia* لبؤة إيطاليا)، كما وصفها بذلك مادحًا الشاعر "جوزيه كاردوتشي".

الأرض دون أن تستطيع فعل شيء.

شعرت الفتاة بضيق وألم كبيرين، واستيقظت بعدها. أحست بالإرتياح لما أدركت أن ما كانت فيه حلم وليس حقيقة. لكنها بقيت قلقة. حاولت التهرب من لقاء "جابريوتو" في تلك الليلة، رغم إصراره. ولكنها وافقت في اليوم التالي، حتى لا تساوره الظنون. كانا في فصل الربيع، فجمعت الكثير من الزهور البيضاء والحمراء، وجلسا سويًّا قرب حافة ينبوع مياه خلاب، وأمضيا وقتًا جميلًا، بعدها سألها عن سبب عدم رغبتها في لقائه ليلة أمس. ولما حكت له ما حلمت به، والخوف الذي شعرت به، ابتسم مما قالت، وقال لها إنه من الغباء تصديق الأحلام، فهي تكون نتيجة الإفراط في الأكل أو التقليل منه، وإنها جميعًا تأتي الناس كل ليلة دون طائل؛ ثم أضاف قائلًا:

– لو أنني اهتممت بالأحلام، لما أتيت لك الليلة؛ فقد حلمت ليلة أمس أنني أصطاد في غابة جميلة. وقد وجدت عنزة صغيرة لم أشاهد مثلها من قبل في جمالها وتألقها؛ وسرعان ما أصبحنا صديقين. ومنذ ذلك الوقت، لم تتركني ولو للحظة واحدة. أحببتها أنا أيضًا، وحتى لا تتركني وضعت حول رقبتها طوقًا ذهبيًّا به سلسلة أمسك بها. وبينما العنزة تجلس وتضع رأسها في حضني، ظهرت فجأة كلبة ضخمة سوداء جدًّا، يبدو عليها الجوع والغضب، انقضت عليَّ ولم أقدر على مقاومتها، وغرست أنيابها في جسدي كأنها تحاول انتزاع قلبي من مكانه. شعرت بألم رهيب، واستيقظت من نومي مفزوعًا ولمست صدري، وتبسمت حين لم أجد نفسي مصابًا بأي مكروه. ما أقصد قوله هنا لك إنني حلمت بهذه الأشياء، بل وأخرى أسوأ منها، ولم يحدث أي شيء بسببها. فلا تفكري في تلك المسألة، وفكري في الوقت الجميل الذي

نمضيه سويًا فحسب.

ازداد قلق الفتاة التي كانت خائفة مما رأت في حلمها، لكن خوفها وقلقها ازدادا لما سمعت الحلم الثاني. حاولت إخفاء خوفها قدر استطاعتها حتى لا تقلق حبيبها. وعلى الرغم من استسلامها لقبلاته، لكن ظل القلق يطاردها من الداخل، وظلت تنظر إلى وجهه، وتتلفت يمينًا ويسارًا في الحديقة لترى إن كان هناك شيء أسود قادم. أثناء هذا، أطلق "جابريوتو" صرخة مدوية، واحتضنها صارخًا:

- آه، النجدة ياحبيبتي، أنا أموت!

بعدها، سقط على العشب، فأمسكت به الفتاة، وراحت تقبله وتقول له:

- ما الذي حدث لك، يا حبيب القلب ويا مهجة الفؤاد؟

كان يتنفس بصعوبة ويتصبب عرقًا. واستمر هذا لبضع دقائق إلى أن فارق الحياة بعدها. مزق الحزن قلب الفتاة، وظلت تبكي بشدة حتي شعرت أن جسده قد برد. فصرخت منادية خادمتها، والألم يعتصرها على فراقه، وحكت لها ما جرى. وبكتا عليه معًا، ثم قالت الفتاة للخادمة:

- حيث أن الرب قدر له تركي في الدنيا وحدي، فإني لا أود العيش بدونه. ولكن عليَّ قبل الموت البحث عن طريقة لأحفظ السر، ودفن جسد حبيبي الذي فارق الحياة.

فردت عليها الخادمة:

- لا تتحدثي عن موتك يا بنيتي، فإن كنتِ فقدت من تحبين في الدنيا، فستلقينه بعد الموت. لكنك لو قتلتِ نفسك، فستذهبين إلى الجحيم، ولن

تلتقي به مجددًا. وأرى أنكِ صغيرة، وعليكِ أن تكملي حياتك، وأن تصلي من أجله وتفعلي الخيرات. أما أمر دفنه، فيمكننا أن ندفنه هنا في الحديقة. لن يعرف أحد شيئًا، فلا أحد يعلم أنه كان يأتي إلى هنا. أو يمكننا إخراجه ووضعه خارج الحديقة؛ وسيجدونه في الصباح، ويحملونه لأهله ليتولوا دفنه.

رغم حزن الفتاة وبكائها، كانت تستمع لكلام خادمتها؛ فأجابت عليها:

– أنا لا أرتضي لحبيبي أن يدفن بهذه الطريقة، أو يترك مهجورًا على جانب الطريق مثل الحيوانات. أريد أن يتم تشييع جثمانه كما يجب له، وأن يبكي عليه ذووه، وتسيل دموعهم مثلي. لقد أدركت الآن ما عليَّ فعله.

بعثت خادمتها لتأتي لها بقطعه حرير كانت في صندوق لها، وفرشتها على الأرض، ووضعتا جسد "جابريوتو" فوقها، ووضعت تحت رأسه وسادة. وأغلقت عينيه وفمه وهي تعتصر كمدًا وحزنًا. ثم صنعت طوقًا من الأزهار التي كانا يقطفانها سويًّا قبل أن يفارق الحياة، ووضعتها حول جسده، وقالت لخادمتها:

– المكان إلى بيته من هنا قريب وليس ببعيد، ويمكنني أنا وأنتِ حمله من هنا ووضعه أمام بيته. وسيجدونه بسرعة، لأنه لم يتبق على الفجر كثير. وبالفعل قاما بحمله، ولسان حالها يقول: مات حبيبي بين يدي.

وأثناء هذا كانت تذرف الدمع، وظلت تبكي طويلًا، فنبهتها خادمتها أن الصبح ينبلج. فقامت بنزع خاتم الزواج من يدها، ووضعته في إصبع "جابريوتو" وقالت:

– حبيبي وقلبي، لو كانت روحك تراني الآن، فتقبل مني هذه الهدية من

التي أحببتها من كل قلبك، وأنت في الحياة.

بعدها وقعت فوقه مغشيًّا عليها. ولما أفاقت بعدها بقليل، نهضت من مكانها واقفة، وأمسكت مع الخادمة قطعة الحرير التي فوقها جسد "جابريوتو"، وذهبا صوب بيته.

وفي الطريق، شاء القدر أن يمر حراس الحاكم، ولم ترغب في الهرب، لأنها كانت لا تريد العيش، وقالت لهم:

- أعرف من أنتم. الهروب لا يفيد. سوف أذهب معكم إلى الحاكم، وأشرح له الأمر. ولكن لا يقترب مني أي منكم، ولا تلمسوا شيئًا مما على الجثمان.

لما وصلت القصر وشرحت الموضوع للحاكم، أمر الأطباء بفحص الجثة ليتعرفوا على سبب الوفاة، فأكدوا له أنه مات بسبب تمزق شريان قريب من قلبه، سبب له الاختناق. ولما تأكد الملك من براءتها من قتله، تظاهر أنه سيعطيها ما لا يمكن أن تنال، وقال لها إنه سيطلق سراحها لو أعطته ما يريد. لم يتمكن من الضغط عليها بالكلام، وحاول أن يعتدي عليها، لكنها تمكنت من الدفاع عن نفسها بكل ما أوتيت من قوة. وفي الصباح، علم السيد "نيجرو" بما صار، فذهب حزينًا ومعه رجال كثيرون من أصدقائه وأقاربه إلى قصر الحاكم، وطالب بأخذ ابنته. أشاد الحاكم بالفتاة، وقال له ما عرضه عليها، وإنها أعجبته لما وجد فيها من طهارة وعفة، وأنه يود الزواج بها. حينما أتت الفتاة لأبيها انهمرت باكية أمامه، وقالت:

- لست بحاجة لأحكي ما عانيت. فمن المؤكد أنك علمت بكل ما

حدث، يا أبي العزيز؛ ولكني أرجوك وأطلب منك أن تسامحني على زواجي بدون علمك، من الشخص الذي أحببته. لا أطلب عفوك خوفًا على حياتي، ولكني أتمنى الموت وأنا ابنة تنال رضاك، وليست كعاصية لك.

لما وجد السيد "نيجرو" فتاته تبكي عند قدميه، وتقول ما قالت، نزلت الدموع من عينه، ثم أوقفها على قدميها بكل حب وعطف، وقال لها:

– يا بنيتي، كم تمنيت أن تتزوجي من شخص في مثل مكانتك ومقامك؛ ولو اختار قلبك مَن ينال إعجابك ، لنال إعجابي كذلك. ما يحزنني أنك تزوجتِ في السر، مما يشعرني أنك لا تثقين بي. وما يزيد حزني أنه توفي قبل أن أتعرف عليه. الآن، حدث ما حدث. أود تكريم جنازته بما يليق بصهر لي.

ذهب إلى عائلته وأقربائه، وجعلهم يجهزون لـ"جابريوتو" مأتمًا مهيبًا وفخيمًا. وكان أهل الفتى قد علموا بما حدث، وقدموا إلى هناك، وأتى كل من كان في المدينة، ووضع الجثمان في الفناء فوق قطعه الحرير ومعه أزهارها، وبكى لفراقه الجميع؛ فكانت المدينة كلها حزينة عليه. فقد تم حمله من الساحة العامة للمدفن، ليس كشخص عادي، وإنما كواحد من علية القوم، محمولًا على الأعناق من قبل أفضل الرجال مكانة. وبعد فتره وجيزة، عاد الحاكم ليطلب الزواج من "أندريولا"، فتحدث معها والدها، ولأنها لم تكن ترغب في هذا، وتريد أن ترضي والدها، فاستأذنت منه الذهاب ومعها خادمتها إلى دير مشهور عندهم، وأصبحتا راهبتين، وعاشتا هناك طويلًا في تعبد وشرف ما تبقى من عمريهما.

القصة السَّابعة

وقعت "سيمونا" في حب "باسكوينو". وفي إحدى الأيام عندما التقت "سيمونا" بحبيها في بستان غاية في الجمال، يقوم حبيبها بفرك أسنانه بورقة مريمية فيموت علي الفور. فيتم القبض عليها بتهمة قتله، ولما حاولت أن تشرح للقاضي كيف مات، قامت بفرك أسنانها مثله أيضًا بواحدة من تلك الأوراق، فلحقت به إلى مثواها الأخير.

حين أنهي "بانفيلو" روايته، وبلا أي رد فعل، نظر إلى "إيميليا"، وأشار لها أن تكمل هي؛ فبدأت على الفور حديثها قائلة: صديقاتي الغاليات، قصة "بانفيلو" يمكنها أن تكون مقدمة لقصتي وغيرها، التي تشبه قصته في أن الفتاة فقدت حبيبها في حديقة، وتم إلقاء القبض عليها أيضًا. غير أنها لم تنج من العقاب بسبب الفضيلة أو حتى القوة وإنما بالموت. فالحب، مثلما تحدثنا عنه سابقًا، كما يحيا بسعادة في بيوت الأغنياء، فإنه لا يعترف بالطبقات الاجتماعية، فهو موجود أيضًا في بيوت البسطاء والفقراء. لا أحد يستطيع منعه، فقوته يخشاها أغنى الأغنياء. وهذا ما حدث في قصتي التي سوف أحكيها على مسامعكم الآن.

حدثت قصتنا هنا في مدينتنا الجميلة هذه، التي يسرني الحديث عنها؛ فقد تجولنا في الكثير من بلدان العالم من خلال الروايات العديدة التي نرويها.

قديمًا، في وقت ليس بالبعيد، كانت هناك فتاة تعيش في "فلورنسا". كانت جميلة وجذابة، لكنها ابنة رجل فقير. كانت تدعى "سيمونا". وكانت تقوم بغزل الصوف حتى تجد ما يعينها على الحياة. وقد أحبت شابًّا كان يعاملها بلطف ويبادلها الكلمات الرقيقة؛ وكان ينتمي إلى نفس طبقتها، ويعمل موزعًا للصوف لدى أحد التجارلتقوم النساء بعد ذلك بغزله. كان اسمه "باسكوينو". وكانت تريده من كل قلبها، لكنها لم تكن تبوح بشيء له، سوى أن تتنهد بحرارة وهي تغزل. كانت تفكر في هذا الفتى الذي يجلب لها الصوف لتغزله على الدوام. وكان الفتى يعطيها من صوف سيده أكثر من الأخريات، على أساس أنها أمهرهن. وبهذه الطريقة، كان يتردد عليها كثيرًا. ومع الوقت، تشجع وتحدث معها، واستجابت له، وتبادلا القبلات، وتقربا من بعضهما أكثر فأكثر. تكررت اللقاءات، وزادت رغباتهما اندفاعًا. وذات يوم، قال "باسكوينو" لـ"سيمونا" إنه يود أن يذهب معها إلى الحديقة، حتى يكونا في أمان أكثر، وبدون خوف، ولا يلحظهما أحد، فقبلت لقاءه هناك.

وفي يوم الأحد بعد الغداء، طلبت من والدها السماح لها بالذهاب لتتبرك بالقديس "جالو"، مع صديقتها "لاجينا". وبالفعل، ذهبت ومعها صديقتها إلى الحديقة التي اتفقت مع حبيبها على مقابلته فيها، ووجدته هناك في انتظارها مع صديق له اسمه "بوتشينو"، المشهور بالأعور. وحينما بدأ الحديث بين "لاجينا" والأعور، ابتعد "باسكوينو" و"سيمونا" نحو مكان معزول في الحديقة

ليتبادلا الشوق والغراميات. كانت في هذا المكان نبتة مريمية كبيرة الحجم، فجلس إلى جوارها، وظلا يتبادلان كلمات العشق والغرام، ثم فكر الحبيب في تناول شيء في الحديقة، ونظر "باسكوينو" إلى هذه النبتة وقطف منها بضعة أوراق، وقام بفركها بأسنانه، وهو يقول إن تلك الأوراق تنظف الأسنان جيدًا مما يعلق بها بعد الأكل. ثم عاد وتكلم عن ما يريدون أكله في الحديقة؛ ولكن فجأةً شحب وجهه، ولم يعد يرى أمامه، ولا يقدر على النطق. وما هي إلا لحظات معدودة إلا وقد فاضت روحه. ولما شاهدت الفتاة ما جرى، بدأت في البكاء والصراخ، وهي تنادي على الأعور و"لاجينا"، فجريا نحوها بسرعة، وشاهدا "باسكوينو" الذي لم يكن ميتًا فقط، وإنما ظهرت على وجهه وجسده نتوءات وتقرحات شديدة، فصرخ صديقه الأعور لما وجد هذا وقال:

- لقد سممتِه، أيتها الشريرة الماكرة!

سمع الناس صراخه، فأتى كل من كان قريبًا من هناك. ولما وجدوا الميت على تلك الحال، وسمعوا كلام الأعور واتهامه للفتاة أنها من قامت بتسميمه- من غير أن تستطيع الدفاع عن نفسها، لما كانت فيه من بكاء وتألم لموت حبيبها المفاجئ. ظن الناس أنها قتلته بالفعل، وصدقوا كلام الأعور؛ فأمسكوها، وهي منهارة، وذهبوا بها إلى قصر الحاكم. هناك، تم التحقيق معها، ولم يتمكن القاضي من فهم ما حدث منها، وسبب اتهام الناس لها إن لم تكن هي المذنبة حقًّا. أراد القاضي مشاهدة الجثة ومسرح الجريمة في التو واللحظة. وعلى ذلك أخذوها على الفور إلى المكان، وهي مقيدة، وكانت جثة "باسكوينو" في ذلك المكان، وسألها القاضي ما الذي حدث بالضبط.

اقتربت من تلك النبتة، وحكت ما حدث تحديدًا. ثم أمسكت ببعض أوراق هذا النبات، وفركت بها أسنانها تمامًا كما فعل "باسكوينو". كان جميع من هناك يصرون على اتهامها، ويطلبون من القاضي عقابها بالإعدام حرقًا، لأنها تستحق ذلك لجريمتها البشعة. وكانت الفتاة حزينة لفراق حبيبها، وخائفة مما يمكن أن يحدث لها، ووسط سخط الحاضرين عليها، بدأ لون وجهها يتغير بعد أن فركت أسنانها بهذه الأوراق، ثم سقطت على الأرض، فحدث لها مثلما حدث لحبيبها وسط اندهاش جميع الواقفين هناك. وهكذا، لحقت روحها بروح حبيبها الغالي، ليبقى الحب حتى بعد مفارقة الحياة! وحتى القاضي نفسه كان مذهولًا مما شاهد بعينه، فبقي متجمدًا وصامتًا قليلًا، ثم قال:

- من المؤكد أن هذه النبتة سامة، ولكن ليس من الطبيعي أن تكون المريمية سامة. ولكي لا تؤذي أناسًا آخرين، اقطعوها من جذورها وأحرقوها.

قام حارس الحديقة باقتلاعها أمام القاضي، وبمجرد أن أزالها حتى تبين سبب وفاة الحبيبين؛ فإذا بضفادع كثيرة كبيرة الحجم تخرج من هذا المكان. يبدو أنها هي من سممت تلك النبتة.

خاف الجميع من الاقتراب منها، فوضعوا حولها الكثير من جذور الشجر، وحرقوها مع النبتة. هكذا، تم حل لغز قضية موت "باسكوينو" قليل الحظ. أما جسدي "باسكوينو" و"سيمونا"، فكانا متورمين للغاية، فقام صديق الفتى ورفاقهما بدفنهما معا في كنيسة القديس "باولو"، التي كانا يتبعانها.

القصـة الثَّـامنة

يحب "جيرولامو" "سالفسترا"، ويذهب إلي باريس بعد إلحاح من أمه. ولما يرجع يجدها قد تزوجت؛ فيتسلل لبيتها، ويموت عندها. بعد نقله للكنيسة تموت الفتاة أيضًا بجواره.

بعدما أنهت "إيميليا" روايتها، شرعت "نيفيله" بحكي قصتها استجابةً لطلب الملك، فقالت: صديقاتي العزيزات، أعتقد أن بعض الأشخاص يظنون أنهم أكثر دراية وعلمًا من غيرهم. وفي الحقيقة، فهم أقل فهمًا وعلمًا، ولذلك يعارضون كل نصيحة؛ والأسوأ من هذا أنهم يفرضون آراءهم على الآخرين. فينتج عن هذا التصرف مشاكل أكبر، ولا يربح أي طرف. ولأن الحب من المشاعر الطبيعية لدى البشر، فهو أقل تقبلًا للاختيار والمعارضة، لأنه يمكن أن يتبدد وينتهي من نفسه؛ ولكن لا يستطيع اللوم والنصح التخلص منه؛ فقد جاء في ذهني أن أقص عليكم قصة سيدة اعتقدت أنها تفهم كل شيء، فظنت أن بمقدورها انتزاع الحب من قلب يعشق؛ فأدى هذا إلى انتزاع الحب والروح من جسد ولدها.

كان في مدينتنا، كما سمعت من قبل، تاجر كبير وغني اسمه "ليوناردو

سيجيري"، وكان عنده مولود صغير اسمه "جيرولا مو". لم يمض وقت حتى توفي أباه. وقامت الأم والأوصياء عليه بإدارة أملاكه وصيانتها بكل أمانة. وبدأ الطفل يكبر ويترعرع بمرور الأيام. وتصادف ذات مرة أن قابل هذا الطفل طفلة كانت من سنه، ونشأت صداقة بينهما. كانت هذه الطفلة ابنة خياط.

يكبر الفتى وتكبر الفتاة، وتتحول الصداقة والألفة بينهما إلى حب كبير؛ فهو لم يعد يحس بالراحة لو اختفت عنه ولو قليلًا. كانت الفتاة هي أيضًا تحبه. ولما أحست أم الصبي بهذا الحب، عاتبته كثيرًا، وقامت بعقابه؛ ولكن كل ما كانت تفعله كان يذهب سدًى. فقررت مناقشة الموضوع مع الأوصياء على الصبي، فقالت لهم:

– ولدي، ابن الرابعة عشرة، يحب ابنة خياط من الجيران، اسمها "سالفسترا"، ويجب علينا حل هذا الموضوع حتى لا يتفاقم؛ فيمكن أن يتزوجها دون أن يرجع لأحد، وأنا لا أوافق على هذا أبدًا، كما أنها يمكن أن تتزوج من غيره، ووقتها سيتألم ويموت من حزنه عليها. أعتقد أنه من الأفضل أن نرسله إلى مكان بعيد، حتى ينسى هذه الفتاة.

وافق الأوصياء على اقتراحها، وطلبوه للتحدث معه، فقال أحدهم له بود:

– لقد أصبحت كبيرًا الآن يا "جيرولا مو"، ومن الأفضل أن تقوم بإدارة أعمالك بنفسك، وسيسعدنا أن تقوم بالذهاب إلى باريس لتشاهد بعينك، وتتابع بنفسك كيف تسير أمور تجارتك هناك، ولترى أرقي أساليب اللباقة، حينما تتعامل مع السادة والبارونات الموجودين في باريس بكثرة، وتتعرف على عاداتهم والحياة هناك، ثم ترجع ثانيةً، وتكون قد تعلمت الكثير.

سمع الصبي كلامهم وهو مستاء، وأجاب بأنه لا يرغب في الذهاب إلى هناك، بل يود البقاء هنا، تمامًا مثل باقي أهل البلدة. ولما سمع السادة هذا الكلام، أصروا على طلبهم، لكنهم لم يتمكنوا من أخذ موافقته على ما يريدون؛ فقاموا بإخبار والدته. عاتبته أمه بشدة، وذلك ليس لرغبتها في سفره، ولكن لرغبتها في نسيانه لحبه من ابنة الخياط. ثم هدأت الأم قليلًا، وبعدها قامت بالتحدث معه برجاء وتوسل وحنان، ليوافق على الذهاب إلى باريس. في نهاية المطاف استطاعت أمه إقناعه بالسفر لمدة عام واحد لا أكثر. وبالرغم من حبه للفتاة، إلا أنه ترك بلدته وتوجه إلى باريس، وظل هناك لمدة عامين لا لعام واحد؛ فكانوا يؤخرون قدومه قدر استطاعتهم. وعاد وهو في شوق لحبيبته، غير أنه وجدها قد تزوجت من فتى يصنع الخيام، فأصابه هذا بالضيق والغضب. حاول أن يهدأ، لكن بلا فائدة. ظل يسير أمام بيتها، مثله مثل كل الشبان الهائمين في الحب، ويتمنى ألا تكون قد نسيت حبه مثله. لم يجدها مهتمة به كأنها لا تتذكره، ولم تعرفه من قبل، أو ربما تحاول إظهار هذا له. وما إن شعر الفتى بهذا حتى قرر التحدث معها، وحتى لو خاطر بحياته. سأل أحد الجيران عن وصف المنزل، ليحاول التسلل إليه. وفي ذات ليلة، حين رآها تخرج مع زوجها من البيت لزيارة بعض الجيران، دخل إلي بيتها خفية، واختبأ خلف ستائر غرفتهما. وبقي لوقت طويل منتظرًا حتى عادا إلى البيت وناما. ولما وجد أن زوجها قد راح في النوم تمامًا، اتجه نحو المكان الذي تنام فيه "سالفسترا"؛ ووضع يده على صدرها، وقال بصوت منخفض:

– آه يا حبيبتي، هل نمتِ؟

كانت الفتاة لم تستغرق في النوم بعد، وأرادت الصراخ، غير أنه قال لها:

- أستحلفك بالرب ألا تصيحي. أنا حبيبك "جيرولامو".

خافت المرأة لما سمعته، وقالت:

- آه، بالله عليك يا "جيرولامو"، امض من هنا. فقد انتهى الوقت الذي كنا فيه صغارًا ونحب بعضنا البعض. أنا متزوجة، ولا يجوز لي أن يجمعني شيء بغير زوجي. أرجوك أن تذهب قبل أن يفيق زوجي. إنه يحبني وأعيش معه في راحة وأمان.

لما سمع الفتى تلك الكلمات، شعر بحزن شديد، وذكرها كيف كانا يحبان بعضهما بعضًا، وقال لها إنه بالرغم من مرور كل هذا الوقت، فلم يتغير ما في قلبه حيالها. لم يشفع كل هذا الحديث له. ولما وجد هذا الرد منها، شعر برغبة شديدة في الموت، فطلب منها أن تسمح له بالبقاء بجوارها لبعض الوقت لينال قسطًا من التدفئة، لأنه يشعر بالبرد لطول فترة انتظاره لها خلف الستائر. ووعدها أنه لن يتحدث معها، ولن يلمسها، وسيغادر المكان. رأفت "سالفسترا" به، ووافقت على ما أراد بشرط أن يلتزم بقوله. نام الشاب بجانبها من غير أن يلمسها، ولكن بقي يفكر في حبه لها، وقسوتها عليه؛ ففقد كل أمل ورجاء، وقرر أن ينهي حياته. فضغط بيده وكتم أنفاسه حتى مات. لما طال بقاؤه، وشعرت الفتاة بهذا، خافت أن يصحو زوجها، فقالت له:

- لِمَ لم تذهب حتى الآن، يا "جيرولامو"؟

لم يجب عليها، فاعتقدت أنه قد نام، فهمت بهزه لتوقظه، غير أنها وجدته لا يستجيب وجسده بارد كالثلج، فاندهشت، وهزته بشدة وقوة، إلا

أنه بقي جامدًا لا يحرك ساكنًا، فعرفت أنه قد فارق الحياة، فشعرت بالـضيق والحزن، وراحت تفكر ماذا تفعل في هذه المصيبة. ثم قررت أن توقظ زوجها، وتحكي له ما جرى على أنه حدث لصديقتها، وليس معها شخصيًّا، وأن يفكرا معًا في حل لهذه المشكلة، وماذا سيفعل لو حدث هذا معها هي. ولأن زوجهـا رجل طيب، فقد قال لها إن أفضل شيء هو حمل الفـتى لبيتـه، وتركـه عنـد الباب، وعدم لومها لأنها لم تقترف ذنبًا.

فأجابت عليه، وقالت:

- ما قلته يجب علينا أن نفعله الآن.

ثم أمسكت بيده ووضعتها على جسم الفتى الميـت، فـانتفض مـن شـدة الهلع، وقام وأشعل المصباح فأنير المكان. لم يتحدث معها في شيء، وإنما قـام بتغطية الشاب، وحمله على كتفه إلى منزل أهله وتركه أمام الباب.

في الصباح، وجده أهله ميتًا، فانقلب المكان رأسًا على عقب، خاصـةً لمـا علمت أمه. قدم الأطباء لفحصه، فلم يجدوا به جرحًـا ولا آثـار تعـذيب أو عنف، فراح تفكيرهم أنه مات حزنًا وكمدًا، كما هي الحقيقة فعـلًا. بعـدها نقلوا جثمانه إلى كنيسة قريبة منهم، وهناك بكت أمه عليه بشدة، ومعهـا نساء الأقارب والجيران، كما هي عادة الناس عند وفاة قريب أو عزيز عليهم. قال الرجل الطيب لزوجته "سالفسترا" الذي مات الفتى عندهم:

- ضعي شيئًا على رأسك واذهـبي إلى الكنيـسة، واجلـسي مـع النـساء، لنعرف ماذا يقلن عما حدث. أما أنا، فسأذهب عند الرجال، أستطلع الأمر لنعلم لو تحدث عنا أحد بشيء.

وجدتها الفتاة فكرة جيدة، خاصةً أنها كانت تشعر بالأسف والشفقة عليه. ذهبت كأنها تريد مشاهده جثمان من أحبها إلى هذا الحد، دون أن ينال شيئًا منها في حياته. والقلب الذي لم يستطع حب "جيرولامو" أن يناله فتح بابه له، لكن بعد فراقه للحياة. فجأةً فاضت بداخلها كل تلك الذكريات القديمة التي كانت تجمعهما معا. ولما رأت جثمانه شعرت بالذنب والألم فصرخت بحرقة، وألقت بنفسها فوقه تبكي، ولم تمضِ لحظات حتى ماتت من الحزن مثله.

بعدها، حاولت بعض النسوة التحدث إليها طالبين منها النهوض، ولم يكن يعلمن من تكون، وحين لم تنهض من مكانها حاولن رفعها، فوجدوها قد ماتت هي الأخرى. ولما قلبوها على وجهها، تعرفن عليها؛ فتضاعف حزنهن، وزدن من بكائهن. وعلم مَن في الخارج بما حدث بالداخل، وانتشر الخبر بسرعة هائلة بين الرجال والنساء على حد سواء. وكان من بين مَن عرف بالخبر زوجها، فبكى من الحزن، ولم يهتم بمواساة الناس له، ومحاولتهم التخفيف من ألمه. بعدها حكى لبعض مَن كانوا موجودين ما جرى في الليلة السابقة بين الشاب وزوجته. وبذلك، عرف الناس سبب موتهما، وحزن الجميع عليهما.

قاموا بتزيين جسدها كما يفعلون بالموتى، ووضعوها بجانب الفتي. وتم دفنهما سويًا في قبر واحد. وهكذا، لم يكونا معًا في الحياة، فجمعهما الموت للأبد.

القصة التَّاسعة

قام السيد "جوليلمو دي روسّليوني" بإطعام زوجته قلب السيد "جوليلمو جاردستان"، بعد أن قتله لأنها كانت تحبه. وحين تعرف تلقي بنفسها من النافذة وتموت؛ وتدفن مع عشيقها.

لما أنهت "نيفيله" قصتها، التي بعثت فيهن الشفقة، لم يتبق غير الملك، الذي لم يرغب في أن يحرم "ديونيو" من امتيازه بأن يكون آخر من يتحدث؛ فشرع هو بالحديث، وقال: سيداتي الرقيقات، يبدو لي أنكن قد تأثرتن للغاية بسماع قصص الحب الحزينة؛ والقصة التي سأحكيها لكن ستحزنكن مثل سابقاتها، بل ستحزَن أكثر منها، لأن ما عانوه أشد قسوة، ومن حدثت لهم هم من النبلاء.

يحكى أنه في "بروفنس"[28]، كان هناك فارسان نبيلان لكل منهما خدمه وحشمه. كان أحدهما يدعي "جوليلمو دي روسّليوني"، والثاني "جوليلمو جاردستان". وكلٌّ منهما ماهرٌ في فنون القتال، ويحترم الآخر ويقدره. ومعًا، كانا يقومان بالتدريب، وتنظيم مبارزات بالرمح والسيوف وغيرها؛ ويحملون

[28] منطقة في جنوب شرق فرنسا تطل على البحر المتوسط، وتجاور إيطاليا.

نفس الراية، رغم أن قلعتيهما كانتا تبعدان- الواحدة عن الأخرى- أكثر من عشرة أميال.

كان لدى "جوليلمو دي روسّليوني" زوجة جميلة ولطيفة، وقد أحبها "جوليلمو جاردستان"، دون أن يضع في الاعتبار الصداقة والمحبة التي جمعته بزوجها، لدرجة صارت واضحة من نظراته، حتى شعرت السيدة بهذا. ولعلمها أنه فارس قوي وشجاع، بدأت تميل نحوه، ووقعت في غرامه بشدة، وانتظرت أن يأتي لها، ويدعوها للقاء. وهذا ما حدث فعلًا، وأصبحا يتقابلان، ويتبادلان الحب مرات عديدة.

وبما أنهما لم يأخذا حذرهما في تلك اللقاءات، فقد علم زوجها بالأمر، وتحولت محبته وصدقاته لصديق العمر إلى غضب وكره شديدين. استطاع أن يخفي غضبه، وبكل تكتم ودون أن يشعر أحد، قرر الانتقام من هذا الشخص الذي كان يظنه صديقًا. وفي هذا الوقت، تم الإعلان عن مسابقة للمبارزة في فرنسا، فبعث له ليخبره بها، وطلب قدومه ليبحثا شروط تلك المسابقة. أبلغه "جاردستان" أنه سيأتي إليه في اليوم التالي، وسيتناولان العشاء معًا. ولما علم "روسّليوني" برده، فكر أن هذا الوقت هو الوقت المناسب للانتقام منه.

في اليوم التالي، لبس درعه وأخذ معه سلاحه، وركب فرسه، وذهب ومعه بعض رجاله، لمسافة تبعد عن قلعته بنحو الميل، وأعد له كمينًا في الطريق الذي يأتي منه. وما هي إلا لحظات قلائل حتى وجده قادمًا، ومعه رجلان من رجاله غير مسلحين؛ وهو أيضًا لم يكن مسلحًا، لأنه لم يتوقع ما سيحدث. وبمجرد وصوله إلى مكان الكمين، ظهر له "روسّليوني" مملوءًا بالغضب

والرغبة في الانتقام منه، شاهرًا رمحه في وجهه، وهو يقول:

- الموت للخائن!

وقام بطعنه في صدره؛ فلم يقدر أن يدافع عن نفسه، أو أن ينطق بشيء. طعنه طعنة نافذة فوقع على إثرها على الأرض، ومات علي الفور. أما الخادمان، اللذان لم يعلما مَن قام بتلك الفعلة، ففرا هاربين نحو قلعتهما. وقتها نزل "روسّليوني" من على جواده، ثم انتزع قلب "جاردستان"، ووضعه على رأس الرمح، وطلب من خادمه أن يحمله، وألا يتحدث مع أحد فيما جرى. ثم ركب فرسه، ورجع عائدًا إلى قلعته في الليل. علمت زوجته أن "جاردستان" قادم الليلة على العشاء، وكانت تنتظره بلهفة واشتياق. ولما وجدت أن الوقت تأخر ولم يأت، ووجدت زوجها أتى بمفرده، سألت زوجها:

- ترى، لماذا لم يأت السيد "جاردستان" الليلة؟

فرد عليها زوجها:

- لقد أرسل لي ليخبرني أنه لن يستطيع القدوم اليوم، وأجلنا الموعد إلى الغد.

تضايقت السيدة مما سمعت. نزل "روسّليوني" من على ظهر فرسه، ونادى على الطباخ، وقال له:

- خذ قلب هذا الخنزير البري، واطهه، وقدمه لنا على طبق من فضة.

أخذ الطباخ القلب ليفعل ما طلب منه، فقام بتتبيله بأجود البهارات، واستخدم خبرته العريضة في الطهي ليطهو منه طبقًا شهيا. ولما أتى موعد العشاء، جلس السيد إلى مائدة الطعام مع زوجته، وقدم الطباخ وجبة

العشاء لهما. لم يتمكن من الأكل جيدًا، فعقله كان مشغولًا بالجريمة التي ارتكبها. ولما أحضر الطباخ الطبق الفضي وعليه القلب، قال إنه ليس جائعًا، وقدم الطبق لزوجته، وهو يشيد بهذا الطبق. أكلته الزوجة كله، ولم يتبق منه شيء، وأعجبها مذاقه. بعدما انتهت منه سألها زوجها:

– هل أعجبك هذا الأكل؟

فقالت له زوجته:

– أجل، لقد أحببته جدًّا.

فقال لها:

– غريب أن يعجبك وهو ميت، مع أنه كان يعجبك حيًّا.

شعرت المرأة أن هناك ما يريب في كلمات زوجها، فقالت له:

– ماذا تقصد بكلامك؟ وما هو الطعام الذي قدمته لي كي آكل منه؟

فرد عليها قائلًا:

– ما قمتِ بتناوله في الواقع هو قلب العاشق "جاردستان". أنتِ زوجة خبيثة وخائنة. وفى الواقع أنا من انتزع قلبه بيدي من صدره.

عندما سمعت المرأة هذا الكلام عن حبيبها الذي تعشقه، شعرت أنه أدخل نصل سكين حاد في قلبها هي، وانتزعه هو الآخر. وصمتت لبرهة، ثم قالت:

– لقد فعلت ما يفعله الفارس الخسيس، عديم الشرف؛ فأنا من أحببته وسمحت له بأن يمسني دون أي إكراه؛ وكنت أنا مَن يستحق العقاب، أما هو فلَا. لن يرضى الرب أن ينزل جوفي طعام آخر بعده، فقد نزل أفضل وأنبل

طعام في معدتي، وهو قلب أشجع وأكرم فارس في الدنيا، قلب "جوليلمو جاردستان".

نهضت واقفة، وبدون أن تتردد، ألقت بنفسها من نافذه كانت خلفها. كانت القلعة شاهقة الارتفاع، فلما سقطت تمزق جسدها إربًا، وماتت على الفور.

لما شاهد الموقف، شعر بالندم، وأدرك سوء موقفه، فخاف من غضب الأهالي وأمير مدينة "بروفنس"؛ فأمر من معه بتجهيز الخيول، وهرب مع حارسه.

وفي الصباح عرف الناس ما دار، ووسط حزن الجميع، حمل الناس جثمان السيدة والسيد "جاردستان" إلى قلعته، ودُفنا معًا في قبر واحد. وكتب الناس على قبرهما لوحة بأشعار عنهما، وعن سبب ما حدث لهما، وكيف ماتا.

القصة العاشرة

تظن زوجة طبيب موت عشيقها، فتضعه في صندوق حمله مرابيان إلى منزلهما. وعندما يفيق الرجل ويسترجع وعيه، يقبض عليه ظنًّا منهم أنه لص. فتقول خادمة السيدة للقاضي إنها قامت بوضعه في الصندوق الذي سرقه المرابيان، فينجو العشيق من المشنقة، ويحاكم المرابيان لأخذهما الصندوق، فيدفعان غرامةً جزاء فعلتهما.

لما أنهى الملك قصته، لم يتبق أحد غير "ديوينو"، صاحب امتياز آخر قاص للروايات؛ فعلم أنه التالي، فقال حينها: تلك الصدمات التي يتلقاها العاشقون أحزنتني مثلكن تمامًا، أيتها السيدات الرقيقات. ونحمد الرب أنها قد انتهت، ولن أواصل سرد مثل هذه القصص الأليمة، بل سأحكي لكُن قصة أكثر بهجةً عما سبقها.

سيداتي الجميلات، عليكن أن تعلمن أنه كان في وقت ليس بالقريب- في مدينة "ساليرنو"- طبيب جراح شهير اسمه "مادزيو ديلا مونتانيا". كان شيخًا كبير السن حينما فكر في الزواج؛ بيد أنه تزوج من امرأة جميلة ونبيلة من المدينة. قدم لها الملابس الفاخرة، والمجوهرات النفيسة التي تبهر النساء

وتجذبهن، لطبيعتهن الرقيقة؛ إلا أنه ومع كل هذا، كانت الزوجة تشعر بالبرودة في ليال كثيرة؛ لأن الطبيب كان قليلًا ما يشعرها بدفء الفراش. فكان مثل السيد "ريتشاردو دا كينزيكا"، الذي تكلمنا عنه من قبل، يقول لزوجته إن مضاجعتها مرةً واحدة يحتاج إلى الراحة بعدها عدة أيام متتالية؛ ومن ثم لم يعجبها هذا الحديث، وكانت في ضيق شديد من هذا. وبالتالي، فكرت في طريقة لترضي بها رغباتها المتأججة، فبحثت عن شخص ليلبي لها ما تريد، حتى تحافظ على صحة زوجها ولا تمرضه. بدأت تمعن النظر في الرجال وتتأملهم، إلى أن وجدت مَن يعجبها، ورمت عليه شباكها، وتقربت منه، وقدمت له المال. وقد أعجبت المرأة الشاب أيضًا، الذي كان يُدعى "روجيري دا جيرولي"، وهو من أصل طيب، لكنه يعيش حياة الضياع؛ فلم يعد أحد من أقاربه يحبه، أو حتى صديقا له؛ فكان الجميع يتهمونه بالسرقة واقتراف الأشياء المخزية. لكن المرأة لم تهتم بما يقال عنه، لأنه أعجبها لأسباب مختلفة، ووجدت فيه مبتغاها. وبمساعدة من خادمتها، تم تدبير الأمر حتى يلتقي العاشقان. وبعد أن قضيا وقتًا ممتعًا معًا، تحدثت معه في ضرورة أن ينأى بنفسه عن الأفعال المشينة التي اعتاد فعلها في الماضي، ويرجع إلى صوابه ورشده، وأن يسلك الطريق الحسن إذا كان حقًّا يحبها. وحتى تساعده على ذلك، أصبحت تعطيه نقودًا كل فترة. وبقي الأمر هكذا في سرية.

وذات يوم، أتي شخص للطبيب بمريض أصيب فى ساقه بالتهاب خطير. ولما وجد الطبيب أن حالته حرجة، أخبر مَن معه أن لديه بعض العظام العفنة في ساقه، ويجب استخراجها حتى لا تتسبب في بتر الساق، أو موت

المريض. وفي حالة عدم موافقتهم، فليعتبروا المريض في عداد الموتى، ولن يعالجه. وافق ذوو المريض على ما قاله الطبيب بعد تفكير، وتركوا المصاب لديه. رأى الطبيب أن المريض لن يستطيع تحمل الألم بدون تخدير، وهذا مما يزيد الأمر تعقيدًا، فقرر الانتظار لليوم التالي. وفي الصباح، طلب تجهيز المادة اللازمة لتخدير المريض المدة التي يتطلبها إجراء العملية، ثم أخذها معه إلى المنزل ووضعها في زجاجة على شباك غرفة النوم، من غير أن يعلم أحد بهذا.

ولما أوشك الغروب على المجيء، وأعد الطبيب نفسه للذهاب إلى المريض، أتى من يبلغه أن عراكًا كبيرًا وقع في "أمالفي"، ويطلب منه أصدقاؤه القدوم بسرعة إلى هناك، لوجود مصابين فى الحادث؛ فأجل الرجل علاج المريض إلى اليوم التالي، وذهب إلى "أمالفي". ولما وجدت المرأة أن زوجها سيكون تلك الليلة خارج المنزل، قالت لعشيقها أن يأتي إليها، وأدخلته غرفة نومها، وأغلقت عليه الباب إلى أن ينام مَن في البيت. وأثناء انتظاره لها، شعر بالعطش، ووجد على شباك الغرفة تلك الزجاجة التي تحتوي السائل المخدر، الذي كان الطبيب قد جهزه من قبل لعلاج المريض، فشرب منه، معتقدًا أنه ماء. وبعد قليل، راح في نوم عميق. عادت المرأة إلى الغرفة، فوجدته نائمًا، فهزته وطلبت منه أن يستيقظ بصوت هادئ، لكنه لم يجب عليها. وظلت تهزه، وهو لا يجيب عليها ولا يتحرك من مكانه؛ فغضبت وهزته بقوة أكبر وهي تقول له:

– انهض أيها الكسلان. إذا كنت تريد النوم فحسب، فاذهب إلى بيتك ونم هناك.

وأثناء ما كانت تدفعه وتهزه، سقط من فوق الصندوق الذي نـام عليـه، دون أن تظهر عليـه أيـة علامـات تـشير إلى أنـه مـا يـزال حيًّـا؛ فخافـت وارتعدت مفاصلها. حاولت إيقاظة بكل الطرق مرارًا وتكرارًا عبر هـزه بشدة أكبر، وشده من أنفه وشاربه، لكن كل هذا لم يُجدِ نفعًا وقتها. شـكت في أن يكون قد مات، فقامت بقرصه، حتى أنها قامت وأحرقته بشمعة دون جدوى. ولعدم علمها بالطب، فزوجها هو الطبيب، وليـست هي، اعتقـدت أنه قد فارق الحياة فعلًا. حزنت لفراقه، فقد كانت تحبه للغاية، ولـيس ثمـة داع لذكر هذا، لكنها لم تقدر على الصراخ حـتى لا يفتـضح أمرهـا، فظلـت تبكي في صمت. بعد فترة، ولخوفها من أن يدري النـاس بـالأمر، فكـرت أن تجد طريقه تخرجه من بيتها بسرعة. في البداية، لم تجد طريقة للتخلص مـن جسد عشيقها، فأرسلت إلى خادمتها من غير أن يشعر بها أحـد، وأخبرتهـا بما حدث وطلبت مساعدتها. اندهشت الخادمـة ممـا سـمعت، وراحـت هي الأخرى تهزه بقوة؛ ولما وجدت أنه لا يشعر بشيء، ظنت مثلما ظنت سيدتها أنه قد مات، وقررا إخراجه من المنزل.

فقالت المرأة لخادمتها:

– ما المكان الذي سنضعه فيه، دون أن يشك أحدٌ فينا؟

أجابت الخادمة:

– سيدتي، شاهدت مساء اليوم أمام بيت جارنا النجار صـندوقًا كبـيرًا، فإن لم يدخله إلى بيته، يمكننا استخدامه لما نريد، بأن نضع الجثة بداخلـه، ونتركه هناك. ومَن سيشاهدونه في الغد لن يعلمـوا مـن أيـن أتى. وسـيعتقد

الناس أن أحد أعداءه قتله، لما يقال عنه، فضلًا عن سوء سمعته. علاوةً على ذلك، فيمكننا طعنه بسكين ليظن الناس ذلك.

قبلت السيدة بالخطة، فيما عدا القيام بطعنه. فهي لا ترضى له بذلك، فهو حبيبها. بعدها، ذهبت خادمتها لترى إن كان الصندوق ما يزال هناك أم لا، وتأكدت أنه هناك قابع في مكانه. كانت الخادمة شابة وقوية، فحملت "روجيري" على ظهرها، بمساعدة السيدة. وقبل ذلك، كانت قد سبقتها حتى تتأكد أن المكان خالٍ، وليس فيه أحد. ولما وصلا إلى الصندوق وضعاه بداخله وأغلقاه، ثم ذهبا.

بالقرب من هذا المكان، أتي سكان جدد، وكانا شابين يعملان بالربا وإقراض الأموال. كانا يحبان جمع الكثير من المال وإنفاق القليل، وكانا يريدان بعض الأثاث، وكانا قد شاهدا ذلك الصندوق قبلها نهارًا، واتفقا على أخذه إلى بيتهم إن ظل موجودًا في مكانه حتى الليل. وبالفعل، أتي الرجلان في الليل فوجدا الصندوق في مكانه. ومع أنهم أحسوا بثقله الكبير، قاما بحمله إلى بيتهما دون أن ينظرا ما بداخله، وتركاه بجوار غرفة تنام فيها زوجتاهما، ثم ذهبا ليناما.

استيقظ "روجيري" قرب الفجر، لما انتهى تأثير المخدر. ومع أنه استعاد إحساسه وقواه، لكن عقله ظل مشوشًا لفترة استمرت عدة أيام. ولما فتح عينيه ولم ير شيئًا، ولما هم بتحريك يده يمينًا ويسارًا، أدرك أنه بداخل صندوق، فأخذ يفكر ويسأل نفسه: "ما هذا؟ أين أكون؟ وهل أحلم أم أنني مستيقظ؟ أذكر أني كنت عند عشيقتي في غرفتها، ولا أذكر ما بعد هذا. أعتقد أني بداخل صندوق. فما الموضوع؟ أيمكن أن يكون زوجها قد أتى

بي إلى هنا، وأخفاني في هذا الصندوق؟ أعتقد ذلك، من المؤكد أن هذا ما حدث فعلا". وبدأ يشعر بالقلق. حاول أن يسترق السمع ليرى إن كان هناك أحد، ولما وجد أنه لا يسمع شيئًا، وكان يشعر بألم بجانبه الذي كان ينام عليه، أراد أن يتقلب على الجانب الآخر، فقام بذلك، لكنه ارتطم بجانب الصندوق الذي كان على أرض متعرجة، فوقع الصندوق على الأرض. وأحدث السقوط صوتًا عاليًا أيقظ السيدتين اللتين كانتا في الغرفة المجاورة. لكنهما بقيتا صامتتين من شدة الخوف. غير أن الفتى العاشق- مع أنه خاف لما سقط- إلا أنه وجد أن الصندوق انفتح بسقوطه. خرج منه، فوجد نفسه في مكان مظلم لا يعرفه، فحاول السير متحسسًا الطريق أمامه، فقد يجد بابًا ليخرج أو حتى نافذة. وشعرت السيدتان بحركته، فقالتا:

- مَن هناك؟

لما سمعهما ولم يتعرف عل صوتيهما، بقي صامتًا. فنادت المرأتان على زوجيهما اللذين كانا مستغرقين في النوم، بعد أن سهرا طويلًا. وقتها قامت المرأتان وفتحتا النافذة، وقامتا بالصراخ:

- انجدونا! انقذونا! لص، لص!

أسرعت الناس لنجدتهما، وحدثت ضوضاء كبيرة، استيقظ على إثرها المرابيان من نومهما. وتم القبض على "روجيري" الذي لم يعرف ما الذي عليه فعله، أو حتى إلى أين يأخذونه. أخذوه إلى حاكم المدينة. وبما أن الكثيرين يعلمون سوء خلقه، فقد أمر بتعذيبه في حينها، فاعترف الفتى أنه ذهب إلي هناك ليسرق، فقرر الحاكم معاقبته بالشنق.

ولما أطل الصباح بضيائه، شاع الخبر في أرجاء المدينة بالقبض على "روجيري" متلبسًا بالسرقة من بيت المرابيين، فاندهشت زوجة الطبيب وخادمتها لما سمعا بالحدث. وفكرتا أنهما كانتا في حلم الليلة الماضية. شعرت السيدة بالخطر الذي سيقضي على حبيبها، وكادت تشعر بالجنون.

بعدها بقليل، غاد زوجها من "أمالفي"، وأخذ يبحث عن السائل الذي تركه في غرفته؛ لكنه وجد الزجاجة فارغة، فغضب وهو يصرخ ويقول إنه لا شيء يظل بمكانه في هذا البيت.

فردت عليه زوجته، بكل ضيق:

- ماذا حدث لكل هذا؟ أتقول كل ذلك من أجل بعض الماء؟ هل جفت المياه التي في الدنيا؟

فأجابها قائلًا:

- هل تظنين أنه ماء عادي، إنه ليس كما تظنين؛ فهو ماء مُعد للتخدير.

علمت منه لماذا أعده. وحين سمعت ما قال، عرفت أن "روجيري" مَن شرب هذا السائل، ولذلك ظنت أنه قد مات، فردت على زوجها قائلةً:

- لم نكن ندري ذلك، ويمكنك أن تصنع مخدرًا آخر عوضًا عنه.

قام بتركيب كمية أخرى من الشراب، ليصنع المخدر الذي كان يريده عوضًا عما فقده. بعدها بقليل، عادت الخادمة من الخارج؛ فقد أرسلتها السيدة لترى ما يقوله الناس عن "روجيري"، فقالت لسيدتها:

- سيدتي، الجميع يتحدثون في الخارج عن "روجيري"، ولا يوجد قريب ولا حتى غريب يدافع عنه؛ ولذلك سيتم شنقه في الغد. يجب أن أخبرك

بشيء مهم. أظن أنني فهمت كيف وصل "روجيري" إلى بيت هذين المرابيين. سمعت جارنا النجار، وهو يتشاجر مع شخص يطالبه بماله الذي أعطاه له كثمن لصناعة ذلك الصندوق، وكان النجار يقول إنه عندما أتى في الصباح لم يجده، فمن المؤكد أن أحدًا سرقه في الليل، فقال له ذلك الرجل: "ما تقوله غير صحيح، فقط أرسلته أنت للمرابيين، وهما مَن قالا لي ذلك عندما شاهدت الصندوق عندهما وقت القبض على "روجيري". فقال النجار: "إنهما يكذبان، فأنا لم أبع لهما الصندوق، مؤكدٌ أنهما مَن سرقاه في الليل، هيا بنا إلى بيتهما". ذهبا إلى هناك، وأنا أتيت لأخبرك، وأظن أنه تم حمله وهو بالصندوق إلى بيت المرابيين، لكن ما لا أفهمه هو كيف عاد للحياة.

فأخبرتها زوجة الطبيب بما أخبرها به زوجها، وطلبت مساعدتها لتنقذ "روجيري"، دون أن يعلم أحد أنها على علاقة به. فقالت الخادمة:

– ماذا يدور برأسك، ياسيدتي. فسأساعدك بكل ما أستطيع.

فكرت السيدة في حل لذلك المأزق، وأخبرت الخادمة بخطتها بالتفصيل. ذهبت الخادمة في البداية إلى الطبيب، ومثلت أنها تبكي:

– أرجو منك العفو أيها السيد على الخطأ الذي صدر مني تجاهك.

فتعجب الطبيب وسألها:

– ما الذنب الذي تتحدثين عنه؟

فقالت له وهي تبكي:

– تعلم يا سيدي الشاب "روجيري دا جيرولي". لقد أحبني هذا الفتى منذ عام تقريبًا، وظل يلاحقني بشدة لأكون عشيقته. ولما عرف ليلة أمس

أنك ذهبت، ولن تنام في البيت، ترجاني أن أجعله يدخل غرفتي لنقضي معًا الليلة، فقمت بذلك. وبعد قليل، شعر بالعطش، ولم أتمكن من أن أعطيه ماءً أو خمرًا خوفًا من أن تراني السيدة، لأنها كانت في الصالة. وتذكرت أنني رأيت فى غرفتكما ماء، فذهبت إلي هناك وأخذته وقدمته للشاب. وبعد أن شربه، أعدت الزجاجة إلى مكانها. ثم عرفت من السيدة زوجتك أنك غضبت من تلك الفعلة. أعترف أنني وقعت في الخطأ، ولكنك تعلم أن كل الناس يمكن أن تخطئ. أشعر بالندم على ما بدر مني. وإلى جانب هذا كله، فقد وقع الفتى في ورطة كبيرة نتيجة ما حدث، وقد يفقد حياته بسبب هذا الشراب. وأتوسل إليك يا سيدي العفو عني، والسماح لي بأن أذهب لمساعدة "روجيري" بما أقدر عليه.

ورغم غضب الطبيب، إلا أنه رد عليها مبتسمًا:

– لقد عاقبتِ نفسك بنفسك. فبدلًا من أن ترضي رغباتك معه، بقي في نوم عميق نائمًا بجوارك. يمكنكِ الذهاب الآن، لمساعدته لينجو من العقاب، ولكن عليكِ ألا تفعلي هذا ثانيةً، وإلا فسوف تنالين جزاءك.

تشجعت الخادمة لما تمكنت من تنفيذ أول خطوة، وبادرت بالذهاب إلى السجن الذي يقبع به الفتى، وبقيت تترجى السجان وتقنعه حتى تمكنت من التحدث مع السجين. وقالت له ماذا يقول أمام الحاكم. وقامت بكل ما تستطيع لتتحدث مع الحاكم، وقد أعجبته لما رآها، وأبدى رغبته فيها، وأنه لن يسمع لطلبها قبل أن ينالها؛ فقد اشتهاها. فتركته ينال ما يريد، بعد قليل من التمنع. بعدها، وبعدها فقط، سمح لها بالتحدث معه، فقالت:

– سيدي القاضي، السجين "روجيري دا جيرولي" لم يرتكب تلك الجريمة التي وجهت له، فهو بريء منها.

وأخبرته بما أخبرت به الطبيب بالحرف الواحد: كيف دخل إلى البيت، وشرب المخدر دون أن يعلموا تأثيره، وأنها وضعته بالصندوق، حين ظنت أنه مات. حكت له كل ما سمعته من النجار وصاحب الصندوق، وأوضحت له أن المرابيين هما مَن أخذا الصندوق الذي كان ينام فيه "روجيري". فكر القاضي في كلامها، وأراد التحقق من حديثها؛ فبعث إلى الطبيب ليتأكد من طبيعة هذا الشراب الذي كان لديه، فأكد الطبيب ما قالته الخادمة. واستدعى بعدها النجار وصاحب الصندوق والمرابيين. وبعد تحقيق مطول، تأكد أن المرابيين هما من سرقا الصندوق في تلك الليلة. وفي النهاية أتى بـ"روجيري"، وسأله عن ما حدث في الليلة السابقة، فأجابه أنه لا يدري ماذا حدث، وكل ما يذكره أنه دخل إلى حجرة خادمة الطبيب "مادزيو"، وشرب ماءً لما شعر بالعطش. بعدها لا يدري ماذا حدث له، غير أنه استيقظ فوجد نفسه داخل صندوق في بيت المرابيين.

لما سمع القاضي هذه القصة الطريفة، طلب منهم أن يعيدوها عدة مرات، وبعدما تأكد أن "روجيري" غير مذنب، حكم على المرابيين بغرامة قدرها عشر أوقيات من الفضة، وأطلق سراح الفتى. احتفلت السيدة وعشيقها بنجاته مع خادمتها التي كانت قد اقترحت طعنه من قبل؛ وضحكوا على هذا كثيرًا. وظل هو والسيدة على غرامياتهما التي ازدادت كثيرًا، وهذا ما أتمنى أن أحظى به، لكن دون أن أجد نفسي في صندوق.

في البداية أحزنت القصص قلوب السيدات الرقيقات، بيد أن القصة

الأخيرة لـ"ديونيو" قد أضحكتهن للغاية، لدرجة أنهن نسين الحزن الذي دخلن فيه من القصص السابقة.

وحين وجد الملك أن الشمس بدأت في الغروب، وأن مدة حكمه أشرفت على نهايتها، أبدى اعتذاره للسيدات بأسلوب رقيق على ما قام به من اختيار هذا الموضوع القاسي عن تعاسة العاشقين، ونزع التاج من فوق رأسه. انتظرت السيدات ليشاهدن على رأس مَن سيضعه، فاتجه نحو "فياميتا"، ووضع التاج على رأسها، وهو يقول:

- أضع التاج على رأسك، فأنت تعلمين، أكثر من الآخرين، كيف تعوضين السيدات وتسعدينهن غدًا، لتعوضيهن وتفرحيهن عما لاقينه اليوم.

كان لدى "فياميتا" شعر ذهبي جميل وطويل ينسدل على كتفيها، ولديها وجه دائري الشكل يشع بالجمال، يجمع بين بياض الثلج وحمرة الورد، وتمتلك عينين كعيون الصقر، وفمًا صغيرًا وشفتين كالكرز أو حبة الفراولة؛ فأجابته بابتسامة عذبة:

- إنني أقبل بكل سرور يا "فيلوستراتو" ذلك، ولكي أحسن من المزاج العام للجميع بعد قصص اليوم، فإنني آمر الحاضرين- بدءًا من هذه اللحظة- بأن يتجهزوا لكي يقصوا علينا غدًا روايات عن الظروف الصعبة والتحديات التي لاقاها بعض المحبين، على أن تنتهي نهايات سعيدة.

وافق الجميع على فكرتها. واستدعت الوصيف، وجهزت معه الأشياء التي سيقومان بها، وأمرت الحاضرين بأخذ استراحة ليفعلوا ما يريدون إلى وقت العشاء. اتجه البعض إلى الحديقة البديعة الموجودة هناك، وذهب بعضهم إلى

الطاحونة التي تدور ولا تتوقف خارج الحديقة. أما الباقين فانتشروا في أرجاء المكان، يتنزهون حتى أتى وقت العشاء. وبعد أن فرغوا من تناول العشاء، اجتمع الجميع من جديد، كما هو متبع، بجوار النافورة الخلابة، وشرعوا في الغناء والرقص. وكانت "فيلومينا" أول من قامت لترقص؛ فقالت الملكة الجديدة لـ"فيلوستراتو":

- لا أرغب في تغيير ما اتبعه مَن كانوا قبلي، ولذلك أود منك أن تستجيب لطلبي وتغني أغنية؛ وتأكد من أن تكون أغنيتك حزينة كالقصص التي ترويها. أطالبك أن تغني واحدةً لنا، ولتكن هي آخر الأيام الممتلئة بالحزن. فأجابها "فيلوستراتو" بأنه سينفذ طلبها بكل رضا، وشرع بالغناء:

أيها الحب: مرارة الدمع المنهمر الفياض في الأجفان
ليست إلا تعبيرًا عن قلب مخدوع بالخيانة تعتصره الأشجان.
أيها الحب: أنت أول من سكن فؤادي ومهجتي،
وأفعمتني بالآمال والأماني،
أيها الحب: جعلتني أقبل مع حبيبتي كل انكسار يرفضه عقلي ووجداني،
وأوقعتني في معمعة العذاب والحرمان،
وملأتني بالآلام والأحزان،
أيها الحب: كم كنت مخدوعًا في حبي وفي هيماني.

أيها الحب: عرّفتني أخطائي، وجلّيت لي عيوبي،

وقد هجرَتني من أحببت بإخلاص، وخدمتها بعهدي ووعودي،
كنت أحسب أنني خادمها، وفي جواري لها سعادتي وهنائي،
فلم تنتبه لعنائي،
وقد صار لها عشيقها الثاني
قاذفةً بي من بين ثنايا قلبها الصوان.

أيها الحب: صرتُ وحيدًا طريدا بين ليلة وصباح،
وفاض القلب بالدمع الحزين المترقرق الوجدان،
لكني لست أعلم ولا أدري،
لمَ لا أزال أبكي،
فاللعنة على اليوم والساعة التي عرفت فيهما ذلك الوجه البهي القاسي.
تتأجج روحي ويفيض غضبي،
فعلامَ كانت ثقتي وحبي وأحلامي؟

حقًّا لا عزاء لآلامي.
وأنت عارفٌ بألا شفاء لشقائي،
أدعوك دومًا والحزن يتملكني،
وأخبرك دومًا بمأساتي
فالموت هين أمام ما ألم بي،
ليت الموت يأتي ويأخذني،
ويضع حدًّا لبكائي،
ويخفف من حدة غضبي ويشفي دائي.

الموت والفناء فقط فيهما خلاصي،

ونهاية وراحة لحزن حياتي،

أيها الحب: امنحني الموت، وانهِ عذابي،

وخلِّص فؤادي من مرارة عيشي،

وأَبهجها بهلاكي،

كبهجتها لها بعشيقها الثاني،

آه يا أغنيتي،

فإن لم يفهمكِ الرجالِ، فلا أبالي،

فلا أحد ينشدك إنشادي،

ولا بغية منكِ يا أغنيتي ويا مناجاتي،

سوى لقاء الحب وإخباره عن مرارة أيامي،

فتوسلي إليه أن ينقلني إلى أفضل مكان

حيث لا قسوة ولا جزع حيالي.

أوضحت مفردات هذه الأغنية بجلاء الحالة التي عليها "فيلوستراتو"، وكان لديه الكثير من الأغنيات المعبرة الأخرى لينشدها، إلا أن حلكة الليل المتزايدة حالت دون استكماله الأغنيات الأخرى. فقد حان وقت النوم، فما كان من الملكة إلا أن أصدرت أوامرها بذهاب كل منهم إلى حجرته، ليناموا وينالوا قسطًا من الراحة استعدادًا لمجيء اليوم التالي. وإلى هنا أسدل الستار على مجريات اليوم الرابع.

اليــوم الخَــامس

أُسدِلَ الستار على اليوم الرابع، وبزغ فجر اليوم الخامس من "الديكاميرون". ونجد فيه أن الحديث- تحت حكم "فيامِّيتًا"- يدور حول قصص سعيدة حدثت لبعض العشاق بعد أن تكبدوا ويلات ونكبات مؤسفة.

كان النور يعم كل أرجاء الناحية الشرقية، وكانت أشعة الشمس تبث ضياءها في كافة الأرجاء. حينئذ استيقظت "فيامِّيتًا" على صوت تغريد الطيور الجميل العذب، التي تنشر السعادة في المكان مع الخيط الأول لشروق الشمس؛ فطلبت استدعاء السيدات والشبان، ونزلوا جميعهم معًا للتنزه في الحقول، فساروا سويًّا بخطى وئيدة على الطريق المنحدر بين الأعشاب المكسوة بقطرات الندى، وهم يتجاذبون أطراف الحديث. وما إن أصبحت الشمس في وسط السماء، وازدادت حرارتها لهيبًا، حتى عادوا إلى البيت. بعد ذلك، تناولوا النبيذ الفاخر ليستعيدوا نشاطهم بعد التعب الذي لحق بهم، ثم

جلسوا ليتسلوا في الحديقة حتى حلول موعد الغداء، الذي تم إعداده على أكمل وجه من قبل القهرمان الماهر. وبعد إنشاد بعض الأغنيات، طلبت منهم الملكة الجلوس لتناول الغداء، فاستجبوا جميعًا لطلبها..

وبعد الانتهاء من تناول أشهى المأكولات، شرعوا في الرقص كعادتهم على أنغام آلاتهم الموسيقية، فرقصوا، وغنوا بعض الأغنيات. ثم سمحت لهم الملكة- بعد حلول وقت القيلولة- بعمل ما يريدون: فمنهم من ذهب للنوم، ومنهم من بقي يمرح في الحديقة الغنّاء، ثم تجمعوا ثانيةً بعد العصر بقليل، كما أشارت الملكة، بجانب الينبوع. جلست الملكة كما يجلس القاضي في المحكمة، وأشارت إلى "بامفيلو" وهي تبتسم، وأمرته بأن يبدأ في سرد القصص ذات الخواتيم السعيدة. فشرع يقول في سعادة:

القصــة الأولــى

أصبح "تشيموني" حكيما، وبسبب حبه، قام بخطف حبيبته "إيفيجينيا". لكنه تم أسره وحبسه في "رودس"، وهناك أنقذه "ليزيماكو" من الأسر وساعده على تحرير "إيفيجينيا"، وذهبا معًا إلى "كريت"، وتزوجا هناك ثم رجعا إلى بلدهما.

أيتها السيدات اللطيفات! يجول في بالي العديد من القصص التي أود أن أبدأ بها حكايات هذا اليوم السعيد؛ لكن واحدةً منها فقط هي التي تسعدني، وتثير في نفسي البهجة والسرور أكثر من غيرها؛ لا بسبب نهايتها السعيدة فقط، وإنما لأسباب أخرى تتجلى في ثناياها، وتحديدًا لأنها تظهر قوة وسلطان الحب، وإلى أي حد يؤثر في قلوبنا؛ وهي أمور يشعر بها الكثيرون، ولا يستطيعون الحديث عنها بصراحة. ولو تعرف قلوبكن معنى العشق، فحتمًا- وبلا أدنى شك- ستحوز هذه القصة استحسانكن.

كان هناك في جزيرة قبرص، حسب ما سمعنا في القصص القديمة، رجلٌ من كبار علية القوم يُسمي "أريستيبُّو". كان أغنى أغنياء بلاده، نظرًا لما يمتلكه من أموال وثروات طائلة. ومع كل هذا، فلم تكن سعادته مكتملة، بل كان هناك دائمًا شيء واحد يؤرق حياته، ويعكر صفوها، وهو أن لديه ابنًا

يفوق أبناءه الآخرين جمالًا ووسامة، لكنه كان أبله يُدعي "جاليزو". وقد حاولوا معه مرارًا، ولكن دون جدوى. لم يصلح معه تدليل، ولا ضرب، ولا توجيه، ولا أي أسلوب آخر. ولأن صوته وسلوكه غير سوي، فقد أطلقوا عليه لقب "تشيموني" سخريةً منه؛ ويعنى في لغتهم "الحيوان". كان الأب يتحمل بألم وحزن حال ولده، وفقد كل أمل في إصلاحه؛ ومِن ضيقه منه، أمره بالذهاب إلى الريف، والعيش بين الفلاحين. فرح الفتى بذلك، لأن عادات الريفيين وحياتهم كانت أسهل وأحب إليه من حياة الحضر. ذهب الابن إلى الريف، واندمج مع عاداتهم.

وفي أحد الأيام، وبينما كان يتمشى من مكان إلى آخر، حاملًا معه عصاه على كتفه، دخل غابة جميلة وصغيرة. كان هذا في الربيع، حيث كانت الأشجار مزهرة خلابة الجمال. قادته قدماه إلى مرج صغير تحيط به الأشجار، به ينبوع ماء عذب وبارد. عند هذا الينبوع كانت تنام فتاة في غاية الجمال، تلبس الحرير الأبيض الرقيق، الذي لا يخفي شيئًا من جمال جسدها. وكان بجانبها امرأتان ورجل يقومان على خدمتها. وبمجرد أن وقعت عيناه عليها أصابه الذهول، وظل ينظر إليها دون أن ينطق ببنت شفة، وكأنه لم ير أية امرأة قبل ذلك. وعلى الرغم من خفة عقله التي لم تمكنه من تعلم أي شيء، إلا أنه أحس بتهيج أحاسيسه، وصحوة مشاعره؛ فكان يدور في خلده أنها أجمل مَن رأى على وجه الأرض. ثم بدأ يدقق النظر في جسدها بشدة، فأُطرى شعرها الذي يشبه الذهب لشدة لمعانه وبريقه الجذاب. ثم أخذ ينظر إلى الوجه، والأنف، والفم، والعنق، والذراعين، ثم إلى صدرها الذي لم يكن قد كبر كثيرًا بعد. وسرعان ما تحول الأبله إلى مُحكِّم للجمال، بل

أصبح متلهفًا يتوق لرؤية عينيها النائمتين. فكَّر في إيقاظها، ثم اعتقد أنها أجمل من أن تكون مجرد بشر، وقال في نفسه لابد أنها ملاك، ومنع نفسه من إيقاظها؛ وانتظر أن تستيقظ هي من تلقاء نفسها. ومع طول الوقت، لم يمل لشدة انبهاره بها. وبعد مضي الكثير من الوقت، أفاقت "إيفيجينيا" من نومها، ورفعت رأسها وفتحت عينيها، وشاهدت "تشيموني" يقف أمامها متكئًا على عصاه، فتعجبت كثيرًا، وقالت:

- ماذا تفعل هنا في الغابة، في هذه الساعة، يا "تشيموني"؟

كان "تشيموني"- نظرًا لجماله أو لغبائه، أو لمكانة أبيه وثرائه- معروفًا للجميع. لم يجب بشيء على سؤال "إيفيجينيا"، لأنه كان يتأمل جمال عينيها بعد أن فتحتهما، وشعر أنها تشع بالعذوبة والرقة، وتشعره بسعادة لم يشعر بها من قبل.

عندما رأته الفتاة على تلك الحالة، خشيت من أن يصيبها بسوء؛ فأيقظت مَن كانوا معها ونهضت، وقالت:

- نتركك على خير، يا "تشيموني".

فقال لها:

- سآتي معك قطعًا.

على الرغم من محاولات الفتاة تجنب رفقته، خوفًا منه، لكنها لم تستطع إبعاده عنها، وأصر على أن يصطحبها إلى بيتها؛ ثم ذهب إلى بيت أبيه، وقرر ألا يعود إلى الريف. وعلى الرغم من عدم ترحيب أهله بهذا القرار، فقد تركوه على راحته، لعلهم يعرفون السبب الذي دفعه إلى ذلك. لقد وقع في حب "إيفيجينيا" بالفعل من أول نظرة، وأثرت فيه، وتحول "تشيموني"، الذى لم

يؤثر أي شيء فيه من قبل، إلى شخص آخر؛ الأمر الذي تعجب منه كل أهله والمحيطين به. طلب "تشيموني" من والده ملابس كتلك التي يرتديها إخوته، ففرح والده لهذا الأمر كثيرًا. وتغير سلوكه مائة في المائة، وكأنه سُحر له، وصار يتعامل كالنبلاء، ويتحدث ويستمع للأحاديث التى تهم السادة، وتحديدًا تلك المتعلقة بالحب. فكان يصغي جيدًا في البداية، وسرعان ما تعلم الحروف في وقت قصير، وأصبح الفتى بين عشية وضحاها حكيمًا وفيلسوفًا، والفضل في ذلك كله يرجع لـ"إيفيجينيا". حتى طريقة حديثه تغيرت، وصار صوته رقيقًا وعذبًا، لدرجة أنه أصبح معلمًا في الفن والغناء، وتعلم الفروسية بإقدام وشجاعة. والخلاصة أن هذا التحول حدث له في أقل من أربع سنوات من يوم رؤية حبيبته أول مرة. حتى أصبح أكثر الشبان كمالًا في قبرص في الأناقة والأدب.

فماذا عسانا أن نقول عن هذا الفتى، أيها السيدات والسادة. ففي الواقع، كانت كل الصفات الحميدة والمرجوة قد دخلت وتسللت إلى روحه من السماء، كانت بداخله ولم يرها أو يشعر بها حتى أيقظها الحب، ومحا كل شيء آخر بداخله. فالحب أقوى من أي شيء في الكون، وكان "تشيموني"- في حبه لـ"إيفيجينيا"- يتجاوز كل الحدود، ثم كل العاشقين. وقد شجعه والده في المضي قدمًا إلى ما يصبو إليه، لأنه كان يعرف أن هذا الحب هو ما جعل منه إنسانًا آخر.

فضل "تشيموني" الإبقاء على اسمه الحالي، لأنه يتذكر أن "إيفيجينيا" قد نادته به. وفكر في أن يتبع حبه الأمثل، وذهب لطلب يد "إيفيجينيا" من أبيها عدة مرات، غير أنه كان يقول له في كل مرة إنه أعطى وعدًا بتزويجها

من "بازيموندا"، وهو شاب نبيل من "رودس"، ولا يريد أن ينكث بوعده. وعندما حان وقت زفاف "إيفيجينيا"، أرسل خطيبها في طلب سفرها له، ففكر الفتى في نفسه: آن الأوان لأثبت لـ"إيفيجينيا" كم أحبها. لقد غيرت كل حياتي من أجلها، فسحرها ينير حياتي، ولابد أن تكون من نصيبي. وبوجودها معي، سأكون قد ملكت الدنيا وما فيها. فالموت أهون عليَّ من فقدانها. وبحث عن مَن يساعده في حل مشكلته من أصدقائه، وطلب منهم العون، فجهزوا له سرًّا سفينه حربية، وجهزوها بالأسلحة، وأبحروا حتى عرض البحر، في انتظار سفينه "إيفيجينيا" وهي متجهة إلى "رودس". وفي أثناء ذلك، لحقت بهم سفينة "تشيموني" الذي لم يقدر على إغماض جفنه أبدًا، حتى وصل إليها، ووقف في المقدمة، وصاح في السفينة الأخرى قائلًا:

- توقفوا، وأنزلوا الأشرعة، وإلا سنغرق سفينتكم في البحر.

لم يستجب قبطان السفينة الأخرى، فكرر "تشيموني" نداءه، قائلًا:

- توقفوا جميعا الآن، وإلا سندمر سفينتكم في البحر.

حمل الأعداء أسلحتهم إلى سطح السفينة، مستعدين للدفاع عن أنفسهم؛ فيما أخذ "تشيموني" بخطاف السفينة الحديدي، ورماه على السفينة الأخرى التي حاولت الهروب بسرعة، وثبته بقوة في مقدمة سفينته. وقفز بقوة وشجاعة إلى السفينة الأخرى دون أن ينتظر أحدًا. ودارت معركة حامية بالسيوف، فكان على استعداد لعمل أي شيء من أجل حبيبته؛ وراح يبارز بقوة هذا وذاك، فأخافهم وأرهبهم بفضل قوته وإقدامه، فاستسلموا جميعًا، واستكانوا للأسر. فقال لهم "تشيموني":

- أيها الرجال، لا أريد أسركم، ولستم أعداء لي، وما أتيت إلى هنا إلا من

أجل سبب واحد، وما دفعني للهجوم عليكم إلا شيء واحد ذو قدر عظيم عندي؛ وبإمكانكم أن تعطوني إياه بدون قتال. أريد فقط "إيفيجينيا" التي أحبها، وأفعل كل ما أستطيع حتى أظفر بها. وقد طلبت يدها من والدها كثيرًا، ولكن دون جدوى. فلم يكن أمامي أي حل آخر سوى ما فعلته الآن. فسلموها لي، وسأعود إلى حيث أتيت، وأترككم في سلام.

وهكذا أجبر"تشيموني" الرودسيين على تسليم "إيفيجينيا"؛ فلما رأها تبكي قال:

- لا تبكي، ياسيدتي الجميلة، فأنا "تشيموني" الذي يعشقك عشقًا جمًّا، وحبه الشديد لكِ يؤهله لأن يكون جديرًا بكِ، وليس هذا المدعو "بازيموندا"، الذي يريد أن يتزوجك من أجل صفقةٍ ما.

ثم أخذها معه إلى سفينته، وسمح للباقين بالذهاب دون أن يأخذ منهم شيئًا. فرح "تشيموني" بما حدث كثيرًا، وكان يشعر بنشوة وفرحة فوزه بتلك الجوهرة الثمينة. وحاول تهدئة الفتاة، لكن محاولاته باءت بالفشل. فكر "تشيموني" ورفاقه في أنه من غير الملائم الذهاب إلى قبرص، وأن الأفضل لهم هو الذهاب إلى جزيرة "كريت"، حتى لا يتمكن أحد من ملاحقتهم، وحتى يكونوا بأمان مع "إيفيجينيا"؛ فلهم هناك العديد من الأقرباء الكبير منهم والصغير، وكذلك الأصدقاء، وبالأخص "تشيموني". وبالفعل، توجهوا بسفينتهم إلى هناك، لكن الرياح أتت بما لا تشتهي السفن. فسرعان ما تحول فرح "تشيموني" إلى حزن، فلم يمض كثير من الوقت إلا وقد هبت عاصفة في أول الليل (ذلك الليل الذي كان ينتظره "تشيموني" بلهفة لم يعرفها أحدٌ من قبل). غطت تلك العاصفة السماء بالسحب والرياح العاتية، ولم

يستطع عمل أي فعل حيالها، ولا حتى الصعود على ظهر السفينة لمحاولة النجاة. وشعر "تشيموني" أن إرادة السماء أعطته أمنيته ليشعر بمرارة فقدان حياته، بعد أن أحس بحلاوتها وقيمتها، بعد أن كان غير مبال بها. وحزن كل من كان معه أيضًا. أما "إيفيجينيا"، فقد كانت منهارة تماما؛ وكانت تبكي بألم وخوف، وترتجف مع كل موجة ترتطم بالسفينة. وكانت تلعن اليوم الذي أحبها فيه، وتجرؤه عليها إلى هذا الحد، جازمةً بأن القدر هو ما تسبب في هذه العاصفة ليمنع زواجه منها رغمًا عنها، وأنه لن يستطيع الاقتراب منها إلا وهي جثة هامدة. وظلت على هذا الحالة، ولم يكن بمقدور البحارة فعل أي شيء. ولم يستطيعوا تحديد مكانهم، ولا وجهة إبحارهم. واستمر هذا الوضع إلى أن اقتربوا من "رودس"، وهم لا يشعرون. وما إن رأوا اليابسة حتى سعوا في محاولة الاقتراب منها، بغية النجاة بحياتهم. وبدون تفكير، اقتربوا منها قدر ما استطاعوا. وبالفعل، ساعدهم الحظ في الوصول إلى الخليج هناك، لكن سفينة الرودسيين، التي سمح لها "تشيموني" بالانصراف اليوم السابق، كانت ترسو على الشاطئ بالقرب منهم، ولم يشعروا بذلك إلا عند بزوغ الفجر، وتحسن حالة الجو. خشي "تشيموني" أن يفعلوا معه كما فعل معهم بالأمس فأمر رفاقه أن يخرجوا من هناك نحو أي اتجاه آخر، فلن يكون هناك مكان أسوأ من المكان الذي هم فيه الآن، لكن بلا جدوى؛ لأن الرياح كانت تدفعهم دومًا في الاتجاه المعاكس، ودفعتهم إلى البر. وبالفعل، عرفهم البحارة الرودسين الذين كانوا قد نزلوا من سفينتهم إلى الشاطئ، وسارعوا إلى إخبار الشبان الرودسيين النبلاء، الذين كانوا قد ذهبوا إلى قرية مجاورة للشاطئ، بأن القدر قد دفع بسفينة "تشيموني" و"إيفيجينيا"

إلى هنا. ففرحوا عند سماع ذلك، وذهبوا في جمع كبير إلى الشاطئ، ووجدوا هناك "تشيموني" ورفاقه، وكانوا قد نزلوا من السفينة إلى الشاطئ، فطلب "تشيموني" من رفاقه الهرب في أي غابة قريبة، ولكن تم إلقاء القبض عليهم جميعًا؛ ومعهم "إيفيجينيا"، وقيدوهم وذهبوا بهم إلى القرية. وقد وصل الخبر إلى "بازيموندا"، الذي أوكل الأمر برمته إلى القضاء، ورفع دعوى. وجاء مفوض الشرطة، المدعو "ليزيماكو"على إثر ذلك، ومعه حشد من القوات، واقتادوا "تشيموني" ومَن معه إلى السجن، وأطلق سراح "إيفيجينيا". وهكذا انقلب الأمر تمامًا، وهكذا فقد "تشيموني" حبيبته من جديد، قبل أن تتم فرحته بها ولم يظفر منها سوى بقبلة واحدة. واستقبلت السيدات النبيلات "إيفيجينيا"، وحاولن مواساتها عما عانته في هذا اليوم من مرارة الخطف وما لاقته من البحر الهائج، وقمن على رعايتها إلى أن يجيئ موعد زفافها.

وحاول "بازيموندا" جاهدًا استصدار حكم بإعدام "تشيموني"، لكنه لم يتمكن من ذلك، لأنهم كانوا قد أطلقوا سراح الرودسيين، عندما هاجموا سفينتهم، وعاملوهم برحمة. فعوملوا برأفة وحكم عليه بالسجن المؤبد هو ورفاقه. ومع ذلك، فقد عانوا بشدة داخل السجن ولم يكن لديهم أي أمل في الخلاص.

وحاول "بازيموندا" الانتهاء بسرعة من استعدادات الزواج. لكن الحظ ابتسم لـ"تشيموني" وكأنه ندم على ما ألحقه به من ألم ؛ فقد حدث أمر في صالحه؛ إذ كان لـ"بازيموندا" أخ أصغر يدعي "أورميسدا"، وكان يريد الزواج من فتاة في المدينة اسمها "كاساندرا"؛ لكن كان هناك شرطي يُدعى "ليزيماكو" يحبها أيضًا بشدة، ويحاول تعطيل هذا الزواج. وفكر "بازيموندا"

في أن يكون زفاف أخيه في نفس يوم زفافه، توفيرًا للنفقات. وتم الاتفاق على ذلك، وتحدد بالفعل يوم العرس. ولما علم "ليزيماكو" بالأمر، حزن وتألم بشدة، فهكذا يتبدد أمله في الزواج من "كاسَّاندرا". وفكر في عمل شيء يحول دون إتمام هذا الزواج؛ ومن الأفكار التي راودته خطف "كاسَّاندرا"، لكنه تراجع- في البداية- عن ذلك خوفًا على سمعته. إلا أنه- بعد تفكير طويل وعميق- تغلب حبه لـ"كاسّاندرا" على خوفه على سمعته ومنصبه كرئيس للشرطه، وقرر خطفها، غير مبالٍ بما قد يحدث له. وأخذ يفكر في طريقة مناسبة لفعل ذلك؛ فتذكر "تشيموني" ورفاقه المسجونين في قبضته، وأنهم أفضل من يساعده في هذا الأمر.

وفي اليوم التالي، أحضر "تشيموني" سرًا إليه، وبدأ يتحدث معه في ذلك الأمر على النحو التالي:

- إذا كان الرب كريمًا ومتسامحًا، يا"تشيموني"، في إعطائه الكثير من الخيرات والعطايا للبشر، فهو أعلم بما في داخلهم من قدرات ومزايا. فالرب يعلم أكثر مما نعرف عن أنفسنا بكثير. وعلى الرغم من الثراء الذي عشت فيه عند والدك، فإن حبك وحده هو مَا حولك إلى إنسان آخر يفهم ويميز بعقله، بعد ما كنت عليه من اللامبالاة والتبلد، كما سمعت عنك. وبعد ذلك، تعرضت لسوء الحظ، وسُجنت هنا بعد ماعانيت. ومن الممكن أن يكون هذا اختبارًا لك من الرب، لمعرفة مدى عزمك وصبرك وتحملك للمحن، بعد أن فزت بحبيبتك وفرحت بها، ثم خسرتها من جديد، لتتأكد من عزمك، لترضى عنك وتعطيك ما تحلم به؛ لكن يجب عليك إثبات شجاعتك وعزيمتك؛ فأنت تعلم مدى السعادة التي يعيشها عدوك، وهو

كذلك يسعى للحكم عليك بالموت، ويسرع في تدابير الزواج من حبيبتك الجميلة "إيفيجينيا"، بعدما ظفرت بها ثم أخذها منك. فكم كان ذلك قاسيًا على قلبك الذي يعشقها. إنني أشعر بما تشعر به، فقد عانيت مما عانيت منه؛ فأخوه "أورميسدا" يريد الزواج من حبيبتي "كاسَّاندرا"، التي تمثل لي الحياة نفسها. وعلينا تغيير هذا الواقع الأليم، والتمسك بقوتنا وعزيمتنا، والاستعانة بأصدقائنا، وكل من يقدر على تقديم يد العون والمساعدة لنا، وأخذ حقنا بالقوة، وكل منا ينال مراده بتعاوننا معًا (فالحرية بدون الحبيب لا فائدة منها)، والأمر الآن بيدك، فهل ستكون معي في هذه المهمة.

ألهبت هذه الكلمات حماس "تشيموني"، فأجاب بعزيمة قوية:

– لن تجد يا "ليزيماكو" رفيقًا يقف بجانبك، ويكون أشد وفاء وتصميمًا، مثلي في هذا الأمر. فما الذي تريدني أن أفعل، وما هي خطتك للأمر، وسوف أفعل كل ما في وسعي بكل عزيمة ومثابرة.

فقال له "ليزيماكو":

– بعد مرور ثلاثة أيام، سنكون على لقاء مع موعد حفل الزفاف. وفي نهايه هذا اليوم، ستذهب أنت مع أصدقائك، وسأذهب أنا مع بعض ممن أثق فيهم، وسنقتحم المكان أثناء الحفل. وسنأخذ الفتاتين إلى سفينة جهزتها في الخفاء بعيدًا عن الأعين. ونهرب من هنا، ونوقف كل من يقترب منا بالقوة، حتى لو وصل الأمر إلى حد القتل.

نالت الخطة استحسان "تشيموني"، وظل كاتمًا في نفسه هذه الخطة حتى الموعد المحدد لها.

وفي يوم الزفاف، وكان هناك الكثير من الاحتفالات في كل مكان في

المدينة، جهز "ليزيماكو" للأمر، وتقابل مع "تشيموني" ورفاقه، وهم يخبئون الأسلحة في ملابسهم. وحانت اللحظة الحاسمة. وضع "ليزيماكو" الخطة، وشجعهم، وانقسموا إلى ثلاث فرق، واحدة عند المرسى لتأمين طريق الخروج، وانطلقت الفرقتان الأخريان إلى بيت "بازيموندا"؛ فأبقى إحداهما عند الباب الخارجي، حتى لا يستطيع أحد محاصرتهم في البيت، وصعد "تشيموني" ومَن معه إلى الطابق العلوي، ودخلوا القاعة التي يتواجد الكثير من النساء، ومعهم العروسان؛ وكانوا يستعدون لتناول الطعام، فاندفع "ليزيماكو" و"تشيموني"، وأخذ كل منهما حبيبته، وقلبوا المكان رأسًا على عقب، ثم توجها إلى السفينة التي تنتظرهم وسط بكاء وصراخ النساء والخدم. ولم يحاول أحد منعهم خوفًا من سيوفهم. وانطلقوا. فاذا بـ"باسموندداس" يسمع صوت صراخ، فأقبل بسرعة ومعه هراوة غليظة. فضربه "تشيموني" بسيفه، فقضى عليه في الحال؛ وحاول "أورميسدا" مقاومتهما، ولكنه لحق بأخيه. ووقف رفاق "تشيموني" يمنعون كل مَن يحاول الاقتراب. فجرحوا مَن جرحوا، وأجبروا الآخرين على التراجع للخلف، وغادر "تشيموني" و"ليزيماكو" ورفاقهما البيت، بعد أن تحول الفرح إلى مأتم، وسط الصراخ والعويل. وذهبوا إلى السفينة بسرعة، وتبعهم الكثيرون لإنقاذ الفتاتين، لكن السفينة انطلقت بسرعة كبيرة وابتعدت عنهم، ولم يتمكن أحدٌ من اللحاق بهم. توجهوا جميعًا إلى "كريت"، واستقبلهم هناك بعض الأصدقاء والأقارب، وتزوج "تشيموني" من حبيبته، وكذلك "ليزيماكو" من حبيبته في حفل كبير، وظفر كل منهما ببغيته.

وقد تسبب هذا الأمر في نزاعات بين الجزيرتين، قبرص وردوس، حتى

تدخل البعض للصلح بينهما. وبعدها، عاد "تشيموني"- بمساعدة أقاربه- مع "إيفيجينيا" إلى بلدهما قبرص؛ وبعدها عاد أيضًا "ليزيماكو" مع "كاسّاندرا" إلى "رودس". وعاشوا حياة طويلة، تغمرها البهجة والفرحة، لحصولهما على ما تمنيا بعد تلك المعاناة.

القصــة الثَّـــانية

تقع "كوستانزا" في حب "مارتشيو جومينو"، وتسمع أنه توفي، فتذهب- وهي في قمة اليأس والأسى- إلى سفينة متجهة إلى "سوسة" التونسية، بدون وجهة ولا هدف؛ وهناك كانت المفاجأة الكبرى، فقد وجدت حبيبها حيًّا، وقد صار من أثرياء القوم وعليتهم، وعادا سويًّا إلى "ليباري"[29].

حين رأت الملكة أن قصة "بانفيلوا" انتهت، وبعد أن أثنت عليها، طلبت من "إيميليا" أن تُكمل. فقالت التالي: يجب علينا أن نفرح عندما نحقق أحلامنا. فالحب هو أجمل ما يحدث لنا؛ فهو السعادة. وأنا أحس بفرحة وبهجة عندما أتحدث في هذا الأمر، في انصياع تام لملكتنا، أكثر من الأمس.

سيداتي الرقيقات، لابد أنكن قد سمعتن عن جزيرة تقع بالقرب من صقلية، تسمى "ليباري". هناك، كانت تعيش فتاة في غاية الجمال اسمها "كوستانزا"، وكانت تنتمي لإحدى الأسر الثرية. وقد وقع في حبها شاب اسمه

[29] أكبر الجزر الإيولية في البحر التيراني، قبالة الساحل الشمالي لجزيرة صقلية، وتحمل اسم المدينة الرئيسية في الجزيرة.

"مارتوشو جوميتو"، الذي كان يتمتع بالكثير من السمات والصفات الحسنة. وكانت "كوستانزا" تبادله نفس الشعور؛ فكان أهم شخص عندها، ولا ترغب في أحد سواه. ذهب "مارتشيو" ليطلب يدها من والدها، لكنه رفضه لعوزه وحاجته، وهو ما لا يتناسب مع أسرتهم الثرية. أحس "مارتشيو" بالأسى والحزن لرفضه، فسافر مع أصدقائه على متن سفينة، وقرر عدم العودة ما لم يصبح غنيًّا. وانطلق من هناك، وشرع في أعمال القرصنة ناحية بلاد البربر، فكان يسطو على السفن المبحرة هناك. وقد استطاع جمع الكثير من الأموال، لكنه لم يتوقف، ولم يكتفِ هو ومن معه بكل ما حصلوا عليه. ودفعهم الطمع إلى أن يتوقوا إلى ما هو أكثر وأكثر.

وذات يوم التقوا بسفن للمسلمين، ودارت بينهم معركة ضارية، هُزم في نهايتها، وأُخذ أسيرًا، واقتادوه إلى تونس، ووضعوه في السجن، وبقي هناك لمدة طويلة في الأسر والمعاناة. وفي ذلك الوقت، وصل الخبر إلى "ليباري". وكانت هناك الكثير من الحكايات والأقاويل، من بينها مثلًا أن "مارتشيو" ومن معه قد غرقوا في غياهب البحر. أما "كوستانزا"، فقد شعرت بالحزن الشديد والألم لفقدها حبيبها، وظلت تبكي مرارًا لما وصلها هذا الخبر المشؤوم، بل-الأكثر من ذلك- أنها فكرت في الانتحار، وفكرت في طريقة للتخلص من حياتها بدون ألم أو معاناة أو عنف. ففكرت في طريقه غريبة، وربما قادها القدر إلى ذلك.

ففي الليل، تركت البيت خلسة، وذهبت إلى الميناء؛ فوجدت مركب صيد بعيد، فركبت فيه، وقامت بالتجديف إلى عمق البحر؛ فهي تعرف مبادئ الملاحة كحال كل سكان الجزر. ورفعت الشراع، وألقت بالمجذاف في الماء،

وتركت نفسها للرياح، وحالها حال الراغب في التخلص من حياته. وهكذا، ستموت؛ فإما أن تنقلب المركب أو تصطدم بالصخور. وبالتالي، فستموت حتى لو أرادت النجاة. غطت وجهها بمنديل، وراحت في نوبة بكاء مريرة في قاع المركب. والحقيقة، أن ما حدث غير ما توقعت؛ فقد ذهبت بها رياح خفيفة إلى مكان لم تتخيله بعد يوم من ركوبها. وعلى بعد مئة ميل، وصلت بها إلى شاطىء مدينة تدعي "سوسة". وكانت نائمة عندما وصلت إلى الشاطئ. ورأتها هناك امرأة، والمركب تقترب من اليابسة، فتعجبت لما رأت المركب يرتطم باليابسة وشراعه مرفوع. واعتقدت أن الصيادين ناموا بداخله، فصعدت على المركب، لكنها وجدت الفتاة فيه وحيدة، وكانت مستغرقة في النوم. حاولت إيقاظها، وقد شعرت من ملابسها أنها مسيحية، فحدثتها باللغة اللاتينية لتسألها كيف ساقتها الأقدار إلي هذا المكان. ولما سمعتها الفتاة تكلمها باللاتينية، فكرت أن الرياح أعادتها إلى "ليباري". لكنها لما نظرت حولها، لم تتعرف على أي شيء أمامها، وهي على الشاطئ. فسألت المرأة أين نحن، فأجابتها:

– أيتها الفتاة، أنت الآن قرب "سوسة" ... في بلاد البربر.

حزنت الفتاة لما سمعت ذلك. فلم يشأ الرب موتها. وشعرت بالخوف، وشرعت في البكاء، دون أن تشعر؛ وهي لا تعرف ماذا تفعل بجانب المركب. فحاولت السيدة مواساتها، وطلبت منها أن تأتي معها، ولم تجد سوى هذا الحل فقبلت. وذهبت معها إلى بيتها الصغير، وحكت للسيدة الطيبة قصتها، وما حدث لها، وكيف انتهى بها الحال إلى هذا المقام. وقدمت لها الطعام والماء، وطلبت منها أن تأكل أي شيء. سألتها "كوستانزا" كيف تتحدث

اللاتينية، فقالت لها إنها من "تراباني"[30]، وإن اسمها "كارابريسا"، وإنها تعمل هنا في خدمة مجموعة من الصيادين المسيحيين. عندئذ شعرت بالراحة، والطمأنينة. كانت تلك المرأة تحاول مساعدتها، وتقديم النصح لها، لتخطي ما أصابها من ضيق. فكرت في طريقة لمساعدتها؛ فتركتها في البيت، وذهبت إلي العمل، وجمعت شباكها، ورجعت مسرعة، وخبأتها بعباءتها، وذهبا سويًا إلى قلب "سوسة"، وقالت لها:

- سنذهب إلى بيت امرأة مسلمة صالحة، كثيرًا ما أعمل معها، وهي طاعنة في السن، وطيبة القلب. سأطلب منها أن تبقي عندها، وأنا متأكدة أنها ستكرمك، وتعاملك بلطف، فقومي على خدمتها إلى أن نجد مخرجًا.

وهذا ما حدث بالفعل. فقد قبلتها السيدة العجوز لتعمل لديها، واصطحبتها إلى بيتها، حيث كانت تعيش مع بعض النساء الأخريات، ويعملن في الأشغال اليدوية، كصناعة الحرير، وسعف النخيل والجلود. تعلمت الفتاة هذه الأعمال بسرعة، وأصبحت محبوبة من النساء اللاتي تعيش معهن، وساعدوها في تعلم لغتهم.

اعتقد أهل "كوستانزا" أنها غرقت في البحر، بعد أن بحثوا عنها مرارًا وتكرارًا طيلة الفترة الماضية. وكان هناك ملك عربي لتونس، يدعي الأمير عبدالله. فادعى شخص من نبلاء غرناطة أنه يريد الاستيلاء على تونس وأخذها بالقوة، وحشد الكثيرين لذلك الأمر وليبسط سيطرته عليها. وسمع "مارتشيو"- وهو في السجن- عن هذا الأمر، فقد تعلم لغتهم. قطعًا. ولسوف

[30] مدينة إيطالية على الساحل الغربي في صقلية، وعاصمة مقاطعة "تراباني".

يفعل ملك تونس كل شيء لردعهم والدفاع عن ملكه. وفكر في أن يتحدث مع الملك، ويعطيه بعض النصائح للفوز في المعركة. وقال ذلك بصوتٍ عالٍ ليسمع الحراس. وبالفعل سمع أحدهم كلامه، وأخبر قائده الذي أوصله إلى الملك، فأمرهم الملك بإحضاره، وتحدث معه، وسأله ما هي خطتك للفوز بالمعركة، فرد عليه قائلًا:

- خلال فترة وجودي هنا رأيت أنكم تعتمدون على الرماة في المعركة اعتمادًا كبيرًا، فإذا كانت لدينا سهام كثيرة تفوق ما لديهم، وجعلناهم يستنفدوا سهامهم في بداية المعركة، فسوف نكسب الحرب بالتأكيد، لتفوقنا عليهم في كثرة السهام التي لدينا، ونفاد سهامهم.

- استحسن الملك هذا الاقتراح، ووافقه عليه، وأضاف، يمكننا الفوز بالفعل إذا حدث ذلك، ولكن كيف يكون السبيل إلى هذا الأمر؟

- سيدي، لديَّ خطة يمكنني تنفيذها لنيل المراد وتحقيق النصر. هذه الفكرة تنطوي على القيام بتصنيع كميات كبيرة من السهام الرفيعة، التي لا يمكن استخدامها إلا مرة واحدة. وهكذا يمكننا استخدامها نحن، وهم لا يتمكنون من جمعها في اليوم التالي واستخدامها. أما نحن، فيمكننا إعادة استخدام سهامهم مرة أخرى؛ وبالتالي يكون لدينا من السهام أكثر بكثير مما لديهم.

أعجب الملك بالفكرة، فقد كان رجلًا حكيمًا، وعمل بالنصيحة، وكسب الحرب بالفعل، وعفا عن "مارتشيو"، وجعله من المقربين منه، وأغدق عليه الكثير من الأموال. انتشرت الأخبار في جميع البلدان، وسمعتها "كوستانزا"، وعرفت أن "مارتشيو جومينو" حي، لم يمت. وبعد مضي هذا

الوقت الطويل من الحزن لفراقه، دق الفرح باب قلبها من جديد، وشعرت بقوة عجيبة تملأها، واستيقظت آمال الحب في قلبها من جديد. وأخبرت السيدة الطيبة بالأمر كله، وطلبت مساعدتها في الذهاب إليه لتراه بأم عينها، وتسمع صوته بأذنها. كانت في غاية الشوق والتلهف للقائه.

فرحت العجوز لفرحها، كما لو أنها ابنتها، وذهبت معها إلى تونس، ومكثا عند قريبة لها، وحاولتا معرفة أخباره. وبعدها، ذهبت السيدة لمقابلته، وقالت له:

- قدم شخص من "ليباري" إليك، سيدي "مارتشيو"، ويريد التحدث معك على انفراد؛ لعدم وثوقه في الآخرين. وقد طلب مني أن أخبرك بذلك.

تعجب "مارتشيو"، وتساءل عمن يكون هذا الشخص الذي يريد التحدث معه؟ وما هذا الأمر الذي يريد أن يحدثه فيه علي انفراد. لكنه قرر الذهاب معها. وعندما رأته "كوستانزا" لم تتمالك نفسها، وشعرت أنها تطير من شدة الفرح. وبدون تفكير، ركضت نحوه وعانقته دون أن تنطق بحرف واحد، وبكت لما تكبدته من عناء في بحثها عن حبيبها، وقرارها التخلص من حياتها، وكيف انتهي بها الأمر في بيت السيدة العجوز الحنون، التي تعمل علي خدمتها. كل ذلك كان يدور في عقلها وقلبها، فترجمته عيناها بالبكاء في أحضان حبيبها. أما "مارتشيو"، فلم يصدق عينيه، وكأنه يحلم، لكنه سرعان ما تأكد أنها حقيقة، ثم قال لها:

- ياه، ياحبيبتي الغالية! أما تزالين على قيد الحياة؟ لقد ظننت أنكِ فارقت الدنيا، ولم يسمع أحدٌ عنك خبرًا منذ زمن. قال ذلك وهو حزين، ثم عانقها وقبلها. وحكت له ما حدث لها، وما قدمته لها تلك السيدة العطوفة

الحنون، التي أقامت عندها من عون ومساعدة. وأخذها معه لمقابلة الملك، وأخبره بالقصة كلها، وأنه يريد الزواج منها.

قبل الملك الأمر ووافق علي طلبه، وقام بعقد قرانهما، وأنعم عليهما بالكثير من العطايا، وتركهما يفعلان ما يريدان. وقد أكرم "مارتشيو" السيدة الفاضلة التي عاشت عندها "كوستانزا". وبعد ذلك، ذهبا إلى "ليباري". وتم استقبالهما بحفاوة وسعادة غامرة، وأقيم لهما عُرس في غاية الجمال، وعاشا معًا في سعادة وحب.

القصـة الثَّالثـة

يهرب "بيترو بوكامازا" مع "أنوليلا". وفي أحد الأيام خلال هروبهما، هجم عليهما اللصوص لسرقتهما؛ فتفر "أنوليلا" ناحية الغابة إلى أن تصل إلى قلعة هناك. أما حبيبها فيأخذه اللصوص، ثم يهرب منهم. وبعد أحداث كثيرة مثيرة، يصل هو الآخر إلى القلعة، ويجد "أنوليلا"، ويتزوجان، ويرجعان سويًّا إلى روما.

بعد أن أثني الجميع على قصة "إيميليا"، نظرت الملكة إلى "إليزا" وطلبت منها أن تُكمل؛ فبدأت بالحديث قائلة: أذكرَ يا سيداتي الفضليات، ليلة حزينة عاشها شابان مندفعان. وبعد تلك الليلة الحزينة، عاشا أيامًا سعيدة، وهو ما أراه مناسبًا لموضوعاتنا هذه الليلة. ولهذا سأروي لكم هذه الرواية.

روما، القابعة في ذيل قائمة العالم في العصر الحالي، بعد أن كانت تحتل مصافه في السابق، كان يقطنها شاب في مقتبل العمر، يقال له "بوكامازا"، ينحدر من أصول رومية رفيعة، ذات صيت وشهرة. أحب فتاة اسمها "أنوليلا"، ابنة رجل فقير يُدعي "جوليوزو صاولو"؛ وكان الناس يحبونه لحسن أخلاقه، ويعتبرونه صديقًا لهم. وظل يلاحق الفتاة، حتى أعجبت به ووقعت في حبه. ومن شدة حبه لها، فكر في الزواج منها؛ غير أن أهله لم يوافقوا على

هذا القرار، وذهبوا إلى والد الفتاة، وأخبروه بضرورة ألا يوافق على هذه الزيجة، وإلا فسيحدث ما لا يُحمد عقباه.

لما أحس "بيترو" أنه لا أمل، شعر بحزن عميق وألم شديد. وتعجب بشدة من رفضه، وتساءل مندهشًا: لمَ الرفض؟ فلو أن والد الفتاة وافق على زواجه منها، لتزوجها وأصبحا أسعد البشر. فقرر أنه لن يستسلم وتحدى الجميع، وفكر في الهروب. وبعد مشورتها وموافقتها علي هذه الفكرة، دبرا للأمر معًا، وركبا حصانين، وانطلقا بهما إلى "ألانيا"[31]، حيث كان لـ"بيترو" أصدقاء هناك. وانطلقا بدون توقف، ولم يحدث شيء بينهما سوى بعض القبلات بين الحين والآخر. والحقيقة أن "بيترو" سلك الطريق الخاطئ؛ فبعد ثمانية أميال من روما، اتجه إلى اليمين بدلًا من اليسار؛ فلم يكن يعرف كيف يصل إلى وجهته الصحيحة. ثم وجدا قلعة تقبع على مسافة ميلين آخرين، وفوجئ بخروج بعض اللصوص منها، وشاهدتهم الفتاة فصاحت قائلة:

- هيا نهرب بسرعة، سيهاجموننا.

أدارت حصانها بسرعة ناحية الغابة الكثيفة، لكن "بيترو" كان منشغلًا بالتودد إلى حبيبته، والنظر إليها ولم ينتبه إلى الطريق. ولما بدأ في التنبه لهم كان الأوان قد فات؛ فأنزلوه من على حصانه، وسألوه مَن يكون، وما الذي أتى به إلى هنا، فأجابهم. ثم تحدث اللصوص فيما بينهم، فقالوا:

---

[31] مدينة إيطالية، اسمها بالكامل "ألانيا فالسيفيا"، تتبع محافظة "فرشيللي"، وتتميز بجمال جبالها، وهي مدينة سياحية من الطراز الأول.

- هيا نسلبه ونسرق كل ما معه من ثياب وحصان وأمتعة، فهو صديق عدونا، ثم نعلقه على إحدى الأشجار ونتركه لنلقن أصدقائه درسًا لا يُنسى؟

وبالفعل، شرعوا في تنفيذ ذلك، وأجبروه على خلع ملابسه استعدادًا لتلقي مصيره الذي قرروه. لكن حدثت المفاجأة. فإذا بجماعة أخرى من المسلحين أكبر منهم تهاجمهم، ويصيحون:

- الموت ... الموت!

فأسرعوا للدفاع عن أنفسهم. ولما وجدوا أنهم أكثر منهم عددًا وعدة، فروا هاربين من أمامهم. أما الآخرون فانطلقوا وراءهم. واستطاع "بيترو" جمع متعلقاته، وركوب فرسه، وذهب مسرعًا نحو الاتجاه الذي سلكته "أنوليلا". لم يجد لها أثرًا يمكن أن يتتبعه، فشعر بضيق وحزن شديدين، وتدفقت الدموع من عينيه لما آلت إليه الأحداث. ظل يبحث عنها في كل اتجاه، وينادي عليها لعلها تسمعه، لكن بلا فائدة. شعر بالخوف من أن يهاجم حبيبته دُب أو أحد الوحوش الموجودة في الغابة. وظل سوء الحظ يلاحقه طوال اليوم، وهو على حاله، أحيانًا يذهب في هذا الاتجاه، وأحيانًا إلى الاتجاه الآخر. وظل على هذا الحال إلى أن أصابه التعب والجوع، ولم يعد يقدر على المواصلة.

بدأ ضوء النهار يتلاشى رويدًا رويدًا، ولم يجد أمامه سوى شجرة سنديان كبيرة؛ فربط حصانه وتسلقها ليحتمي فوقها من الحيوانات المفترسة. ثم شرع ضوء القمر في البزوغ. وظل مستيقظًا خائفًا حزينًا طوال الليل، يفكر في حبيبته، قلقًا عليها، نادبًا حظهما البائس.

أما هي، فكانت لا تدري في أي طريق تمضي. وظل الحصان يمشي بها في

الغابة إلى أن انقضي النهار على هذا الوضع. ومثلها مثل حبيبها ظلت تبكي، وكانت تنادي عليه لعله يجيبها. ولما أن حلَّ الليل، وجدت طريقًا طويلًا وضيقًا، فسلكته، وبعد ميلين تقريبًا رأت منزلًا، فذهبت ناحيته، فوجدت رجلا متقدمًا في العمر معه زوجته، وعندما رأياها تعجبا، وقالا:

– ما الذي أتي بك إلى هنا في هذه الساعة المتأخرة من الليل، أيتها الفتاة؟

فأجابتهما، وهي تبكي، أنها فقدت مَن معها في الغابة. وسألتهما كم تبعد "ألانيا". فقال لها الرجل العجوز:

– هذا الطريق لا يؤدي إلى هناك؛ وأنها تبعد أكثر من اثني عشر ميلًا.

فسألتهما الفتاة عن مكان للمبيت؟ فأجابها الرجل طيب القلب:

– في الحقيقة أقرب فندق من هنا لن تصلي إليه قبل الصباح.

فطلبت منهما البقاء عندهما، فكان الرد:

– يسعدنا ذلك، وبكل ترحاب يمكنك البقاء هنا. وعليك توخي الحذر؛ فهنا العديد من الأشخاص الذين يسطون على البيوت؛ وقد يأتون في أي وقت، والمكان هنا ليس آمنًا لك، وقد لا نقدر على حمايتك.

خافت الفتاة، لكنها وجدت أن الوقت قد تأخر، ففكرت أن البقاء أفضل– على أية حال– في مثل هذه الظروف، وقالت:

– بمشيئة الرب، سنسلم جميعًا من الأذى. وإن حدث مكروه فالأسر أفضل من أن تأكلني الوحوش.

نزلت من على حصانها، ودخلت معهم البيت، وقدما لها عشاءً بسيطًا نظرًا لفقرهما. نامت بالقرب منهما، وهي ترتدي ملابسها كاملة. وظلت طيلة الليل تفكر في "بيترو"، وما الذي يمكن أن يكون قد حدث له.

وفي الفجر، سمعت أصوات أشخاص قادمين، فهربت خلف البيت، واختبأت في العشب الجاف. ولما وصلت العصابة للبيت، ورأوا الحصان وعليه سرج، سألوا العجوزين عمن جاء إلى هنا، وأين هو، فقالا:

- لا يوجد سوانا هنا. وقد وجدنا هذا الحصان وحده، لعله هرب من أحد، فأدخلناه للبيت.

فقال زعيمهم:

- إذن، فسنأخذه، بما أنه لا صاحب له حقًّا.

بحثوا في كل مكان بالمنزل، وأخذوا ما لديهما من طعام وشراب، وذهب واحد منهم إلى الفناء الخلفي، وأخذ يغرس رمحه في القش الذي كانت تختبئ فيه الفتاة، وكاد أن يجرح صدرها، وكادت أن تصرخ؛ لكنها تمالكت نفسها وكتمت صوتها من شدة الخوف؛ وبعد أن أخذوا ما يريدون، ومعهم حصان الفتاة، تركوا المنزل ورحلوا. وبعد أن ابتعدوا كثيرًا. سأل الرجل زوجته:

- أين الفتاة التي كانت هنا، فلم أجدها في الصباح؟

أجابته زوجته قائلة:

- لا أعرف.

فكر الرجل وزوجته، تُرى أين ذهبت تلك الفتاة. ولما شعرت الفتاة أن أفراد العصابة قد رحلوا، خرجت من مخبئها. وسعد العجوزان لرؤيتها بخير، وكانت الشمس قد أشرقت، فقالا لها:

- يمكننا أن نخبئك الآن في قلعة قريبة من هنا، على بعد خمسة أميال، حتى تكوني بأمان. لكننا سنمضي سيرًا على الأقدام؛ فقد أخذوا الحصان.

وبالفعل، ذهبوا إلى هناك. كانت القلعة ملكًا لشخص من عائلة

"أورسيني"، يُقال له "ليلو دي كامبو دي فيوري". وكانت تعيش فيها زوجته، وهي سيدة صالحة. ولما رأت الفتاة عرفتها في الحال، واهتمت بها، وأخبرتها الفتاة بما حدث معها ومع "بيترو"؛ فهو صديق لزوجها. وعندما علمت أين تم أسره، ظنت أنه قد مات أو قُتل. وأخبرت الفتاة أن أفضل حل أن تبقى هنا معها حتى تتدبر عودتها بسلام.

أما "بيترو"، فأثناء وجوده فوق الشجرة، إذا بقطيع من الذئاب يتقدم ويهجم على الحصان. حاول الحصان الدفاع عن نفسه، لكن الذئاب تغلبت عليه في النهاية، ومزقته وأكلت لحمه، ولم تترك غير عظامه. كان "بيترو" مرعوبًا فوق الشجرة، وشعر بالحزن والأسى لفقدان الحصان. وشعر أنها ساعاته الأخيرة، ولا أمل في النجاة. وعندما أقبل النهار، كان يشعر بالبرد؛ ورأي نارًا من بعيد، فنزل من فوق الشجرة، واتجه نحو النار، خائفًا مرتعدًا. فرأى بعض الرعاة يتسلون ويأكلون. ولما رأوا حالته أشفقوا عليه. وأجلسوه أمام النار وأعطوه طعامًا، وبعدها حكى لهم مشكلته، وكيف صار به الأمر إلى هنا. وسألهم عن أقرب مكان يمكنه الذهاب إليه، فأخبروه أن هناك قلعة على بعد ثلاثة أميال، يملكها "ليلو دي كامبو دي فيوري". فرح "بيترو" لما سمع ذلك، وطلب مساعدتهم في الوصول إلى هناك. وبالفعل أوصلوه، فوجد هناك شخصًا يعرفه، ورأي أن يساعده للبحث في الغابة عن الفتاة؛ لكن السيدة زوجة "ليلو" أرسلت إليه فذهب إليها، وقد شعر بفرحة بالغة لا توصف لما رأي "أنوليلا" عندها. وأراد أن يحتضنها، لكنه شعر بالخجل من السيدة، وهي كذلك كانت في غاية السعادة والسرور.

قابلته السيدة النبيلة باهتمام، وسمعت منه ما جرى، ووبخته على تصرفه

الذي أوقعهما في المتاعب، ثم قررت مساعدتهما لما رأت حبهما الطاهر والنبيل. وشعرت أن الرب أنقذهما، ويجب عليها إقناع أهلهما بزواجهما. وقالت لهما:

- إن كنتما تريدان الزواج؛ فإني سأساعدكما على ذلك؛ وسأقيم حفل الزفاف هنا، وسأتولى أمر مصالحتكما مع أهلكما.

كانت سعادتهما لا توصف، وتزوجا هناك. وأقامت لهم السيدة حفل زفاف كما ينبغي أن يكون حقًّا وسط تلك الجبال الشامخة. وبعد ذلك، ذهبت معهما إلى روما، ثم صالحتهما على أسرتيهما. وظلا يعيشان في حب وسعادة حتى آخر العمر.

القصة الرَّابعة

يجد السيد "ليتسيو دا فالبوني" الفتى "ريتشاردو" يضاجع ابنته في بيته على سريرها، فلا يهدأ حتى يقبل الفتي بالزواج من ابنته، ومن ثم يتصالح مع حماه.

بعدما أنهت "إليزا" سرد قصتها، أثنت عليها السيدات بكثير من التعليقات. وأشارت الملكة إلى "فيلوستراتو" أن يكمل، فبدأ قائلًا: دائمًا ما تلومونني على روايتي لقصص حزينة، فتدمع أعينكن؛ لذا سأروي لكن قصة مضحكة هذه المرة. فسوف أتحدث اليوم عن حب تخلله بعض الخجل والإحراج والمواقف المضحكة؛ ولكنه انتهى نهاية سعيدة.

في قديم الزمان، كان هناك فارس شهم يُسمى "ليتسيو دا فالبوني" يعيش في رومانيا. أنجبت له زوجته "مادونا جياكومينا" - في خريف عمره- ابنة. عندما كبرت هذه الفتاة، وأصبحت شابة، صارت من أجمل فتيات المدينة، فكانت في غاية الجمال والرقة. ولأنها ابنتهما الوحيدة فقد اهتما بها وأحباها كثيرًا؛ لم يكن لديهم غيرها، وكم تمنيا أن تتزوج من شخص يليق بها.

وفي ذلك الوقت، كان هناك شاب يأتي إلى منزلهم، وكان حسن المظهر

وأخلاقة حسنة، اسمه "ريتشاردو"، من عائلة "ماناردي دي برتينورو". وكان الرجل وزوجته يعتبرانه مثل ابنهما. رأى الفتى الفتاة أكثر من مرة، وفي كل مرة كان يشتد إعجابا بجمالها وخلقها، لكنه لم يظهر حبه لها؛ غير أنه بدأ يتقرب منها. شعرت الفتاة بإعجابه، وأصبحت تبادله نفس الشعور. وفرح كثيرًا لما أحس بذلك. دائمًا كان يريد التحدث معها، لكنه كان يتراجع. وفي ذات مرة، كان الوقت مناسبًا للبوح بما في جعبته، والاعتراف بحبه لها، فاستجمع قواه وشجاعته، وبادأها بالحديث، قائلًا:

– أتمني يا"كاترينا" ألا تتركيني أموت من شدة عشقي لك .

فقالت له:

– بل أنا من تموت في حبك!

فرح "ريتشاردو" لجوابها، وتشجع أكثر وأكثر، وقال لها:

– سوف أفعل كل ما يسعدك لترضي عني، وتنقذي حياتنا، بالطريقة التي تستطيعها.

فأجابت الفتاة: -

– أهلي لا يتركونني أبدًا؛ فهم كما تعلم يخافون عليَّ، ولا أدري كيف أستطيع لقاءك. وإن استطعت أن تأتي دون أن تسبب لي الأذى، فأنا معك.

وبعد تفكير، قال لها:

– هناك طريقة واحدة ممكنة يا حبيبتي للقائنا. فلو تمكنتِ من النوم في الحجرة المطلة على حديقة بيتك، فيمكنني الصعود ليلًا إلى هناك، مع أن المكان مرتفع.

فردت عليه قائلة: سوف أسعي إلى تحقيق ذلك، طالما أنها رغبتك.

وأعتقد أنه يمكنني النوم في هذه الغرفة المطلة على الحديقة بحيلةٍ ما.

اتفقا على ذلك، ثم حضنها وقبلها، وانصرف. وكان اليوم التالي، أول أيام فصل الصيف. فكرت الفتاة ماذا ستفعل، ثم بدأت تشكو لأمها أنها لم تستطع النوم ليلة أمس من شدة الحرارة، فقالت لها أمها:

- أنا لم أشعر بأن الجو كان حارًا ياابنتي؟ عن ماذا تتحدثين؟

- ربما لا تشعرين به لكبر عمرك، يا أمي، لكن الشبان يشعرون في أوقات كثيرة بالحرارة، أكثر من كبار السن.

- إنكِ على حق، يا ابنتي، ولكن ليس بمقدوري عمل شيء؛ فربما تكون درجة الحرارة اليوم أقل، فتستطيعين النوم جيدًا.

ردت الفتاة:

- أتمنى أن يستجيب الرب لرجائك، غير أن الحر يشتد في الصيف، وليس العكس.

أجابت أمها: وماذا يمكنني فعله في هذه الحالة؟

- يمكن أن تسمحي لي، وتتحدثي مع أبي، بأن أنام في الغرفة المطلة على الحديقة؛ فالجو سيكون جميلًا هناك. وسأنام على صوت البلابل، وسأكون ممتنة لكِ.

استجابت الأم لطلب ابنتها، وأخبرتها بأنها سوف تتحدث إلى والدها.

لما سمع الأب رغبة ابنته لم يستحسن ما قالته ابنته وأسبابها الواهية، ورد بهذه الكلمات:

- أي بلبل تريد أن تنام "كاترينا" على تغريده؟ سوف أسمعها صوت الصراصير.

لما علمت "كاترينا" بما قال والدها، لم تنم من شدة الغيظ. وظلت تشكو لأمها الحر. وفي الصباح، حاولت الأم اقناع الأب قائلة:

– ألا تحب ابنتك؟ ما هي مشكلتك من نومها في الغرفة المطلة على الحديقة؟ إنها لم تستطع النوم ليلة أمس، وما الذي يزعجك في حبها لصوت البلابل؟

اقتنع الأب، وقال:

– حسنا، أعدوا لها سريرًا هناك، وعليه ستائر، ودعوها تسمع ما تشاء.

فرحت الفتاة جدًّا، وطلبت وضع سرير لها هناك، وأخذت الأشياء التي تريدها معها. انتظرت حتى شاهدت "ريتشاردو"، ثم أشارت له؛ ففهم أنها رتبت كل شيء. وبعد أن رأى الأب ابنته قد ذهبت إلى سريرها، أغلق الباب الذي يوصل لها، وذهب لينام هو الآخر.

ظل "ريتشاردو" منتظرًا حتى نام الجميع، وشعر بالسكون في أرجاء البيت، فتسلق الحائط الخلفي مستخدمًا سُلمًا؛ وبعد ذلك تعلق في بعض الأحجار البارزة في الجدار، وتسلقها بخطورة بالغة وعناء شديد إلى أن وصل إلى الشرفة؛ وكانت الفتاة بانتظاره يغمرها الهدوء، والفرحة. أخذا يتبادلان القبلات في شوق ولهفة وحب جارف، ودون أن يشعرا كيف وصلا إلى السرير، ناما سويًّا وكأنهما في حلم جميل، وتبادلا ممارسة الحب الجسدي في سعادة. وظلت تشعر بتغريد البلابل طوال الليل إلى أن انبلج الفجر في لمح البصر، دون أن يشعرا. كانا يغُطّان في نوم عميق، وهما عاريان تمامًا كما ولدتهما أمهما، وكانت الفتاة تحضنه وتلف ذراعها حول رقبته بيدها اليمني، وتمسك بالأخرى بما تخجلن من نطق اسمه في حضرة الرجال. استيقظ

السيد "ليتسبيو" مبكرًا، وذهب إليها؛ وفتح الباب بهدوء، وهو يفكر ويقول مازحًا:

- فلنر، هل جعلت البلابل "كاترينا" تنام أم لا؟

اقترب وأزاح الستارة التي تحيط بالسرير من كل جانب، فرآها هي و"ريتشاردو" دون شيء يسترهما. وعرف "ريتشاردو" في الحال، وذهب مسرعًا إلى زوجته، وأيقظها وهو يقول:

- هيا انهضي بسرعة، تعالي لتشاهدي ابنتك، والهواء العليل، وتغريد البلبل الذي أرادته؛ فلقد تمكنت من الحصول عليه، وأصبح معها. لقد حصلت على البلبل الذي تريده حقًّا.

قالت السيدة: وكيف حدث هذا؟

- سوف تشاهدين بعينك. هيا تعالي معي، لتري بنفسك.

قامت السيدة بسرعة، وغيرت ثياب النوم، وسارت معه نحو سرير الفتاة بهدوء. ولما رفعت الستارة، وشاهدت المنظر، فهمت ماذا يقصد زوجها؛ وشعرت بأن "ريتشاردو" خدعهما. وأرادت توبيخه وذمه، غير أن زوجها منعها وقال:

- اهدئي يازوجتي، فنحن- على أية حال- نريد شابًّا مناسبًا لها، و"ريتشاردو" غني ومن عائلة نبيلة، وهي تريده. فلو أراد أن أتركه سالمًا، فعليه الزواج من ابنتنا. لقد جعلته يدخل قفصها.

صمتت أم الفتاة، وبقيت ساكنة مستكينة، لما شعرت أن زوجها نفسه غير حزين لما رأت عيناه. وفكرت أن ابنتها كانت تريده، وفكرت فيما كانت تشعر به ليلتها. لم تتكلم سوى بكلمات قليلة. ولما فتح "ريتشاردو" عينيه

رأى النهار قد شقشق، وشعر أنه في مأزق، فقال لـ"كاترينا":

- استيقظي ياحبيبتي، لقد بزغ النهار دون أن نشعر، وأنا ما أزال هنا.

لم تمض إلا ثوان معدودة، حتى رأي السيد "ليزيو" أمامه، وهو يقول له:

- ماذا يجري هنا، وماذا أفعل الآن؟

انتفض الفتى واثبًا من على الفراش، وأدرك أنه سيهلك، وتوسل إلى أبيها من شدة خوفه قائلًا:

- أتوسل إليك، باسم الرب، ياسيدي. أعترف أني خائن واقترفت خطيئة، ويمكنك معاقبتي بما تريد، ولكني أرجوك أن ترحمني ولا تقتلني.

رد عليه والد الفتاة:

- "ريتشاردو"، كم أنت ناكر للجميل، ولم تقدر ثقتي بك، وفعلت ما فعلت، ودفعك طيش الشباب إلى اتباع أهوائك وغرائزك، والوقوع في الخطيئة. لا يوجد حل لهذا الأمر لتنجو من الموت، وتجنبني العار، إلا أن أزوجكما في الحال، وأن تكون "كاترينا" زوجتك الشرعية؛ وتكونا لبعضكما البضع طوال العمر، كما كنتما بالأمس. هذا هو الحل الوحيد فقط لكي أعفو عنك، وإلا فالموت قادم لا محالة.

عندها أفاقت الفتاة، وشعرت بالخجل والخوف، وظلت تبكي بحرقة، وترجو من والدها العفو، وتطلب من "ريتشاردو" الموافقة على ما قال والدها ليعيشا معًا للأبد، مثلما أرادا. في الوقت نفسه كان الفتى يشعر بالخجل مما بدر منه، ويريد معالجة الأمر بأية وسيلة. وإلى جانب حبه لـ"كاترينا" ورجائه في نيلها، فكذلك هو خائف من العواقب والموت. فأجاب دون تردد بأنه سيفعل كل ما يريده السيد "ليتسيو" منه.

وفي الحال طلب السيد "ليتسيو" من زوجته أحد خواتمها، وقاما بعقد قران "ريتشاردو" و"كاترينا"، بدون أن يترك أحدٌ المكان. وبعد ما تم ذلك، تركهما السيد وزوجته قائلين لهما:

- يمكنكما الراحة الآن، فقد تكونان في حاجة لها.

وما إن تركهما إلا وقد بدءا في العناق، وأكملا مع بعضهما تبادل القبلات الحارة وممارسة الغرام. لقد قطعا أربع جولات فقط في الليل، وأكملا بجولتين أخريين من السعادة والنشوة بعدها؛ وبهذا انتهى اليوم الأول وهما معًا. ومن وقتها، وهو يتحدث مع السيد "ليتسيو" بشكل رسمي. وبعد أيام قليلة، عقد قرانهما من جديد، في حفل كبير وجميل أمام الأصدقاء والأقارب، وذهبت معه إلى منزله في حفل زفاف كبير. وعاشا معًا في سلام وسكينة وأصبح بإمكانها إمساك البلابل متى رغبت، ليلا أو نهارًا.

القصـة الخامسَـة

قام "جولدوتو دى كريمونا" بإعطاء "جاكومينو دي بافيا" طفلةً قبل وفاته. وبعد مرور وقت ليس بالطويل، يقع "جانول دي سيفيرينو" و"مينجينو دي مينجولي" في حب هذه الفتاة ويتصارعان عليها؛ ثم يكتشفان في النهاية أنها أخت "جانول"، فيتركها "جانول" لتتزوج من "مينجينو".

ضحكت النساء كثيرًا جدًا وهن يسمعن قصة البلبل، وحتى بعد أن انتهى من حكايته. ظللن يضحكن لبعض الوقت، ثم قالت الملكة: في الواقع قد أحزنتنا بالأمس، أما اليوم فقد أمتعتنا على نحو لا يجعل أحد يشكو أو يتذمر منك. ثم نظرت إلى "نيفيله"؛ وأخبرتها أن تروي قصتها، فبدأت تحكي وهي باسمة الثغر: حيث أن "فيلوستراتو" نقلنا بحكايته إلى رومانيا، فإنه يخطر ببالي الذهاب إلى هناك.

كان في قديم الزمان، في بلد اسمها "فانو"، رجلان من "لومباردي"[32]، أحدهما اسمه "جولدوتو دى كريمونا"، والثاني يُدعى "جاكومينو دي بافيا"،

---

[32] **فانـو**: مدينة في وسط إيطاليا، تطل على البحر "الأدرياتيكي". **لومباردي**: أحد أقاليم إيطاليا العشرين، ويقع في شمال البلاد، وعاصمته "ميلانو".

وهما كبيرانِ في السن، كانا يعملان في فترة شبابهما جنديين. كان "جولدوتو" على مشارف الموت، ولم يكن له أحد من أبناء أو أقارب. ولم يجد غير "جاكومينو" ليثق فيه، ويترك ابنته ذات العشرة أعوام أمانةً لديه. وبعد أن تحدثا سويًّا واستأمنه عليها، لفظ أنفاسه الأخيرة، وانتقلت روحه إلى بارئها.

في ذلك الوقت، تغيرت أحوال مدينة "فاينزا" وصارت أفضل بعد ما لاقته من الحروب. فقد أصبح من الممكن الرجوع إليها؛ كان "جاكومينو" يعيش فيها قبل الحرب، وأحب العيش فيها، فقرر العودة إليها. وكانت معه الطفلة التي تركها له صاحبه، وكان يعاملها بلطف كما لو كانت ابنته. ولما كبرت البنت، أصبحت شابة رائعة الجمال بلا مثيل في المدينة كلها، كما تميزت أيضًا هذه الفتاة بصفات حميدة كثيرة، ومنها اللباقة، والعفة والشرف. ولهذه الصفات التي تتميز بها، حاول التقرب منها شبان كثيرون. لكن اثنين تحديدًا وقعا في حبها، بقدر بلغ حد الغيرة والمنافسة الشرسة، بل إلى حد العداء. كان أحدهما يدعي "جانول دي سيفيرينو"، والثاني اسمه "مينجينو دي مينجولي"، وأراد كلٌّ منهما خطبتها لو وافق أهلها على ذلك، على الرغم من أنها لم تتعد الخامسة عشر من عمرها، وكان هذا من غير الممكن آنئذٍ. فقد حاول كل منهما الفوز بها بكل ما أوتي من قوة.

كان لدى "جياكومينو" خادمة كبيرة في العمر، وخادم آخر اسمه "كريفيلُّو"، وهو رجل مرح ولطيف، تعرف عليه "جانول" وتقرب منه. ثم اختار وقتًا ملائمًا وأخبره بحبه للفتاة، وطلب منه مساعدته في الحصول عليها، وأخبره أنه سيعطيه ما يريد، فأجاب عليه قائلًا:

– لا أستطيع مساعدتك إلا عندما يخرج "جياكومينو" من البيت

للعشاء. وقتها يمكنني أن أدخلك إلى هناك. أما لو حاولت التكلم عنك معها، فإنني أعتقد أنها لن تعيرني انتباهًا مطلقًا.

فأجابه "جانول" بأن هذا هو المطلوب تمامًا، واتفقا على هذا.

أما "مينجينو"- من ناحيته- فقد تقرَّب من الخادمة، وجعلها تحمل رسائل حب إلى الفتاة، حتى أن الفتاة بدت على وشك الميل للفتى. اتفق الفتى مع الخادمة على تدبير موعد له، عندما يخرج "جاكومينو" ليلًا، في أي يوم. وبعد أيام قليلة، خرج السيد "جاكومينو" للعشاء مع أحد أصحابه. وبسرعة، أخبر الخادم "كريفيلُّو" صديقه بذلك، واتفق معه على إشارة معينة، بعدها سيترك له الباب مفتوحًا. وكذلك فعلت الخادمة، وذهبت إلى "مينجينو"، وأعلمته أن سيدها سوف يخرج للعشاء بالخارج. وطلبت منه أن يبقى بالقرب من المنزل، حتى يراها عندما يأتي الوقت المناسب، ليدخل البيت.

وما إن حل الظلام، وبدون أن يعلم كل منهما ما يفعله الثاني، ذهب كلاهما، ومعه بعض المسلحين ليؤمنوا له الطريق. وقف "مينجينو" مع رفاقه في بيت صديقه قرب بيت الفتاة، منتظرًا؛ وكذلك "جانول"، كان ينتظر الإشارة، لكن على مسافة أبعد قليلًا. في هذا الوقت، حاول كلا الخادمين إبعاد الآخر عن وجهه. فقال "كريفيلُّو" للخادمة:

- لماذا لم تذهبي للنوم حتى هذه الساعة؟ ولماذا تتجولين في البيت حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

فردت عليه: ولماذا لم تنم أنت أيضًا؟ ماذا تنتظر بعد تناول العشاء؟

وظلا هكذا دون جدوى. ولما أحس "كريفيلُّو" أن الوقت قد حان، قال

لنفسه: فيمَ يهمني وجودها؟ فلن تقدر على عمل شيء. ولو فكرت في أن تنطق ولو بكلمة واحدة، فستنال أشد العقاب. ثم ذهب وأشار لصاحبه بما اتفقا عليه، وفتح لهم الباب. وبسرعة أتي "جانول" ومعه اثنان ودخلوا البيت، فرأوا الفتاة في غرفة المعيشة، فأمسكوها لأخذها معهم. فأخذت الفتاة في الصراخ بصوت عالٍ، كما صرخت الخادمة كذلك؛ فسمع "مينجينو" صوتهما، فانطلق بسرعة البرق إلى هناك. وحينما شاهد هؤلاء الذين يحاولون إخراج الفتاة بالقوة من البيت، أمسك سيفه هو وأصدقاؤه، وصرخوا فيهم قائلين:

- قفوا مكانكم، أيها الخبثاء المجرمون! لن تهربوا إلى أي مكان، ما كل هذه الوقاحة!

ثم بدأت المبارزة بينهم. وسمع الجيران هذه الضوضاء، فخرجوا من منازلهم علي الفور، وساعدوا "مينجينو"؛ واستطاع- بعد قتال دام طويلًا- أخذ الفتاة من "جانول"، وأعادها إلى بيت "جاكومينو".

ولم ينته الأمر عند هذا الحد؛ فقد حضر جنود حاكم المدينة، وقبضوا على الجميع، ووضعوهم في السجن إلى حين التحقيق معهم، بما في ذلك "مينجينو" و"جانول" و"كريفيلُّو".

بعدها بقليل، أتى السيد "جاكومينو"، وغضب بشدة مما جرى، وسأل كيف حدث هذا؟ ولما علم أن الفتاة لا دخل لها بما جرى، اطمأن قليلًا، وقرر تزويجها بسرعة، حتى لا يتكرر ما حصل.

وفي اليوم التالي، علمت أسرتا الشابين بما فعلاه ابناهما، وأدركتا ما الذي يمكن أن يلحقهما لو فكر السيد "جاكومينو" بمحاسبتهم على ما اقترفاه من ذنب عظيم؛ فذهبوا إليه يطلبون العفو عنهما، وأن ينظر لهما

بعين الرحمة، ويسامحهما على تهورهما. وعرضوا عليه فعل ما يرضيه لحل المشكلة. وبما أن "جاكومينو" كان رجلا حكيمًا، ومر بالكثير من الخبرات والتجارب، وقلبه حنون ، فقال لهم:

– أيها القوم، إنني أعيش هنا كما لو كنت في بلدي تمامًا، وأعتبركم أهلي، ولا أخالفكم الرأي في أي أمر. ولكن يجب أن تعلموا أن الفتاة ليست من "كريمونا" ولا من "بافيا"[33]، كما تظنون. فهي في الحقيقة من مدينتكم هذه؛ فهي مثلكم فاينزيه؛ إلا أنني لا أعرف مَن أهلها، ومَن تركها لي لم يُعلمني مَن أهلها، وحتى هي لا تذكر شيئًا عن ذلك. ولهذا فسوف أفعل ما ترونه مناسبًا.

لما عرفوا ذلك، تعجبوا كثيرًا؛ وشكروا "جاكومينو" على كرم أخلاقه. وسألوه كيف وصلت إليه الفتاة، وكيف علم أنها فاينزية، فحكي لهم:

– كان لي صديق اسمه "جولدوتو دى كريمونا". وقبل وفاته أخبرني أنه لما استولي الملك "فيدريجو" على هذه المدينة، وسمح لجنوده بأن يستولوا على ما يريدون منها، دخل "جولدوتو" وبعض رفاقه إلى بيت فيه الكثير من الأشياء الثمينة، هجره سكانه. وكانت هناك طفلة عمرها عامان. وفي أثناء وجوده هناك، نادته الطفلة: أبي. فأشفق عليها، وحملها مع ما أخذه من البيت، وذهب إلى "فانو". وعندما وافته المنية، ترك لها كل ما يملك، وطلب مني أن أزوجها عندما تبلغ سن الزواج، وأقدم لها ما تركه لها. ولم أستطع الموافقة

---

[33] مدينة بشمال إيطاليا، في إقليم "لومبارديا"، تقع على نهر "تيتشينو"، شمال التقائه مع نهر "بو"، 35 كم جنوب "ميلانو". وكانت عاصمة مملكة "اللومبارديين".

على زواجها من شخص لا يعجبني أو لا يليق بها؛ ولكني سوف أزوجها لتجنب تكرار ما حدث.

وفي هذا الوقت، كان هناك شخص يُقال له "جيجمينو دي ميديسينا"، يعرف "جولدوتو"، وأيضًا يعرف صاحب البيت الذي أخذ "جولدوتو" ما فيه؛ وكان أيضًا موجودًا هناك، فتوجه نحوه، وقال له:

- أسمعت يا"بيرنابوكيو" ما يقوله "جاكومينو"؟

فرد عليه "بيرنابوكيو":

- نعم سمعته، وفكرت في أنها قد تكون ابنتي التي فقدتها في ذلك الوقت، كما أن عمرها نفس العمر.

- إنها هي بالتأكيد؛ فقد قابلت "جولدوتو" منذ زمن، ووصف البيت الذي أخذ ما فيه، وعرفت أنه بيتك. هل تذكر أي شيء مميزًا في ابنتك، لعلك تستطيع التعرف عليها. فأنا أعتقد أنها هي.

ظل الرجل يفكر بتركيز، حتى تذكر أن عندها ندبة صغيرة خلف أذنها اليمني، بسبب ورم تم علاجه بعد ولادتها؛ فذهب إلى "جاكومينو"، وطلب منه أن يدخل ويرى الفتاة؛ فوافق وطلب منها أن تأتي. ولما رآها شعر أنها تشبه زوجته في شبابها، وطلب من "جاكومينو" أن يرفع شعرها قليلًا فوق أذنها اليمني، والفتاة تقف بحياء. رفع شعرها بيده، ورأي الندبة؛ فتأكد أنها ابنته، فبكى من شدة فرحه وعانقها. ولكنها ابتعدت عنه، فنظر إلى "جاكومينو" قائلًا:

- هي ابنتي، يا أخي؛ وبيتي هو البيت الذي تم الاستيلاء على ما فيه، وهذه الفتاة تركتها زوجتي، لما هجموا علينا بشكل مفاجئ. واعتقدنا أنها توفت

يومها عندما أحرقوا البيت.

لما سمعته الفتاة، ونظرت إليه، وأحست أنه صادق، وأنه حقًّا أبوها، عانقته في الحال، وانهالت الدموع من عينيها. أرسل أبوها في التو من يزف الخبر لأمها وأخواتها وعائلتها؛ فأتوا جميعًا وأبلغهم بالأمر. وبسعادة بالغة احتفلوا بعودتها، وذهبت معهم إلى لبيتهم. ولما عرف المسؤول عن المدينة بالأمر، وكان يتمتع بالشهامة، وأن "جانول" المعتقل هو شقيق البنت؛ قرر العفو عنه، وقام بالمصالحة بين "بيرنابوكيو" و"جاكومينو"، وأيضا "جانول" و"مينجينو". وتصالح "مينجينو" وأقاربه، وتزوج من الفتاة التي كان اسمها الحقيقي "آنيس"، وكان معهم الخادم "كريفيلُّو"، وأقاموا حفل زواج رائع ، وانتقلت معه بعدها إلى بيته، وعاشا في حب وود وأمان وهناء.

القصــة السَّــادسة

يجد "جاني دي بروشيدا" حبيبته التي أُهديت إلى الملك "فيدريجو". وتدور الأحداث إلي أن يُحكم عليه بالحرق. وتأتي المفاجأة، فيجده والده "روجيري دي أوريا"، ويعترف به، فينجو ويحصل على حبيبته.

أثارت حكاية "نيفيله" إعجاب الكثيرين. بعد ذلك أشارت الملكة إلى "بامبينيا" بأن تروي قصتها اليوم. فرفعت رأسها ونظرت لنا، وبدأت تقول: كم هي مبهرة وعظيمة قوة الحب؛ سيداتي وسادتي الكرام! تلك القوة التي تقود المحبين إلى مواجهة الصعاب والمخاطر. وذلك ما رأيناه وعايشناه في حكايات اليوم، وفي السابق، وفي الحاضر، وكذلك المستقبل. وسيظل الحب دومًا هكذا. وقصة اليوم تثبت هذا، فهي تحكي قصة صمود شاب عاشق.

في جزيرة "إسكيا"[34]، القريبة للغاية من "نابولي"، كانت هناك فتاة رقيقة ومرحة اسمها "ريستيتويتا"؛ والدها رجل نبيل يُدعي "مارين بولجارو". وقد وقع في غرامها شاب يُدعي "جاني"، وبادلته الفتاة نفس الشعور. وكان الشاب

[34] أكبر جزيرة في خليج "نابولي".

من "بروتشيدا"، تلك الجزيرة الصغيرة التي تقع بالقرب من جزيرتها. فكان يأتي من "بروتشيدا" إلى "إسيكا" ليلًا لرؤيتها. وإن لم يجد مركبًا، يذهب سباحةً ليري حبيبته؛ ولو لم يرها فإنه يظل منتظرًا أمام بيتها حتي تخرج لرؤيته.

وذات مرة، خرجت الفتاة وحدها إلى الشاطئ، وكان الجو غايةً في الجمال، وكانت تتنقل وسط الصخور بين أمواج البحر التي تُداعب قدميها، وتجمع القواقع البحرية الخلابة، حتى وصلت إلي مكان مختبئ بين الصخور، به ينبوع ماء عذب. وبينما هي علي هذا الحال، وفي هذا التوقيت، رسا هناك مركب كان يستقله شبان من "صقلية" قادمون من "نابولي". ولما رأوا الفتاة بمفردها، دون ملاحظتها لوجودهم، فكروا في خطفها، وأخذها معهم. وقد نفذوا ذلك بالفعل؛ وتمكنوا من الإمساك بها. وظلت تصرخ وتصرخ، لكن دون جدوى، ووضعوها في المركب ثم غادروا بها. ولما وصلوا إلى "كالابريا"[35] تجادلوا في مَن منهم سيأخذ الفتاة. فكل منهم كان يريدها لنفسه، ولم يرض أحدهم بتركها للآخر. وفي نهاية الأمر، وتجنبًا للنزاع بينهم، اتفقوا على أن يعطوها هدية إلى "فيدريجو" ملك "صقلية"، الذي سوف تعجبه تلك الهدية بالتأكيد؛ فهو شاب. وما إن وطأت أقدامهم أرض "باليرمو"، حتى نفذوا الاتفاق. وأسعدت الهدية الملك فعلًا، لكنه وجدها حزينة، فأسكنها دارًا جميلة في إحدى حدائقه الخلابة، يُطلق عليها "لاكوبا"، وأمر بتوفير كل ما

---

[35] "قَلَوْرِيَة" أو "كالابريا": إقليم في إيطاليا، يقع أقصى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية، وهو على شكل شبه جزيرة. ويفصله عن صقلية مضيق "ميسينا"، وعاصمته "كاتنزارو".

تريد وتطلب. وقد تسبب خطفها في حدوث قلق واضطراب في جزيرتها، لكنهم لم يتمكنوا من معرفة مَن خطفها؟ تألم "جاني" كثيرًا لما علم بالأمر، ولم يقدر على البقاء للسؤال عن ما حدث لها؛ لكنه علم في أي اتجاه ذهب الخاطفون. وعلي الفور أعد سفينة ليلحق بهم بأقصي سرعة، وأخذ يبحث في الجزر المحيطة. بحث عن الفتاة في كل طريق، إلى أن تم إخباره في "سكاليا"[36] بأن صقليين قد خطفوها إلى "باليرمو". فذهب "جاني" مسرعًا إلى هناك، وبعد بحث طويل، علم أنها أُرسلت هديه للملك، وأنها في "لاكوبا"، وحولها الكثير من الحراس؛ فحزن واشتد ألمه لفقدانها، وعدم التمكن من لقائها. لكن حبه تغلب عليه ودفعه للبقاء، وترك السفينة ترحل بدونه، وظل هناك بمفرده، على أمل استعادة حبيبة القلب. وأصبح يتردد باستمرار على مكان حبيبته في "لاكوبا"، إلى أن رأى الفتاة- في ذات يوم- واقفة في إحدى النوافذ، ورأته هي أيضًا. وقد سعدت به وفرح قلبها كثيرًا، وتطلع في المكان، فلم يجد أحدًا قبالته، فتسلل ليقترب منها. وبالفعل، استطاع الدنو منها والتحدث معها. وأخبرته كيف يمكنه الوصول إليها. ثم ذهب بعد أن تعرف على المكان جيدًا. وانتظر حتى حلول منتصف الليل، وعاد إلى هناك، ثم وجد أن هناك جزءًا من السور لا يوجد به حائل يمنعه من الصعود. وعلى الفور، تسلق السور ودخل الحديقة. وبينما كان يبحث عن كيفية للصعود إلي نافذة حبيبته وجد سُلمًا، فوضعه نحو النافذة التي أشارت له إليها من قبل، وصعد السلم بيسر وسلاسة.

---

[36] بلدية في مقاطعة "كوزنسا"، في إقليم "كالابريا"، بجنوب إيطاليا.

كانت الفتاة في انتظاره، وتركت له النافذة مفتوحة، وفكرت بما أنها أسيرة وسوف ينال منها الملك ولا شك، فمن الأحرى لها أن تسلم نفسها إلى حبيبها "جاني"؛ فعلى الأقل فهي تحبه. وبالفعل، دخل بسرعة، واقترب منها، وتحدثا سويًّا وهما على السرير، وطلبت مساعدته في الهروب معه. وفرح بكلامها، ووعدها بترتيب أمر رحيلها من هذا المكان، وأن يكون ذلك في المرة المقبلة. واحتضنها بسعادة كبيرة، وغاصا في بحر الملذات والمتع الجسدية، تاركين خلفهم كل الحدود. وظلا يمارسان الغرام مرات عديدة، إلى أن ناما من شدة التعب والإرهاق، بلا وعي، وهما يعانقان بعضهما بعضًا.

أما الملك الذي أسرته الفتاة بجمالها لما رآها؛ فقد تذكرها في هذه الليلة تحديدًا، وذهب لقضاء بعض الوقت اللطيف معها. وكان ذلك قرب الفجر. ذهب ومعه بعض الخدم إلى هناك، وأمرهم بفتح غرفة الفتاة دون أن تشعر، ودخل ممسكًا بشعلة ليراها. فلما نظر إلى السرير، ووقعت عيناه على الفتاة وهي في أحضان "جاني" بدون ملابس، استشاط غضبًا، وهم بقتلهما بخنجر كان يضعه حول خصره. إلا أنه تراجع وامتنع عن ذلك، وفكر أنه ليس من اللائق قتل شخص نائم، وأراد أن يكون عقابهم أمام الجميع، بإلقائهم في المحرقة.

وبالفعل، توجه إلى الباب، وتحدث مع صديق له أتى في صحبته، وقال له:

– ما رأيك بتلك المرأة البغيضة التي ظننت أنها تناسبني؟ هل تعرف هذا الشخص الذي تجرأ على الدخول إلى هنا، وقام بالتعدي على ما هو ملكي.

فقال:

– لا أتذكر أني شاهدت هذا الشخص قبل ذلك.

ترك الملك المكان، وأمر بالقبض عليهما وتقييدهما على حالتهما، على أن يُنقلا في الصباح إلى "باليرمو"، ويعلقا على عامود، وظهرهما إلى ظهر بعض، ويتركا حتى العصر، ليشاهدهما الناس إلى ذلك الحين، ثم يتم حرقهما جراء فعلتهما الشنيعة.

انطلق الملك إلى "باليرمو"، وأغلق على نفسه باب غرفته من شدة الحنق والضيق. وبعد أن انصرف الملك، قام الحراس بالقبض عليهما وتقييدهما دون شفقه. انتفض الشاب من الذعر والهلع، وأبدى توسله بكل الطرق، لكن بلا جدوى؛ فقد أخذوهما كما أمر الملك، إلى "باليرمو"، وتم تعليقهما هناك على عامود في الساحة الكبيرة، وتم تجهيز الحطب أمامهما ليتم حرقهما في الوقت المحدد. وتجمع أهالي المدينة كلها، ليروا الخائنين، وأتي الرجال لمشاهدة تلك الفتاة والتطلع إلى مفاتنها وجمالها. وأما النساء، فكن يشاهدن الفتى ويدققن النظر فيه لوسامته. أما العاشقان اليائسان، فكانا ينظران في الأرض خجلًا، وينعيان حظهما الأسود، وهما ينتظران الموت حرقًا بهذا الشكل البشع. وخلال انتظار ساعتهما المحتومة، كان الناس حولهما يتساءلون أي ذنب اقترفاه، وأية فعلة ارتكباها. وسمع "روجري دى لوريا" بالأمر، وهو رجل ذو مكانة عالية؛ فهو أميرال أسطول الملك. فقدم ليراهما في الساحة التي كانا ماثلين فيها. فنظر إلى الفتاه وأثني على جمالها؛ ثم نظر إلى الشاب وعرفه؛ ثم اقترب منه، وقال له: هل أنت "جاني دي بروشيدا".

فنظر "جاني" له، وقال:

– أجل، يا سيدي، أنا هو، ولكني لن يصبح لي وجود عما قريب.

فسأله الأميرال: ما الذي أدى بك إلى هذا الحال؛

فقال له "جاني": حبي لها، وغضب الملك.

أراد الأميرال معرفة ما حدث بالتفصيل، فأخبره بذلك. وعندما هم الأميرال بالمغادرة ناداه "جاني"، وقال له:

- يا سيدي! لو تسمح لي، فلدي رجاء ومعروف تفعله لي.

فقال له "روجري"، ماذا تريد، فرد "جاني":

- من المؤكد أنني سأصبح في عداد الموتى بعد قليل، وظهري إلى ظهر الفتاة التي أحبها، فأرجوك أن تجعل وجهنا إلى وجه بعض، حتى تكون آخر من أرى وأنا أموت، فيكون هذا مواساة لي.

فقال له الأميرال مبتسما:

- على الرحب والسعة، سأجعلك تمل من كثره النظر إليها.

ثم أمر الجلادين بأن يوقفوا التنفيذ، وينتظروا أوامر جديدة من الملك. وتوجه بسرعة للتحدث مع الملك، وسأله:

- ما الذي اقترفه هذان الشابان اللذان أمرت بحرقهما، يا جلالة الملك؟

فأخبره الملك بما جرى، فأجابه الأميرال:

- ما فعلاه يستحق العقاب، ولكن لا يجب عليك أنت معاقبتهم؛ لأنه كما يجب المعاقبة على الخطأ، يجب المكافأة على المكاسب والمساعدات. هل تعرف يا سيدي من يكون هذان اللذان تريد حرقهما؟

فقال الملك أنه لا يعرف من يكونا، فأكمل الأميرال حديثه قائلًا:

- سأخبرك إذن أنا بهذا، لترى إلى أين يوصلنا الغضب والتسرع. هذا الفتى هو ابن "اندولفو دي بروشيدا"، وشقيق السيد "جاني دي بروشيدا"، اللذين دعماك لتكون ملك هذه الجزيرة. وأما الفتاة فهي إبنة "مارين

بولجارو" الذي قدم الدعم لك حتى تبسط سلطتك ونفوذك، لكي لا يقدر أحد على إبعادك عن عرش صقلية. وكانا يحب بعضهما الآخر منذ زمن بعيد، ودفعهما الحب إلى ما فعلاه، وليس تحديًا لسلطتك. يمكن القول إنهما أخطآ بسبب حبهما لبعضهما البعض فحسب، وليس لسبب سوى ذلك، فجدير بك أن تغفر لهما وتكرمهما!

فكر الملك فيما قال "روجري"، وتأكد من حقيقة وصدق ما يقول، ومن ثم تراجع عن قراره، وما أراد فعله بهما. وأمر بتحريرهما ومثولهما أمامه. وتم تنفيذ ذلك بالفعل. وبعد أن تبين الأمر، أراد الملك تعويضهما عما حدث لهما من ألم ومعاناة؛ فألبسهما أجمل الثياب، وزوج "جاني" من الفتاة في مراسم احتفالية كبرى، ومنحهما الهدايا والعطايا، ثم عادا إلى بلدهما وسط أجواء الفرح والسرور.

ومنذ ذلك الحين، عاشا معا في سعادة لسنوات وسنوات طوال.

القصــة السَّــابعة

أحب "تيودورو" "فيولانتي" ابنة السيد "أميرجو"، التي حبلت منه، فصدر ضده حكم بالشنق. وبينما هو في طريقه إلى حبل المشنقة لينال عقوبته، تعرف عليه أبوه، فأنقذه وزوجه من حبيبته "فيولانتي".

كانت السيدات يستمعن بإنصات شديد وخشية مما كان ينتظر الحبيبين، وسعدن كثيرًا لنجاتهما، وانتهت القصة بنهاية سعيدة للعاشقين. ثم أمرت الملكة "لوريتا" أن تروي قصتها، فبدأت قائلة:

سيداتي العزيزات، يحكى أنه في الوقت الذي حكم فيه الملك العادل "جليلمو" صقلية، عاش هناك رجل نبيل اسمه "أميرجو آبات دي تراباني"، الذي كان لديه الكثير من الأملاك والثروات، وأيضًا العديد من الأبناء؛ كما قام بشراء بعض الخدم من سفن قراصنة جنوبيين قادمة من الشرق، وكانوا قد أغاروا على سواحل "أرمينيا" وأسروا عددًا كبيرًا من الفتيان يُعتقد أنهم أتراك. وكان من بينهم فتى هو أحسنهم مظهرًا، يبدو عليه أنه ينحدر من أسرة مرموقة . كان هذا الفتى يُدعى "تيودورو". ومع هذا كله، كان يعامل

معاملة العبيد. كبر الفتى الصغير شيئًا فشيئًا بين أبناء الرجل الذي اشتراه. وصارت له شخصية مميزة، بالرغم من وضعه كعبد؛ فكان يتمتع بحسن التصرف واللباقة. أحب السيد "أميرجو" سلوك هذا الفتى وأعتقه. ولأنه ظن أنه تركي، قام بتعميده وأسماه "بيترو"، بل جعله مسؤولًا عن إدارة مصالحه، ووثق فيه تمام الثقة.

كان للسيد "أميرجو" فتاة تدعي "فيولانتي"، وكانت فتاه جميلة ورقيقة. مر وقت ولم يفكر أبوها في تزويجها. وكانت الفتاة تشعر بميل تجاه "بيترو"، لكنها لم تظهر هذا الأمر من باب الخجل والحياء. لكن الحظ ساعدها عندما وقع "بيترو" نفسه في حبها، وكان يشعر بالسعادة حين يراها، غير أنه يخفي هذا الأمر هو الآخر، حتى لا يشعر به أحد، لشعوره أنه لا حق له في ذلك. لكن الفتاة، لاهتمامها الشديد به، أحست بما في قلبه، وأظهرت له فرحتها وقبولها لمشاعره.

ظلا هكذا لفترة من الزمن، دون أن يبوح أحدهما للآخر بحقيقة مشاعره صراحةً، مع أنهما يريدان- على أحر من الجمر- التحدث معًا، إلى أن جاء الوقت المناسب ليتخلصا من الخوف المسيطر عليهما. فقد كانت لدى السيد "أميرجو" مزرعة تبعد ميلًا واحدًا عن "تراباني". وقد اعتادت زوجته وصديقاتها الذهاب إلى هناك للترفيه عن أنفسهن، وكانت تأخذ ابنتها معهن للمرح هناك. وفي يوم شديد الحرارة، ذهبن إلى هناك، وأخذن "بيترو" معهن. وفجأةً، تلبدت السماء بالغيوم السوداء؛ فقررت السيدات العودة بسرعة، حتى لا تشتد العاصفة عليهن وهن في المزرعة. وانطلقوا جميعًا عائدين بأقصى سرعة ممكنة. كان "بيترو" والفتاة أصغر سنًّا من السيدات،

فسبقا السيدة وصديقاتها في السير، حتى غابا عن نظر السيدات. بدأت العاصفة ودوي الرعد، وسقط المطر كالسيل، فلجأت الأم ومن معها إلى بيت أحد الفلاحين، لكن "بيترو" والفتاة لم يجدا سوى كنيسة مهدمة؛ فوقفا تحت بقايا السقف. ولضيق المكان بقيا متلاصقين، فشجعهما هذا على اعتراف كل منهما بحبه للآخر. فقال "بيترو":

- أتمنى ألا تنتهي هذه العاصفة حتى نبقى هكذا.

فأجابته:

- وأنا أيضًا مثلك، أتمنى ذلك من قلبي..

تبادلت عيونهما النظرات، وشعر كل منهما بصدق حقيقة مشاعره تجاه الآخر، فتلامست أيديهما بحرارة وعنفوان، وتعانقا، وبدءا في تبادل القبلات الحارة، ثم دخلا في علاقة حميمية حتى توقف المطر. لم يتحسن الطقس سريعًا، لذلك قضيا وقتًا طويلًا في التمتع والتلذذ ببعضهما الآخر، بل اتفقا على تكرار هذه الملذات كلما تمكنا من اللقاء سرًّا نظرًا لشدة حبهما. وبعد توقف المطر وتحسن الجو، توقفا عند مدخل المدينة، حتى تقدمت السيدة وصديقاتها، وعادا سويًّا إلى البيت. ومن ذلك الحين، وهما ينتهزان الفرص ليلتقيا سرًّا ويقضيا أوقاتًا حميمة معًا.

تكررت هذه اللقاءات إلى أن شعرت الفتاة أنها حُبلي من الفتى، فأحست بشدة المأزق الذي وقعت فيه، وحاولت بشتى الطرق التخلص من الحمل، ولكن بلا فائدة. خاف "بيترو" من افتضاح الأمر، فقال للفتاة إنه يفكر في الهروب.

فردت عليه قائلة: لو هربت، سأقتل نفسي في الحال.

- كيف يمكنني البقاء يا حبيبتي؟ فسيُفتضح أمر حملك أمام الجميع، وسوف أعاقب أشد العقاب؛ أما أنت، فسوف يسامحونك.

- اعلم يا"بيترو" أن أمر حملي سينكشف، ويظهر أمام الناس؛ أما أنت فكن على يقين أن أحدًا لن يعرف بأمرك، ولكني لن أخبر أحدًا ما لم تفعل أنت.

- إن ظل هذا سرًّا فسوف أبقى؛ مادمت ستفين بوعدك.

حاولت الفتاة إخفاء الأمر، لكنها لم تقدر على هذا طويلًا. فقد بدأت بطنها تكبر، وتوجهت لأمها باكية وهي تتوسل لها أن تساعدها. صُدمت الأم حين سمعت ذلك، ولامتها ووبختها على فعلتها، وسألتها كيف حدث هذا، فاختلقت الفتاة قصة لأمها حتى تُنجي "بيترو" من العقاب. وصدقتها الأم، وحاولت إخفاء هذه الخطيئة؛ فذهبت بها إلى بيت في الريف. وعندما حان وقت الوضع، أخذت الفتاه في الصراخ من آلام الولادة. ومن سوء حظها، كان هذا وقت عودة أبيها من الصيد؛ ومر بالصدفة قريبًا من الحجرة التي كانت ابنته تضع فيها، وسمع الصوت، وذهب ليتحقق من الأمر. ودخل، فإذا به يجد زوجته هناك، ومن ثم لم تقدر على إخفاء الحقيقة. لم يصدق الأب ما أخبرت به الفتاة أمها، وقال لها إنه من غير الممكن ألا تعرف ممن حملت؟ وقال إنه لن يتركها حتى تخبره بالحقيقة الكاملة، وإن أخبرته فلسوف يعفو عنها، وإلا فسيكون الموت مصيرها لا محالة.

حاولت الأم تهدئة زوجها، لكن كل محاولاتها باءت بالفشل، بل ازداد غضبه، فأمسك بسيفه ووجهه نحوها بعد وضعها بلحظات، وقال:

- إما أن تخبريني مَن هو أب هذا الطفل، وإما سأقتلك في الحال.

وتحت تهديد السلاح، نكثت بوعدها لـ"بيترو"، وحكت كل ما حدث بينهما. اشتاط الرجل غضبًا على غضبه، وزاد ضجره، وهَم بقتلها؛ لكنه تمهل قليلًا، وانطلق بحصانه عائدًا إلى "تراباني". ذهب إلى حاكم المدينة، السيد "كورادو" المُعين من قبل الملك، وأطلعه على الأذى الذي لحق به. فأمر الحاكم باعتقال "بيترو"، وتم تعذيبه؛ فاعترف بكل ما فعل. وحكم عليه بالجلد أولًا، ثم الشنق بعد ذلك، لكن السيد "أميرجو" لم يهدأ بعد كل هذا، وظل غاضبًا، ووضع سُمًّا في إناء، ووضع خنجرًا بجواره، وأعطاهما للخادم، وقال له:

- اذهب إلى "فيولانتي"، وقل لها أن تختار، إما الموت بالسم أو بالخنجر؛ وأن عليها الاختيار فورًا، وإلا فسأحرقها أمام الجميع. وبعدها خذ الطفل، واضربه بالحائط، وارمه في الطرقات لتأكله الكلاب.

وبالفعل، ذهب الخادم، بعد أن أصدر الأب هذا الحكم القاسي على ابنته وحفيده بلا رحمة.

أما عن "بيترو"، فقد تم أخذه إلى المشنقة. وأثناء مروره ومعه الجلادون أمام منزل فيه ثلاث من نبلاء "أرمينيا"، بُعثوا من ملكهم إلى البابا في روما، للتباحث في أمور خطيرة، وتوقفوا للاستراحة في "تراباني"، فرحب بهم وجهاء المدينة، ومن بينهم السيد "أميرجو". وسمعوا بالأمر، فوقفوا عند النافذة لرؤية المنظر. كان "بيترو" مجردًا من ثيابه في جزءه العلوي، لا يلبس سوى ما يستر عورته، ويداه مقيدتان من الخلف. نظر إليه أحد الضيوف الثلاثة، وكان رجلًا كبير السن ولديه نفوذ اسمه "فينيه"، ورأى على صدره بقعة قرمزية، تقول عليها النساء "وحمة"؛ فتذكر أن ابنه الذي خُطف منذ خمسة

عشر عامًا من الشاطئ لديه مثلها، وأنه ربما يكون هذا البائس هو ابنه، وكان يبلغ نفس عمر ولده المفقود تقريبًا؛ فقال في قرارة نفسه إنه لو كان هذا ابنه حقًّا، فلابد أن يتذكر اسمه واسم أبيه، ويذكر لغته الأرمينية؛ فاقترب منه وناداه قائلًا: "تيودورو"!

لما سمع "بيترو" هذا الصوت، رفع رأسه ؛ فسأله "فينيه" بالأرمينية فيما معناه: من أبوك، وما بلدك؟

فتوقف الحراس الذين يمسكونه تقديرًا للرجل الضيف ذي الهيبة، فرد "بيترو".

– أنا من "أرمينيا"، أبي اسمه "فينيه"، وقد أتي بى إلى هنا أشخاص لا أعرفهم.

لما سمع رده، تأكد من أنه ابنه الذي تم خطفه منذ سنين؛ ونزل هو ومن معه وهو يبكي، وعانقه عناقًا حارًا، ثم غطاه بمعطف ثمين كان يلبسه، وطلب من الجلاد تأجيل تنفيذ الحكم؛ فوافق بكل ترحيب. وبعدها، علم سبب الحكم عليه بذلك الحكم المُفزع، وذهب ومن معه للسيد "كونرادو"، وقال له: أيها السيد، إن الفتى الذي حكمتم عليه بالموت ليس عبدًا، وهو حر، وهو ابني؛ وهو مستعد للزواج من الفتاة التي يقال إنه سلبها شرفها. وأطلب تأجيل الحكم حتى نسأل الفتاة إن كانت تقبل بالزواج منه؛ فليس من الإنصاف قتله، إذا قبلته زوجًا لها.

اندهش السيد "كونرادو" لما سمع أن هذا الفتى هو ابن "فينيه"، وأحس بسخرية القدر؛ فاستدعى السيد "أميرجو"، وأعلمه بما حدث. كان السيد "أميرجو" يظن أن ابنته وحفيده قد ماتا، فشعر بأشد الندم على تسرعه، وآلمه

ذلك بشدة. وفكر أنه يمكن تدارك الأمر، فأمر بإرسال شخص إلى مكان ابنته، ليوقفهم عن التنفيذ إذا أمكن. انطلق أحد خدمه بأقصى سرعة. ووجد الخادم يضع السُّم أمام الفتاة، ويحاول إجبارها على التنفيذ، ويسبها لعدم تنفيذ الأوامر؛ لكنه لما سمع الشخص المرسل إليه، تركها وعاد إلى سيده ليخبره بما حدث. فرح السيد "أميرجو"، وذهب لمقابلة السفير النبيل "فينيه". واعتذر عما بدر منه، واتفقا على تزويج ابنته لـ"تيودورو". وهكذا تم الاتفاق بين "فينيه" والسيد "أميرجو"، وأخبرا "تيودورو"، الذي كان في غاية الخوف من الموت، وأيضًا في غاية الفرح للقاء والده، وشعر بفرحة عارمة لما سمع بالأمر، وكأن الحظ يبتسم له أخيرًا فقد وجد أباه وسيتزوج حبيبته؛ فلا يوجد مَن هو أسعد حظًّا منه!

بعدها، أرسلوا إلى الفتاه ليخبروها بما حدث . ولما عرفت ما حدث فرحت بشدة، وقالت إنها في غاية السعادة، وستكون أسعد نساء الدنيا في حال زواجها ممن تحب؛ بالطبع بعد موافقة والدها. وتم الزواج في حفل مهيب، شارك فيه الجميع. وأحضَرت من يرعي ويعتني بوليدها، وبدأت في استعادة صحتها وجمالها. ولما عاد والد زوجها من روما، ذهبت لزيارته وعاملته مثل أبيها. وكان سعيدًا بهما جدًّا. وبعد أيام قلائل، ركب هو وابنه وزوجة ابنه وحفيده السفينة، وذهبوا إلى "لايتزو"[37].

ومنذ ذلك الحين، وهما يعيشان في سعادة غامرة.

---

[37] اسم كان يُطلق في العصور الوسطى على المدينة الصغيرة "أياس"، واسمها الحالي "يومورطالق"، وتقع في محافظة "أدانا" التركية، وبها ميناء كبير.

القصــة الثَّــامنة

أحب "ناستادجو"- من عائلة "أونيستي"- امرأة من عائلة "ترافيرصاري"، وأنفق عليها أموالًا طائلة، لكنها لم تحبه. ثم سافر إلى "كياسي"[38]، ورأى هناك فارسًا يطارد فتاة، إلى أن وصل به الأمر إلى قتلها. طلب من أهله، ومن المرأة التي يحبها، الذهاب إلي وليمة كبيرة دعاهم إليها؛ وعندما شاهدت الفتاة القتيلة، خافت ووافقت في التو على الزواج منه.

بعد أن انتهت "لوريتا" من قصتها، أكملت بعدها "فيلومينا"، فقالت في حديثها: سيداتي الرقيقات، كما يُثنى على رقة قلوبنا، نحن معشر النساء، فالقسوة تؤذينا ويُعاقب عليها الرب. وسأوضح لكم ما الذي ينتج عن القسوة عبر قصة مسلية ومؤثرة، في نفس الوقت.

كانت هناك بلدة قديمة برومانيا اسمها "رافينا"[39]، يعيش فيها عدد

[38] حاليا هي بلدية تقع في مقاطعة "ميندريسيو" في كانتون "تيسينو" جنوب سويسرا.

[39] مدينة إيطالية بإقليم "إميليا رومانيا"، عاصمة مقاطعة "رافينا"، والمدينة الأكبر والأهم تاريخيًا بمنطقة رومانيا.

كبير من النبلاء والأغنياء، كان من بينهم شاب يُدعي "ناستادجو أونيستي". وكان هذا الشاب غنيًّا؛ فقد ورث الكثير من المال من أبيه وعمه. وكعادة من في سنه، وقع في حب فتاة هي ابنة السيد "باولو ترافيرصاري"؛ وهي من أصل نبيل ولها مكانة أرفع من مكانته. ومع هذا، فلم يفقد الأمل، وظل يحاول أن يجعلها تشعر بحبه لها، ولكن بدون فائدة؛ فقد كانت الفتاة متكبرة ومعجبة بنفسها لشدة جمالها ومكانتها؛ وظلت تعامله بجفاء وتجاهل، ولا يعجبها شيء مهما كان. شعر بالحزن لما تفعله معه، لدرجة أنه فكر في الانتحار في كل مرة تهينه وتخذله فيها. لكنه سرعان ما كان يهدأ ويتراجع، ويفكر في البُعد عنها، وأن يتوقف عن التفكير فيها وفي حبها، وأن يعاملها مثلما تفعل هي. لكنه لم يقدر على فعل هذا، لأن حبها بالفعل كان قد تمكن من قلبه، وكان يزداد يومًا بعد يوم، رغم كونه حبًّا من طرف واحد. في الوقت نفسه، كان الفتى ينفق الكثير من المال بإسراف غير معقول.

وأشار عليه أصدقاؤه بمغادرة "رافِينا"، والعيش بمكان آخر لفترة من الزمن، لعله يقلل من إنفاقه، ويحاول نيل رضاها؛ لكنه كان يتعجب من تلك النصيحة. وبعد التفكير والإلحاح، وافق على الأمر، وبدأ يجهز أمتعة السفر الكثيرة، وكأنه سيرحل إلى فرنسا أو أسبانيا.

ركب فرسه، وذهب إلى "شياسي"، التي لا تبعد سوى ثلاثة أميال عن "رافِينا". لما وصل إلى هناك، جعلهم ينصبون خيمة، وقال إنه سيبقي في هذا المكان، وطلب منهم العودة ليبقى ويعيش وحيدًا. بدأ يعيش حياته في جو مفعم بالهدوء، كأنه يعيش في عالم آخر، بشكل لم يعهده من قبل. ويدعو- كل يوم- بعض الأصدقاء على الغداء؛ فلم يكن المكان يخلو يومًا من الضيوف.

وفي أحد أيام شهر مايو، كان الجو صحوًا، فشرد بخياله وتذكر حبيبته؛ وطلب ممن معه أن يتركوه بمفرده للتأمل على راحته، وتمشى بهدوء وهو يفكر، ويجمح بخياله، في وقت الأصيل تقريبًا، وبينما كان يسير، اقترب من غابة تعج بأشجار الصنوبر- وكان كل ذلك دون أن يتناول أي طعام يُذكر- فإذا به يسمع صوت بكاء وصراخ امرأة أزعجه وأخرجه من تأمله. رفع عينيه ليرى ما الأمر، فأصابه الذهول؛ فإذا بشابة جميلة وعارية، تخرج من أيكة ملتفة الأشجار ومتشابكة، وتجري نحوه؛ وكانت تغطيها الجروح التي سببتها الأغصان، وهي تبكي وتتوسل طالبةً الرحمة، ووراءها كلبان يركضان ليمسكا ويفتكا بها. وعلى إثرها فارس أسمر يبدو عليه الغضب، ممتطيًا جواده، شاهرًا سيفه، متوعدًا المرأة بميتة بشعة. وبعد أن شعر بالهلع لما رأت عيناه، أشفق على تلك المرأة، وفكر في مساعدتها وتخليصها من الموت. ولأنه لم يكن يحمل أي سلاح، فقد أخذ بعض الأغصان، وحاول مواجهة الكلبين والفارس.

فصرخ فيه الفارس من بعيد، محذرًا له: لا تتدخل في هذا الأمر، يا"ناستادجو"، ودعني أنجز- ومعي الكلبان- ما تستحقه هذه المرأة الخبيثة.

وفي هذا الوقت، أمسك الكلبان بالمرأة وأوقفاها، ونزل الفارس من فوق حصانه لما وصل إليها؛ فذهب له "ناستاجو" وقال:

- أنت تعرفني، ومع هذا فأنا لا أعرف مَن تكون. ولكن ليس من الشهامة أن يقتل رجلٌ مسلح امرأة عارية، وأن يطلق عليها الكلاب، كما لو كانت حيوانًا يصيده. سوف أحميها وأدافع عنها.

فقال له الفارس حينها:

- أنا من نفس مدينتك يا"ناستادجو". وعندما كنتُ طفلًا، كان اسمي "جيدوديلي أناستاجي"، وكنت أحب هذه المرأة ومغرمًا بها أكثر من حبك بابنة "ترافيرساي". وقد سببت لي الشقاء بقسوة قلبها، إلى أن شعرت باليأس، وقتلت نفسي بهذا السيف الذي بيدي، فحُكم عليّ بالعذاب الأبدي لأني منتحر. وبعد بعض الوقت، ماتت المرأة التي كانت قد فرحت لموتي. ولم تندم على خطيئتها من القسوة والغلظة؛ وقد حُكم عليها بعذاب أليم، في الجحيم. وكان عقابي- أنا وهي- أن ألاحقها كعدوة لي، لا كمحبوبتي؛ وأن أقتلها كلما وصلت إليها بنفس السيف الذي قتلتُ به نفسي، وأشق صدرها وأخرج قلبها القاسي الخاوي من الحب، وأعطيه طعامًا للكلبين. ثم تنبعث من جديد، كأنها لم تمت، وتبدأ في الهروب من جديد، ونظل نكرر ما حدث، فألحق بها أنا والكلبان. وألاحقها كل يوم جمعة هنا في هذا المكان؛ وأطاردها باقي الأيام في أماكن أخرى، بسبب ما فعلته في حياتها وما فعلته معي بشكل خاص. فأتحول- هكذا كما تراني- من محب إلى عدو لدود؛ وعليّ أن أطاردها بقدر الشهور التي أساءت لي فيها. فدعني إذن أنفذ العدالة الإلهية، ولا تعارض ما لا يمكنك منعه.

أحس الفتى بالخوف الشديد لما سمع هذا الكلام، لدرجة تصلب معها شعر رأسه من هول الموقف. ثم نظر بغم وحزن، ماذا عساه أن يفعل لهذه الفتاة التعيسة، فانقض عليها الفارس مثل الوحش، وأمسكها الكلبان بقوة، وهي تتوسل راجيةً الرحمة؛ لكن بلا جدوى، فقد طعنها بالسيف في صدرها. وفيما كانت تبكي وتصرخ وقعت على الأرض. ثم أخذ خنجرًا شق أضلاعها ليخرج قلبها وما حوله، وألقى به إلى الكلبين الجائعين، فالتهماه

فورًا. بعد قليل، نهضت الفتاة فجأةً، وكأن شيئًا لم يكن، وجرت نحو البحر فتبعها الكلبان وركب الفارس جواده، وأمسك بسيفه، وانطلق وراءها من جديد، إلى أن اختفوا جميعًا عن نظره. لكنه ظل في ذهول لوقت طويل. وفي النهاية، فكر في استغلال الأمر، طالما أنه يتكرر كل يوم جمعة في نفس المكان. تعرف علي المكان جيدًا، وعلَّمه بعلامات بارزة، ثم عاد إلى البيت، وأرسل إلى أقاربه وأصحابه محدثًا إياهم بقوله: "حاولتم كثيرًا إقناعي بالتخلي عن حب تلك الفتاة التي تعاملني بسوء، وألا أهدر مالي. وأنا على استعداد لفعل هذا، إذا ساعدتموني وقدمتم لي معروفًا. فلتقوموا بإقناع السيد "باولو ترافيرصاري" وزوجته وجميع الفتيات في أسرته بالقدوم إلى هنا، وتناول الغداء معي، وكل مَن تريدون من الأشخاص. وستعلمون ماذا أريد وقتها".

تبين لهم أنه من الممكن تدبير الأمر، فوافقوا على طلبه، وعادوا إلى "رافينا". ولما صار الوقت مناسبًا، وجهوا الدعوة للأشخاص الذين طلب قدومهم. وبصعوبة أقنعوا الفتاة التي يحبها "ناستادجو" بالذهاب معهم، وأمر الفتى الخدم بإعداد أشهي المأكولات الفاخرة، وجعلهم يضعون المائدة تحت أشجار الصنوبر في المكان الذي وقعت فيه الحادثة. ورتب جلوس السيدات والسادة بحيث يكون مكان الفتاة أمام المكان الذي سيتم فيه الحدث.

بعد تناول الغداء، وبانتهاء الطبق الأخير، سمع الجميع صوت صراخ الشابة التي يطاردها الفارس. أحسوا بالقلق حيال الصوت، وتساءلوا ماذا يحدث؛ لكن أحدًا لم يكن يعرف حقيقة الأمر. فقاموا وهم يتلفتون يمينًا ويسارًا. وفي تلك اللحظة، شاهدوا الفتاة البائسة والفارس والكلبين. وبسرعة البرق أصبحوا وسط الضيوف. انزعج الجميع من الكلبين والفارس، وحاول

بعضهم مساعدة الفتاة، إلا أن الفارس أخبرهم بالقصة كاملةً، كما سردها على مسامع "ناستادجو" من قبل، فتراجعوا. وشعر الجميع بالذعر والخوف، ولم يقدر أحد على أن ينطق ولو بكلمة واحدة من هول الموقف. قام الفارس بتكرار ما فعله من قبل، من قتل الفتاة، وتمزيق قلبها، وإعطائه كطعام للكلبين؛ فأخذت السيدات في البكاء من قسوة الموقف الذي حدث أمام أعينهن- وكان من بين الضيوف أقارب هذا الفارس وتلك الشابة، فتذكروا قصتهما، وما آلت إليه الأمور. وبعدما انتهى الموقف، تكرر مرات ومرات، ونهضت الفتاة لتجري من جديد والفارس خلفها. وعلق الجميع بتعليقات عديدة. أما الفتاة، فكانت أشد خوفًا ورعبًا من الجميع؛ بعد ما رأت بعينها وسمعت بأذنيها ما حدث، وشعرت أنها هي المقصودة بعينها لتتعظ مما جرى. وتذكرت كيف كانت تعامل "ناستادجو" بتعالٍ وتكبر، وتخيلت نفسها في نفس موقف الفتاة، وهي تجري فزعةً وهو يطاردها، والكلبان يلاحقانها من الخلف. شعرت بالخوف وقسوة ما فعلته به، فحن قلبها- وكأنها كانت اللحظة الحاسمة- ليتحول ما في قلبها من حقد إلى حب؛ فبعثت خادمتها له لتخبره بأنها تريد لقاءه، وأنها ستفعل كل ما يرغب فيه. فأرسل لها الجواب بسعادته برسالتها هذه، وأنه يرغب في صونها وطلبها للزواج. فقبلت الأمر ووافقت على الزواج، وقالت لوالديها إنها تريد الزواج من "ناستادجو". وتم حفل الزفاف بعد يومين، أي يوم الأحد. وهذه القصة المأساوية التي حدثت أمام أعينهم لم تؤثر في تصرفات هذه الفتاة فحسب، بل غيرت سلوك الكثيرات من النساء المتعاليات المغرورات، فأصبحن أكثر طاعةً ولطفًا تجاه محبيهم من الرجال.

القصة التَّاسعة

يقع "فيدريجو ألبيرجي" في الحب، ولا تبادله مَن أحب نفس الشعور. ولشدة إسرافه وبذخه لينال رضاها، يفلس؛ ولا يتبقى له غير صقر يحبه. ولعدم تملكه أي شيء غيره، أعد منه طعامًا للسيدة التي قدمت إلى بيته. ولما علمت السيدة بذلك الأمر، شعرت بنبله وأحبته وتزوجته وأغدقت عليه الأموال.

لما انتهت "فيلومينا" من حكايتها، رأت الملكة أنه لم يتبق من المجموعة سوى "ديونيو"، الذي كانت له حالة مميزة من نوع خاص، فلم يرو حكايته؛ فأشارت الملكة لنفسها مبتسمة، وهي تقول: إذن الآن يأتي دوري في الكلام، سأحكي قصتي بكل سرور، ويمكن من خلالها معرفة كيف يمكن أن تؤثرن في أصحاب القلوب النبيلة، وكيف تبذلن بكرم وجود.

لابد أنكن تعرفن أن "كوبو دي بورجيزي دومينيكي" كان- ولعلَّه حتى الآن- يعيش في مدينتنا. إنه شخص ذو مكانة وموضع تقدير واحترام من الجميع، بفضل صفاته الحميدة وكرم أخلاقه، لا بسبب أصله النبيل فقط. ذات مرة، كان يحكي لجيرانه وأصدقائه عن الأمور التي حدثت في الماضي

ويتذكرها. ومن بين الموضوعات التي اعتاد الحديث عنها قصة شاب في "فلورنسا" اسمه "فيدريجو"، هو ابن "فيليبو ألبيرجي"، المعروف بمهارته في القتال، وتفوقه على كل مَن في مثل عمره من شبان "توسكانا". ومثلما يحدث للشبان من أقرانه عادةً، وقع في غرام فتاة جميلة يقال لها "مادونا جيوفانا"، وكانت جميلة جميلات "فلورنسا". وكي يحاول لفت نظرها إليه، كان يشارك في المبارزات، ويقيم الحفلات، وينفق أمواله ببذخ وإسراف؛ لكنها لم تتأثر بهذه الأمور؛ فقد كانت امرأة مهذبة رفيعة الأخلاق بقدر شدة جمالها، فلم تنجر وراء تصرفاته هذه.

كان "فيدريجو" كثيرًا ما يسرف، ولا يعمل بالقدر الذي يوفر له المال اللازم لتعويض مصروفاته. وبالفعل أنفق ماله إلى أن أفلس، وأصبح لا يملك سوى قطعة أرض هي كل ما تبقى لديه، يتحصل منها على مبلغ قليل للغاية، وبالكاد يستطيع العيش منه. كما كان يمتلك صقرًا فريدًا من نوعه. ولضعفه تجاه حبه، ولعدم قدرته على عيش الحياة التي اعتادها انتقل ليعيش في "كامبي"، حيث توجد مزرعته الصغيرة. كان يذهب للصيد هناك ومعه صقره، ويحاول تدبير معيشته في صبر وهدوء ووحدة.

وذات ليلة، وبعد فترة من بلوغه هذا الدَّرَك، حدث أن مرض زوج السيدة "مادونا جيوفانا" للغاية. ولما اقتربت لحظة موته، أوصى بجميع ما يملك لابنه الوحيد، وكانت زوجته هي الوصية عليه، أي أن الثروة كانت بيد زوجته. وكما جرت العادة، فبعد وفاته ذهبت السيدة "مادونا جيوفانا" ومعها ولدها لقضاء وقت الحداد في الريف. وشاءت إرادة الرب أن يكون المكان الذي ذهبت إليه قريبًا من مزرعة "فيدريجو". ونشأت علاقة صداقة بينه

وبين ابن السيدة؛ فقد كان الغلام يحب الصقور وكلاب الصيد جدًّا. ولما شاهد صقر "فيدريجو" وهو يطير محلقًا بجناحيه، أعجب بمهارته وقوته، وفكر في شرائه؛ لكنه لم يتجرأ على طلبه من صاحبه؛ فقد كان يعلم مدى حبه له.

وبعد وقت قليل، مرض الفتى، وحزنت الأم لمرضه، فقد كان هو كل شيء بالنسبة لها في الحياة. ظلت بجواره طوال الوقت، للعناية والاهتمام به، وكانت تسأله- من وقت لآخر- إن كان يريد شيئًا ما، وتخبره أن عليه أن يثق أنها ستفعل كل شيء من أجله. لما سمع الفتى هذا كثيرًا من أمه، تجرأ، وقال لها ذات مرة:

- أمي، أعتقد أني سأصبح بخير، إذا ما حصلت على صقر "فيدريجو".

بقيت الأم صامتةً لبرهة من الوقت، لما سمعت ما قال، وأخذت تردد صقر "فيدريجو"... صقر "فيدريجو"! حسنًا، اترك لي الأمر لأفكر فيه. كانت الأم على علم بتعلق وحب ابنها للصقر منذ زمن طويل، دون أن يخبرها طفلها بشيء. وأخذ يجول في خاطرها: "كيف أرسل له، أو أذهب أنا لطلب ذلك الصقر منه، والذي يُقال عنه إنه أفضل الصقور، إضافةً إلى أنه كل ما تبقى له في هذه الحياة؟ كيف يمكنني أن أكون قاسية القلب حتى أسلبه إياه، وآخذ منه الشيء الوحيد المتبقي لديه ليسعده؟" ظلت الأم تفكر مليًّا مع علمها أنها لو طلبته منه، فسيعطيه لها بلا جدال. لكنها لم تعرف بماذا تجيب ولدها، وظلت صامتة. إلا أن حبها لولدها تغلب عليها في النهاية، وقررت إرضاءه. ولم ترسل أحدًا لطلب الصقر، وإنما ذهبت بنفسها إليه، وليحدث ما يحدث. ثم بعد تفكير طويل قالت لابنها:

- اطمئن يا ولدي، فستصبح بخير عما قريب، وتُشفي من مرضك. أعدك أنني سأذهب في الصباح لطلب الصقر، وسأحضره لك.

فرح الفتى، وظهرت عليه بشائر السعادة والتحسن. وفي الصباح، تظاهرت السيدة بأنها تتجول، واقتربت من بيت "فيدريجو" المتواضع، وسألت عنه. فلما علم بقدومها لم يصدق هذا الخبر السار، وأسرع إليها في الحال، وهو سعيد باستقبالها. عندما اقترب منها، قامت لتحيته بأدب جم. وقام هو بالترحيب بها بلطف، وقالت:

- أتمنى أن تكون بخير، يا"فيدريجو". أتيت إليك لإصلاح الضرر الذي سببته لك منذ أن أحببتني، وذلك بتناول الغداء معك اليوم.

فأجاب عليها "فيدريجو" بأدب وتواضع شديدين:

- لم أشعر أنك آذيتِني أبدًا. إذا كانت لي- يومًا ما- أهمية في الحياة فهذا بسبب حبي لك. في الواقع، لقد أسعدتِني اليوم بزيارتك، لدرجة أنني لو أنفقت كل ما أنفقته في حياتي من قبل، لكان قليلًا في مقابلها. لكنني للأسف أصبحت فقيرًا، ولا أقدر على هذا.

وبعد ذلك، دعاها لدخول منزله، ورافقها إلى حديقة البيت. ولم يجد من يهتم بضيافتها، فقال لها:

- سيدتي، لا يوجد مَن يؤانسك لحين تجهيز الغداء غير هذه المرأة، وهي زوجة أحد المزارعين.

لم يكن لدى "فيدريجو" ما يقدمه لضيفته الغالية بسبب فقره وعوزه، وشعر وقتها فقط بمدى حاجته للأموال التي صرفها بدون تعقل. لم يتيقن من هذا سوى في تلك اللحظة تحديدًا، حيث لم يجد ما يمكن أن يقدمه

لها. أحس بضيق شديد، وندب حظه التعيس، وظل يبحث في أرجاء المكان عن نقود أو عن ما يستطيع أن يرهنه؛ لكنه لم يجد شيئا. مضى الوقت سريعًا، ولشدة رغبته في حسن ضيافتها، ولأنه لم يشأ أن يطلب ما يقدمه من أي شخص، ولا حتى من مزارعيه، وجد أمامه صقره الغالي يقف في المكان المخصص له. لا حل آخر سوى الصقر. فقد فكر أنه مناسب ليقدمه للسيدة. فقام بذبحه على الفور، حتي لا يهدر مزيدًا من الوقت، وجعل الخادمة تنزع ريشه وتجهزه بسرعة؛ ثم تشويه باهتمام وحرص، وقدمه على المائدة مغطى بمفرش أبيض كان لا يزال لديه. ثم ذهب إلى السيده في الحديقة، وأخبرها أن الغداء جاهز. بعدما تناولت السيدة الصقر، بدون أن تعرف أنها تأكله، قامت من على المائدة، وبدءا في التحدث سويًا، لتمهد لإخباره بما تريد، ولماذا أتت إليه أساسًا. فقالت له:

– إذا كنت تذكر ما حدث في الماضي، يا"فيديكو"، وتذكر وقتها تأدبي، فربما تظن أنني قاسية القلب ومعاندة. وأعتقد أنك ستستغرب لجرأتي عندما تعلم سبب قدومي إلى هنا. غير أنك، لو كان عندك أبناء، وشعرت بمدى حب الآباء لهم، لتفهمت ما الذي أعانيه بسهوله؛ ولكن ليس لديك أولاد. أنا لديَّ ولد، ولا أستطيع أن أفعل إلا ما تفعله الأمهات عادةً. ولحبي الشديد لولدي سأفعل هذا العمل رغمًا عني، بصرف النظر عن قناعتي به، ولذلك أتيت أطلب منك شيئًا أعلم أنه عزيز وغال عليك؛ وهذا حقك، لأنه للأسف هو ما يسليك، أو كل ما تبقي ليؤنسك. هذا الشيء هو الصقر، إنك ستمنحه الحياة بإعطائه لي ، وسأكون بهذا مدينة لك إلى آخر العمر.

وبمجرد سماع "فيدريجو" ما تطلبه المرأة، علم أنه لا يمكنه تنفيذ

مرادها، لأنه قدمهِ كطعام لها. انهالت الدموع من عينيه تترقرق قبل أن ينطق بكلمه واحدة. اعتقدت السيدة أنه حزين بسبب اضطراره لتخليه عن الصقر، وأرادت أن تخبره أنها لم تعد ترغب فيه، لكنها تريثت، وانتظرت الرد منه، فقال:

- سيدتي، منذ اليوم الذي قررت أن أبقي فيه على حبك في أحشائي، لم يضعني سوء الحظ في موقف أكثر حرجًا وخجلًا وحزنًا من هذه اللحظة. فكل ما عانيته من قبل لا يُعد شيئًا بالمقارنة مع ما أنا فيه الآن. فلم يعد بمقدوري عمل أي شي حيال هذا الحظ السيء لتغييره، بعدما أتيتي لهذا المنزل المتواضع، ولم أنل هذا الشرف وقت ما كان معي المال، لتطلبي مني هذه الهدية البسيطة؛ لكنها للأسف لم تعد موجودة هنا الآن، مما يجعلني غير قادر على تنفيذ طلبك. فما حدث هو أنني لما علمت برغبتك في تناول الطعام معي، وحتى أستطيع أن أكرم ضيافتك، تقديرًا مني لمقامك العالي ومكانتك الغالية، بالقدر الذي يليق بكِ وبقدومك إلى هنا، وهذا في حدود ما أستطيع، فكرت في أن الصقر الذي تطلبينه الآن سيكون طعام غدائك. فهذا ما قدمته لك مشويًا على الغداء. كم أشعر بالألم والضيق لعدم قدرتي على تلبية رغبتك، ولا أشعر أنه يمكنني الراحة ولا الهناء مطلقًا.

قال هذا الكلام، ثم أتى بريش الصقر ورجليه ومنقاره ووضعها أمام عينها ليكون دليلًا على صدقه. ولما سمعت ما قال وشاهدت بعينها، شعرت بالضيق في بادئ الأمر لذبحه الصقر حتى يقدمه لها. لكنها- في الوقت نفسه- شعرت كم هو كريم الأخلاق رغم فقره. وأثنت عليه في أعماقها. وبعدما علمت أنه لا أمل في الحصول على الصقر، وفي إسعاد ابنها، شكرت "فيدريجو" على

كرم ضيافته لها، وعلى نبل شعوره، ثم رجعت وهي حزينة إلى ابنها. حزن الفتى لعدم تمكنه من الحصول على الصقر، وازداد مرضه، وبعد أيام قليلة، توفي الفتى. وظلت الأم في حزن وألم شديد لفقدانه. وبقيت في وحدة مع دموعها ويأسها؛ غير أنها أصبحت غنية للغاية، كما أنها كانت لا تزال شابة في ريعان شبابها، الأمر الذي جعل الكثيرين يحاولون التقرب منها للزواج بها، وحاول أخوتها إقناعها بأن تبدأ حياتها من جديد وتتزوج؛ غير أنها لم توافق على الفكرة. وبعد إلحاح شديد، تذكرت كيف قام "فيدريجو" بذبح صقره المفضل ليقدمه لها، فردت على أخوتها قائلة:

- إنني أفضل البقاء من غير زواج. غير أنكم- إن كنتم مصممين على زواجي- فلن أتزوج سوى رجل واحد فقط، هو"فيدريجو ألبيرجي".

تعجب أخواتها كثيرًا، وقالوا:

- ماذا تقولين؟ هل فقدت صوابك؟ لماذا تودين الزواج منه بعد أن أصبح فقيرًا معدمًا؟

فأجابتهم:

- يا إخوتي الأعزاء، إنني بالتأكيد أعلم حاله جيدًا. ولكن اعلموا أن رجلًا بحاجة إلى المال، أفضل بكثير من مال يحتاج إلى رجل.

لما سمعها أخوتها تفهموا وجهة نظرها. فقد كانوا يعرفون أن "فيدريجو" يتمتع بالشهامة والنبل على الرغم من فقره. وبالفعل تزوجت السيدة منه وسط أهلها، وأصبح غنيًّا من جديد. وقضيا معا سنوات جميلة عاشاها في سعادة، بعد أن ظل أعوامًا كثيرة يحبها عن بُعد دون أن يبوح لها بهذا الحب الكبير الذي كان يكنه لها.

القصــة العاشــرة

يخرج "بيترو دي فينشيولو" لتناول العشاء خارج المنزل؛ فتبعث امرأته لتأتي لها بفتى. ولما عاد الزوج، أخفت الفتى تحت قفص الدجاج. يقول "بيترو" إنه ذهب مع "هيركولانو" للعشاء عنده؛ فوجدا شابًّا أدخلته زوجة هذا الرجل وأخفته؛ فتنتقد زوجته هذا السلوك. وفى هذا الوقت، يدوس حمار على أصابع الفتى المختبئ في قفص الدجاج عندما أخرج يده منه، فيصرخ. ويراه "بيترو"، ويكتشف خدعة زوجته، ويتصالح معها، في نهاية المطاف.

أنهت الملكة قصتها، وفرح الجميع بما انتهت إليه قصة "فيدريجو"، وأن الرب أنعم عليه وجزاه خيرًا. بعدها قال "ديونيو" بدون إذن: لا أعلم إذا كان هذا ما يحدث بسبب عيب في سلوكيات البشر وفساد أخلاقهم؛ أم أنه في الاتجاه المعاكس تمامًا؛ أقصد عيبًا في الطبيعة المحيطة بنا. والعجيب أننا نضحك من الأشياء السيئة بأكثر من ضحكنا من الأمور الحسنة، وتحديدًا إذا كانت أشياء لا تمسنا ولا تؤثر فينا. ولأن ما تم تناوله من قبل، وما سأرويه لكم الآن، ليس الهدف منه سوى الضحك والترويح عنكن، ومع أن القصة التالية- أيتها العزيزات الفضليات- أقل عفة في بعض أحداثها،

لكني سأرويها لكم بهدف الترفيه والتسلية! وكل ما عليكن أن تفعلن هو ما اعتدتم عليه عند دخول الحدائق، بمد أيديكن الرقيقة لقطف الزهور والابتعاد عن الأشواك. فلنر هذه الرواية:

كان يعيش في قديم الزمان في "بيرودجا" رجل ثري اسمه "بيترو دي فينشولو". لم يتزوج هذا الرجل حبًّا في النساء، وإنما تزوج ليخفي فحشه وفجوره، حتى لا يفتضح أمره لسكان "بيرودجا". وفي الواقع، فلم يكن يرغب بحق في الزواج. غير أن الحظ ساعده، ورُزق بزوجة كانت شابة قوية، ذات شعر أحمر، ومتأججة الأنوثة، تريد الاستمتاع بالدنيا وملذاتها؛ ولديها رغبات جامحة. وحين اكتشفت أمره، وأن ميوله تسير في اتجاه آخر، بدأت تغضب كثيرًا، وتتشاجر معه، وتوجه له بعض الكلمات المهينة. وكانا في حالة شجار دائم. شعرت الزوجة أن ما يحدث يؤذيها، وأن سوء خلق زوجها لا يصلح ولا يصح، ثم فكرت في نفسها، وقالت: "هذا البغيض يهجرني لأنه يحب الفحش، ويميل لما هو مجافٍ ومناقض للطبيعة البشرية، ويؤثر البعد عني. سوف أفعل ما أشتهي وآتي برجل آخر غيره. لقد رضيت بالزواج منه ظنا مني أنه رجل مثل كل الرجال يشتهي النساء. ولو كنت أعلم أنه ليس رجلًا لما تزوجته. ألم يعلم أني امرأة لها رغبات؟ لماذا تزوجني؟ هذا شيء لا يطاق. ولو كنت لا أريد الزواج لتحولت إلى راهبة؛ ولكني أحب الحياة وأريد الاستمتاع بها. وإذا استمر الأمر هكذا، فإنني سأهرم وأفقد شبابي، وأنا أنتظر دون جدوى مع هذا البغيض. ولن ينفعني أحد حين أفقد شبابي. فيجب عليَّ البحث عن متعتي، مثلما يفعل هو في بحثه عن ملذاته. فأنا متعتي شريفة بالمقارنة به، بينما رغباته منحطة وبذيئة. وإذا ما فعلت ما

يخالف قوانين البشر، فإن رغباته مخالفة لقوانين البشر والطبيعة ذاتها". وهكذا توصلت لتلك القرارات بعد تفكير مطول، وقررت عمل هذا سرًّا.

تعرفت على سيدة عجوز تشبه القديسة "فيريديانا" التي تطعم الثعابين، وتمشي تحمل المسبحة دومًا داعية بالغفران، وتتحدث دومًا عن القديسين وحياتهم، وينظر لها الجميع على أنها تقية وطيبة القلب. ولما سنحت الفرصة للزوجة الشابة، أخبرتها بكل شيء تفكر فيه. فقالت لها العجوز:

- يا بنيتي، الرب وحده هو العليم بكل شيء، ويعلم أنكِ سوف تحسنين التصرف. وأن عليكِ عمل ذلك لأن لديك سببًا، أنت وكل النساء الأخريات، حتى لا يضيع شبابكن بلا جدوى. إن أكثر ما ستحزنين عليه في المستقبل هو ضياع الوقت؛ فالنساء في شيخوختهن كرماد النار، لا يريده أحد. وأنا أكثر من يفيدك في هذا الأمر؛ فلقد مضى عمري وهرمت، وها أنا نادمة على الوقت الذي فاتني، رغم إني لم أضيع وقتي كله؛ فلا تظني أنني كنت مغفلة وساذجة، غير أني لم أقم بكل ما يمكنني عمله. فقد كنت أستطيع عمل أمور أكثر، ولم أتذكر هذا، وأرى ما أنا عليه الآن، حيث أنني لا أجد من يمنحني بعض الدفء. ولا يعلم أحد بما أشعر به. فالرجال لا يعانون مثلنا نحن معشر النساء عندما نشيخ، فهم يعيشون مُكرمين في كبرهم أكثر من شبابهم. أما النساء فلا يصلحن إلا في هذا الأمر، وأيضًا في منح الرجال أبناء، ولا نحظى نحن النساء بالاهتمام والتقدير على غير هذا. في الحقيقة نحن النساء لدينا استعداد دائم لعمل هذا الشيء، على العكس من الرجال؛ فامرأة واحدة يمكنها أن تُتعب عدة رجال، ولكن لا يوجد رجال كثيرون لديهم المقدرة على أن يتعبوا امرأة واحدة. وهذا ما يدل على أننا

خلقنا من أجل ذلك. فلكل حاجاته ورغباته التي تحتاج إلى الإشباع. ولكل فرد ما يحظي به في هذه الدنيا، ويتوجب علينا- نحن خاصةً- أن نستفيد من مرحلة الشباب أكثر من الرجال، لأننا حينما نتقدم في العمر، كما هو حالي، لا يرغب أي رجل فيَّ، ولا حتى أزواجنا، يرغبون في النظر إلينا، وإنما يتركوننا في المطبخ لنتحدث مع القطط، أو مع أواني الطهي وإعداد الطعام. والأسوأ من هذا كله أنهم يؤلفون لنا بعض الأمثال ليسخروا منا، كالتي تقول: "اللقمة الطيبة للشابة، وللعجوز الفتات"، وأمثال أخرى على هذا النحو. وحتى لا أضيع وقتك أكثر من ذلك، فلقد أصبتِ لما أخبرتِني بما ترغبين. فأنا أستطيع تليين أي رجل قاس أو جاف. ليس مطلوبًا منكِ غير أن تختاري مَن يعجبك، واتركي الباقي لي أنا فسأتولاه. وبما أنني امرأة فقيرة، فاعطيني أجرًا نظير خدماتي هذه، وسوف أدعو لك بالغفران من اليوم، وكذلك في كل ما أتلوه من صلوات على المسبحة، حتى يعطي الرب النور لموتاكِ.

اتفقت الزوجة الشابة مع السيدة العجوز على أن تأتي لها بشاب يعجبها، تراه يمر في الجوار، وتتوصل لاتفاق معه؛ وأعطتها مواصفاته وشكله، وأعطتها قطعة لحم مملح وتركتها وذهبت. ولم تمر عدة أيام حتى قامت العجوز، في الخفاء، بإدخال الشخص المطلوب إلى غرفتها. وبعد بضعة أيام أخرى، أتت لها بشخص آخر، وهكذا، على حسب مزاج السيدة الشابة، وتنوع رغباتها.

وفي أحد الأيام، ذهب الزوج لتناول العشاء في بيت صديق له اسمه "هيركولانو"، فطلبت الشابة منها أن تأتيها بأجمل فتى في البلدة؛ وبالفعل، أتت لها العجوز بالشخص المطلوب بسرعة. وأثناء تناولهما الطعام، دق

زوجها الباب، فتملكها الخوف الشديد، ولم تعرف ماذا تفعل. وكان هناك بجانب الحجرة غرفة مؤونة، فأدخلته إلى هناك وخبأته تحت قفص الدجاج، ووضعت فوق القفص كيسًا أفرغت ما فيه في هذا اليوم. ثم ذهبت لتفتح الباب لزوجها، وقالت له على الفور:

– لقد أنهيت عشاءك بسرعة، اليوم، يا"بيترو".

فرد عليها قائلًا:

– لم أتناول الطعام بعد.

فقالت زوجته:

– وكيف هذا؟

فأجاب "بيترو" حينها بقوله:

– سأحكي لك ما حدث. لما جلسنا على المائدة عند "هيركولانو" وزوجته، سمعنا شخصًا يعطس بالقرب منا. لم نعر الأمر اهتمامًا في البداية، لكنه تكرر كثيرًا، لدرجة تلفت الانتباه، أكثر من ست أو سبع مرات؛ فأثار هذا قلقنا. كان "هيركولانو" مستاءً من زوجته، لأنها تركتنا ننتظر عند الباب قليلًا قبل أن تفتح لنا، فقال مغتاظًا: "ما الذي يحدث هنا؟ ومَن الشخص الذي يعطس؟" وقام من على المائدة، واتجه نحو السلم القريب، حيث توجد غرفة المؤونة تحت السلم، ولها باب صغير. أحس أن الصوت يأتي منها ففتح ذلك الباب، حتى ظهرت رائحة كبريت نفاذة وقوية جدًّا لدرجة لا يمكن تخيلها. قالت الزوجة حينها: "لقد قمت بتبييض وتلميع أوشحتي منذ قليل، ووضعت الوعاء الذي كانت فيه لتتبخر تحت هذا السلم". ولما فتح "هيركولانو" الباب، انخفضت الرائحة رويدًا رويدًا. نظر بداخل الخزانة،

ووجد أن مَن كان يعطس ما يزال مستمرًّا في العطس، لشدة رائحة الكبريت التي لم يستطع تحملها ومقاومة العطس، وكاد أن يختنق ويموت. وبمجرد أن لمح شخصًا بالداخل قال بصوت مرتفع:

- الآن، فهمت- أيتها المرأة الخائنة- السبب الذي جعلك تتلكئين في فتح الباب عندما أتينا. ولكني لن أرتاح حتى أجعلك تدفعين الثمن غاليًا جزاء فعلتك تلك.

هربت الزوجة بسرعة بالغة، فور أن عرفت أن أمرها افتُضح وكُشفت خيانتها، بدون أن يعلم إلى أين هربت، ودون أن يراها، لانشغاله بإمساك الشخص الذي كان بالداخل. أمره بالخروج من هناك، غير أنه لم يكن قادرًا على التحرك من مكانه، فأمسكه "هيركولانو" من ساقه وقام بسحبه إلى الخارج، وانطلق ليأتي بسكين لقتله. غير أني حاولت إنقاذ الأمر حتى لا تحدث مصيبة، فقمت إليه ومنعته من إيذائه، وقمت بالصياح وطلب النجدة، حتى أتي الجيران، وحملوا هذا الشخص إلى الخارج كي لا يقتله. وهكذا لم نأكل شيئًا.

لما سمعت الزوجة هذا الكلام، عرفت أن هناك نساء غيرها يمكرن كما تفعل هي، وأن هذه المواقف تحدث لهن، ودائمًا ما يجدن أنفسهن في مأزق. فكرت في الدفاع عن تلك المرأة؛ لكنها تراجعت، واعتقدت أن انتقادها لما فعلت تلك المرأة سيجعل زوجها يطمئن تجاهها، وتبعد الأنظار عن أفعالها هي، فقالت:

- عجيبٌ هذا الأمر حقًّا! كنت أظن هذه المرأة سيدة تقية ومهذبة، لدرجة أنني كنت لا أستنكف من الاعتراف أمامها لظني بتقواها! والأدهى

أنها أصبحت عجوزًا. إنها لمثال سيء للنساء، فماذا تركت إذن للفتيات الشابات! عليها اللعنة، وعلى اليوم الذي أتت فيه إلى الحياة! إنها في غاية الخبث والسوء، إنها عار على النساء أجمعين! فكيف تفرط في طهارتها وحفظها لزوجها، وتسيء لشرفها وشرف زوجها، الذي هو رجل بمعنى الكلمة؛ فهو يتمتع بالشرف، ويعاملها بشكل طيب. ألا تشعر بالخجل من نفسها لما تفعله مع شخص غير زوجها! فليعاقبهن الرب على تلك الأفعال القبيحة، فهن يستحققن الموت.

ثم تذكرت عشيقها، الذي تركته تحت قفص الدجاج في الغرفة المجاورة، فحاولت إقناع زوجها بالذهاب إلى النوم، لأن الوقت قد تأخر، غير أن "بيترو" أراد أن يأكل قبل النوم؛ فسألها ماذا يوجد علي وجبة العشاء اليوم؟ فردت عليه قائلة:

– عشاء؟! ولماذا أجهز عشاءً ما دُمت خارج المنزل؟ هل تعتقدني مثل امرأة "هيركولانو"؟ ياه! لمَ لا تذهب للنوم الآن؟ هذا أفضل شيء تفعله!

وفي هذا اليوم، أتى بعض الفلاحين ليعملوا في أراضي "بيترو"، ومعهم بعض الحمير التي كانوا يركبونها، فتركوها في الحظيرة المجاورة لغرفة المؤونة، بدون أن يقدموا لها الماء. أفلت أحد الحمير رأسه مما كان مربوطًا فيه، وكان عطشانًا جدًّا فخرج ليبحث عن ماء. ومضي هكذا، حتى مر أمام القفص الذي كان يوجد الفتى تحته. كان المكان الذي اختبأ فيه ضيقًا فأخرج أصابع يده، وكان من سوء حظه، أو ربما لحسنه، أن الحمار داس برجله على أصابعه؛ فتألم بشدة، وأصدر صرخة من شدة الوجع. لفتت تلك الصرخة المدوية انتباه "بيترو". وشعر أنها أتت من قريب. فخرج من الغرفة، وظل الفتى يتألم لأن

الحمار ظل واضعًا قدمه على يده ، فقال "بيترو":

– مَن هناك؟

توجه ناحية مصدر الصوت ورفع القفص، ورأى الفتى الذي كان في قمة الخوف والألم من تحطيم الحمار لأصابع يده، وكذلك لرعبه من "بيترو". أما "بيترو"، فقد عرفه في الحال، لأنه كان يتتبعه من قبل لينال رغباته الشاذة منه. فسأله:

– ماذا تفعل هنا؟

لم يستطع الفتى الإجابة عليه، ولكنه ظل يرجوه ويتوسل إليه أن يتركه. فقال له "بيترو" بعد أن عرفه:

– قم ولا تخف، لن أؤذيك، ولكن أخبرني ما الذي أتى بك إلى هنا.

فحكي له الفتى كل شي؛ وكان الرجل سعيدًا لعثوره على هذا الفتى الذي تتبعه لفترة طويلة. أما زوجته، فكانت في غاية التعاسة. وأخذ الرجل الفتى في يده ودخل إلى الغرفة. وكانت المرأة تترقب في خوف شديد. فجلس زوجها أمامها، وقال:

– لقد كنت تلعنين زوجة "هيركولانو" منذ قليل، وتقولين إنها تستحق الحرق، وإنها عار على النساء، فماذا تقولين عن نفسك الآن؟ كيف تجرئين على قول هذا الكلام، وأنتِ ترتكبين نفس الفعل؟ أعتقد أن الشيء الوحيد الذي دفعك لقول ما قلتِ هو أنكن معشر النساء تشبهن بعضكن البعض. ولكن عندما يفتضح أمر واحدة منكن، تنتقمن منها لإخفاء حقيقتكن، لأنكن كلكن صنف خبيث وتعشقن الفُحش!

لما رأت تلك المرأة زوجها ممسكًا بيد الفتى، ويتحدث معه فحسب، ولم

يقدم على فعل أي شيء آخر، عرفت أنه يرغب في للفتى الذي كان في غاية الجمال، فاستجمعت جرأتها، وقالت له:

- أنا واثقة من رغبتك في أن تنزل نار من السماء لتحرقنا، لكراهيتك للنساء، تمامًا ككراهية الكلب للعصا. وهذا- بحق الصليب- لن يحدث. يمكنني مناقشتك في الأمر، لمعرفة سبب ضيقك وشكواك. وسأخرج من هذا الحديث رابحةً بلا شك. فإذا ما حاولت مقارنتي بزوجة "هيركولانو"، فهي سيدة عجوز تظهر للناس ما ليس فيها من الصفات، وزوجها لا يمنع عنها شيئًا، ويحبها ويشبع رغباتها، على العكس منك تماما؛ فأنت لا تحبني، ولا تعطيني حقوقي الزوجية. مع أنك تشتري لي الثياب والأحذية الجميلة، ولكن في ماعدا ذلك فلا أحصل منك على ما أريد. ولعلك تعلم جيدًا متى كانت آخر مرة أقمت فيها معي علاقة حميمية. إنني أرتضي أن ألبس الثياب القديمة، وأمشي حافية القدمين، في مقابل أن تعطيني حقوقي الزوجية، بدلًا من توفير الأشياء الفخمة، مع معاملتي بهذه الطريقة. إنني امرأة، ولي حقوق عليك غير الملبس والمأكل، أحب ما تحبه كل النساء، وإذا كنت قد بحثت بنفسي عن الشيء الذي لا تعطيني إياه وتحرمني منه، فلديَّ أسبابي المقنعة التي دفعتني لذلك، ولا أستحق الإهانة والسب. ومع هذا، فإني أحترمك كل الإحترام، وأكن لك كل التقدير، فلا أعاشر العمال والخدم.

شعر "بيترو" أن الجدال لن ينتهي بهذا الشكل، فأبدى عدم اهتمامه بالأمر، لتتوقف زوجته عن الكلام، وقال لها:

- اسكتي، يا امرأة؛ سأتركه يمكث الليلة. ومن الواضح أن هذا الفتى لم يتناول العشاء تمامًا مثلي.

فأجابته قائلة:

- لم يأكل شيئًا بالتأكيد. ففي الوقت الذي هممتُ بتجهيز الطعام له، أتيت أنت. بالكاد كنا نبدأ في الجلوس لتناول العشاء.

فقال لها "بيترو":

- هيا أحضري لنا الطعام، سأقوم بتسوية هذا الأمر، حتى لا تتذمرين.

فقامت المرأة بسرعة، بعدما علمت أنها ستحصل على ما تريد. وأعدت المائدة، ووضعت العشاء الذي كانت قد أعدته من قبل، وأكلت هي وزوجها الفاسد والفتى. وبعد العشاء، اقترح زوجها عليهما ما يرضيهم جميعًا، إلا أنني لا أذكر تحديدًا ما اقترحه. ولكني متأكد أن الفتى قد رآه الناس في اليوم التالي في الساحة. ولست متأكدًا مما إن كان قد ظل وقتًا أطول مع المرأة أم مع زوجها. وبهذا أقول لكم، يا سيداتي، إنكن أحيانًا يمكنكن خداع من يقوم بخداعكن؛ وإن لم تفعلن، فلا تتركوهم ينجون بفعلتهم حتى تأخذن بحقكن.

هكذا أنهي "ديونيو" حكايته. ومع أن القصة كانت ممتعة، إلا أن السيدات كن يضحكن على استحياء من الخجل، وليس لأن القصة غير ممتعة. وهنا انتهت فترة حكم الملكة، فقامت وخلعت التاج من فوق رأسها، ثم كللت به رأس "إليزا" وقالت:

- ستكونين أنت الملكة الآن.

عندما تولت "إليزا" المسؤولية، قامت بترتيب كل شيء كما هو متبع. ونظمت أولًا الأمور التي سيتم فعلها أثناء ولايتها، وبدأت بالحديث مع أصدقائها بابتسامة، وقالت:

– كثيرًا ما نسمع أن الردود الذكية، واختيار الكلمات السريعة والمناسبة، تنقذ صاحبها من مشكلات كبيرة. ولهذا سيكون هذا هو الموضوع، وهو موضوع يمكن أن نستفيد منه جميعا؛ سنبدأ في الغد بمشيئة الرب، في هذا الموضوع؛ وهو كيف تساعدنا بعض الكلمات الذكية في أخذ حقنا ممن يؤذوننا؛ وكم تعيننا الإجابات السريعة، أو بعض الحيل، للنجاة من المواقف الصعبة والحرجة.

أعجب الموضوع الجميع، واتفقوا عليه. ونهضت الملكة الجديدة بعد أن سمحت لهم بفعل ما يريدون، إلى أن يحين موعد العشاء. وبمجرد أن نهضت الملكة، تفرقوا كما يحدث دائمًا. وبعد أن كفّت الصراصير عن صريرها بدأ موعد العشاء، ودُعي جميع الأشخاص. وبعد العشاء، بدأت حفلة غنائية مبهجة. وبعد موافقة الملكة، قامت "إيميليا" بالرقص، وأخبروا "دينونيو" أن يشرع في الغناء، فأنشد: "مادونا ألدرودا"، ارفعي طرف ثوبك، فقد أتيتكِ بأخبار جيدة". وهنا قهقهت السيدات جميعًا، وخاصةً الملكة التي سرعان ما تمالكت نفسها، وأصدرت أوامرها له بالتوقف عن هذه الأغنية، وغناء واحدة أخرى، فقال:

– سيدتي، لو كان لديّ رِق الآن لغنيت لكم أغنية "ارفعي ثيابك "مادونا لابا"، أو أغنية "تحت شجرة الزيتون على العشب"؛ أم تريدون مني أن أغني لكم: "أمواج البحر تؤلمني". ولكن ليس لديَّ الرِّق الآن، فأخبروني أنتم أية أغنية تريدون. هل تعجبكم أغنية "اخرج من هنا حتى لا تُقطع رأسك مثلما تقلم الاشجار في شهر مايو"؛ فقالت الملكة: لا، غن واحدةً أخرى!

– إذن سأطربكم بأغنية "مادونا سيمونا" وتشرب الكثير من الماء، ولم يحل أكتوبر بعد".

لم تتمالك الملكة نفسها من الضحك، وعلقت بقولها:

– لا نريد هذه الأغنية يا"ديونيو". غنِّ واحدةً أخرى!

– لا تغضبي أيتها الملكة! أية أغنية تردن، أيتها السيدات الفضليات؟ أنا أحفظ قرابة ألف أغنية كاملة. أتردن أن أغني لكن: "هذه صدفتي وأنا لا أنقرها جيدًا"، أم "آه ببطءٍ أكثر، يا زوجي"، أم أنكن تفضلن: "ابتعتُ ديكًا بمائة ليرة". أية أغنية تخترن، أيتها السيدات؟

قالت الملكة، وقد علا وجهها بعض الغضب، على نقيض ضحك وقهقهات الأخريات:

– لا تمزح، وغنِّ أغنية لطيفة، وإلا فستثير غضبي، وأنت تعرف غضبي جيدًا.

وبالفعل، ابتعد "ديونيو" عن مزاحه المتواصل، وسرعان ما دخل في وصلة غنائية جادة، قائلًا:

أيها الحب: ضياء عينيها الجميلتين جرحني
وصرت عبدًا لك ولهما بملك إرادتي
بريق عينيها أشعل بلهيبه النار في فؤادي
واخترق مقلة عيني
سطوتك عظيمةٌ أيها الحب الأبدي
فلما أريتني وجهها المتلألئ
وقعت في أسره القسري

وصرت خاضعًا لها بكل قواي وسلطاني
وكانت سبب كل شهقاتي وأشجاني.

أيها الحب: أتوسل إليك كي تجعلها ترحمني،
وتُشعرها ولو بالقليل من لهيبك القاسي،
أذوب وأكاد أنتهي وأتلاشى في عشقها المرهف،
وأغرق في العذاب والمآسي
أصبها بلهيبك أيها الحب المستحكم الضاري،
وأخبر حبيبتي عني،
وعندئذٍ سأكون قد بلغت منتهى رضاي وسعادتي.

وبانتهاء الأغنية، صمت "ديونيو"؛ فقد أعجبتهن الأغنية بشدة، فطلبت منه الملكة أن يغني الكثير والكثير من الأغنيات الأُخرى، وقد نال قسطًا كبيرًا من إطرائها. ولما أن خلت ساعات الليل الأولى، وازدادت برودة الليل القارسة، أصدرت الملكة أوامرها بذهاب الجميع للنوم والاستراحة، استعدادًا لليوم التالي.

وهنا أُسدل الستار على اليوم الخامس.

المحتويَات

يخرج "بيترو دي فينشيولو" لتناول العشاء خارج المنزل؛ فتبعث امرأته لتأتي لها بفتى. ولما عاد الزوج، أخفت الفتى تحت قفص الدجاج. يقول "بيترو" إنه ذهب مع "هيركولانو" للعشاء عنده؛ فوجدا شابًّا أدخلته زوجة هذا الرجل وأخفته؛ فتنتقد زوجته هذا السلوك. وفى هذا الوقت، يدوس حمار على أصابع الفتى المختبئ في قفص الدجاج عندما أخرج يده منه، فيصرخ. ويراه "بيترو"، ويكتشف خدعة زوجته، ويتصالح معها، في نهاية المطاف.

سلسلة
آفاق
عالمية

«الديكاميرون» هي تحفة بوكاتشُو النادرة؛ بل إحدى روائع الإبداع العالمي، على مَر العصور. حالةٌ فريدةٌ من الحَكي المتواصل، بلا انتهاء؛ وعالمٌ ساحر يتولّد من مزيج الواقع والخيال معًا، بلا خطوط حمراء، ولا تخوم.

مائة قصة أو حكاية، تتوزع في الجغرافيات والتواريخ والأساطير، تكشف- في عمقها- الجوهر الإنساني والحضور الدامغ لجدلية الروح والجسد.

وهي الترجمة العربية الأولى الكاملة عن الأصل الإيطالي؛ فيما تجمع بين الدقة- المحافِظة على السمات الأسلوبية لبوكاتشو- وسلاسة الأداء اللغوي والأسلوبي، في آن.

اللوحة للفنان الإيطالي: ساندرو بوتيتشيلي - رسم جوفاني بوكاتشو في الخلفية حفر على المعدن للإيطالي: رافايلو مورجين - تصميم الغلاف: احمد اللباد



www.gocp.gov.eg